إيزابيل الليندي

سفينة نيرودا

(بتلة بحر طويلة)

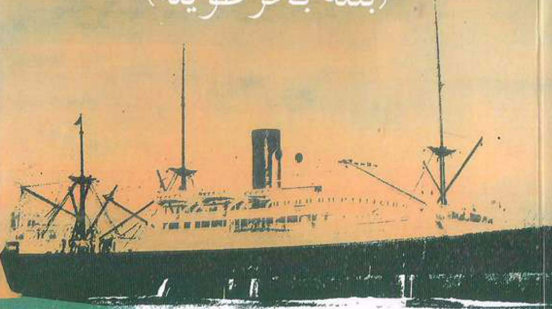

ترجمة: صَالِح علمَاني

رواية

دار الآداب

t.me/qurssan

t.me/qurssan

إيزابيل ألليندي

سفينة نيرودا
(بتلة بحر طويلة)

رواية

ترجمة: صالح علماني

دار الآداب. بيروت

t.me/qurssan

سفينة نيرودا (بتلة بحر طويلة)

إيزابيل أللِيندي/كاتبة من التشيلي

رقم الإيداع : 10576/ 2020

ISBN 978-977-6633-29-2

LARGO PÉTALO DE MAR

@ ISABEL ALLENDE, 2019

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or trasmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير - بناية بيهم

بيروت - لبنان

هاتف : 861633 (01) - 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com

Daraladab @Daraladab daraladab.com

t.me/qurssan

إلى أخي خوان أللينـدي،

إلى فيكتور بيي كاسادو،
وبحَّارة أمل آخرين..

t.me/qurssan

t.me/qurssan

... أجانب، هذا هو،

هذا هو موطني،

هنا ولدت وهنا تعيش أحلامي.

بابلو نيرودا

«عودة»،

إبحارات وعودات

t.me/qurssan

t.me/qurssan

القسم الأول

حرب ونزوح

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الأوّل
1938

استعدّوا أيّها الشباب،
من أجل القتل مرّة أخرى، والموت من جديد
وتغطية الدم بأزهار.

پابلو نيرودا
«دامية كانت أرض الإنسان كلّها»،
البحر والأجراس

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الجنديّ الصّغير كان من دفعة قنّينة الرّضاعة[1]، دفعة الأطفال المجنَّدين عندما لم يبقَ هناك رجال شُبّان ومتقدّمون في السنّ من أجل الحرب. تلقّاه فيكتور دالماو مع جرحى آخرين سحبوهم من عربة قطار شحن بلا كثير من التوقير، لأنّ الأمر مستعجل، ومدّدوهم متلاصقين كقِطع حَطب على أرضيّة الإسمنت والحجارة في محطّة الشمال، بانتظار مجيء سيّارات أخرى لنقلهم إلى مراكز استشفاء جيش الشرق. كان الفتى خامدًا، ملامحه هادئة كمَنْ رأى الملائكة ولم يَعُدْ هنالك ما يخشاه. من يدري كم من الأيّام أمضاها متأرجحًا من حمّالة إلى أخرى ومن مركز علاج ميدانيّ إلى آخر، ومن سيّارة إسعاف إلى أخرى، حتّى وصل إلى كتالونيا في هذا القطار! وفي المحطّة، كان عدد من الأطبّاء والعاملين الصحيّين والممرّضات يستقبلون الجنود الجرحى، ويرسلون،

---

(1) مجنَّدو دفعة قنّينة الرضاعة Quinta del Biberón: في أواخر العام 1937، أدّت الخسائر المتزايدة إلى تقلّص أعداد الجنود المقاتلين في صفوف جيش الشرعيّة المُدافع عن الجمهوريّة، فأصدر الرئيس مانويل أثانيا، في نيسان/أبريل 1938 مرسومًا بتجنيد الشبّان الذين هم في السابعة عشرة، ولكنّ عمليّات التّجنيد طالت فتيانًا أصغر سنًّا، فكان هناك مجنَّدون في الرابعة عشرة. وحين علمت وزيرة الصحّة والرعاية الاجتماعيّة، الكاتبة فيدريكا مونتسينا بذلك، قالت باستغراب: «سبعة عشر عامًا؟ ولكنّهم ما زلوا بحاجة إلى قنّينة الرضاعة».

t.me/qurssan

على الفور، أشدّ الحالات خطورة إلى المستشفى، ويصنّفون الآخرين بحسب مواضع جراحهم - الفئة «أ» إصابات في الأذرع، والفئة «ب» في السيقان، والفئة «ت» في الرأس.. وهكذا، وفق تسلسل أبجديّ - ثمّ يرسلونهم مع لوحة معلّقة حول أعناقهم إلى المكان المناسب لعلاجهم. كان الجرحى يصلون بالمئات؛ وكان لا بدَّ من تشخيص الحالات واتّخاذ القرار خلال دقائق، ولكنَّ الصخب والضوضاء كانا في المظهر فقط. لم يكن هنالك من يبقى مُهملًا، وليس هناك من يُفقد. من يحتاجون إلى جراحة يذهبون بهم إلى مبنى سانت أندريو القديم في مانريسا، ومن يحتاجون إلى علاج يُرسلون إلى مراكز أُخرى، وهنالك البعض ممّن يُفضّلون أن يبقوا حيث هم، لأنّه لا يُمكن عمل أيّ شيء لإنقاذهم. المتطوّعات يبلّلن شفاههم بالماء، ويكلّمنهم بصوت خافت، ويهدهدن لهم كما لو أنّهم أبناؤهنّ؛ فهنّ يعرفن أنَّ هناك، في مكان آخر، امرأة أخرى تسند ابنهنّ أو أخاهنّ. وبعد بعض الوقت، سيحملهم فريق حَمَلَةِ الحمّالات إلى مستودع الجثث. كان هنالك ثقب في صدر الجنديّ الصّغير، وبعد أن فحصه الطبيب بصورة متعجّلة، من دون أن يجد فيه نبضًا، قرّر أنّه لم تَعُدْ ثمّة إمكانيّة لإنقاذه، وأنّه لم يَعُدْ بحاجة إلى المورفين أو أيّ مهدّئ آلام آخر. كانوا في الجبهة قد غطّوا جرحه بخرقة، وحموا الجرح بطَبَق صفيحيّ مقلوب للحيلولة دون احتكاكه بالجرح، ولفّوا صدره كلّه بضمّاد، لكنْ ذلك حدث منذ عدّة ساعات أو عدّة أيّام، أو عدّة قطارات.. من المحال معرفة ذلك!

كان دالماو هناك كي يساعد الأطبّاء؛ وكان عليه الانصياع للأوامر بترك ذلك الفتى والاهتمام بالجريح التالي، لكنّه فكّر بأنّه إذا كان ذلك الجنديّ الصّغير لا يزال حيًّا بعد الإصابة، والنزيف والنقل

t.me/qurssan

.. الوصول إلى هذا الرّصيف في المحطّة، فلا بدَّ أنَّ لدَيْه رغبة كبيرة في العيش والبقاء حيًا، وأنَّه من المؤسف أن يكون قد استسلم أمام الموت في اللّحظة الأخيرة. أزاح القطع القماشيَّة بحذر، وتأكَّد بذهول من أنَّ الجرح كان مفتوحًا ونظيفًا جدًّا، كما لو أنَّه قد رُسم على الصدر. لم يستطع أن يفسّر كيف حطّمت الرصاصة الأضلاع وجزءًا من عظم القفص من دون أن تمزّق القلب. فخلال ما يقارب الثلاث سنوات من الممارسة في الحرب الأهليّة الإسبانيّة، في جبهات مدريد وترويل أوّل الأمر، وبعد ذلك في مستشفى الإخلاء في مانريسا، كان فيكتور دالماو يظنّ أنّه قد رأى كلّ شيء، وأنّه قد حصل على مناعة ضدّ التأثّر بمعاناة الآخرين، ولكنّه لم يكن قد رأى من قبل قطّ قلبًا حيًّا. وبانبهار، شهد الخفقات الأخيرة وهي تصير أشدّ بطأً وتباعدًا، إلى أن توقّفت تمامًا، وانتهى الأمر بالجنديّ الصّغير إلى الموت بلا أيّ زفرة أخيرة. ولبرهة قصيرة، ظلّ دالماو متجمّدًا بلا حراك، يتأمّل الفجوة الحمراء حيث لم يعُدّ هناك أيّ شيء ينبض. من بين كلّ ذكريات الحرب، ستكون هذه هي الذكرى الأشدّ إلحاحًا وتواترًا: فذلك الطفل الذي في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره، والذي لا يزال أمرد، متّسخًا من المعركة ومن الدم الجافّ، ممدّدًا على قطعة مشمّع وقلبه مكشوف. لم يجد دالماو أبدًا أيّ تفسير أو سبب لإدخاله ثلاثةً من أصابع يده اليمنى في الجرح المخيف، أحاطت أصابعه بذلك العضو وضغط عدّة مرّات، بحركة إيقاعيّة، وبأقصى قَدْرٍ من الهدوء والتلقائيّة، ولوقتٍ من المحال تذكُّر مداه، ربّما ثلاثين ثانية، وربّما لوقتٍ أبديّ. أحسّ عندئذٍ بأنّ القلب ينتعش بين أصابعه، في البدء بارتعاشة تكاد تكون غير محسوسة، وسرعان ما صار القلب ينبض بقوّة وانتظام.

t.me/qurssan

ـ يا فتى.. لو أنّني لم أرَ بعينيَ بالذات لما صدَّقت الأمر أبدًا، قال أحد الأطبّاء بنبرة وقورة، وكان قد اقترب من دون أن يلمحه دالماو.

استدعى الطبيب حَمَلَةَ الحمّالات بصرختَيْن، وأمرهم بأن ينقلوا الجريح فورًا وبأقصى سرعة، لأنّه حالة خاصّة.

ـ أين تعلّمتَ هذا؟ توجّه بالسّؤال إلى دالماو، فور انتهاء عناصر الحمّالات من حمل الجنديّ الصّغير الذي ما زال بلون الرّماد، ولكن مع قلب ينبض.

فأخبره فيكتور دالماو، وهو رجل قليل الكلام، بجملتَيْن اثنتَيْن، أنّه تمكّن من دراسة الطبّ مدّة ثلاث سنوات في برشلونة قبل التحاقه بالجبهة كممرّض.

ـ وأين تعلّمت ذلك؟ كرّر الطبيب.

ـ لم أتعلّمه في أيّ مكان، ولكنّني فكّرت بأنّه ليس ثمّة ما يُمكن خسارته...

ـ أرى أنّك تعرج.

ـ إصابة في عظم الفخذ الأيسر. في ترويل. لقد شفي الجرح.

ـ حسن. منذ الآن، ستعمل معي، فأنت تضيّع وقتك هنا. ما اسمك؟

ـ فيكتور دالماو، يا رفيق.

ـ لا شيء من التعامل معي كرفيق. التعامل معي بلقب دكتور فقط، ولا يخطرنّ لك رفع الكلفة معي. اتّفقنا؟

ـ اتّفقنا، يا دكتور. وليكن الاحترام متبادلًا. يمكنك أن تدعوني بالسيّد دالماو، ولكنّ الرفاق الآخرين سيشعرون بذلك كما لو أنّه رصاصة.

t.me/qurssan

ابتسم الطبيب ابتسامة متكتّمة. وفي اليوم التالي، بدأ دالماو التدرُب في المهنة التي ستحدّد مصيره.

عرف فيكتور دالماو، مثلما عرف جميع العاملين في مستشفى سانت أندريو وفي مستشفيات أخرى، أنَّ فريق الجرّاحين قد أمضوا ست عشرة ساعة في محاولةِ بعث جنديٍّ ميّت، وأنّهم قد نجحوا بإعادته إلى الحياة في غرفة العمليّات. إنَّها معجزة، قال كثيرون. وخالفهم من تخلّوا عن الإيمان بالربِّ والقدّيسين قائلين إنَّه التّقدُّم في العلم وبنية الشاب البدنيّة الحِصانيّة المتينة. وقد نوى فيكتور أن يزوره أينما كان المكان الذي نقلوه إليه، ولكنْ مع تسارع أحداث تلك الأزمنة، صار من المُحال تحقُّق حسابات اللّقاء والفراق، والحضور والغياب، والأحياء والأموات. وبدا، لبعض الوقت، أنّه قد نَسِيَ ذلك القلب الذي أمسكه بِيَدِه، لأنَّ شؤون حياته تعقَّدت كثيرًا، وشغلته أُمورٌ أخرى مستعجلة، ولكنّه بعد سنوات من ذلك، وفي الجانب الآخر من العالم، رآه في كوابيسه: ومنذ ذلك الحين، صار طيف الفتى يزوره بين حين وآخر، شاحبًا وحزينًا، وحاملًا قلبه الخامد على طَبَق. لم يكن دالماو يتذكّر اسمه، أو ربّما لم يعرف اسمه قطّ، فأطلق عليه لقب لاثارو لأسباب جليّة، ولكنَّ الجنديّ الصُّغير لم ينسَ أبدًا اسم منقذه. فما إن تمكّن من الجلوس وشرب الماء بنفسه، حتّى أخبروه بمأثرة ذلك الممرّض في محطّة الشمال، المدعوّ فيكتور دالماو، الذي استعاده من عالم الموت، وحاصروه بالأسئلة؛ فجميعهم يريدون أن يعرفوا إذا كانت الجنّة والجحيم موجودتيْن حقًّا أم أنّهما من اختراع الأساقفة لبثّ الخوف في النفوس! استعاد الفتى عافيته قبل انتهاء الحرب. وبعد سنتيْن من ذلك، في مرسيليا، وشَمَ على صدره اسم فيكتور دالماو، تحت نَدبة الجُرح.

t.me/qurssan

شابّةٌ من الميليشيا، تضع القبُّعة مائلة في محاولة للتعويض عن قبح البدلة العسكريّة، انتظرت فيكتور دالماو عند باب غرفة العمليّات، وعندما خرج، بذقن لم تُحلق منذ ثلاثة أيّام وبرداء ملطّخ، أعطته ورقة مطويّة عليها رسالة من عاملات الهاتف. كان دالماو قد أمضى ساعات طويلة واقفًا على قدمَيْه، وكانت ساقاه تؤلمانه. وانتهى به الأمر إلى الانتباه، بفعل قرقعة الكهف في معدته، إلى أنّه لم يأكل شيئًا منذ الفجر. لقد كان العمل جديرًا ببغلة، ولكنّه كان يحمد فرصة التّعلُّم ضمن المقرّبين من أحد أفضل الجرّاحين في إسبانيا. ففي ظروف أخرى، ما كان يمكن لطالب مثله أن تتاح له إمكانيّة الاقتراب منهم، ولكنْ عند ذلك المستوى الذي بلغته الأمور في الحرب، كانت الدراسة والشهادات أقلّ قيمة من الخِبرة والتجربة؛ وهذا ما صار لديْه فائض منه، مثلما قال مدير المستشفى عندما سمح له بالمساعدة في العمليّات الجراحيّة. وفي تلك الأثناء، كان بمقدور دالماو العمل لأربعين ساعة متواصلة من دون نوم، معتمدًا على التبغ وقهوة الهندباء، من دون أن يولي اهتمامًا لمعاناة ساقه. هذه الساق التي كانت قد حرّرته من الجبهة؛ وبفضلها صار بإمكانه خوض الحرب في المؤخّرة. لقد انضمّ إلى الجيش الجمهوريّ منذ العام 1936، مثلما فعل جميع الشبّان تقريبًا، ممّن هم في مثل سنّه؛ وانطلق مع فوجه للدّفاع عن مدريد التي احتلّ جزءًا منها «القوميّون»، بحسب التسمية التي أطلقوها على قوّاتهم المتمرّدة ضدّ الحكومة، حيث كان يجمع الشهداء، لأنّه بدراسته للطبّ كان أكثر فائدة من حمله بندقيّة في الخنادق. وقد نقلوه بعد ذلك إلى جبهات أخرى.

في شهر كانون الأوّل/ديسمبر 1937، أثناء معركة ترويل، وفي أجواء جليديّة باردة، كان فيكتور دالماو يتنقّل في سيّارة إسعاف بطوليّة،

t.me/qurssan

تقدّم إسعافات أوّليّة للجرحى، بينما السّائق أيتور إيبارّا، وهو باسكيّ عصيّ على الموت، يترنّم بلا توقّف ويضحك بصخب كي يخادع الموت، ويتدبّر أمر السياقة في دروب مدمَّرة. وكان دالماو يثق بأنّ حسن حظّ سائقه الباسكيّ الذي خرج سليمًا من ألف حادثة مفاجئة، سيكون كافيًا لكليْهما. ولكي يتجنّبا القصف، كانا يتنقّلان ليلًا في أغلب الأحيان؛ وإذا لم يكن هنالك قمر، يقوم شخص بالسّير أمام السيّارة مزوّدًا بمصباح يدويّ، كي يضيء الطريق لأيتور، إذا كان ثمّة طريق هناك، بينما يقوم فيكتور بإسعاف الرجال الجرحى داخل السيّارة بوسائل ضئيلة جدًّا، وعلى ضوء مصباح يدويّ. كانا يتحدّيان الأرض المليئة بالعوائق، والحرارة التي تنخفض إلى عدّة درجات تحت الصفر، يتقدّمان ببطء الديدان على الجليد، ويغوصان في الثلج؛ يدفعان سيّارة الإسعاف كي يرتقيا آكامًا أو ليُخرجاها من مخاضاتٍ وحل أو من حُفر انفجارات، ويتجاوزان كتل حدائد ملتوية وجثث بغال متحجّرة، تحت رمايات رشّاشات الجانب القوميّ وقنابل طائرات فيلق الكوندور(1) التي تمرّ محلّقة قريبًا من سطح الأرض. لم يكن هنالك ما يشغل بال فيكتور دالماو الذي يركّز اهتمامه على إبقاء الجرحى أحياء، وهم ينزفون بغزارة، كان مصابًا بعدوى صلابة أيتور إيبارّا، الذي يقود السيّارة بلا تأثّر، وبرواية نكتة طريفة لكلّ مناسبة.

ومن سيّارة الإسعاف، انتقل دالماو إلى المستشفى الميدانيّ الذي أُقيم في كهوف ترويل، لحمايته من القصف، حيث كانوا يعملون

---

(1) جيش أو فيلق الكوندور: قوّات من الجيش الألمانيّ الهتلريّ شاركت في الحرب الأهليّة الإسبانيّة بصفة متطوّعين إلى جانب قوات فرانكو. وكانت هذه القوات في الغالب من الطيّارين والقوات الجوّيّة.

t.me/qurssan

مستضيئين بالشموع، وفتائل مضمَّخة بزيت المحرّكات ومصابيح كيروسين. يقارعون البرد بمجامر موضوعة تحت مناضد الجراحة، لكنَّ ذلك لم يكن يحول دون أن تظلّ الأدوات المتجمّدة ملتصقة بالأيدي. كان الأطبّاء يُجرون عمليّات جراحة سريعة لمن يستطيعون ترقيعهم قبل قليل من إرسالهم إلى مراكز العلاج، وهم يعلمون أنَّ كثيرين منهم سيموتون في الطريق. أمّا الآخرون، من تجاوزوا أيَّ إمكانيّة استفادة من المساعدة، فينتظرون الموت متحمّلين الآلام بجرعات مورفين، عند توافرها، ولكنْ بتقنين شديد على الدوام، وكان الأثير كذلك مقنَّنًا. وإذا لم يتوافر أيّ شيء آخر لمساعدة الرجال ذوي الجراح الفظيعة ممن يئنُّون من الألم، فإنَّ فيكتور يعطيهم قرص أسبرين، ويقول لهم إنَّه دواء أميركيَ مهدّئ للآلام وشديد الفعاليّة. كانت الضمَّادات تُغسل بجليد وثلج مُذاب لإعادة استخدامها. أمّا أشدّ المهمّات مقتًا، فكانت إشعال المَحْطَبة لحرق السيقان والأذرع المبتورة؛ ولم يستطع فيكتور أن يعتاد قطّ على رائحة ذلك اللَّحم المحروق.

هناك، في ترويل، عاد لرؤية إليزابيث إيدنبنز، وكان قد تعرَّف عليها في جبهة مدريد، حيث كانت قد جاءت كمتطوّعة مع جمعيّة مساعدة الأطفال في زمن الحرب. إنَّها ممرّضة سويسريّة في الرّابعة والعشرين، لها وجه عذراء من عصر النهضة، وشجاعة محارب مجرَّب. كان فيكتور نصف مغرَم بها هناك في مدريد، وكان يمكن له أن يصير مغرمًا بالكامل لو أنَّها أتاحت له أدنى فرصة، ولكنْ لم يكن هنالك ما يحرف تلك الشابة عن مهمَّتها: التخفيف من معاناة الأطفال في أزمنة الفظائع الرهيبة. وخلال تلك الشهور الماضية التي لم يرها فيها، كانت السويسريّة قد فقدت براءتها الأوّليّة التي كانت عليها عند وصولها إلى

t.me/qurssan

إسبانيا. فقد تصلَّبت شخصيَّتها النضاليَّة ضدّ البيروقراطيَّة العسكريَّة وغباء الرجال؛ وحافظت على رحمتها وعذوبتها مع النساء والأطفال الذين تولَّت مسؤوليَّة رعايتهم. خلال فترة هدوء بين هجوميْن معاديَيْن، التقى بها فيكتور أمام إحدى شاحنات التزوُّد بالمؤن. «مرحبًا يا فتى، هل تتذكَّرني؟»، قالت له إليزابيث محيِّية بإسبانيَّتها المُترعة بأصوات حلقيَّة من الألمانيَّة. وكيف لا يتذكَّرها! لكنَّ رؤيتها أفقدته القدرة على الكلام، بدت له أكثر نضوجًا وجمالًا ممَّا كانت عليه من قبل. جلسا على كتلة أنقاض بيتونيَّة. هو يدخّن، وهي تشرب شايًا من زمزميَّة.

- ما أخبار صديقك آيتور؟ سألته الفتاة.

- ما زال هناك، تحت رمايات الرشَّاشات دومًا، ومن دون أن يُصاب بأيّ خدش.

- إنَّه لا يعرف الخوف. انقل إليه تحيَّاتي.

- وماذا لديكِ من خطط لما بعد انتهاء الحرب؟ سألها فيكتور.

- الذهاب إلى حربٍ أخرى. فهنالك حرب على الدَّوام في مكان ما. وأنت؟

- إذا كنتِ توافقين، يمكننا أن نتزوَّج؛ اقترح عليها وهو مرتبك من الخجل.

فضحكتْ للحظة، وعادت تبدو كآنسة من عصر النهضة، مثلما كانت في أزمنة أخرى.

- لن أفعل حتَّى لو كنتُ مجنونةً يا فتى، فأنا لا أفكّر في الزواج، سواء بك أو بأيّ شخصٍ آخر. لا وقت لديَّ للحبّ.

- ربَّما ستبدّلين رأيك. أتظنّين أنَّنا لن نعود للقاء مرَّة أخرى؟

t.me/qurssan

ـ بل سنلتقي بكلّ تأكيد، إذا ما ظللنا أحياء. ويمكنك أن تعتمد عليّ يا فيكتور في أيّ شيء أستطيع المساعدة فيه...

ـ وأنا أقول لكِ الشيء نفسه. أأستطيع تقبيلك؟

ـ لا.

في كهوف ترويل تلك تصلّبت متانة أعصاب فيكتور، واكتسب المعارف الطبّيّة التي ما كان يُمكن لأيّ جامعة أن توفّرها له. تعلّم أنّه يُمكن للمرء أن يعتاد على كلّ شيء تقريبًا: على الدّماء، الكثير من الدّماء! على الجراحة من دون تخدير، على رائحة الغرغرينا، على القذارة، على تدفّق السّيل غير المتناهي من الجنود الجرحى، ومن النساء والأطفال أحيانًا، وعلى إنهاك قرون من الزمان ينخر الإرادة.. والأسوأ من ذلك، الاعتياد على تقبّل الإرادة المخادعة بأنّه يمكن لكلّ تلك التضحيات الكبيرة أن تكون بلا جدوى. وهناك، بينما هو يسحب موتى وجرحى من بين أنقاض إحدى عمليّات القصف، سقط عليه جدار مُتداعٍ، فكسر ساقه اليُسرى. عالجه طبيب إنكليزيّ من الفِرَق الأمميّة. لو أنّه كان طبيبًا آخر لاختار إجراء عمليّة بتر سريعة، لكنّ ذلك الإنكليزيّ كان قد بدأ ورديّته للتوّ بعد أن استراح عدّة ساعات. رَطَنَ ببعض الأوامر للممرّضة، وتأهّب لإعادة وضع العظام في مكانها. «أنت محظوظ أيّها الشاب، يوم أمس وصلتنا إمدادات من الصليب الأحمر، وسوف نخدّرك ونجعلك تنام»، قالت له الممرّضة وهي تُقرّب من وجهه قناع الأثير.

عزا فيكتور الحادثة إلى واقع عدم وجود آيتور إيبارّا معه لحمايته بنجمه الطيّب. وكان آيتور هو من اقتاده إلى القطار الذي حمله إلى

t.me/qurssan

،لنسيا مع عشرات الجرحى الآخرين. فكان يمضي بساق لا يستطيع ،حريكها، بسبب ألواح خشبيّة مثبّتة بأضمدة لاصقة، ذلك أنّهم لم ،ستطيعوا تثبيتها بالجبس بسبب الجراح، وكان ملفوفًا ببطّانيّة، يُنهكه البرد والحُمّى، ومعذَّبًا مع كلّ اهتزاز في القطار، ولكنّه ممتنٌّ كذلك، لأنّه في ظروف أفضل من معظم الرجال الراقدين معه على أرضيّة العربة. كان آيتور قد أعطاه آخر ما لديه من سجائر، وجرعةً من المورفين مع تعليمات بعدم استخدامها إلّا في حالة الضرورة القصوى، لأنّه لن يحصل على جرعة أخرى.

هنّأوه في مستشفى بلنسيا على العمل الجيّد الذي قام به الطبيب الإنكليزيّ، وأخبروه أنّ ساقه ستعود كما لو أنّها جديدة، ما لم تحدث مضاعفات وتعقيدات غير متوقّعة، ولكنّها ستكون أقصر قليلًا من الساق الأخرى. وما إن بدأت جراحه تلتئم، وتمكّن من الوقوف مستندًا على عكاز، حتّى أرسلوه إلى برشلونة وهو لا يزال بجبيرة الجبس. وبقي هناك في بيت أبويْه يلعب أدوار شطرنج لامتناهية مع أبيه، إلى أن صار قادرًا على الحركة بلا مساعدة. عندئذٍ، عاد إلى العمل في أحد مستشفيات المدينة، التي تُقدّم الخدمات للسكّان المدنيّين. بدا له ذلك كما لو أنّه في إجازة، لأنّه أشبه بفردوس من النظافة العالية بالمقارنة مع ما عاشه في الجبهة. ظلّ هناك حتّى الربيع، حين أرسلوه إلى مستشفى سانت أندرو، في مانريسا. فودّع والديْه وروزر بروغيرا ـ وهذه تلميذة موسيقى آواها أبوا دالماو في بيتهما، وتوصّل هو إلى محبّتها كأخت له خلال أسابيع نقاهته. تلك الشابّة المتواضعة واللّطيفة التي تُمضي ساعات غير متناهية في التمارين على البيانو، كانت المرافقة التي يحتاج إليها الزوجان مارسيل لويس وكارمي دالماو منذ أن غادرهما ابنهما.

t.me/qurssan

فتح فيكتور دالماو الورقة التي قدَّمتها إليه فتاة الميليشيا، وقرأ رسالة أمّه كارمي. لم يرها منذ سبعة أسابيع، على الرّغم من أنّ المستشفى لا يبعد أكثر من خمسة وستين كيلومترًا عن برشلونة، لكنّه لم يجد يوم فراغ واحد ليذهب في الحافلة لزيارتها. أمّا هي، فكانت تتّصل به هاتفيًا مرّة كلّ أسبوع، في يوم الأحد دومًا، وفي ساعة محدَّدة. وكانت ترسل إليه في هذا اليوم أيضًا هديّة ما، كقطعة شوكولاتة من التي يأتي بها عناصر الفِرق الأمميّة، أو بعض السجق، أو قطعة صابون تحصل عليها من السّوق السّوداء، أو ترسل إليه في بعض الأحيان السجائر التي تعتبرها كنزًا ثمينًا، لأنّه لا يستطيع العيش بلا نيكوتين. كان ابنها يتساءل كيف تستطيع أمّه الحصول على تلك الأشياء! لقد كان التبغ مطلوبًا وثمينًا، إلى حدّ أنّ الطائرات المعادية اعتادت أن تلقي به من السّماء مع أرغفة خبز، للسخرية من جوع الجمهوريّين، والتّلميح إلى الوفرة السّائدة لدى القوميّين.

رسالة من أمّه في يوم خميس، لا يُمكن لها إلّا أن تكون إنذارًا بأمر طارئ ومُستعجل: «سأكون في مركز الهاتف، اتّصل بي». قدَّر ابنها أنّها تنتظر هناك منذ ساعتيْن تقريبًا، وهو الوقت الذي أمضاه في غرفة العمليّات قبل أن يتلقّى الرسالة. نزل إلى المكاتب في القبو، وطلب من إحدى عاملات الهواتف أن تتّصل بمكتب الهاتف في برشلونة.

أخذت كارمي الخطّ، وتكلّمت بصوت متقطّع بسبب نوبة سُعال، أمرت ابنها الأكبر بأن يذهب إلى البيت، لأنّه لم يبق لأبيه إلّا القليل من الحياة.

- ما الذي جرى له؟ لقد كان أبي سليمًا وبحالة جيّدة! هتف فيكتور.

t.me/qurssan

ـ لم يَعُد قلبه قادرًا على المزيد. أخبِرْ أخاك، كي يأتي أيضًا اوداعه، لأنّه قد يغادر ما بين إغماضة عين وفتحها.

احتاج ثلاثين دقيقة لتحديد مكان أخيه في جبهة مدريد. وعندما مكّنا أخيرًا من التواصل عبر جهاز الإرسال، وسط خليط أصوات وصرير فلكيّ، شرح له أخوه أنّه من المُحال أن يتمكّن من الحصول ملى إذن للذهاب إلى برشلونة. وكان صوته يُسمع نائيًا جدًّا ومتعبًا، لم ستطع فيكتور التّعرُّف عليه.

ـ كلّ شخص قادر على إطلاق النار من سلاح لا يُمكن الاستغناء منه، أنت تعرف ذلك جيّدًا يا فيكتور. الفاشيُّون يتفوَّقون علينا بالعديد . التّسليح، ولكنَّهم لن يمرُّوا ـ قال له وليام، مردِّدًا الشعار الذي أشاعته ولوريس إيباروري، والمعروفة على نطاق واسع بلقب باسيوناريا لقدرتها على إلهاب مشاعر الحماسة المتعصِّبة في صفوف الجمهوريّين.

كان العسكريُّون المتمرِّدون قد احتلُّوا الجزء الأكبر من أراضي إسبانيا، ولكنَّهم لم يتمكَّنوا من الاستيلاء على مدريد التي كان الدّفاع اليائس عنها شارعًا شارعًا وبيتًا بيتًا قد حوَّلها إلى رمز للحرب. وكانوا يعتمدون على قوّات مستعمرتهم في مراكش من المورو المرهوبين، وعلى مساعدة مهمَّة يقدّمها إليهم كلٌّ من موسوليني وهتلر، لكنَّ مقاومة الجمهوريّين أوقفتهم عند أطراف العاصمة. في بداية الحرب، كان وليام دالماو قد قاتل في مدريد ضمن لواء دوروتي. أمّا في هذه اللّحظات، فكان الجيشان يتواجهان في المدينة الجامعيَّة، وكلٌّ منهما قريب جدًّا من الآخر، بل إنَّ ما كان يفصل بينهما في بعض المواقع هو عرض شارع فقط؛ يمكنهم رؤية وجوه بعضهم بعضًا، وتبادل السِّباب من دون حاجة

t.me/qurssan

إلى الصراخ كثيرًا. وبحسب قول وليام المتمترس في أحد المباني، كانت طلقات القذائف تثقب جدران كليّة الفلسفة والآداب، وكليّة الطبّ، وبيت بيلانكيث؛ ولم تكن هنالك من طريقة للحماية من المقذوفات، ولكنّهم كانوا قد قدَّروا أنَّ ثلاثة مجلَّدات من كتب الفلسفة تحمي من الرصاص. وقد تصادف وجوده قريبًا من المكان الذي مات فيه الفوضويّ الأسطوريّ بيوينابينتورا دوروتي، الذي جاء للقتال في مدريد مع جزء من فرقته بعد أن نشر الثورة، ومتَّن وجودها في إقليم أراغون. وقد قُتل برصاصة عن قرب في الصدر، في ظروف غير واضحة. وجرى القضاء على الفرقة، وقُتل أكثر من ألف رجل ميليشيا، وكان وليام بين الناجين، وأحد القلَّة الذين خرجوا سالمين. بعد نحو سنتين من ذلك، وبعد أن قاتل في جبهات أخرى، أعادوا إرساله مجدَّدًا إلى مدريد.

- أبوك يتفهَّم إذا كنت غير قادر على المجيء، يا وليام. نحن في البيت بانتظارك. تعال عندما تستطيع. حتَّى لو لم تتمكَّن من رؤية العجوز حيًّا، فحضورك سيكون مشجّعًا جدًّا لحالة أمّنا.

- أتوقَّع أن روزر معهما.

- أجل.

- انقل إليها تحيَّاتي. قل لها إنَّ رسائلها ترافقني، ولتسامحني لأنَّني لا أردّ على رسائلها بصورة متواصلة.

- سنكون بانتظارك، يا وليام. انتبه لنفسك جيّدًا.

تبادلا الوداع بعبارة تحيَّة مقتضبة، وظلَّ فيكتور يشدّ بقبضته على بطنه متوسّلًا بقاء أبيه حيًّا لوقت أطول قليلًا، كي يرجع أخوه سليمًا، وكي تنتهي الحرب نهائيًّا وتنجو الجمهوريَّة.

t.me/qurssan

والد كلٍّ من فيكتور ووليام، البروفسور مارسيل لويس دالماو،
..مضى خمسين سنة من حياته يُدرِّس الموسيقى، وأسَّسَ بتصميمه
إصراره أوركسترا برشلونة السيمفونيّة الشبابيّة وقادها بشغف؛ وألَّف
ا ماو عشرات مقطوعات الكونشيرتو التي لم يَعُدْ هناك من يعزفها مذ
، أت الحرب، وألحان عدّة أغنيات هي في هذه السنوات بالذات بين
أصلبّات جنود الميليشيا. تعرّف على كارمي، امرأته، حين كانت لا تزال
, اهقة فتيّة في الخامسة عشرة، محشورة في زيّها المدرسيّ الصارم، وكان
ه أستاذ موسيقى شابًّا، أكبر منها باثنتي عشرة سنة. كانت كارمي ابنة
. .ال في الميناء، تلميذة إحسان لدى الراهبات، وكُنَّ يُهيّئنها منذ صغرها
ا ا زب كراهبة، ولم يسامحنها لتركها الدير وذهابها للعيش مع تنبل ملحد
.. ووِيّ، وربّما ماسونيّ أيضًا، يسخر من رابطة الزواج المقدّسة! عاش
ا..سيل لويس وكارمي حياة الخطيئة عدّة سنوات، إلى أن صار وشيكًا
..ي، فيكتور، ابنهما الأوّل؛ عندئذٍ تزوّجا كي يجنّبا الطفل وصمة كونه
ا, الزنا، وهذه الوصمة، في تلك الأزمنة، كانت لا تزال تُشكّل عقبة
.ئنة في الحياة. «لو أنّنا أنجبنا ابنينا الآن لما اضطررنا إلى الزواج، لأنّه لا
، ..ود في الجمهوريّة لمن يسمّون أبناء الزنا»، أعلن مارسيل لويس دالماو
., لحظة إلهام في بداية الحرب. فردّت عليه كارمي: «هذا يعني أنّني
. .ُ سأحبل وأنا عجوز، وأنّ ابنيْك سيكونان الآن بالحفّاضات».

تلقى كلٌّ من فيكتور ووليام دالماو تعليمهما في مدرسة علمانيّة،
, ترعرعا في بيت صغير بحيّ رابال، منزل أُسرة من الطبقة الوسطى
المجتهدة، حيث موسيقى الأب وكتب الأمّ يحلّان محلّ الدّين. لم
، ينخرط الزوجان دالماو في أيّ حزب سياسيّ، ولكنّ عدم ثقة كليْهما
بالسلطة، وبأيّ نوع من الحكم، جعلهما يصطفّان إلى جانب الفوضويّة.

t.me/qurssan

وفضلًا عن الموسيقى بأشكالها المتعدِّدة، كان مارسيل لويس يغرس في ابنيْه الفضول إلى العلوم وحبَّ العدالة الاجتماعيَّة. فشجَّعت الأولى فيكتور على دراسة الطبِّ، وكانت الثانية هي الفكر المثاليّ بالمطلق لوليام الذي اعتاد، منذ طفولته، أن يمضي غاضبًا من العالم، مبشِّرًا بالمواعظ المناهضة للإقطاعيِّين والتجَّار والصناعيِّين والأرستقراطيِّين والكهنة، وبخاصَّة القسِّيسين، بحماسةٍ غيبيَّة أكثر ممَّا هي حجج عقلانيَّة. كان مرحًا وصاخبًا، متين البُنية، مفضَّلًا من الفتيات اللَّاتي يتحرَّقن لهفة لإغوائه من دون طائل، إذ إنَّه لم يكن يهتمّ كثيرًا بالتأثير الذي يخلِّفه فيهنَّ، وكان يكرِّس نفسه جسدًا وروحًا للرياضة، وارتياد البارات والاهتمام بالأصدقاء. وقد تحدَّى أبويْه، بانضمامه وهو في التاسعة عشرة من عمره إلى أوَّل الميليشيَّات العمَّاليَّة التي نُظِّمَت للدِّفاع عن الحكومة الجمهوريَّة، وضدَّ الفاشيِّين المتمرِّدين. كانت لديْه ميول جنديّ، كمَنْ وُلد ليمتشق أسلحة ويقود رجالًا أقلّ تصميمًا منه. أمَّا أخوه فيكتور بالمقابل، فكان يبدو شاعرًا، بعظامه الطويلة، وشعره المتمرِّد ووجهه القلق، والصامت الذي يحمل في يده كتابًا على الدوام. في المدرسة، كان فيكتور يتحمَّل المضايقات المتمادية من الصِّبْية الآخرين؛ «فلنرَ إذا ما كنت ستصبح كاهنًا، أيُّها المخنَّث». عندئذٍ، كان وليام يتدخَّل، وهو أصغر بثلاث سنوات، ولكنَّه أكثر قوَّة من أخيه، ومستعدّ على الدَّوام للشجار وتبادل الضرب من أجل أسباب عادلة. احتضن وليام الثورة كما لو أنَّها عروس؛ ووجد فيها القضيَّة التي تستحقّ أن يقدِّم حياته من أجلها.

المحافظون والكنيسة الكاثوليكيَّة الذين وظَّفوا أموالًا ودعاية ومواعظ قياميَّة من فوق المنابر، هُزموا في الانتخابات العامَّة سنة

t.me/qurssan

١٩١٠ أمام الجبهة الشعبيّة، المؤلّفة من تحالف أحزاب يساريّة. إسبانيا التي عاشت حالة من التشنُّج منذ فوز التوجُّه الجمهوريّ ل خمس سنوات، انقسمت، كما لو أنَّ ضربة فأس عنيفة قد شقَّتها إلى نصفيْن. وبحجَّة فرض النظام في أوضاع قدَّروا أنَّها فوضى، مع أنَّها أبعد ما يكون عن ذلك في الحقيقة، بدأت قوى اليمين بالتآمر على الامور مع العسكريّين من أجل هزيمة الحكومة الشرعيَّة المؤلَّفة من ا ـراليّين واشتراكيّين وشيوعيّين ونقابيّين، مع دعم واسع من العمّال الفلّاحين والشغّيلة والغالبيَّة العظمى من الطلّاب والمثقّفين. كان ،ليام قد أنهى دراسته الثانويّة بمشقَّة، وكان يتمتَّع، بحسب رأي أ ه المحبّ للتوريات، بجسد رياضيّ، وجرأة مصارع ثيران، ودماغ امل مخاطيّ في الثامنة من العمر. لقد كان الجوّ السياسيّ مثاليًّا ،لليام الذي ينتهز أيَّ فرصة للصراع بالقبضات مع خصومه، حتّى ا كان يجد صعوبة في صياغة مسوّغاته الأيديولوجيّة، وسيظلّ يجد هذه الصُعوبة إلى أن انضمَّ إلى صفوف الميليشيّات، حيث التوجيه السياسيّ لا يقلّ أهمّيّة عن الأسلحة. كانت المدينة منقسمة، ولا تلتقي الطرفان المتنازعان إلّا ليُباغت أحدهما الآخر بالهجوم. فكانت هنالك بارات، وحفلات رقص، ولقاءات رياضيّة، وحفلات لقوى اليسار، وأخرى مثلها لليمين. وقبل أن يُصبح وليام ميليشياويًّا، كان يخوض في مشاجرات. وبعد كلّ واحدة من تلك المواجهات مع فتية منعّمين جريئين، يرجع وليام إلى البيت تغطّيه الكدمات والرضوض، ولكنّه سعيد. ولم يكن لدى أبويْه أدنى شكّ في أنّه يخرج لإحراق المحاصيل وسرقة المواشي من مزارع الإقطاعيّين، وليضرب ويحرق ويُخرّب.. إلى أن جاء ذات يوم ومعه شمعدان من الفضّة. انتزعته

t.me/qurssan

منه أمّه بسرعة خاطفة، وانهالت به عليه؛ ولو أنّها كانت أطول قامة، لهشّمت رأسه، ولكنّ الشمعدان أصاب وليام في منتصف ظهره. أجبرته كارمي على الاعتراف بما كان يعرفه آخرون، لكنّها كانت ترفض تقبُّله حتّى تلك اللّحظة: أنّ ابنها يمضي، وسط حماقات أخرى، في انتهاك حُرمة كنائس ومهاجمة كَهَنة وراهبات.. وهذا يعني، أنّه يرتكب بالضبط ما تؤكّده دعاية القوميّين. «رَبِّ غربانًا فتقتلع لك عينيْك! سوف تُميتني مجلّلة بالعار، يا وليام! الآن فورًا سوف تذهب لتعيده، أتسمعني؟» صرخت به. فخرج وليم خافضًا رأسه وهو يحمل الشمعدان ملفوفًا بورق جرائد.

في شهر حزيران 1936، تمرّد العسكريّون على الحكومة الديمقراطيّة. وسرعان ما ترأس ذلك التّمرّد الجنرال فرانكو، مظهره الضئيل التافه كان يُخفي طبعه البارد والانتقاميّ والوحشيّ. وكان حلمه الأكثر طموحًا أن يعيد إلى إسبانيا أمجاد ماضيها الأمبراطوريّ، وهدفه المباشر هو القضاء النهائيّ والمُبرم على فوضى الديمقراطيّة، والحكم بيَد من حديد عن طريق القوات المسلّحة والكنيسة الكاثوليكيّة. كان العسكريّون المتمرّدون يأملون باحتلال البلاد خلال أسبوع، فوجدوا أنفسهم أمام مقاومة غير متوقّعة من الشغّيلة المنظّمين في قوّات ميليشيا، والمصمّمين على الدّفاع عن الحقوق المكتسبة من خلال الجمهوريّة. عندئذٍ، بدأت مرحلة الحقد المنفلت من عقاله، والانتقام والرُّعب الذي سيكلّف إسبانيا مليون ضحيّة. كانت استراتيجيّة الرجال الذين يقودهم فرانكو تقوم على سفك أقصى ما يُمكن من الدّماء، وزرع الخوف، باعتبارها الطريقة الوحيدة لاستئصال أيّ أثر للمقاومة لدى الأهالي المهزومين. في تلك الأثناء، كان وليام دالماو جاهزًا للمشاركة

t.me/qurssan

الكاملة في الحرب الأهليَّة. فالأمر لم يَعُدْ يتعلَّق بسرقة شمعدانات، وإنَّما بحمل البندقيَّة.

إذا كان وليام يجد في السَّابق ذرائع للقيام بتجاوزات، فإنَّه لم يَعُد، في الحرب، بحاجة إلى تلك الذرائع. لقد توقَّف عن اقتراف الفظائع، لأنَّ المبادئ التي جرى تلقينه إيَّاها في بيته تمنعه من ذلك، ولكنَّه لم يدافع في الوقت نفسه عن الضحايا - وهم في معظم الأحيان أبرياء - من أعمال رفاقه الانتقاميَّة. جرى اقتراف آلاف الاغتيالات، وبصورة خاصَّة من الكهنة والراهبات؛ ممَّا اضطرَّ أناسًا كثيرين من اليمينيِّين إلى البحث عن ملجأ آمن في فرنسا للهرب من الشراذم الحمراء، كما كانت تسمِّيهم الصحافة. وسرعان ما أصدرت أحزاب الجمهوريِّين السياسيَّة تعليمات بوقف أعمال العنف تلك، لأنَّها مناقضة للمُثل الثوريَّة، ولكنَّ حدوثها تواصل. أمَّا بين جنود فرانكو، بالمقابل، فكانت الأوامر معاكسة تمامًا: السَّيطرة والعقاب بالنار والدمّ.

في أثناء ذلك، كان فيكتور، المنكبّ على دراسته، قد بلغ الثالثة والعشرين من العمر وهو يعيش في بيت أبويْه، إلى أن جرى تجنيده في الجيش الجمهوريّ. وخلال معيشته مع أبويْه، كان يستيقظ في الفجر، وقبل أن يذهب إلى الجامعة يجهِّز لهما الفطور، وهي مساهمته الوحيدة في المهمات المنزليَّة؛ ويرجع في وقت متأخِّر ليأكل ممَّا تتركه له أمّه في المطبخ - خبز، سردين، وطماطم وقهوة - ويواصل دراسته. كان يُبقي نفسه على هامش ميول أبوَيْه السياسيَّة وحماسة شقيقه المندفع. «إنَّنا نصنع تاريخًا. سوف نُخرج إسبانيا من مجتمع الإقطاع الذي استمرَّ قرونًا، إنَّنا نشكِّل نموذجًا يُحتذى لأوروبا، وردًّا على فاشيَّة هتلر وموسوليني» - هذا ما كان مارسيل لويس دالماو يعظ به ابنيْه

t.me/qurssan

ورفاقه من روّاد «الروسينانتي»[1]، وهذه حانة مظلمة في المظهر وسامية روحيًا، يجتمع فيها يوميًا الزبائن أنفسهم ليلعبوا الدومينو ويشربوا نبيذًا رخيصًا. ويضيف دالماو مؤكّدًا: ـ «سوف نقضي على امتيازات الكنيسة والإقطاعيّين وبقيّة مستغلّي الشعب. علينا أن ندافع عن الديمقراطيّة ونحميها، يا أصدقائي؛ ولكنْ تذكُروا أنّه يجب ألّا يكون كلّ شيء سياسة. فمن دون العلوم والصناعة والتقنيّة لن يكون بالإمكان تحقيق أيّ تقدُّم، ومن دون الموسيقى والفنّ لا وجود للرُّوح». في البدء، كان فيكتور متّفقًا مع أبيه، ولكنّه يحاول الهروب من خطاباته الحماسيَّة، لأنّها هي نفسها، تتكرَّر دومًا مع بعض التّغيُّرات الطفيفة. كما أنّه لم يكن يتكلّم مع أمّه أيضًا حول هذا الموضوع: كانا يكتفيان بمحو الأمّيّة مع آخرين من عناصر الميليشيا في قبو مشرب للبيرة. فقد كانت كارمي، لسنوات طويلة، معلّمة لتلاميذ المرحلة التّحضيريّة، وهي ترى أنَّ التّعليم لا يقلّ أهمّيّة عن الخبز، وأنّه يجب على كلّ شخص يعرف القراءة والكتابة أن يعلّم آخرين. وكانت ترى أنَّ الدروس التي تُلقى على عناصر الميليشيا ليست سوى روتين محضْ، ولكنّها في نظر فيكتور تبدو تعذيبًا. «إنّهم حمير!»، ينتهي إلى القول محبَطًا بعد أن يكون قد أمضى ساعتيْن في تعليمهم حرف الهجاء الأوّل (A). فتردّ عليه أمّه: «لا، ليسوا حميرًا بأيّ حال. هؤلاء الفتيان لم يروا من قبل أيّ لوحةٍ لحروف الهجاء. فلنرَ كيف يمكن لك أنت أن تتدبَّر أمورك وراء محراث».

وبِحَثٌّ منها ـ إذ كانت تخشى رؤيته وقد تحوَّل إلى ناسك، وتعظه بضرورة التعايش مع بقيّة البشريّة ـ تعلَّم فيكتور في وقت مبكّر عزف

---

(1) روسينانتي Rocinante: هو اسم فرس دون كيخوتّه في رواية ثربانتس الشهيرة.

t.me/qurssan

ألحان أغنيات رائجة على الجيتار. كان له صوت تينور مُداعب، على مضض بنيته الجسديَّة الخرقاء وملامحه الصارمة. يحتمي وراء جيتاره مداريًا حياءه، ويتجنَّب تبادل الأحاديث المبتذلة التي تضايقه وتستثير غيظه، ويعطي الانطباع بأنَّه يشارك في الجماعة. الفتيات يهملنه جانبًا، ولا يلتفتن إليه إلى أن يسمعنه يغنّي. عندئذٍ، يبدأنَ بالاقتراب منه، وينتهي بهنَّ الأمر إلى الترنُّم معه. وبعد ذلك، وسط وشوشات هامسة، يقرِّرنَ أنَّ ابن آل دالماو الأكبر يبدو جيِّدًا بما يكفي، على الرُّغم من أنَّه لا يُمكن مقارنته، طبعًا، بأخيه وليام.

عازفة البيانو الأبرز، بين تلاميذ الموسيقى لدى الأستاذ دالماو، هي روزر بروغيرا، فتاة من قرية سانتا فه، والتي لولا تدخل سانتياغو غوثمان لكانت راعية ماعز. فقد كان غوثمان من أسرة بارزة، ولكنَّها افتقرت خلال أجيال من السادة الكسولين الخاملين الذين بدَّدوا ثروةً طائلة وأراضي زراعيَّة شاسعة. وكان يقضي سنواته الأخيرة منعزلًا في بيته الرِّيفيّ، في أرضٍ تلال وحجارة جرداء، ولكنَّها مليئة بذكريات عاطفيَّة. وكان يحتفظ بنشاط فعّال على الرُّغم من تقدُّمه في السنّ، فقد كان أستاذ كرسي تاريخ في الجامعة المركزيَّة في زمن الملك ألفونسو الثاني عشر. وكان يخرج يوميًّا، تحت شمس شهر آب/أغسطس الحارقة، أو رياح كانون الثاني/يناير الجليديَّة، ليمشي طوال ساعات حاملًا عصا الحاج التي يستند إليها، وبقبَّعته الجلديَّة المهترئة، يرافقه كلبه السلوقيّ. وكانت امرأته العالقة في متاهات العَتَه الشيخوخيّ تقضي أيَّامها تحت الحراسة داخل بيتها، تصنع أشكال مسوخ من ورقٍ ودبابيس. فكانوا يطلقون عليها في القرية لقب المجنونة الوديعة، وقد كانت كذلك بالفعل؛ لا تثير أيَّ مشاكل، باستثناء ضياعها في مشيها باتِّجاه الأفق، وطِلاء جدران بيتها

t.me/qurssan

ببرازها. كان عمر روزر سبع سنوات تقريبًا، على الرَّغم من أنَّ أحدًا لم يكن يتذكَّر تاريخ ميلادها، عندما رآها دون سنتياغو لدى خروجه للمشي ذات مرَّة، وكانت ترعى بعض المعز الضامرة؛ وكان يكفيه تبادل بضع عبارات معها كي يُدرك أنَّه أمام عقل متيقِّظ وفضوليّ. نشأت بين الأستاذ الجامعيّ والراعية الصَّغيرة صداقة غريبة تستند إلى دروس الثقافة التي يقدِّمها هو، والرَّغبة في التَّعلُّم التي تُبديها هي.

وذات يوم شتائيّ، وجدها لابدة في حفرة مع عنزاتها الثلاث، كانت ترتجف، مبتلَّة بالمطر ومُحمرَّة الوجه من الحُمَّى، ربط دون سنتياغو العنزات وحمل الفتاة على كتفه كما لو أنَّها كيس، وحمد حسن الحظ لأنَّها ضئيلة جدًّا وخفيفة الوزن؛ ومع ذلك كاد الجهد المبذول أن يمزِّق قلبه. وبعد خطوات قليلة، تخلَّى عن محاولته؛ فتركها هناكِ بالذات، وذهب لاستدعاء أحد عمَّاله الذي حملها حتَّى البيت. أمر طاهيته بأن تقدِّم طعامًا للطفلة، وأمر الخادمة بأن تُعدَّ حَمَّامًا وسريرًا، وأمر خادم الحظيرة بأن يذهب أوَّلًا إلى سانتا فه لاستدعاء الدكتور، وأن يأتي بعد ذلك بالعنزات كيلا تُسرق.

حدَّد الطبيب أنَّ الفتاة مصابة بالرَّشح، وأنَّها سيِّئة التَّغذية بصورة حادَّة. كما أنَّها مصابة بالجَرَب ولديها قمل. ولأنَّ أحدًا لم يأتِ إلى ملكيَّة غوثمان للسُّؤال عنها، لا في ذلك اليوم ولا في الأيَّام التالية، اعتبروا أنَّها يتيمة إلى أن خطر لهم أن يسألوها هي نفسها، فأوضحت أنَّ لها أسرة في الجانب الآخر من الجبل. وعلى الرَّغم من ضآلة جسدها الذي كجسد عصفور دوريّ، فقد استعادت الطفلة عافيتها بسرعة، إذ تبيَّن أنَّها أقوى ممَّا كانت تبدو عليه. سمحت بحلاقة شعر رأسها كلِّه بسبب القمل، وتحمَّلت العلاج بالكبريت للشفاء من الجَرَب من دون أن تُبدي أيَّ مقاومة؛ وكانت

t.me/qurssan

ـأكل بنهم، وقدّمت أدلّة على أنّها تتمتّع، بصورة لا يُمكن تبريرها، بطبع متّزن، بالنظر إلى ظروفها المحزنة. خلال الأسابيع التي أمضتها في ذلك البيت، تعلّق الجميع بها، ابتداء من السيّدة الهاذية وحتّى الخادم الأخير. فلم تتواجد طفلة من قبل في هذا البيت الكبير الحجريّ الكالح، حيث تحوم قطط شبه متوحّشة وأشباح من عصور أخرى. وكان أكثرهم افتتانًا بها هو الأستاذ الجامعيّ الذي كان يتذكّر بطريقة حيّة امتياز تعليم عقل نهم؛ ولكنّ مكوث الطفلة معهم لا يمكن له أن يستمرّ بصورة لانهائيّة. انتظر دون سنتياغو إلى أن تشفى تمامًا، وتكتسب بعض اللّحم على عظامها، قبل أن يذهب إلى الجانب الآخر من الجبل بحثًا عن ذينك الأبويْن المتهاونيْن، ومواجهتهما ببعض الحقائق. ألقى البنت مدثّرة جيّدًا في سيّارته، وصمّ أذنيه عن توسّلات زوجته، ومضى بها.

وصلا إلى بيت فقير من الطين خارج القرية، بالغ البؤس كغيره من بيوت المنطقة. الفلّاحون يعيشون على مداخيل شحيحة لا تقي من الجوع، يعملون في الأرض كعبيد في ملكيّات السادة أو الكنيسة. نادى الأستاذ الجامعيّ صارخًا، فخرج إلى الباب عدّة أطفال مرعوبين، تبعتهم جنّيّة ترتدي السّواد، لم تكن جدّة روزر، مثلما توقّع هو نفسه، وإنّما أمّها. أولئك الناس لم يتلقّوا من قبل زيارة في سيّارة، وسيطر عليهم الوجوم عندما ترجّلت روزر من السيّارة مع ذلك السيّد الوجيه جدًّا. «جئت للحديث بشأن هذه الطفلة»، أعلن دون سنتياغو بالنبرة الفوقيّة التي تجعل طلّابه في الجامعة يرتجفون؛ ولكنّه قبل أن يتمكّن من إضافة المزيد، شدّت المرأةُ روزر من شعرها، مؤنّبة إيّاها بالصراخ والصفعات، لأنّها تركت العنزات. فأدرك عندئذٍ عدم جدوى أيّ لوم لتلك المرأة الحانقة، وصاغ على الفور الخطّة التي ستُبدّل مصير البنت.

t.me/qurssan

أمضت روزز بقية طفولتها في بيت آل غوثمان، تحت تسمية الإيواء رسميًا، وكخادمة شخصيّة للسيّدة، ولكن كتلميذة لدى السيّد أيضًا. فمقابل مساعدة الخادمات وبعث البهجة في أيام المجنونة الوديعة، حصلت على الإقامة والتعليم. تقاسم المؤرّخ معها قسمًا لا بأس به من مكتبته، وعلّمها أكثر ممّا كان يمكن لأيّ مدرسة أن تعلّمها إيّاه، ووضع تحت تصرُّفها البيانو الكبير الذي كان لزوجته التي لم تَعُدْ تتذكّر لأيّ شياطين ينفع ذلك الهيكل الخشبيّ الأسود المزعج. أمّا روزز التي أمضت السنوات الستّ الأولى من حياتها من دون أن تسمع من الموسيقى سوى أكورديونات السكارى في ليلة سان خوان، فقد تبيَّن أنّها تتمتَّع بقدرات استماع استثنائيّة. كان هنالك في البيت فونوغراف بأسطوانة، ولكنْ عندما تأكَّد دون سنتياغو من أنَّ محميَّته قادرة على عزف الألحان على البيانو بعد أن تسمعها مرَّة واحدة، أوصى على غرامو فون حديث من مدريد مع مجموعة أسطوانات. وخلال وقت قصير، صارت روزز بروغيرا التي لا تصل قدماها إلى دوّاسات البيانو، تعزف موسيقى الأسطوانات وهي مغمضة العينيْن. ولشدَّة سعادته، خصَّص لها معلّمة بيانو في سانتا فه. وصار يرسلها إلى الدروس ثلاث مرّات في الأسبوع، ويتابع بنفسه تدريباتها. أمّا روزز التي كانت قادرة على عزف أيّ لحن من الذاكرة، لم تجد أيّ مغزى لتعلُّم قراءة النوتة الموسيقيّة، والتّدرُّب لساعات طويلة على السُّلَّم نفسه، ولكنّها كانت تفعل ذلك احترامًا لمرشدها.

في الرّابعة عشرة من عمرها، تفوّقت روزز بفارق كبير على معلّمتها في العزف على البيانو. وعند بلوغها الخامسة عشرة، وفُر لها دون سنتياغو منحة تُقدَّم لأنسات كاثوليكيّات في برشلونة، كي تدرس الموسيقى. كان

t.me/qurssan

رغب في استبقائها إلى جانبه، ولكنّه فضّل واجبه في تربيتها وتعليمها على مشاعره الأبويّة. كانت الفتاة قد تلقّت من الربّ موهبةً خاصّة، وكان دوره في هذه الدُّنيا يتلخّص في مساعدتها على تطويرها، هذا ما قرّره. في تلك الأثناء، كانت المجنونة الوديعة قد أخذت بالانطفاء، ثمّ ماتت أخيرًا بلا صَخَب. أمّا سنتياغو غوثمان، فبدأت السنوات تُثقل عليه بصورة جدّيّة باعتكافه في بيته فقط، واضطرّ إلى التّخلّي عن مشاوير مسيره حاملًا عكّاز الحاج، وصار يقضي الوقت جالسًا يقرأ قبالة مدفأة الحطب. وقد مات كلب صيده كذلك، ولم يشأ إحضار كلب بديل، كيلا يموت هو نفسه قبله ويترك الكلب بلا سيّد.

ساء طبع العجوز بصورة حاسمة مع قيام الجمهوريّة الثانية عام 1931. فما إن عُرفت نتائج الانتخابات، وكانت لمصلحة اليسار، حتّى غادر الملك ألفونسو الثالث عشر إلى المنفى في فرنسا. ورأى دون سنتياغو، المؤيّد للنظام الملكيّ والمحافظ المتطرّف والكاثوليكيّ، أنّ عالمه ينهار. لن يتسامح أبدًا مع الحمر، ولن يتمكّن من التأقلم مع جلافتهم: فهؤلاء الأشرار هم عملاء للسوفييت، وسيتمادون في إحراق الكنائس وإعدام الكهنة. ويؤكّد أنّ هذا الذي يُقال عن أنّنا جميعنا متساوون يمكن التّعلّل به كتشدّقات نظريّة، أمّا عمليًا، فهو ضلال وانحراف: فنحن أمام الربّ غير متساوين، لأنّ الربّ نفسه هو من أوجد طبقات اجتماعيّة وفوارق أخرى بين البشر. صادر الإصلاح الزراعيّ أراضيه، وهي ضئيلة القيمة، ولكنّها كانت ملك أسرته منذ الأزل. وبين يوم وآخر، صار الفلّاحون يتحدّثون معه من دون أن يخلعوا قبّعاتهم، ومن دون أن يطأطئوا رؤوسهم ويُخفضوا أبصارهم. كان تكبُّر من هم أدنى منه مكانةً يؤلمه أكثر من خسارته أراضيه، لأنّها إهانة مباشرة لكرامته وللمكانة

t.me/qurssan

التي كان يتبوأها على الدَّوام في هذا العالم. سرَّح الخَدَم الذين عاشوا طوال عقود تحت سقفه، وأمر بتوضيب مكتبته ومقتنياته من الأعمال الفنيَّة، ومجموعاته وذكرياته، وأغلق مداخل المنزل بالأحجار والطين. ملأت الحمولة ثلاث شاحنات، لكنَّه لم يستطع حمل قطع الأثاث كبيرة الحجم ولا البيانو، لأنَّ بيته في مدريد لا يتَّسع لها. بعد شهور من ذلك، قام عمدة سانتا فه الجمهوريّ بمصادرة البيت ليحوّله إلى ملجأ للأيتام.

بين خيبات الأمل الخطيرة وأسباب الغضب الكثيرة التي عانى منها دون سنتياغو في تلك السّنوات، هناك التَّحوُّل الذي طرأ على محميَّته. فتحْتَ تأثير المتمرّدين الخبيث في الجامعة، وبصورة خاصَّة البروفسور المدعوّ مارسيل لويس دالماو، الشيوعيّ أو الاشتراكيّ أو الفوضويّ، لا فرق في نهاية المطاف؛ فهو بلشفيٌّ فاسد وخبيث، راحت صغيرته .روزر تتحوَّل إلى حمراء. فقد غادرت نزل الآنسات ذوات العادات الحميدة، وذهبت للعيش مع فاجرات يرتدين زيَّ الجنود ويمارسن الحبّ الحرّ ـ مثلما كانوا يسمُّون آنذاك الاختلاط، وقلَّة الحياء وعدم الاحتشام. ولكنَّه يقرّ، وهذا صحيح، أنَّ روزر لم تسئ احترامه قطّ، لكنَّها سمحت لنفسها بتقبل آراء خصومه، فكان من الطبيعيّ أن يوقف مساعدته لها. ومن خلال رسالة، شكرته الفتاة من أعماق روحها على كلّ ما فعله من أجلها، ووعدته بأن تحاول البقاء دومًا على الطريق القويم بما يتَّفق مع مبادئها، وأوضحت له أنَّها تعمل ليلًا في مخبز، بينما تواصل في النهار دراسة الموسيقى.

أمَّا دون سنتياغو غوثمان الذي استقرَّ في شقَّة فاخرة بمدريد، حيث يكاد لا يستطيع التَّحرُّك بسبب كمّيَّة الأثاث والأغراض، ويعيش منفصلًا عن ضجيج الشارع وابتذاله بفضل ستائر سميكة من مخمل

t.me/qurssan

،اون دم الثور، ومعزولًا اجتماعيًا بسبب صَمَمِه وعجرفته المتمادية، لم ،ملم كيف كانت تزدهر أشدّ الضغائن رهبة في بلاده، ضغائن كانت ،غذّى منذ قرون على بؤس البعض وهيمنة آخرين. وقد مات وحيدًا ،عاضبًا في شقّته بحيّ سلمنكا، قبل أربعة أشهر من تمرُّد قوات فرانكو. ،ظلّ واعيًا ومتّزنًا حتّى اللّحظة الأخيرة، ومتقبّلًا للموت، بل إنّه رتب ،فسه صحيفة نَعْيِه، لأنّه لم يشأ أن يتولّى شخص جاهل نشر أمور مزيّفة ،نه. لم يودّع أحدًا، ربّما لأنّه لم يبقَ أحد من المقرّبين منه في هذا العالم، ولكنّه تذكّر روزر بروغيرا، وفي إيماءة مصالحة نبيلة، ترك لها ،ميراث البيانو الضخم الذي كان لا يزال محفوظًا في صندوق تعليبه ،ي إحدى حجرات ميتم سانتا فه.

سرعان ما استطاع البروفسور مارسيل لويس دالماو تمييز روزر بين ،مّن سواها من طُلّاب وطالبات. وفي سَعْيه لتعليم تلاميذه ما يعرفه ،ن الموسيقى وعن الحياة، كانت تتسرَّب منه أفكار سياسيّة وفلسفيّة، ،ؤثّر فيهم من دون شكّ أكثر ممّا يتوقّعه هو نفسه؛ وقد كان سانتياغو ،وثمان محقًّا في هذه النُقطة. فمن خلال تجربته، كان دالماو لا يثق ،الطلّاب الذين يجدون سهولة مفرطة في تعلُّم الموسيقى، وقد اعتاد أن ،ردّد بكثرة، أنّه لم يمرّ عليه أيّ موزارت بعد. لقد رأى من قبل حالات مثل روزر؛ شبّانًا لديْهم قدرة استماع جيّدة تتيح لهم العزف على أيّ آلة موسيقيّة، فيتحوّلون إلى كسالى مقتنعين بأنّ ذلك سيكون كافيًا لاتّقانهم المهنة، وبأنّه يمكنهم الاستغناء عن الدراسة والانضباط. كثيرون منهم ،نتهي بهم الأمر إلى كسب عيشهم من العمل في جوقات شعبيّة، يعزفون ،ي حفلات، وفي فنادق ومطاعم، متحوّلين بذلك إلى موسيقيّي حفلات ،فاف، مثلما يسمّيهم هو نفسه. لكنّه قرّر إنقاذ روزر بروغيرا من مثل تلك

t.me/qurssan

النكبة، فاحتضنها تحت جناحه. وحين عَلِم أنّها وحيدة في برشلونة، فتح لها أبواب بيته. وعندما علم أنّها ورثت جهاز بيانو، وليس لديْها مكان تضعه فيه، أفرغ صالون بيته من الأثاث ليضع البيانو فيه، ولم يُبدِ أيّ اعتراض على تردُّد الفتاة المتواصل التي كانت تزورهم يوميًا بعد انتهاء دروسها. وكانت زوجته كارمي تقدّم لروزر سرير ابنها وليام، الذي يشارك في الحرب، كي تنام بضع ساعات قبل أن تذهب إلى عملها في المخبز الساعة الثالثة فجرًا، من أجل إعداد خبز الصباح. وهكذا، لكثرة ما نامت على وسادة ابن الزوجيْن دالماو الصُّغير، واستنشقت أثر رائحته كرجل شاب، أحبّته من دون أن يصرفها عن ذلك البعادُ أو الزمن أو الحرب.

صارَت روزر، من دون انتباه منها، جزءًا من الأسرة كما لو أنّها من الدم نفسه؛ تحوُلت إلى الابنة التي طالما تمنّى آل دالماو إنجابها. كانوا يعيشون في بيت متواضع، كئيب بعض الشيء، ومُتردٍّ إلى حدٍّ كبير، بسبب سنوات طويلة من الاستخدام من دون إصلاح أو ترميم، ولكنّه بيت فسيح. عندما ذهب الابنان إلى الحرب، عرض مارسيل لويس على روزر أن تعيش معهما. وهكذا، يمكنها تقليص نفقاتها، والعمل لساعات أقلّ، والتّدرُّب على البيانو عندما تشاء، وفي أثناء ذلك تساعد زوجته في أعمالها المنزليّة. لقد كانت كارمي تشعر بأنّها متقدّمة بما يكفي في العمر، وإن يكن أقلّ من زوجها بكثير، لأنّها تمضي شبه مختنقة وتلهث بشدَّة، بينما هو لديه فائض من الحيوية. فكانت كارمي تتنهَّد قائلة: «قواي تكاد لا تكفي لأكثر من محو أمّيّة أعضاء الميليشيا، وعندما لا يعود عملي هذا ضروريًا، لن يبقى لي مفرّ من الموت». في السنة الأولى من دراسته الطبّ، شخّصَ ابنها حالتها بأنَّ رئتيها أشبه بالقرنَبيط. «يا للعنة، يا كارمي، إذا كنت ستموتين، فإنَّ التّدخين هو السّبب»، كان زوجها يؤنّبها حين

t.me/qurssan

...معها تسعل، من دون أن يحسب حساب التبغ الذي يستهلكه هو ...سه، ومن دون أن يتخيَّل أنَّ الموت سيصل إليه قبلها!

وهكذا، حدث أنَّ روزر بروغيرا المتعلِّقة بآل دالماو، كانت إلى جانب البروفسور في أيَّام نوبته القلبيَّة. تخلَّت عن الذهاب إلى الدروس، ولكنَّها واصلت العمل في المخبز؛ وكانت تتناوب مع كارمي لمساعدته في قضاء حاجاته الضروريَّة. وفي ساعات الرَّاحة، كانت تسلّيه بمعزوفات ...ونشيرتو على البيانو، تملأ البيت بالموسيقى وتطمئن المحتضر. ولأنَّها كانت هناك، فقد شهدت وصايا البروفسور الأخيرة لابنه الأكبر.

ـ عندما لا أعود موجودًا، يا فيكتور، ستكون أنت المسؤول عن أمِّك وعن روزر، لأنَّ وليام سيموت وهو يقاتل. لقد خسرنا الحرب، يا ...ني ـ قال له مع فواصل توقُّف طويلة لالتقاط أنفاسه.

ـ لا تقل هذا، يا أبتاه.

ـ لقد عرفتُ ذلك في شهر آذار، عندما قصفوا برشلونة. كانت الطائرات إيطاليَّة وألمانيَّة. إنَّ الحقّ بجانبنا، ولكنَّ ذلك لن يحول دون الهزيمة. إنَّنا وحدنا، يا فيكتور.

ـ يمكن لكلِّ شيء أن يتبدَّل إذا ما تدخَّلت فرنسا وإنكلترا والولايات المتَّحدة.

ـ دعك من الولايات المتَّحدة، فهي لن تساعدنا بأيِّ حال. قيل لي إنَّ إليانور روزفيلت حاولت أن تقنع زوجها كي يتدخَّل، ولكنَّ الرئيس يواجه رأيًا عامًّا مضادًّا له.

ـ ولكنَّه ليس إجماعًا، يا أبي، فأنت ترى أنَّ هناك شبَّانًا كثيرين في لواء لنكولن قد جاؤوا مستعدِّين للموت معنا.

t.me/qurssan

ـ إنَّهم مثاليُّون، يا فيكتور. وهؤلاء قلَّة في العالم. كثير من القنابل التي سقطت علينا في شهر آذار كانت أميركيَّة الصنع.

ـ أبتاه، فاشيَّة هتلر وموسوليني ستتمدَّد في أوروبا ما لم نقطع دابرها هنا في إسبانيا. لا يمكننا خسارة الحرب؛ لأنَّ خسارتها تعني نهاية كلِّ ما حقَّقه الشعب والعودة إلى الماضي، إلى البؤس الإقطاعيِّ الذي عشناه قرونًا.

ـ لن يأتي أحد لمساعدتنا. فكِّر بما أقوله لك، يا بنيَّ، حتَّى الاتِّحاد السوفييتيّ تخلَّى عنَّا. فإسبانيا لم تَعُد تهمّ ستالين. عندما تسقط الجمهوريَّة سيكون القمع مرعبًا. لقد فرض فرانكو طريقته في التطهير، هذا يعني: أقصى ما يُمكن من الرُّعب، الحقد الشامل، الانتقام الأكثر دمويَّة. لن يفاوض ولن يعفو. قوَّاته تقترف فظاعات لا يُمكن وصفها...

ـ ونحن أيضًا، ردَّ فيكتور الذي كان قد رأى الكثير.

ـ كيف تجرؤ على المقارنة! سيكون هناك حمَّام دم في كتالونيا. ولن أعيش لمعاناته، يا بنيَّ، ولكنَّني أريد أن أموت مطمئنًّا. عليك أن تعدني بأن تأخذ أمَّك وروزر إلى الخارج. الفاشيُّون سيمثِّلون بكارمي، لأنَّها شاركت في محو أميَّة الجنود؛ إنَّهم يعدمون الناس لأسباب أقلّ من هذه بكثير. وسينتقمون منك، لأنَّك تعمل في مستشفى للجيش، وسيمثِّلون بروزر لأنَّها شابَّة فتيَّة. أتدري ما الذي يفعلونه بالفتيات، ألا تعرف؟ إنَّهم يعطونهن للمورو. لقد خطَّطتُ للأمر. ستذهبون إلى فرنسا إلى أن تستقرّ الأحوال وتتمكَّنوا من الرجوع. ستجد في مكتبي خريطة وبعض النقود التي ادَّخرتُها. عاهدني أن تفعل ذلك.

ـ أعاهدك، يا أبي، أجابه فيكتور، من دون أن تكون لديْه نوايا حقيقيَّة بالتنفيذ.

t.me/qurssan

ـ تفهَّم، يا فيكتور، أنَّ ذلك ليس جُبنًا، وإنَّما من أجل البقاء على قيد الحياة.

لم يكن مارسيل لويس دالماو هو الوحيد الذي تخامرهُ الشكوك بشأن مستقبل الجمهوريّة، ولكنْ لم يكن هناك من يتجرّأ على التّعبير عن ذلك، لأنَّ أسوأ خيانة هي إشاعة اليأس أو الرُّعب بين سكّان مستنفدين، عانوا وتحمّلوا الكثير.

في اليوم التالي، دفنوا البروفسور مارسيل لويس دالماو. أرادوا أن يفعلوا ذلك بتكتُّم، لأنَّ الأزمنة لم تكن مناسبة لأحزان حِداد خاصّة، ولكنَّ الخبر شاع، وحضر إلى مقبرة مونجويك أصدقاؤه من روّاد حانة روسينانتي، وزملاؤه في الجامعة وبعض التلاميذ السّابقين المتقدّمين في العمر، لأنَّ من هم أكثر شبابًا كانوا في جبهات القتال أو تحت التراب. وكانت كارمي، بملابس الحِداد الكاملة، من الخمار حتّى الجوارب السوداء، على الرَّغم من حرّ حزيران، وقد سارت وراء نعش رجل حياتها، مستندة إلى فيكتور وروزر. لم تكن هنالك صلوات ولا خطابات ولا دموع. طلّابه ودُعوه بعزف الحركة الثانية من الخماسيّة الوتريّة لشوبّان، مكآبتها تتوافق مع المناسبة. وبعد ذلك، غنّوا إحدى أغنيات قوّات الميليشيا التي كان البروفسور نفسه هو من وضع موسيقاها.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثاني
1938

« شيء، ولا حتّى النصر،
...محو ثقب الدم الرهيب.

پابلو نيرودا
«أراض غاضبة»
«إسبانيا في القلب»
الإقامة الثالثة

t.me/qurssan

t.me/qurssan

غاشت روزر بروغيرا حبُّها الأوَّل في بيت البروفسور دالماو، . . . دعاها هو نفسه للسُّكن معهم بحجَّة مساعدتها في دراستها، مع ان كليْهما كان يعرف أنَّها مسألة إحسان أكثر منها تعليميَّة. كان الشكّ ... البروفسور في أنَّ تلميذته المفضَّلة تأكل أقلّ من القليل، وأنَّها ... اج إلى أسرة. وتحتاج بصورة خاصَّة إلى شخص مثل كارمي التي لا ... اهتماماتها الأموميَّة إلَّا القليل من الصدى لدى فيكتور، ولا شيء ... لدى وليام. كان تلك هي السنة التي أحسَّت فيها روزر بالضجر ... نظام الثكنة العسكريَّة السَّائد في بينسيون الآنسات المحترمات، ... هبت للعيش في برشلونة، بحيّ صيَّادي السَّمك، في الحُجرة الوحيدة الي استطاعت الحصول عليها بسعر في متناول يدها، مع ثلاث بنات ... الميليشيَّات الشعبيَّة. كان عمرها تسعة عشر عامًا، وكانت الفتيات الأخريات يكبرنها سنًّا بأربع أو خمس سنوات، ولكنَّهنَّ يكبرنها عشرين سنة في التجربة والتَّفكير، فتيات الميليشيا اللَّاتي كنَّ يعشن في عالم مختلف جدًّا عن عالم روزر، كنَّ يلقِّبنها «المبتدئة»، وكنَّ في معظم الأحيان يستبعدنها جانبًا بصورة كاملة. يتقاسمن معها في الحُجرة أربعة أسرَّة من طبقتيْن ـ تنام روزر في أحد السريريْن العُلويَّيْن؛ وكرسيَّيْن، ومغسلة، وخابية ماء ومبولة، وموقد كيروسين، ومسامير في الجدران

t.me/qurssan

لتعليق الثياب، وحمَّامًا مُشترَكًا يخدم بضعة وثلاثين مستأجرًا. كنَّ نساء، مرحات وجريئات، يستمتعن على هواهنَّ بحرِّيَّة أزمنة الاضطرابات تلك؛ كنَّ يرتدين الزيَّ النظاميّ، وكذلك الأحذية والقبَّعة النظاميَّة، لكنَّهنَّ يطلّيْن شفاههنَّ ويجعّدن شعورهنَّ بحديدة تُسخَّن على موقد جمار فحم. يتدرَّبنَ بعصيٍّ خشبيَّة أو ببنادق مستعارة، ويطمحنَ في الذهاب إلى الجبهة واللّقاء بالعدوّ وجهًا لوجه، بدل قيامهنَّ بأعمال النقل والتّموين والطبخ والتّمريض التي خُصّصت لهنَّ بذريعة أنَّ الأسلحة السوفييتيَّة والمكسيكيَّة تكاد لا تكفي الرجال، وأنَّه سيُساء استخدامها في الأيدي الأنثويَّة. بعد بضعة شهور من ذلك، عندما احتلَّت القوات القوميَّة ثلثَيْ إسبانيا وواصلت تقدُّمها، حقَّقت الفتيات رغبتهنَّ بالتواجد في الطليعة. اثنتان منهنَّ تعرَّضتا للاغتصاب والذبح في هجوم للقوات المراكشيَّة. وظلَّت الثالثة على قيد الحياة خلال سنوات الحرب الأهليَّة الثلاث، وبعد ذلك خلال سنوات الحرب العالميَّة الثانية الستّ، متشرّدة في الظلّ من مكان إلى آخر في أوروبا، إلى أن تمكّنت من الهجرة إلى الولايات المتَّحدة في عام 1950. وانتهى بها المطاف في نيويورك، حيث تزوَّجت من مثقَّف يهوديّ، كان قد قاتل في إسبانيا ضمن لواء لنكولن، ولكنْ هذه قصَّة أخرى.

كان وليام دالماو أكبر بسنة واحدة من روزر بروغيرا. وبينما كانت الفتاة تُشَرِّف لقب المبتدئة بأثوابها الصارمة التي مضى زمن رواجها، كان هو متباهيًا ومتحدّيًا، يرى نفسه سيّدًا للعالم. أمَّا هي، بالمقابل، فكان يكفيها أن تكون معه في مناسبتيْن اثنتيْن فقط كي تُدرك أنَّه تحت مظهره المتغطرس يخبّئ قلبًا طفوليًّا، مضطربًا أو رومنسيًّا. وفي كلّ مناسبة يعود فيها وليام إلى برشلونة، كان يبدو أكثر تركيزًا؛ ولم يكن قد تبقَّى

t.me/qurssan

.. أيَّ شيءٍ من ذلك الصبيّ الأرعن الذي كان يسرق شمعدانات الكنيسة. لقد صار رجلًا ناضجًا، مقطّب الجبين مع شحنة رهيبة من العنف المكبوت، والجاهز للانفجار عند أدنى استفزاز. كان ينام في الثكنة، ولكنّه اعتاد المجيء لقضاء ليلتيْن كلَّ أسبوع في بيت أبويْه، وذلك من أجل احتمال أن يلتقي بروزر قبل أيِّ شيء آخر. وكان يهنّئ نفسه لتجنُّبه الارتباطات العاطفيّة التي تسبِّب الكثير من الغمّ للجنود البعيدين عن الخطيبة أو الأسرة. كانت الحرب تستغرقه بالكامل ولا تسمح بأيّ شرود ذهن، ولكنّ تلميذة أبيه لم تكن تمثِّل خطرًا على استقلاليّته كعازب؛ فهي ليست أكثر من تسلية بريئة. يمكن لروزر أن تكون جذّابة، وذلك بحسب الضوء وزاوية الرؤية، ولكنّها لم تكن تفعل أيّ شيء لتبدو كذلك؛ وكانت بساطتها تلك تلمس وترًا سرّيًّا في روح وليام. لقد كان معتادًا على التأثير الذي يمارسه على النساء بصورة عامّة، ولم يغب عنه أنّه يمارسه كذلك على روزر، بالرّغم من أنّها كانت عاجزة عن القيام بأيّ محاولة غزو. «الفتاة مغرمة بي، وكيف لا تكون كذلك، ما دامت المسكينة لا تعرف من الحياة سوى البيانو والمخبز، ولسوف تتجاوز ذلك»، كان يفكّر. لكنّ أباه كان قد نبّهه: «حذارِ، يا وليام، هذه الصّغيرة مقدّسة، وإذا ما ضبطتك في أيّ أساءة احترام..»..

«كيف يخطر لك مثل هذا الخاطر، يا أبتاه! روزر بمقام أختي». ولكنّها لم تكن كذلك، لحسن الحظ. وبالحكم من خلال طريقة اهتمام أبويْه بها، لا بدّ أنّ روزر كانت عذراء، واحدة من الأخيرات القليلات اللّاتي بقين عذراوات في إسبانيا الجمهوريّة. لا سبيل إلى تجاوز الحدود معها، ولا بأيّ حال. ولكنْ، لا يمكن لأحدٍ أن يؤنّبه على قليل من الحنان، على ملامسة للركبتيْن تحت المنضدة، على دعوة إلى السينما للمسها

t.me/qurssan

في الظلام، بينما هي تبكي مع الفيلم، وترتجف من الخجل والشهوة. ومن أجل ملامسات أكثر جرأة، يعتمد على بعض رفيقاتها من أعضاء الميليشيا المتحرّرات، المتأهّبات وذوات الخبرة.

بانتهاء إجازته القصيرة في برشلونة، رجع وليام إلى الجبهة بنيّة أن يركّز فقط على البقاء حيًا والانتصار، ولكنّه كان يجد صعوبة في نسيان وجه روزر بروغيرا الجَزِع ونظرتها الصافية. لم يكن يتقبّل حتّى في أعماق صمت قلبه كيف أنّه بحاجة إلى رسائلها وعلب حلويّاتها، والجوارب واللفّاعات التي تحوكها له. لديْه صورة لها، الصورة الوحيدة في محفظة جيبه. تقف فيها روزر بجانب بيانو، ربّما خلال حفلة موسيقيّة، بثوب قاتم، بسيط، تنّورته أطول مما هو معهود، وكُمّاه قصيران، وياقته مخرّمة، فستان تلميذة سخيف يخفي تكوّراتها. على قطعة الكرتون تلك، التي بالأبيض والأسود، تبدو روزر نائية وضبابيّة، امرأة بلا رشاقة، بلا سنّ محدّدة، بلا ملامح؛ لا بدّ من لمْح التضادّ ما بين عينيْها اللّتيْن بلون العنبر وشعرها الأسود، وأنفها المستقيم كأنف تمثال، وحاجبيْها المُعبّريْن. وأذنيْها البارزتيْن، وأصابعها الطويلة، ورائحتها الصابونيّة.. تفاصيل تستثير لهفة وليام، تداهمه فجأة، تنقضّ عليه وهو نائم. كانت هذه التّفاصيل هي السهو الذي يمكن له أن يكلّفه حياته.

بعد تسعة أيّام من جنازة أبيه، في مساء يوم أحدٍ، وصل وليام دالماو إلى بيته من دون إشعار مسبق، في سيّارة عسكريّة مترجرجة. خرجت روزر للقائه وهي تمسح يديْها بخرقة مطبخ من دون أن تتعرّف، للوهلة الأولى، على الرجل النّحيل وبارز العظام الذي يسنده اثنان من رجال الميليشيا من ذراعيْه. كانت قد مضت أربعة أشهر من دون أن تراه، أربعة أشهر وهي تغذّي وهمها بالعبارات القليلة التي يبعث بها إليها

t.me/qurssan

في أوقات متباعدة، ويشير فيها إلى الأحداث في مدريد، بلا أيّ كلام عاطفيّ، رسائل أشبه بالتقارير، على أوراق منتزعة من دفتر، ومكتوبة بخطّ مدرسيّ. كلُّ شيء هنا على حاله، لا بدَّ أن تكوني قد علمتِ كيف نقوم بالدُّفاع عن المدينة، الجدران كلُّها مليئة بالثقوب بفعل قذائف الهاون، الأنقاض في كلّ مكان، الفاشيُّون يعتمدون على ذخائر إيطاليَّة وألمانيَّة، إنهم قريبون منَّا إلى حدّ أنّنا نستطيع أحيانًا أن نشمّ رائحة التبغ الذي يدخّنونه، يا لهؤلاء التعساء! نسمعهم يتبادلون الحديث، يصرخون بنا لاستفزازنا، ولكنَّهم مخدَّرون بالخوف، باستثناء المورو الذين هم أشبه بالضباع ولا يخافون شيئًا، يفضّلون سكاكين الذبح التي يحملونها على البنادق، والقتال جسدًا لجسد، ورائحة الدم؛ التعزيزات تصلهم كلَّ يوم، ولكنَّهم لا يتقدَّمون مترًا واحدًا؛ نفتقد هنا الماء والكهرباء، كما أنّ الطعام شحيح جدًّا، ولكنَّنا نتدبَّر أمورنا؛ إنَّني على ما يرام. نصف المباني تحوَّلت إلى أنقاض على الأرض، لا يستطيعون جمع الأجساد، فتبقى ملقاة على الأرض حيث تسقط، حتَّى اليوم التالي، عندما يمرّ المسؤولون عن مستودع الجثث. لم يتمكَّنوا من إخلاء جميع الأطفال.. لو أنَّكِ ترين مدى عناد بعض الأمَّهات، إنَّهنَّ لا ينصعن، يرفضن الذهاب أو الانفصال عن أبنائهنَّ، من يستطيع أن يُفهمهنَّ. كيف حال البيانو؟ ما هي أخبار أبويَّ؟ قولي لأمّي ألَّا تقلق عليَّ.

- يا يسوع! ما الذي حدث لك، يا وليام، بحقّ الرب! صاحت روزر عند العتبة عائدة إلى صيغ الكلام الكاثوليكيَّة الجاهزة.

لم يُجب وليام. كان رأسه يتدلَّى على صدره، ساقاه لا تحملانه. وفي هذه اللَّحظة ظهرت كارمي، آتية من المطبخ أيضًا، وصعدت الصرخة من قدميْها، ووصلت إلى حنجرتها، وجعلتها تنحني في نوبة سعال.

t.me/qurssan

ـ الهدوء، يا رفيقات. ليس جريحًا. إنّه مريض، قالت بثبات واحدة من عناصر الميليشيا.

ـ من هنا، أشارت لهنّ روزر، واقتادتهنّ مع حمولتهنّ إلى الغرفة التي كانت لوليام من قبل، وتشغلها هي الآن. مدّدته المرأتان على السرير وانسحبن، ولكنّهما رجعتا بعد قليل تحملان جعبة وليام وبطّانيّته وبندقيّته، ثمّ انصرفن مع عبارة وداع مقتضبة والتمنّيات بالصحّة الجيّدة. وبينما كانت كارمي لا تزال تسعل بيأس، خلعت روزر جزمته العسكريّة الممزّقة وجوربَي المريض النتنيْن، باذلة جهدها للسيطرة على الغثيان الذي تستثيره فيها نتانته. لا يمكن مجرّد التّفكير في نقله إلى المستشفى الذي صار مركزًا لنقل عدوى الالتهابات، أو محاولة الحصول على طبيب، لأنّ جميع الأطباء كانوا مشغولين بجرحى الحرب.

ـ يجب غسله، يا كارمي، إنّه مغطّى بالقذارة. حاولي أن تجعليه يشرب ماء. سأذهب طيرانًا إلى مركز الهاتف للاتّصال بفيكتور، قالت الفتاة التي لا تريد رؤية وليام عاريًا، وغارقًا في برازه وبوله. وعبر الهاتف، أوضحت روزر الأعراض لفيكتور: حرارة مرتفعة جدًّا، صعوبة في التّنفّس، إسهال.

ـ يئنّ عندما نلمسه. لا بدّ أنّه يعاني آلامًا شديدة، أظنّ أنّ آلامه في البطن، ولكنْ في بقيّة الجسم أيضًا.. أنت تعرف أنّ أخاك لا يحبّ الشكوى!

ـ إنّه التيفوس، يا روزر. هنالك جائحة بين المقاتلين؛ ينقلها القمل، والبراغيث، والمياه الملوّثة والقذارة. سأحاول الذهاب لرؤيته

t.me/qurssan

...، ولكنْ من الصّعب جدًّا عليّ أن أترك موقع عملي، المستشفى ...ملئ تمامًا، في كلّ يوم يصلنا عشرات الجرحى الجُدد. أوّل ما يجب ...له الآن هو إعطاؤه السّوائل وتخفيض حرارته. لفّيه بمناشف مبلّلة ...، بارد، واجعليه يشرب ماءً مغليًّا مع قليل من السّكر والملح.

أمضى وليام دالماو أسبوعيْن تحت رعاية أمّه وروزر، وكان يتابعه ...س مانريسا أخوه الذي تتّصل به روزر يوميًّا، لتُخبره بحالته، وتتلقّى ...عليمات لتجنّب العدوى. كان عليهم القضاء على القمل في الملابس، ...مكان أفضل حلّ هو حرقها، وغسل كلّ شيء بمحلول الصودا، واستخدام أوعية خاصّة بوليام، وغسل الأيدي بعد كلّ تعامل معه. كانت الأيّام الثلاثة الأولى حرجة. فقد ارتفعت حرارة وليام حتّى أربعين درجة، ...كان يهذي، ويتشنّج من آلام الرأس والغثَيان، ويهزُّه سُعال جافّ، وكان ...رازه سائلًا ضاربًا إلى الخضرة أشبه بحساء البازيلاء. في اليوم الرابع، انخفضت حرارته، ولكنّهم لم يتمكّنوا من إيقاظه. فأشار عليهم فيكتور ...أن يهزُّوه لإجباره على شرب الماء، وأن يتركوه بقيّة الوقت نائمًا، لأنّه ...حاجة إلى السّكينة والراحة.

أُلقيت العناية المباشرة بالمريض على كاهل روزر، لأنّ كارمي، ...بسبب تقدّمها في السنّ وحالة رئتيْها، كانت أكثر عُرضة للعدوى. وبينما كانت روزر تقضي اليوم في البيت، تقرأ وتُخيط إلى جانب سرير وليام، كانت كارمي تخرج لمحو أميّة الأمّيّين، وللوقوف في صفوف الدور أمام المتاجر. واصلت روزر العمل في المخبز ليلًا، لأنّهم يدفعون لها أجرها خبزًا. حصص العدس تقلّصت إلى نصف فنجان للشخص في اليوم، فلم يبقَ هناك قطط للطبخ المكمور ولا حمائم للمسلوق، وكان خبز روزر كقطعة آجرّ قاتمة له طَعم نشارة الخشب، وقد تحوّل الزيت إلى

t.me/qurssan

ترف، فكانوا يخلطونه بزيت المحرّكات لتكثيره. وكان الناس يزرعون خضروات في أحواض الاستحمام أو على الشرفات. ويجري تبادل مقتنيات عائليّة قديمة ومجوهرات مقابل بطاطا وأرزّ.

ومع أنّ روزر لم تكن ترى أُسرتها، إلّا أنّها كانت تحتفظ بعلاقات مع بعض فلّاحي المنطقة، فكانت تحصل بذلك على خضروات، أو قطعة من جبن الماعز، أو على قطعة سجق في المناسبات التي يذبحون فيها خنزيرًا. لم تكن ميزانيّة كارمي تكفي للشراء من السّوق السّوداء، حيث لا يوجد سوى القليل من المأكولات، ولكنّها كانت الملاذ الأخير للحصول على السجائر والصابون. وأمام ضرورة تعزيز قوى وليام الذي يبدو أشبه بهيكل عظميّ، مدَّت كارمي يدها إلى المدخَّرات الضئيلة التي تركها زوجها، وأرسلت روزر إلى سانتا فه لشراء أيّ شيء متوافر لصنع حساء. كانت تعرف أنّ مارسيل لويس قد خصَّص تلك النقود من أجل إرسال الأسرة بعيدًا عن إسبانيا، ولكنَّ الحقيقة أنّ أيًّا منهم لم يكن يفكّر جدّيًا في الهجرة. ما الذي سيفعلونه في فرنسا أو في أيّ مكان آخر؟ لا يمكنهم أن يتركوا بيتهم، حيّهم، لغتهم، أقرباءهم وأصدقاءهم. احتمالات كسب الحرب كانت تتضاءل أكثر فأكثر، وقد استسلموا بصمت لاحتمال التوصُّل إلى سلام متفاوض عليه، وتَحمُّل قمع الفاشيّين، ولكنْ يظلّ هذا أفضل من المنفى. فمهما كان فرانكو قاسيًا وعديم الرحمة، لا يُمكن له أن يعدم السكّان الكتلانيّين عن بكرة أبيهم. وهكذا، استثمرت روزر النقود في شراء دجاجتيْن حيّتيْن، وسافرت معهما من سانتا فه، مخبّأتيْن في كيس حَزَمَتْه على بطنها تحت الثوب، كيلا ينتزعهما منها شخص يائس أو يصادرهما الجنود. وظنًّا من الناس أنّها حبلى، تخلّوا

t.me/qurssan

ها عن مقعد في الحافلة، حيث استقرَّت وهي تخفي الحزمة بأفضل ما نستطيع، وتتضرَّع ألّا يبدأ الطائران بالحركة. غطّت كارمي أرضيَّة إحدى الحُجرات بورق جرائد، ووضعت الدجاجتيْن هناك. وصارت هي وروزر تغذّيانهما بفُتات خبز وفضلات يأتين بها من بار روسينانتي، وبعض الشعير والشَّيْلَم، تنشلها روزر من المخبز. تجاوزت الدجاجتان تعب الحبس في الكيس، وسرعان ما صار وليام يجد بيضة أو اثنتيْن على الفطور.

وبعد أيّام قليلة، تحسَّنت حال المريض، وبدا مستعدًّا للعودة إلى الحياة، ولكنَّ طاقته لم تكن تكفي لأكثر من جلوسه في السَّرير والاستماع إلى روزر وهي تعزف على البيانو في الصالة، أو تقرأ له بصوت عالٍ روايات بوليسيَّة. لم يكن في أيّ وقت من الأوقات قارئًا جيّدًا، ففي صغره كان ينتقل من فصل مدرسيّ إلى آخر بصعوبة وبفضل أمّه، إذ كانت تراجع واجباته المدرسيَّة، وبفضل فيكتور الذي كان يكتبها له في معظم الأحيان. أمّا في جبهة مدريد، حيث كانت تتوافر له فرصة الضجر في الانتظار الأبديّ من دون حدوث أيّ شيء. كان يمكن لتواجد روزر أن يكون رائعًا لتقرأ له. لقد كان هناك فائض من الكتب، ولكنَّ الحروف كانت تتراقص معه على الصفحات. في وقفات عن القراءة، كان يحدِّث روزر عن حياته كجنديّ، عن المتطوّعين القادمين من أكثر من خمسين بلدًا للقتال في حرب ليست حربهم، وعن المقاتلين الأميركيّين، مناصر لواء لنكولن، الذين كانوا على الدّوام في الطليعة وكانوا أوّل من يسقطون. «يُقال إنَّهم أكثر من خمسة وثلاثين ألف رجل وبضع مئات من النساء، من جاؤوا للقتال من أجل إسبانيا ضدّ الفاشيَّة.. إلى هذا الحدّ مهمَّة هذه الحرب، يا روزر!». كان يحدِّثها عن افتقاد الماء

t.me/qurssan

والكهرباء والمراحيض، عن الشوارع المليئة بالأنقاض، عن القمامة، عن فُتات الزجاج المهشّم. «في ساعات الراحة، كنّا نُعَلِّم ونتعلّم. يمكن للأمّ أن تكون في سعادة محو أمّيّة الشبّان الذين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة؛ كثيرون منهم لم يذهبوا إلى المدرسة قطّ». ولكنّه لم يكن يقول شيئًا لروزر عن الفئران والقمل، وعن البراز، عن البول والدم، عن الرفاق الجرحى الذين ينتظرون لساعات وساعات وهم ينزفون، قبل أن يتمكّن المسعفون ـ حمالو النقّالات من الوصول إليهم، عن الجوع وقصعات الفاصولياء اليابسة والقهوة الباردة، عن شجاعة البعض المتهوّرة وغير العقلانيّة ممّن يعرّضون أنفسهم بلا مبالاة للرصاص، وعن رعب آخرين، لاسيّما الأصغر سنًّا، من يصلون حديثًا، فتيان دفعة قنّينة الرضاعة الذين لم يكن أحدٌ منهم لحسن الحظّ ضمن رفاقه، لأنّه كان سيموت حزنًا عليهم. ولم يكن يتقبّل الحديث أمام روزر عن عمليّات الإعدام الجماعيّة التي يقترفها رفاقه بالذات، وكيف كانوا يقيّدون أسرى العدو اثنيْن اثنيْن، ويأخذونهم في شاحنة إلى أرض خلاء، ويعدمونهم بكلّ بساطة، ويدفنونهم في حُفَر جماعيّة. أكثر من ألفي شخص في مدريد وحدها.

كان الصيف قد حلّ. وصار بدء اللّيل يتأخّر، والنهار يمتدّ لساعات حارّة ومتثاقلة. وكان وليام وروزر يُمضيان وقتًا طويلًا معًا، وأصبح كلٌّ منهم يعرف الآخر بعمق. ولكثرة ما تقاسما من القراءات وتبادلا من أحاديث، صارت تمتدّ بينهما فترات صمت طويلة، يسود خلالها إحساس من الحميميّة العذبة. بعد العشاء، تستلقي روزر في السرير الذي تتقاسمه الآن مع كارمي، وتنام حتّى السّاعة الثالثة فجرًا. وفي هذا الوقت، تذهب إلى المخبز لتحضير الخبز الذي يوزّع، مقنّنًا، عند شروق الشمس.

t.me/qurssan

كانت أخبار المذياع، والجرائد ومكبّرات الصوت في الشوارع مائلة كلّها. وتصدح في الهواء أغنيات الميليشيا وخطابات باسيوناريا[1] الملتهبة، بأن نموت واقفين خير لنا من العيش راكعين. لم يكن بالإمكان تقبّل تقدّم للعدو، فكان ذلك يسمّى تراجعًا تكتيكيًا. ولم يكن هنالك أيضًا أيّ ذكر للتقنين وشُحّ كافّة الأشياء تقريبًا وندرتها، بدءًا من الأغذية وحتّى الأدوية. فكان فيكتور دالماو يقدّم لأسرته رواية أكثر واقعيّة ممّا تقوله مكبّرات الصّوت. كان بمقدوره الحكم على وضع الحرب من خلال قطارات الجرحى وأعداد الموتى التي كانت تتزايد بصورة مأساويّة في مستشفاه. «يجب أن أعود إلى الجبهة»، هذا ما كان يقوله وليام، ولكنّه يتوصّل إلى انتعال جزمته قبل أن ينهار مستنفدًا في الفراش!

طقوس العناية اليوميّة بوليام من بؤس التيفوس، وغسله بإسفنجة، وإفراغ المبولة، وتغذيته بملاعق صغيرة من عصيدة أطفال، والسهر على نومه وإعادة غسله، وإفراغ المبولة، وتغذيته بملاعق صغيرة.. وروتين بلا نهاية من التوجُّس والمحبّة، رسّخت لدى روزر القناعة بأنّه الرجل الوحيد الذي يُمكن لها أن تحبّه. لن يكون هنالك رجل آخر، كانت واثقة من ذلك. في يوم النقاهة التاسع، ولدى رؤيتها أنّه قد تحسّن بما يكفي، أدركت روزر أنّه لم يَعُدْ لديْها ذريعة لاستبقائه

(1) باسيوناريا la Pasionaria: لقب المناضلة الشيوعيّة دولوريس إيباروري (1895 ـ 1989). ولدت في بيثكايا بإقليم الباسك، واشتهرت بخطاباتها الحماسيّة. عُرفت خلال حصار مدريد بشعاراتها الداعية إلى الصمود «لن يمرّوا» «نموت واقفين ولن نركع». بعد هزيمة الجمهورية الإسبانيّة، انتقلت إلى الاتّحاد السوفييتي، وشاركت في الدّفاع عنه في مواجهة النازيّة، وسقط ابنها في معارك ستالينغراد. تولّت رئاسة الحزب الشيوعيّ الإسبانيّ منذ 1942 حتى 1960.

t.me/qurssan

في الفراش، حيث يمكنها الاحتفاظ به كاملًا لها وحدها. فقريبًا جدًا، سيكون على وليام أن يعود إلى الجبهة. لقد كانت الإصابات كثيرة جدًا في السنة الأخيرة، حتّى إنَّ الجيش الجمهوريّ صار يجنّد مراهقين ومسنّين وسجناء سيِّئي السّيرة والمظهر، ممَّن يُعرض عليهم الاختيار بين الذهاب إلى جبهات القتال أو التعفُّن في السجن. أخبرت روزر وليام بأنَّ ساعة النهوض قد حانت، وأنَّ الخطوة الأولى ستكون حمَّامًا جيِّدًا. سخُنت ماء في أكبر قِدْر في المطبخ، ووضعت وليام في طست غسل الملابس، دلَّكته بالصابون من شعره حتَّى قدميْه، ثمَّ شطفته بالماء، ونشَّفته إلى أن خلَّفته ورديًّا لامعًا. لقد كانت تعرفه جيِّدًا، بحيث لم يكن عليها التحقُّق من عريه. وكان وليام من جهته قد فقد الحياء معها؛ فكان يعود إلى الطفولة وهو بين يديْها. «سوف أتزوَّجها بعد انتهاء الحرب»، هذا ما كان يقوله في أعماقه في لحظة امتنان عميق. فحتَّى ذلك الحين، لم يكن في تفكيره ما هو أبعد من الاستقرار في مكان ما والزواج. لقد أنقذته الحرب من التُّخطيط لمستقبل محتمل. كان يفكِّر: «لم أُخلق للسلام، من الأفضل للمرء أن يكون جنديًّا وليس عاملًا، وما هو الشيء الآخر الذي يمكن عمله بلا دراسة وبطبع مثل طبعي النزق والمتهوِّر»! ولكنَّ روزر، بطزاجتها وبراءتها، بطيبتها الرّاسخة، كانت قد تغلغلت تحت جلده؛ صورتها ترافقه في الخنادق، وكلَّما تذكَّرها أكثر يحتاج إليها أكثر، وتبدو له أجمل. لقد كانت جاذبيَّتها خفيَّة، مثل كلّ شيء فيها. وفي أسوأ أيَّام التيفوس، عندما كان يغرق في مخاضة من الألم والخوْف، كان يتشبَّث بروزر بيأس كي يظلّ طافيًا. وفي تشوُّشه، كانت البوصلة الوحيدة هي وجهها المتأهِّب اللُّطيف المنحني فوقه، والمرساة الوحيدة كانت عيناها الضاريتان اللتان لا تلبثان أن تتحوَّلا فجأة إلى حالمتيْن وديعتيْن.

t.me/qurssan

بهذا الاستحمام الأوَّل في طست غسيل الملابس، عاد وليام .. عالم الأحياء، بعد معاناة طويلة من الاحتضار والتَّعرُّق. انبعث حيًّا ..س الخرقة المضمّخة بالصابون، بالرَّغوة في شعره، بدلاء الماء ..امن، وبيديْ روزر على جسده، يدي عازفة بيانو، قويَّتيْن، خفيفتيْن، ..ين. استسلم بالكامل ممتنًا. نشَّفت بدنه، ألبسته إحدى بيجامات .. حلقت ذقنه، وقصَّت شعره وأظفاره التي نمت كمخالب. كان خدَّا ..ام لا يزالان مبلَّلين وعيناه محمرَّتيْن، ولكنَّه لم يَعُدْ أشبه بفزَّاعة ..صافير تلك حينما جيء به محمولًا على أيدي اثنيْن من رجال ..لبشيا. سخَّنت روزر بعد ذلك بقايا قهوة الفطور، وسكبت له فيها ..لا من الكونياك لتبعث فيه الحماسة.

- إنَّني جاهز للذهاب إلى حفلة، ابتسم وليام حين رأى نفسه في ..راة.

- إنَّك جاهز للعودة إلى السرير، قالت له روزر وهي تقدّم له فنجانًا؛ .. أضافت: معي.

- ما الذي قلتِه؟

- ما سمعتَه.

- لا تقولي إنَّك تفكِّرين في...

- في ما لا بدّ أنَّك تفكِّر فيه أنت أيضًا، ردَّت عليه، وهي تنزع عنها ..بها من رأسها.

- ما الذي تفعلينه، يا امرأة؟ يمكن لأمِّي أن ترجع في أيِّ لحظة.

- اليوم هو الأحد. لا بدَّ أنَّ كارمي ترقص السردانا في الساحة، ..سوف تذهب بعد ذلك للوقوف في الدَّوْر في مركز الهاتف، كي تتكلَّم ..م فيكتور.

t.me/qurssan

ـ من الممكن أن أنقل إليك عدوى مرضي...

ـ إذا كانت العدوى لم تنتقل إليّ من قبل، فمن الصَّعب أن يحدث ذلك الآن. يكفي أعذارًا. تحرَّك، يا وليام. أمرته روزر وهي تخلع عنها حمَّالة الصدر وسروالها الداخليّ، وتدفعه كي تندسَّ في فراشه.

لم تكن قد تعرَّت قطّ أمام رجل من قبل، ولكنَّها كانت قد تجاوزت خَفَرها خلال تلك الفترة من العيش بالتقنين، وفي حالة دائمة من التأهُّب، والشكّ بالجيران والأصدقاء، وبالحضور الدَّائم لملاك الموت. فالعُذريَّة، بالغة الأهمِّيَّة في مدرسة الرَّاهبات، كانت تُثقل عليها كعاهة وهي في العشرين من العمر. لم يكن هنالك أيّ شيء مؤكَّد، وليس ثمَّة وجود للمستقبل، ليس لديْهما سوى هذه اللَّحظة للتَّمتُّع بها قبل أن تنتزعها الحرب منهما.

حُسم أمر الهزيمة في معركة نهر الإيبرو التي بدأت في شهر تموز/يوليو 1938؛ وكانت قد استمرَّت أربعة أشهر، وأوقعت ثلاثين ألف قتيل، بينهم وليام دالماو الذي سقط قبل قليل من النزوح الجماعيّ للمهزومين. كانت أوضاع الجمهوريِّين حرجة جدًّا؛ والأمل الوحيد أمامهم يتمثَّل بدخول فرنسا وبريطانيا العظمى الحرب إلى جانبهم، ولكنَّ الأيَّام كانت تمرّ من دون ظهور أيّ بارقة تشير إلى إمكانيَّة حدوث ذلك. ومن أجل كسب الوقت، ركَّزوا الجهود، وحشدوا معظم القوَّات لاجتياز نهر الإيبرو، والتَّوغل في أراضي العدوّ واحتلالها، والسَّيطرة على عتاده وذخائره، والإثبات للعالم أنَّهم لم يخسروا الحرب، وأنَّ إسبانيا، إذا ما تلقَّت المساعدة الضروريَّة، ستتمكَّن من هزيمة الفاشيَّة. جرى نقل ثمانين ألف رجل خفية في اللَّيل إلى الضَّفَّة الشرقيَّة للنهر، بمهمَّة

t.me/qurssan

ذلك النهر ومواجهة القوّات المعادية، المتفوّقة عددًا وتسليحًا.
ولیام ضمن الكتائب المختلطة في الفرقة الخامسة والأربعين
، إلى جانب متطوّعين إنكليز وأميركيّين وكنديّين، إنّها القوّات
مة، قوّة الصدام التي كانوا هم أنفسهم يسمّونها «لحم المدافع».
نقاتل في أرضٍ وعرة وفي صيفٍ قاسٍ لا يرحم، مع وجود العدو
هم والنهر من ورائهم، والطائرات الألمانيّة والإيطاليّة فوقهم.

الهجوم المفاجئ منح الجمهوريّين مزيّة مفيدة إلى حدٍّ ما. ففي
الذي كانوا يصلون فيه إلى الجبهة، كان المقاتلون يجتازون النهر
اكب مرتجلة وهم يجرّون بغال الحمولة المرعوبة. كان المهندسون
جسورًا طافية، وبالسرعة نفسها التي تُقصف بها تلك الجسور
يعاد ترميمها وبناؤها ليلًا. ومع قوّات الطليعة، كان على وليام أن
أيّامًا بلا طعام وبلا ماء عندما تفشل عمليّات التوزيع، وأمضى
م من دون استحمام، ينام على الحجارة، مصابًا بضربة شمس
، وهو معرّض طوال الوقت لقذائف العدوّ، وهجمات الناموس
ان التي تأكل ما تجده وتنقضّ على القتلى. وفضلًا عن الجوع
ش، وتلوّي الأمعاء والإنهاك، كان يضاف قيظ الصيف الشديد.
جسمه يفتقد السوائل إلى حدٍّ لم يَعُد معه يتعرّق، وصار جلده
ا، مشقّقًا وأسود، مثل جلد حردون. في بعض الأحيان، يقضي
وهو يلبد كامنًا والبندقيّة في يده، يشدّ على أسنانه، وكلّ ليفة
ده مشدودة ومتوتّرة، ينتظر الموت.. وبعد ذلك، لا تعود قدماه
ان تستجيبان له. توقّع أن تكون حُمّى التيفوس قد أضعفته، وأنّه
مثلما كان في السّابق. كان رفاقه يتساقطون بإيقاع مرعب، بينما
يتساءل متى سيأتي دوره! كان إخلاء الجرحى يجري ليلًا وفي

t.me/qurssan

سيّارات بلا أنوار تجنُّبًا لرشّاشات الطائرات؛ بعض المصابين بجراح بليغة يتوسّلون أن تُطلق عليهم رصاصة رحمة، لأنّ احتمال سقوطهم أحياء في أيدي العدوّ أسوأ من ألف مِيتة. الجثث التي لم يكن بالإمكان سحبها قبل أن تبدأ بالتعفُّن تحت الشمس القاسية، كانت تُغطّى بأحجار أو تُحرق، مثلما يفعلون بجثث الخيول والبغال، لأنّه من المُحال حفر قبور في تلك الأرض الصخريّة ذات التربة الصّلبة كالإسمنت كانِ وليام يتعرّض للرصاص والرّمانات اليدويّة من أجل الوصول إلى الأجساد، لتحديد هويّة أصحابها، واستخراج أثر شخصيّ منها لإرساله إلى عائلات القتلى.

لم يكن هناك بين المقاتلين من يفهم استراتيجيّة الموت على ضفاف نهر الإيبرو، لأنّه لا جدوى من محاولة التقدُّم في أراضي فرانكو، وكلفة الحيوات من أجل الحفاظ على المواقع كانت عبثيّة، ولكنّ إبداء عدم الرضى بصوت عالٍ سيُنظر إليه على أنّه تصرُّف جبان أو عمل خيانيّ، يُدفع ثمنه غاليًا. كان من نصيب وليام ضابطٌ أميركيّ يتمتّع بشجاعة أسد، وكان طالبًا جامعيًّا في كاليفورنيا، انضمّ إلى لواء لنكولن ومن دون أن تكون لديْه خبرة عسكريّة سابقة، أثبت أنّه قد ولد للحرب، وكان جنديًّا خالصًا ويعرف كيف يُصدر الأوامر؛ يحظى باحترام رجاله وتوقيرهم. لقد كان وليام أحد أوّل المتطوّعين في ميليشيات برشلونة، عندما كانت تسود فكرة المساواة الاشتراكيّة التي نشرتها الثورة في كافة ميادين المجتمع، بما في ذلك الجيش، حيث لا أحد أعلى مرتبة من أحد، ولا أحد يملك أكثر من أحد؛ الضباط يعيشون جنبًا إلى جنب مع بقيّة القوّات من دون أيّ امتيازات، يأكلون الطعام نفسه، ويرتدون الملابس نفسها. لا شيء من التراتبيّة والمراتب، ولا من البروتوكول،

t.me/qurssan

ِقوف باستعداد من أجل أداء التحيّة، لا شيء من الخيام أو
ة أو السيّارات الخاصّة بالضبّاط، لا شيء من الأحذية الملمّعة،
ِوان الشخصيّين والطهات، كما في الجيوش التقليديّة وكما في
رانكو. هذا تبدّل في السنة الأولى من الحرب، عندما خمدت
دّ كبير الحماسة الثوريّة. وقد شهد وليام، باشمئزاز، كيف
تعود خفيةً في برشلونة أساليب التعايش البرجوازيّة، والطبقات
عيّة، والنفوذ القويّ للبعض والامتهان لآخرين، والإكراميّات،
ة، وامتيازات الأثرياء، ممّن لا ينقصهم أيّ شيء، لا الغذاء ولا
لا الملابس الدارجة، بينما بقيّة الأهالي تعاني من شحّ المواد
. ورأى وليام كذلك تحوّلات بين العسكريّين. فالجيش
، المؤلّف من خلال التطوّع، استوعب الميليشيّات التطوّعيّة
التراتبيّة والانضباط التقليديّين. ومع ذلك، واصل الضابط
يّ إيمانه بانتصار الاشتراكيّة؛ فالمساواة بالنّسبة إليه ليست
ممكنة وحسب، وإنّما هي حتميّة لا يُمكن تجنُّبها، ويمارسها كما
يانة. فالرجال الذين تحت إمرته يتعاملون معه كرفيق، ولكنَّهم لا
ن أوامره العسكريّة أبدًا. كان الأميركيّ قد تعلّم ما يكفي من اللّغة
يّة كي يترجم الإيضاحات التي اعتاد توجيهها بالإنكليزيّة حول
لإيبرو. فالأمر يتعلّق بتأمين الحماية لبلنسيا، وإعادة تواصلها مع
المنفصلة عن بقية المناطق الجمهوريّة بقطاع عريض سيطر
نوميّون. كان وليام يحترمه ومستعدًّا للسّير معه إلى أيّ مكان،
تقديمه تفسيرات أو من دون تقديمها. في منتصف شهر سبتمبر،
الأميركيّ لصلية رشّاش من الخلف، وسقط إلى جانب وليام من
، شكوى. وواصل تشجيع رجاله وهو ملقى على الأرض إلى أن

t.me/qurssan

فقد الوعي. حمله وليام وجنود آخرون فيما بينهم، ومدّدوه وراء كو
من الأنقاض لحمايته حتّى مجيء اللّيل، عندما يصبح بإمكان عنا
حمّالات الإسعاف الاقتراب من المكان ونقله إلى مركز إسعافات أوّل
بعد أيّام من ذلك، سمع وليام أنّه في حالة إنقاذ حياة المتطوّع الأميركي
فإنّه سيظلّ مشلولًا، فتمنّى له من أعماق قلبه ميتة سريعة.

سقط الأميركيّ قبل أسبوع من إعلان الحكومة الجمهوريّة
انسحاب المقاتلين الأجانب من إسبانيا، على أمل أن يُقدم فرانكو الذ
يعتمد على قوات ألمانيّة وإيطاليّة، على التّصرف بالمثل. ولكنْ ذا
لم يحدث. جرى دفن الضابط الأميركيّ بسرعة في قبرٍ بلا شاهدة،
يتمكّن من الاستعراض مع رفاقه المتطوّعين في شوارع برشلونة، وتل
هتافات التحيّة من شعبٍ ممتنٍّ في احتفالات حاشدة، سيتذكّر
طوال ما تبقّى من حيواتهم. أبرز كلمات الوداع التي لن تُنسى هي ت
التي قالتها الباسيوناريا، التي كانت حماستها المتأجّجة ترفع معنويّ
الجمهوريّين طوال تلك السنوات. أطلقت عليهم تسمية صليبيّي الحر
الأبطال، المثاليّين، الشّجعان والمنضبطين، من تركوا بلدانهم وبيوت
وجاؤوا لتقديم كلّ شيء من دون أن يطلبوا شيئًا سوى شرف الم
في سبيل إسبانيا. وانتهت إلى القول لهم إنّهم سيعودون إلى إسبانيا
الانتصار، حيث سيجدون وطنًا وأصدقاء.

كانت دعاية فرانكو تدعو المقاتلين إلى الاستسلام بمكبّر
الصوت، وبمنشورات تُلقى من الطائرات عارضة عليهم الخبز والعد
والحريّة، ولكنّ الجميع كانوا يعرفون أنّ الانشقاق يعني رمي عظا
في السجون، أو في قبورٍ جماعيّة سيكون عليهم أن يحفروها بأنفسهم
كانوا قد سمعوا أنّه في القرى التي يحتلّها فرانكو، يجري إجبار الأر

t.me/qurssan

، ماثلات من يجري إعدامهم بدفع ثمن رصاصات الإعدام. وكانت
١٠١اد المحكومين بالإعدام تصل إلى عشرات الآلاف؛ كلّ تلك
١١١مار، كانت تراق، حتّى إنّ الفلّاحين، في العام التالي، كانوا يؤكّدون
أ١. البصل كان ينمو أحمر، وأنّهم يجدون أسنانًا في البطاطس. ومع ذلك،
١١١ غواية الانتقال إلى صفوف العدو في سبيل الحصول على رغيف
٠، جعلت أكثر من شخص ينشقّ، وكان هؤلاء عمومًا من المجنّدين
١ هار السنّ. وفي إحدى المناسبات، كان على وليام أن يسيطر بالقوّة
١لى فتى من بلنسيا فقد عقله، مرعوبًا؛ فصوّب السّلاح إلى رأسه، وأقسم
١، بأنه سيقتله إذا ما تحرّك من مكانه. وقد احتاج لأكثر من ساعتيْن من
أ١ل تهدئته، وفعل ذلك من دون أن يعلم أحدٌ بالأمر. وبعد مرور ثلاثين
١١مه على ذلك، قُتل الفتى.

ووسط ذلك الجحيم، حيث لم يكن بالإمكان الحصول على
أدنى المؤن الأساسيّة، كانت تظهر بين حين وآخر سيّارة إسعاف وفيها
١٠مي بريد. كان أيتور إيبارّا هو من فرض على نفسه هذه المهمّة من
أجل رفع معنويّات المقاتلين. لقد كانت المراسلات الخاصّة إحدى
الأولويّات الأخيرة في جبهة الإيبرو؛ والحقيقة أنّ قلّة من الرجال كانوا
١لقون رسائل، فالمتطوّعون الأجانب لا يتلقّونها، لأنّهم بعيدون جدًّا عن
١وبهم؛ وكثيرون من الإسبان، لاسيّما من هم من جنوبي البلاد، لأنّهم
١حدرون من عائلات أمّيّة. لقد كان لدى وليام دالماو من يكتب إليه.
١كان من عادة أيتور المزاح بالقول إنّه يجازف بحياته من أجل إيصال
١سائل إلى مرسَل إليه وحيد. في بعض الأحيان، يسلّمه حزمة سميكة
١ن عدّة رسائل مربوطة بخيط. وتكون هناك على الدوام رسالة من أم
وليام ومن أخيه، ولكنْ معظم الرّسائل تكون من روزر، التي تكتب له

t.me/qurssan

كلّ يوم فقرة أو فقرتيْن، إلى أن يصل ما تكتبه إلى صفحتيْن، فتدسّهما في مغلّف تحمله إلى البريد العسكريّ وهي تترنّم بأغنية الميليشيا الأوسع انتشارًا: «*إذا ما أردتِ الكتابة إليّ،/فأنت تعرفين مكاني:/الفرقة الثالثة المختلطة،/على خطّ النار الأوّل*». لم تكن تعرف أنّ إيبارًا يبادر إلى تحية وليام بالأغنية نفسها، أو أخرى مشابهة عند تسليمه الرّسائل. لقد كان الباسكيّ يغنّي حتّى في أحلامه كي يُبعد الخوف عنه، ويغوي ساحرته التي تجلب له الفأل الطيّب.

كانت قوات فرانكو تتقدّم من دون هوادة، بعد أن سيطرت على معظم أجزاء البلاد، وكان واضحًا أنّ كتالونيا سوف تسقط أيضًا. راح الذعر يسيطر على المدينة، وبدأ الناس يستعدّون للهروب، وكان كثيرون قد فعلوا ذلك. في منتصف كانون الثاني/يناير 1939، وصل آيتور إيبارًا إلى مستشفى ماريسا وهو يقود شاحنة مخلّعة فيها تسعة عشر رجلًا مصابين بجراح بليغة. عند انطلاقه، كان عددهم واحدًا وعشرين جريحًا، ولكنّ اثنيْن منهم ماتا خلال الطريق، وبقي جسداهما في الشاحنة. كان عدد من الأطبّاء المدنيّين قد غادروا مواقعهم، ومن تبقّوا كانوا يحاولون الحيلولة دون انتشار الهلع بين مرضى المستشفى. كما أنّ أعضاء الحكومة الجمهوريّة اختاروا المنفى، مع فكرة أنّهم سيواصلون إدارة الحكم من باريس، وهذا ما أدّى إلى خلخلة معنويّات الأهالي المدنيّين. ففي تلك الأثناء، كان القوميّون على بُعد أقلّ من عشرين كيلومترًا عن برشلونة.

كان إيبارًا قد أمضى خمسين ساعة بلا نوم. سلّم حمولته المحزنة، وانهار خائر القوى بين ذراعيْ فيكتور دالماو الذي خرج لاستقبال الشاحنة، وقد رافقه هذا إلى مقصورته الملكيّة، مثلما يسمّي السرير العسكريّ ومصباح الكيروسين والمبولة التي يضمّها مأواه. كان

t.me/qurssan

، مرز الإقامة في المستشفى من أجل توفير الوقت. بعد ساعات من ال،، عند فترة توقُّف قصيرة في النشاط المحموم في غرفة العمليّات ،ـ راحيَّة، حمل فيكتور لصديقه قصعة حساء عدس، وقطعة سجق جافَّة . لنها أمّه إليه هذا الأسبوع، وإبريق قهوة هندباء. وجد صعوبة في ،ط،ل أيتور. تناول الباسكيّ المنهك تلك الوجبة بشراهة، وبدأ يروي ، أحداث معركة الإيبرو بالتّفصيل، وكان فيكتور قد اطّلع على الخطوط الم ىضة لتلك الأحداث من أفواه الجرحى خلال الشهور السابقة. الم جرى هناك تمزيق الجيش الجمهوريّ، ولم يبق، بحسب قول إيبارّا ،، ى الاستعداد لتلقي الهزيمة النهائيّة. وأضاف الباسكيّ «في القتال ال ن استمرَّ مئة وثلاثة عشر يومًا مات أكثر من عشرة آلاف رجل من ،ا،ـا، ولا أدري كم هو عدد الآلاف الذين وقعوا في الأسر، ولا عدد الإ صابات بين المدنيّين في القرى التي تعرّضت للقصف، ولن نحصي ،ـ اد القتلى في الجانب المعادي». لقد خسروا الحرب، مثلما كان ا روفسور مارسيل لويس دالماو قد قدّر قبل موته. ولن يكون هنالك ـلام يجري التفاوض عليه، مثلما كانت تنوي القيادة الجمهوريّة. لن ،مل فرانكو منهم سوى الاستسلام غير المشروط. «لا تصدّق الدعاية الفرانكويّة، لن تكون ثمّة رحمة ولا عدالة. سيكون حمّام دم، مثلما جرى في بقية أنحاء البلاد. لقد تخوزقنا».

بالنّسبة إلى فيكتور الذي كان قد تقاسم لحظات مأساويّة مع إبارا من دون أن يتخلّى هذا الأخير عن ابتسامته المتحدّية، وأناشيده ومزاحه، بدت ملامح وجه هذا الأخير المكفهرّة أكثر بلاغة من كلماته. أخرج صديقه من جعبته زجاجة خمر صغيرة، سكب محتواها في القهوة لشرة الماء، وقدّمها لفيكتور. «خذ، ستحتاج إليها»، قال له. كان يبحث منذ بعض الوقت عن الطريقة الأكثر ملاءمة لينقل إلى فيكتور دالماو

t.me/qurssan

الخبر المشؤوم عن أخيه، ولكنّه لم يتمكّن من أن يقول له أكثر من الن
وليام قد مات يوم الثامن من تشرين الثاني /نوفمبر.

ـ كيف؟ كان هذا هو كلّ ما تمكّن فيكتور من قوله.

ـ سقطت قنبلة في الخندق. اعذرني، يا فيكتور، أفضّل عدم التّحدُّث عن التّفاصيل.

ـ أخبرني كيف؟ كرّر فيكتور.

ـ لقد مزّقت القنبلة عدّة أشخاص. لم يكن هنالك متّسع من الوقت لجمع أشلاء كلّ شخص. دفنّا الأشلاء كلّها معًا.

ـ لم يستطيعوا تحديد هويّتهم إذًا.

ـ لم يستطيعوا تحديد هويّتهم بدقّة، يا فيكتور، ولكنْ كانوا يعرفون من هم الذين في الخندق. وكان وليام واحدًا منهم.

ـ ولكن لا وجود لما هو يقينيّ ومؤكّد، أليس كذلك؟

ـ أخشى أن يكون الأمر مؤكّدًا، قال آيتور، وأخرج من جعبته محفظة شبه محروقة.

فتح فيكتور المحفظة التي بدت على وشك التفتُّت، وأخرج منها وثيقة هويّة وليام العسكريّة، وصورة فوتوغرافيّة ظلّت سليمة بصورة إعجازيّة، وفيها صورة فتاة تقف إلى جانب بيانو كبير. ظلّ فيكتور دالماو جالسًا على الأرض أمام السرير العسكريّ، إلى جانب صديقه، من دون أن ينطق بكلمة خلال عدّة دقائق. لم يتجرّأ آيتور على معانقته، مثلما كان يرغب، وبقي ينتظر إلى جانبه جامدًا وصامتًا.

ـ إنّها خطيبته، روزر بروغيرا. كانا سيتزوّجان بعد الحرب، قال فيكتور أخيرًا.

t.me/qurssan

ـ أشاطرك الحزن، يا فيكتور. سيكون عليك أنت أن تخبرها.

ـ إنّها حبلى. أظنّها في الشهر السادس أو السابع. لا يمكنني ... ها قبل أن أتأكّد من أنّ وليام قد مات.

ـ وأيّ تأكيد آخر تريده، يا فيكتور؟ لم يخرج أحدٌ حيًّا من ذلك ال[illegible].

ـ ربّما لم يكن موجودًا هناك.

ـ في هذه الحالة، يجب أن تكون محفظته في جيبه. وأن يكون ... في مكان آخر. وأن نكون قد عرفنا شيئًا عنه. لقد انقضى شهران. ألا ... أنّ المحفظة دليل كافٍ؟

في نهاية ذلك الأسبوع، ذهب فيكتور دالماو إلى برشلونة. إلى ... أمّه. وكانت تنتظره بوجبة أرزّ أسود أعدّتها بفنجان من الرزّ حصلت ... من مُتاجري التهريب، وبضعة فصوص من الثوم وأخطبوط دفعت ... في الميناء ساعة زوجها. كانت محاصيل الصيد تُصادَر من أجل ...، والكمّيّة القليلة التي توزَّع على السكّان المدنيّين تذهب، ...، إلى المستشفيات ومراكز رعاية الأطفال، مع أنّه كان معروفًا ... ها لا تغيب عن موائد السياسيّين أو فنادق البرجوازيّين ومطاعمهم. ... ما رأى أمّه نحيلةً وضئيلةً وهرمة إلى ذلك الحدّ من الأحزان والقلق، ... روزر مشرقة ببطن بارز وبنور الحبلى الداخليّ، لم يستطع فيكتور إخبارهما بموت وليام؛ كانتا لا تزالان في الحِداد على مارسيل لويس. حاول عدّة مرّات أن يُخبرهما، لكنّ الكلمات كانت تتجمّد في صدره، قرّر الانتظار إلى أن تضع روزر مولودها أو أن تنتهي الحرب. فمع وجود الطفل الوليد بين ذراعيها، سيكون ألم كارمي على فقدان ابنها، وروزر على فقدان حبّها أقلّ وطأة! هكذا فكّر.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثالث
1939

... أيام قرن وتوالت الساعات
... خروجك إلى المنفى...

پابلو نيرودا
«أرتيغاس»، النشيد الشامل

t.me/qurssan

t.me/qurssan

في هذا اليوم من أواخر كانون الثاني/يناير في برشلونة، عندما ا الخروج الكبير الذي أطلقوا عليه تسمية الانسحاب، طلع الصباح اردًا جدًّا، حتّى إنّ الماء تجمّد في الأنابيب، وظلّت السيّارات والدوابّ صقة بالثلج، أمّا السماء المغطّاة بغيوم سوداء، فكانت في حالة حِداد ن. لقد كان أحد أشدّ الشتاءات قسوة في الذاكرة الجماعيّة. كانت ات فرانكو تنزل عبر هضبة التيبيدابو، فاستولى الذّعر على الأهالي. ات من أسرى الجيش القوميّ أُخرجوا من زنازينهم وأُعدموا في الساعة الأخيرة. وانطلق جنود، بينهم كثير من الجرحى، في مسيرة باتّجاه الحدود م فرنسا، وراء آلاف وآلاف المدنيّين؛ عائلات بكاملها: أجداد، أمّهات، أطفال، رُضّع، وكلٌّ منهم يحمل ما هو قادر على حمله، بعضهم في حافلات أو شاحنات، آخرون على درّاجات هوائيّة، وفي عربات، وعلى أحصنة أو مال، والأغلبية الساحقة سيرًا على الأقدام، يجرجرون ممتلكاتهم في أكياس؛ موكب يائسين مثير للأسى. يخلّفون وراءهم البيوت المقفلة وأشياءهم العزيزة. الحيوانات الأليفة تتبع أصحابها لبعض الوقت، لكنّها سُرعان ما تضيع في دوّامة الانسحاب وتبدأ التّخلّف عنهم.

كان فيكتور دالماو قد أمضى اللّيل وهو يُخلي الجرحى الذين يمكن نقلهم في الآليّات القليلة المتوافرة، في شاحنات وقطارات. وفي

t.me/qurssan

حوالى الساعة الثامنة صباحًا، أدرك أنَّ عليه العمل بحسب أوامر أبيه، وأن ينقذ أمّه وروزر، لكنَّه لا يستطيع ترك مرضاه. تمكَّن من العثور على أيتور إيبارّا، وأقنعه بأن يحمل المرأتيْن. كانت لدى الباسكيّ درّاجة ناريَّة ألمانيَّة قديمة مزوَّدة بمقعد جانبيّ، وكانت تلك الدرَّاجة هي كنزه الأعظم في أزمنة السلام، لكنَّه لم يستخدمها منذ ثلاث سنوات لعدم توافر الوقود. ويحتفظ بها بأمان في مرآب صديق له. وبسبب الظروف، قدَّر أنَّ الوضع يتطلَّب إجراءات قصوى، فسرق بيدونيْ بنزين من المستشفى. وقد شرّفت الدرَّاجة الناريَّة التكنولوجيا التوتونيَّة الفاخرة. فمع المحاولة الثالثة، دار محرّكها كما لو أنَّها لم تكن مدفونة قطّ في مرآب. في الساعة العاشرة والنصف، حضر أيتور بدرَّاجته الناريَّة إلى بيت آل دالماو وسط دويِّ صاخب وسحابة دخان. يتقدَّم بصعوبة في مسار متعرّج بين الحشود التي تملأ الشوارع في ذلك الهروب. كانت كارمي وروزر تنتظران، لأنَّ فيكتور تدبَّر أمر إبلاغهما. وكانت أوامره واضحة: التشبُّث بأيتور إيبارّا، واجتياز الحدود، ثمَّ الاتِّصال، في الجانب الآخر من الحدود، بالصليب الأحمر للوصول إلى إليزابيث إيدنبنز، وهي ممرِّضة موثوقة. وستكون صلة الوصل عندما يصبحون جميعهم في فرنسا.

كانت المرأتان قد وضَّبتا ملابس سميكة، والقليل من المؤن وصورًا عائليَّة. وقد ظلَّت كارمي حتَّى اللَّحظة الأخيرة متشكِّكة بشأن ضرورة الرحيل، فكانت تتعلَّل بالقول إنَّه لا وجود لشرّ يستمرّ مئة عام، وربَّما يمكنهم الانتظار لرؤية كيف ستجري الأمور؛ وإنَّها لا تجد نفسها قادرة على بدء حياة جديدة في مكان آخر، ولكنَّ أيتور قدَّم لها أمثلة حيَّة عمَّا سيحدث عندما يصل الفاشيُّون إلى المدينة. أوَّلًا، سينشرون راياتهم في كلِّ مكان، وسيقيمون قدَّاسًا مهيبًا في الساحة

t.me/qurssan

الأخرى، وسيكون حضوره إجباريًّا. المنتصرون سيُستقبلون بهُتافات يطلقها حشد من أعداء الجمهوريّة، ممَّن ظلُّوا متخفّين في المدينة طوال ثلاث سنوات، وآخرون كثيرون غيرهم يسعون بدافع الخوف إلى التودُّد والإيحاء بأنّهم لم يشاركوا في الثورة أبدًا. وسيقولون: نحن نؤمن بالربِّ، نؤمن بإسبانيا، نؤمن بفرانكو. نحبّ الربّ، نحبّ إسبانيا، نحبّ الجنرال فرانسيسكو فرانكو. بعد ذلك، يبدأ التَّطهير. فأوّلًا، وقبل كلّ شيء، يعتقلون المناضلين، إذا ما عثروا عليهم، مهما كانت الحال التي هم عليها، وكذلك الأشخاص الذين يشي بهم آخرون على أنّهم شاركوا، أو يُشتبه بأنّهم شاركوا، في نشاطات تعتبر معادية لإسبانيا أو معادية للكاثوليكيّة؛ وهذا يشمل أعضاء النقابات، والأحزاب اليساريّة، وممارسي ديانات أخرى، ولاأدريّين، وماسونيّين، ويهودًا، وغجرًا.. وهكذا، تتواصل اللّائحة اللامتناهية.

- عمليّات القمع همجيّة، يا سيّدة كارمي. أوَتعلمين أنّهم ينتزعون الأبناء من أمهاتهم، ويضعونهم في دور أيتام تشرف عليها راهبات من أجل تنشئتهم على الدّيانة الحقيقيّة الوحيدة وعلى قيم الوطن!

- ابناي كبيران على مثل هذه الأمور.

- هذا مثال فقط. فما أريد قوله إنّه لم يبقَ لك مخرج سوى المجيء معي، فهم سيعدمونك رميًا بالرصاص، لأنّكِ تقومين بمحو أمّيّة الثوريّين، ولأنّكِ لا تذهبين إلى القدّاس.

- انظر، أيّها الشاب، إنّني في الرابعة والخمسين، ولديَّ سُعال لأنّي مصابة بالسّل. لن أعيش طويلًا. أيّ حياة تنتظرني في المنفى؟ أفضّل الموت في بيتي، في مدينتي، بوجود فرانكو أو بدون وجوده.

t.me/qurssan

أمضى آيتور خمس عشرة دقيقة إضافيّة في محاولة غير مجدية لإقناعها، إلى أن تدخّلت روزر.

ـ تعالي معنا، يا دونيا كارمي، لأنّنا أنا وحفيدك بحاجة إليك وخلال بعض الوقت، عندما نستقرّ ونعرف كيف هي الأمور في إسبانيا، يمكنك أن ترجعي إذا أردتِ.

ـ أنتِ أكثر قوّة وقُدرة منّي، يا روزر. ستتدبّرين أمورك على خير ما يُرام وأنتِ وحدك. لا تبكِ، يا امرأة...

ـ كيف لا أبكي؟ ما الذي سأفعله بدونك؟

ـ حسن، ولكنْ عليكِ أن تعرفي أنّني سأفعل ذلك من أجلك ومن أجل الصغير. لو كان الأمر بيدي لبقيت هنا، فلا بدَّ من مواجهة الزمن الرديء بوجهٍ بشوش.

ـ يكفي أيّتها السيّدة، يجب علينا أن نغادر، ألحَّ آيتور.

ـ وماذا عن الدجاجات؟

ـ أطلقيها، وسيلتقطها أحدهم. هيّا بنا، لقد حان موعد ذهابنا.

أرادت روزر السفر ممتطية المقعد وراء آيتور، لكنَّ كارمي وآيتور أقنعاها بأن تجلس في المقعد الجانبيّ، حيث الخطورة أقلّ على الطفل أو إمكانيّة حدوث إجهاض. ارتدت كارمي عدّة سترات وعباءة قشتاليّة من الصوف الأسود، ورداءً واقيًا من المطر وثقيلًا مثل سجادة، وجلست على المقعد الخلفيّ. لقد كانت خفيفة الوزن إلى حدٍّ يُمكن لها أن تطير عن الدرّاجة لولا ذلك الرّداء الثقيل. كانوا يتقدّمون ببطء شديد متجاوزين الناس، ومركبات أخرى وحيوانات جرّ، منزلقين على الطريق

t.me/qurssan

المعطّى بالصقيع، ومدافعين عن أنفسهم من اليائسين الذين يحاولون ركوب الدرّاجة الناريّة بالقوّة.

كان الخروج من برشلونة أشبه بمشهد من جحيم دانتي لآلاف الكائنات المرتجفة من البرد، في هروبٍ مندفع راح يتحوّل شيئًا فشيئًا إلى موكبٍ بطيء يتقدّم على وقع خطوات المبتورين والجرحى، والشيوخ والأطفال. وكان مرضى المستشفيات القادرون على الحركة ينضمُّون إلى النزوح، بينما يُنقل آخرون في قطارات إلى حيث يمكن للقطارات الوصول؛ أمّا المتبقّون، فسيكون عليهم مواجهة سكاكين المورو وحرابهم. سرعان ما صارت المدينة وراءهم، ووجدوا أنفسهم في ميدان فسيح مفتوح. من القرى الصغيرة، كان الفلّاحون يخرجون، بعضهم مع ماشيتهم أو مع عربات صغيرة مترعة بحُزَم الأمتعة، ويختلطون بالحشد المتحرّك. من لديهم شيء ثمين، يستبدلونه بمكان في وسائل النقل القليلة. لم يكن للنقود أيّ قيمة. البغال والخيول تنوء تحت ثقل العربات، وكثير منها يسقط متحشرجًا؛ عندئذٍ، يربط الرجال أنفسهم مكان البهائم ويجرُّون العربات، بينما النساء يدفعنها في الخلف. وعلى الطريق، كانت تبقى الأشياء التي لم يَعُد هناك من يستطيع حملها، ابتداء من حقائب متنوّعة وحتّى قطع أثاث؛ وكان الموتى والجرحى يبقون كذلك حيث يسقطون، لأنّ أحدًا لم يكن يتوقّف لنجدتهم. لقد تلاشت القدرة على الرّحمة، وصار كلّ شخص يهتمّ فقط بنفسه وبذويه. وكانت طائرات فيلق الكندور تحلّق على ارتفاع منخفض لتزرع الموت، وتخلّف لدى مرورها نثارة من الدم مختلطة بالوحل والثلج. كثير من الضحايا كانوا أطفالًا. كان الطعام يتناقص. أشدّ المحتاطين حرصًا كانوا يحملون مؤنًا تكفيهم ليوم واحد أو يومين، بينما يعاني آخرون الجوع. وكان هناك على الأقلّ بعض الفلّاحين المستعدّين لمقايضة الأغذية. وقد لعن آيتور نفسه، لأنّه ترك الدجاجات.

t.me/qurssan

مئات آلاف اللّاجئين الخائفين كانوا يهربون من فرانكو، حيث كانت تنتظرهم حملة من الخوف والعداء. لا أحد يريد هؤلاء الأجانب الحمر، إنّهم كائنات مقرفة، قذرون، هاربون، يائسون، منحرفون، مثلما كانت تسمّيهم الصحافة، وسوف ينشرون الأوبئة، ويقترفون السرقة والاغتصاب والتّحريض على ثورة شيوعيّة. منذ ثلاث سنوات تقريبًا، كان قد بدأ بالوصول تنقيطًا إسبان هاربون من الحرب، وقد استُقبلوا بقليل من التعاطف، ولكنّهم تفرّقوا في البلاد، وكانوا غير مرئيّين تقريبًا. ومع هزيمة الجمهوريّين، كانت التوقّعات أن يتزايد التدفّق؛ وكانت السلطات تتوقّع أعدادًا غير محدّدة، قد تصل إلى عشرة آلاف أو خمسة عشر ألفًا كحدّ أقصى، وهو رقم يثير ذُعر قوى اليمين الفرنسيّة. لم يتخيّل أحد أنّه سيكون هناك خلال أيّام قليلة قرابة نصف مليون إسبانيّ في أقصى حالات الاضطراب والرُّعب والبؤس، يتزاحمون على الحدود. كان ردّ الفعل الفرنسيّ الأوّل إغلاق المعابر الحدوديّة، ريثما تتوصّل السُّلطات إلى الاتّفاق على طريقة لمعالجة المشكلة.

أرخى اللّيل سدوله باكرًا. هطل المطر لوقت قصير، ما يكفي ليبلّل الثياب ويحوّل الأرض إلى مخاضة وحل. بعد ذلك، انخفضت الحرارة إلى عدّة درجات تحت الصفر، وبدأت تهبّ رياح كأنّها خناجر تنغرس في العظم. اضطرّ من يمشون إلى التوقّف، لم يَعُد بمقدورهم مواصلة المسير في الظلام. استلقوا متكوّرين على أنفسهم أينما استطاعوا، متدثّرين ببطاطين مبلّلة، الأمّهات يحتضنّ أبناءهنّ، الآباء يحاولون حماية أُسرهم، المسنّون يُصلّون ويتضرّعون. رتّب أيتور إيبارّا جلوس المرأتيْن في مقعد الدرّاجة الناريّة الجانبيّ، مع تعليمات بأن تنتظراه، وانتزع أحد أسلاك التوصيل من الدراجة الناريّة كيلا يُستولى عليها، ثمّ

t.me/qurssan

.. قليلًا عن الطريق بحثًا عن مكان يستريح فيه؛ كان يعاني الزحار منذ ...، مثلما هي تقريبًا حال جميع من كانوا في الجبهة. أضاء مصباحه ...وي، ورأى بغلة خامدة في حفرة في الأرض؛ ربّما كانت قوائمها ...سورة، أو أنّها قد انهارت لتموت من التعب. لقد كانت حيّة. أخرج ...دسه وأطلق النار على رأسها. صوت الرصاصة المعزول، المختلف ... صوت رشاشات العدو، اجتذب بعض الفضوليّين. كان آيتور مدرّبًا ...لى تلقّي الأوامر، وليس على إصدارها، ولكنْ في تلك اللّحظة تفتّحت ...، بصورة غير متوقّعة، موهبةُ القيادة وإصدار الأوامر، فنظّم الرجال من ...ل تقطيع البهيمة، ونظّم النساء من أجل شواء اللّحم في مواقد صغيرة ...لفت انتباه الطائرات. انتشرت الفكرة على طول الجموع وعرضها، ...عان ما صارت تُسمع أصوات طلقات رصاص متفرّقة هنا وهناك.

...ل إلى كارمي وروزر قطعتيْن كبيرتيْن من ذلك اللّحم المتيبّس، ...حان ماء لكلّ منهما، كان قد سخّنه على أحد المواقد. «تخيّلا أنّ ... الشراب هو قهوة مع قليل من الكونياك، ولا ينقصه سوى البُن»، ...ال لهما وهو يسكب جرعة كونياك في كلّ فنجان. خبّأ شيئًا من اللّحم، ...اثقًا من أنّ البرد سيحفظه، ونصف رغيف من الخبز السّميك، حصل ...ه مقابل نظّارة طيّار إيطاليّ كان قد سقط بطائرته. وكان قد توقّع أنّ ... النظّارة لا بدّ أن تكون قد انتقلت من يد إلى يد أكثر من عشرين ... قبل أن تصل إلى يديْه، وأنّ الأيدي ستواصل تبادلها إلى أن تتفتّت.

رفضت كارمي تناول اللّحم، قالت إنّ أسنانها ستتكسّر وهي ...مضغ نعل الخُفّ ذاك، وقدّمت قطعة اللّحم الخاصّة بها إلى روزر. ... كانت قد بدأت تقلّب فكرة انتهاز ظلامْ اللّيل للهرب والاختفاء. كان البرد يحول دون قدرتها على التنفّس، فكلّ شهيق يسبّب لها نوبة سعال،

t.me/qurssan

تشعر معها بألم في صدرها وباختناق. فدمدمت: «ليتني أصاب بذات الرئة دفعة واحدة وأنتهي». فردّت عليها روزر، وقد سمعتها: «لا تقولي هذا الكلام، يا سيّدة كارمي، فكّري بابنيْك». في حالة عدم توافر إصابة بذات الرئة، يكون الموت تجمُّدًا هو الخيار الأفضل، أضافت السيّدة كارمي بينها وبين نفسها. وكانت قد قرأت أنّ المسنّين في القطب الشماليّ ينتحرون بهذه الطريقة. يروق لها أن ترى الحفيد أو الحفيدة، وقد صارت الولادة وشيكة، ولكنْ هذه الرغبة كانت آخذة بالتلاشي من ذهنها مثل حلم. فكلُّ ما كان يهمّها هو أن تصل روزر سليمة ومعافاة إلى فرنسا، وأن تضع مولودها هناك، وتلتقي بوليام وفيكتور. أمّا هي، فلا تريد أن تكون عبئًا على الشباب؛ فبعد بلوغها هذه السنّ، صارت تشكّل عقبة، وبدون وجودها سيصلون أبعد وبسرعة أكبر. لا بدّ أنّ روزر قد تنبّهت إلى نواياها، لأنّها ظلّت تراقبها إلى أن غلبها التعب، ونامت متكوّرة على نفسها. لم تشعر بكارمي عندما ابتعدت عنها، بتكتُّم سِنّور.

كان آيتور هو أوّل من اكتشف غياب المرأة، عندما كان الظلام لا يزال مُخيّمًا؛ ومن دون أن يوقظ روزر، خرج للبحث عنها وسط كتلة البشريّة المعذّبة تلك. كان يضيء الأرض بمصباحه اليدويّ كي يرى أين يضع قدمه من دون أن يدوس على أحد؛ قدّر أن كارمي قد وجدت صعوبة أيضًا في التّقدُّم، ولا يُمكن لها أن تكون قد ابتعدت كثيرًا. فاجأته أضواء الفجر الأولى وهو يهيم على وجهه بين جموع الناس وحُزَم الأمتعة، ينادي باسمها بين آخرين يصيحون منادين بأسماء أقربائهم. تشبّثت بساقه طفلة في حوالى الرابعة، مبحوحة الصوت من كثرة البكاء، مبلّلة، وبشرتها مزرقّة من البرد. مسح آيتور مخاطها، وشعر بالحسرة، لأنّه لا يَملك ما يدثّرها به، ووضعها فوق كتفيْه حيث قد يتمكّن أحدهم من التّعرُّف عليها، ولكنْ

t.me/qurssan

،م يكن هناك من ينتبه إلى مصير الآخرين. «ما اسمك، يا جميلتي؟»، «نوريا»، تلعثمت الصُغيرة، فأخذ يَشغل اهتمامها بالترنُّم بأغنيات شعبيَّة ،،، أغاني الميليشيا، والتي كان الجميع يعرفونها عن ظهر قلب، وكانت لا ،فارق شفتيْه منذ شهور. «غنِّي معي، يا نوريا، لأنَّ الغناء يُبعد الأحزان»، «ال لها، لكنَّ الطفلة واصلت البكاء. مشى وهو يحملها على كتفيْه لوقت لا بأس به، يشقّ طريقه بصعوبة ومناديًا باسم كارمي، إلى أن واجه شاحنة ،موقّفة في خندق على جانب الطريق، حيث كانت راهبتان توزّعان حليبًا ،حبزًا على جماعة من الأطفال. أخبرهنَّ أنَّ الطفلة تبحث عن أهلها، ،رُدوا عليه بأن يتركها معهنَّ، وأنَّ الأطفال الذين في الشاحنة هم من الضائعين عن ذويهم أيضًا. بعد ساعة من ذلك، ومن دون أن يكون قد ،ثر على كارمي، بدأ أيتور العودة إلى المكان الذي ترك فيه روزر. عندئذ، ،بهها إلى أنَّ كارمي قد ذهبت من دون أن تأخذ معها العباءة القشتاليَّة.

مع بدء النهار، بدأت الحشود اليائسة التَّحرُّك كلطخة قاتمة هائلة وبطيئة. الإشاعة عن أنَّهم قد أغلقوا الحدود، وأنَّ مزيدًا ومزيدًا من الناس قد تجمَّعوا أمام مراكز العبور، صارت تنتقل من فم إلى فم، ممَّا فاقم من الهلع. كانوا قد أمضوا ساعاتٍ طويلة بلا طعام، وكان الأطفال والمسنُّون والجرحى يزدادون ضعفًا وإنهاكًا. مئات وسائل النقل، ابتداء من العربات العاديَّة وحتَّى الشاحنات، كانت تقبع مهجورةً على جانبَي الطريق، لأنَّ حيوانات الجرّ لم تَعُد قادرة على المواصلة، أو بسبب افتقاد الوقود. قرَّر أيتور ترك الطريق، حيث كانوا متوقِّفين بسبب كثرة الحشود، والمغامرة بالتوجُّه نحو الجبال بحثًا عن ممرّ أقلّ حراسة. رفضت روزر الذهاب من دون كارمي، ولكنَّه أقنعها بأنَّ كارمي ستصل بكلّ تأكيد إلى الحدود مع بقية الحشود، وأنَّهم سيعودون للاجتماع بها في فرنسا.

t.me/qurssan

أمضيا وقتًا لا بأس به في الجدال، إلى أن فقد آيتور صبره، وهدَّدها بأنَّه سيذهب ويتركها مرميَّة. فصدَّقته روزر، لأنَّها لم تكن تعرفه. في صباه، كان آيتور يمضي مع أبيه عبر الجبال، وفكَّر في هذه اللَّحظة أنَّه مستعدّ لتقديم أيّ شيء مقابل أن يكون أبوه معه. لم يكن وحده من لديْه هذه الفكرة: كانت هناك جماعات قد بدأت السَّيْر باتِّجاه الجبال. إذا كان الطريق سيبدو شاقًّا لروزر، ببطنها الضخم كحبلى، وقدميْها المنتفختيْن وآلام عرق النّسا، فإنَّه سيكون أسوأ بالنِّسبة إلى العائلات التي لديْها أطفال أو جدّيْن مسنّين، أو بالنِّسبة إلى المقاتلين مبتوري الأطراف أو المضمَّدين بضمَّادات دامية. لقد أفادتهم الدرَّاجة الناريَّة في الأمكنة التي توجد فيها دروب ممهَّدة فقط، وكان يشكّ في قدرة روزر، وهي في حالتها تلك، على مواصلة التَّقدُّم مشيًا على الأقدام.

ومثلما قدَّر الباسكيّ، حملتهم الدرَّاجة الناريَّة نحو الجبال، وصعدت وهي تسعل وتطلق دخَانًا إلى حيث يمكنها الصعود، ثمَّ توقَّفت أخيرًا. سيكون عليهم ابتداء من هذه اللَّحظة الصعود مشيًا على الأقدام. وقبل أن يخبّئ درَّاجته الناريَّة بين بعض الشجيْرات، قبَّل آيتور تلك الآلة قبلة وداع، لأنَّها أكثر وفاء من زوجة طيِّبة، وعاهد نفسه أن يعود إليها ليأخذها. ساعدته روزر على ترتيب حُزم الأمتعة التي ربطاها إلى ظهريْهما وتوزيعها. كان عليهما أن يتخلَّيا عن القسم الأكبر والاكتفاء بحمل ما هو أساسيّ فقط: ملابس دافئة، حذاء احتياطيّ، الأغذية القليلة المتوافرة والنقود الفرنسيَّة التي أعطاها فيكتور، الحريص دومًا، لآيتور. ألقت روزر على نفسها العباءة القشتاليَّة، ولبست في يديْها زوجيْن من القفَّازات، لأنَّه لا بدَّ لها من الاهتمام بيديْها إذا كانت تفكِّر في العودة إلى العزف على البيانو. ثمَّ بدأ الصعود. كانت روزر تتقدَّم ببطء، ولكنْ بتصميم

t.me/qurssan

،٠، دون توقُّف، يدفعها أو يسحبها آيتور في بعض أجزاء الطريق، وهو
،ه‍ارحها ويغنّي لها لتشجيعها، كما لو أنّهما في نزهة. المرتحلون القليلون
ال‍ذين اختاروا هذا الطريق، ووصلوا إلى ذلك الارتفاع، كانوا يمرُّون
و‍بها ويواصلون طريقهم بعد تحية مقتضبة. وسرعان ما صارا وحيدَيْن.
ا‍ختفى درب الماعز الضيّق، وصار زلِقًا بسبب الثلج. كانت الأقدام
‍تغوص في الثلج، يتقدّمان متجاوزيْن صخورًا وجذوعًا ساقطة، ويتقدّمان
م‍حاذاة هاوية. خطوة واحدة خاطئة وينتهيان إلى السقوط والارتطام
‍على عمق مئة متر في الأسفل. جزمة آيتور، وهي مثل نظّارته، كانت من
م‍ملكات ضابط معادٍ قُتل في معركة، وكانت مهترئة، لكنّها توفّر له حماية
ا‍فضل من حذاء المدينة الذي تنتعله روزر. بعد وقت قصير، لم يَعُدْ أيّ
‍منهما يشعر بقدميْه. كان الجبل الهائل، شديد الانحدار، الأبيض بالثلج،
‍ينتصب متوعّدًا في مواجهة السّماء البنفسجيّة. خشيَ آيتور أن يكونا قد
‍ضلّا الطريق، وأدرك أنّهما سيحتاجان، في أفضل الحالات، عدّة أيّام
ل‍لوصول إلى فرنسا، ولن يتوصّلا إلى ذلك ما لم يتمكّنا من الانضمام
إ‍لى إحدى الجماعات. لعن بصمت اللّحظة التي فكّر فيها بترك الطريق
ا‍لعام، ولكنّه طمأن روزر مؤكّدًا لها أنّه يعرف تلك الأرض مثل راحة يده.

عند الغروب، رأيا في البعيد بريقًا خافتًا. وببذل آخر جُهد يائس،
ت‍مكّنا من الاقتراب من معسكر صغير. ميّزا من بعيد وجود هيئات بشريّة،
‍فقرّر آيتور أن يجازف حتّى لو كانوا من القوميّين، لأنّ البديل الآخر هو
‍قضاء اللّيل مدفونيْن في الثلج. ترك روزر خلفه، واقترب متسلّلًا إلى
أ‍ن تمكّن من أن يرى، على ضوء موقد صغير، أربعة أشخاص نحيفين،
م‍لتحين، يلبسون أسمالًا، وأحدهم مضمّد الرأس. لم تكن لديهم أحصنة
و‍لا جزمات عسكريّة ولا خيام ميدانيّة، لقد كانوا أشخاصًا مهلهلين، لا

t.me/qurssan

يبدو عليهم أنّهم جنودٌ معادون، ولكنْ يمكن لهم أن يكونوا لصوصًا أو قطّاع طرق. وعلى سبيل الاحتياط، جهَّز مسدَّسه المخبّأ تحت معطفه، وهو «لوجير» ألمانيّ الصنع، يُعتبر كنزًا حقيقيًّا في تلك الأزمنة، وكان قد حصل عليه قبل شهور في إحدى مقايضاته العجيبة. وتقدَّم بحركات مسالمة. أحد الرجال الأربعة، وكان مسلَّحًا ببندقيَّة، تقدَّم للقائه، يتبعه على بعد خطوات اثنان آخران لحماية ظهره ببندقيَّتيْن، وكانا حذرين ومرتابين مثله هو نفسه. راز كلٌّ منهما الآخر عن مسافة معيَّنة. وفي إيماءة هاجس قلبيّ، كلَّمهما آيتور بالكتلانيَّة والأوسكيرا (الباسكيَّة): «*Bona nit! Kaixo! Gabon*!». ساد صمت بدا له أبديًّا، ثمَّ رحَّب به من بدا أنَّه القائد بعبارة مقتضبة: «*Ongi etorri, burkide*!». فأدرك آيتور أنَّهم من رفاقه، وأنَّهم منشقُّون عن الجيش بكلِّ تأكيد. تراخت ركبتاه من الراحة. اقترب الرجال منه، أحاطوا به، وعند رؤيتهم سلوكه المسالم حيَّوه بالتربيت على ظهره. «أنا إيكي، وهذان هما إيزان وشقيقه جولين»، قال من يحمل البندقيَّة. وبدوره، قدَّم آيتور نفسه، وأوضح لهم أنَّه يمضي برفقة امرأة حبلى، فرافقوه للبحث عن روزر. اقتادها اثنان منهم شبه محمولة إلى مخيَّمهم البائس، ولكنَّه بدا مترفًا للقادميْن الجديديْن، لأنَّ هناك سقفًا من قماش خيمة، وضوءًا وطعامًا.

منذ تلك اللَّحظة، صار وقتهم يمضي في تبادل الأخبار السَّيِّئة وتقاسم محتويات عُلب حمّص يسخّنونها على النار، والقليل من الخمر المتبقّي في زمزميَّة آيتور الذي قدَّم لهم أيضًا لحم البغلة وقِطَع خبزٍ كانت في جعبته. «احتفظ بمؤونتك، لأنَّكما ستكونان بحاجة إليها أكثر منَّا»، قرَّر إيكي. لكنَّ آيتور أصرَّ على المساهمة في الضيافة السخيَّة، فقدَّم إليهم تبغه. في السنتيْن الأخيرتيْن، لم يَكُنْ هنالك من يدخّن السجائر، التي تأتي مهرَّبة، سوى الأثرياء والقادة السياسيِّين؛ أمَّا الآخرون فكانوا

t.me/qurssan

يكتفون بخلطة من الأعشاب الجافَّة وعِرق السوس، وكانت تلك السجائر تتلاشى في مجَّة واحدة. تلقَّى أولئك الرجال كيس تبغ أيتور بوقار دينيّ. لفُّوا سجائر منه ودخَّنوا بانتشاء، وبصمت. أمَّا روزر، فقدَّموا إليها وجبة من الحُمّص، وتركوها تستريح في الخيمة المرتجلة، ومعها قارورة ماء ساخن لتدفئة قدميْها شبه المتجمِّدتيْن. وبينما هي تستريح، حدّث أيتور مضيفيْه عن الهزيمة الوشيكة للجمهوريَّة، وعن فوضى الانسحاب.

تلقَّى الرجال الخبر من دون أن ينبسوا ببنت شفة، لأنَّهم كانوا يتوقَّعون ما حدث. فقد خرجوا أحياء من غيرنيكا التي قصفتها طائرات لواء كوندور المرهوبة، والتي دمَّرت البلدة الباسكيَّة التاريخيَّة، مخلِّفة الموت والخراب، وقد نجوا كذلك من النيران التي سبَّبتها القنابل الحارقة في الغابات القريبة التي التجأوا إليها. لقد قاتلوا حتَّى اليوم الأخير ضمن جماعة جيش أوزكادي الباسكيَّة أثناء معركة بيلباو. وقبل سقوط المدينة في يد العدوّ، نظَّمت القيادة العليا الباسكيَّة عملية إجلاء المدنيِّين نحو فرنسا، بينما واصل الجنود خوض الحرب موزَّعين في عدَّة كتائب. بعد عام من هزيمة بيلباو، علم إيزان وجولين أنَّ أباهما وشقيقهما الأصغر، السَّجينيْن في سجون فرانكو، قد أعدما رميًا بالرصاص، وأنَّهما الشخصان الوحيدان الناجيان من أسرة كبيرة العدد. عندئذٍ، قرَّرا الانشقاق عن الجيش فور توافر الفرصة لهما؛ لقد فقدت الديمقراطيَّة والجمهوريَّة والحرب معانيها، ولم يعودا يعرفان لماذا يقاتلان. هاما على وجهيْهما في غابات وجبال وعرة، من دون أن يتوقَّفا سوى بضعة أيَّام قليلة في المكان نفسه، تحت إشراف إيكي المتكتِّم، والذي يعرف جبال البيرينيه جيِّدًا.

في الأسابيع الأخيرة، ومع اقتراب النهاية الحتميَّة للحرب، التقوا برجال آخرين هاربين. لم يكن ثمَّة نجاة في أيِّ مكان. ففي فرنسا، لن

t.me/qurssan

يعاملوهم بالتَّقدير الواجب كجيش مهزوم أو كمقاتلين منسحبين، بل إنَّهم لن يُعاملوا كذلك كلاجئين، وإنَّما كمنشقِّين. سيجري اعتقالهم وترحيلهم إلى إسبانيا، إلى يديْ فرانكو. ولأنَّه ليس ثمَّة مكان يستطيعون الذهاب إليه، كانوا يتنقَّلون من مكانٍ إلى آخر في جماعات صغيرة، بعضهم يختبئ في كهوفٍ أو في أراضٍ عصيَّة لا يُمكن ارتيادها، للنجاة، ريثما تعود الأوضاع إلى طبيعتها؛ وبينما أصرَّ آخرون بتصميم انتحاريّ على مواصلة القتال في حرب عصابات ضدّ قوَّة الجيش المنتصر، كانوا يرفضون الاعتراف بالهزيمة النهائيَّة للمُثل الثوريَّة التي ضحُّوا طويلًا في سبيلها، ولا يمكن لهم بأيّ حال كذلك أن يتقبَّلوا أنَّ تلك الأفكار والمُثُل لم تكن سوى أضغاث أحلام. ومع ذلك، لم تكن هذه هي حال أولئك الرجال الذين في الجبل، من فقدوا الأمل في كلّ شيء، ولا حال إيكي الذي لم يَعُدْ يهمُّه شيء سوى البقاء على قيد الحياة، ليجتمع شمله ذات يوم مع امرأته وأبنائه.

الرجل ذو الرأس المضمَّد، والذي يبدو فتيًّا جدًّا، ولم يكن يشارك في الحديث، تبيَّن أنَّه أستوريّ أدَّت جراحه إلى إصابته بالصمم والاضطراب الذهنيّ. وبين ممازحة وأخرى، كان الآخرون يوضِّحون لأيتور أنَّهم لا يستطيعون التخلُّص منه، مثلما هي رغبتهم، لأنَّه يتمتَّع بقدرة رائعة في الرماية، ويمكن له أن يصيب أرنبًا برّيًّا بطلقة واحدة وهو مغمض العينيْن، لا يُضيِّع طلقة واحدة دون جدوى. وبفضله، يستطيعون تناول اللَّحم بين حينٍ وآخر. ولديهم، عمليًّا، بضعة أرانب جاهزة لمقايضتها بمؤن أخرى مع الجبليّ الذي سيصل في اليوم التالي. لم يفت أيتور ملاحظة الرقَّة الفظَّة التي يعاملون بها الأستوريّ، كما لو أنَّه صبيّ أبله. وقد افترضوا أنَّ أيتور وروزر زوجان، فأجبروا أيتور على أن

t.me/qurssan

..د. مكانًا في الخيمة إلى جوار امرأته؛ ممَّا أبقى اثنان منهم في العراء. ..الوا: «سوف نتناوب». ورفضوا كذلك أن تكون هنالك مناوبة لآيتور، ..الن: أيّ نوع من الضيافة ستكون هذه إذًا!

استلقى آيتور إلى جانب روزر، فتكوَّرت هي على نفسها، محاولة ..انة بطنها، ونام وراءها محتضنًا إيَّاها لمنحها بعض الدفء. كانت ..امه تؤلمُه، وكان مخدَّرًا من البرد، ويخشى على أمن، بل وعلى حياة الأم المستقبليّة. لقد كان مسؤولًا عنها، مثلما وعد فيكتور دالماو. في ... الصعود الشاقّ في الجبل، أكّدت له روزر أنَّ لديْها فائضًا من القوّة، ... عليه أن يقلق بسببها! «لقد ترعرتُ في منطقة جبليَّة، يا آيتور، ... أرعى الماعز في الشتاء والصيف. إنَّني معتادة على سوء المناخ، ... أظنُّ أنَّني أتعب بسهولة». لا بدَّ أنَّها انتبهت إلى ذُعره، لأنَّها أمسكت ..، ووضعتها على بطْنها كي يشعر بالحركة. وقالت وهي تتثاءب: «لا ...، يا آيتور، هذا الطفل في مأمن وفي أقصى سعادة ممكنة». عندئذٍ ... من ذلك الباسكيّ المرح والشجاع، الذي رأى الكثير من الموت ..المعاناة، والكثير من العنف والخبث، إلَّا أن انخرط في البكاء خفيةً ... بخبّئ وجهه في قذال تلك الشابَّة التي لن ينسى رائحتها. بكى من ...لها، لأنَّها لم تكن تعرف بعدُ أنَّها أضحت أرملة، وبكى من أجل وليام ... لن يعرف ابنه أبدًا، ولن يعود لمعانقة عروسه، وبكى من أجل ...ي التي ذهبت من دون أن تودِّع، وبكى على نفسه، لأنَّه كان متعبًا ...، وفي شكٍّ لأوّل مرّة في حياته بحُسن طالعه.

في اليوم التالي، جاء الجبليّ الذي كانوا ينتظرونه في وقتٍ مبكر، ...صل بخطى بطيئة على صهوة حصان هرم. قدَّم نفسه باسم آنخل،

t.me/qurssan

رهنُ أوامركم، ثمَّ أضاف أنَّ الاسم يتلبَّسه تمامًا، لأنَّه مَلاكُ الهاربين والمنشقِّين. وكان يحمل معه المؤن الضروريَّة، وبعض الخرطوش من أجل البارودة وزجاجة خمر، تنفع في تخفيف الضجر، وتنظيف جروح الأستوريّ. عندما استبدلوا ضمَّاداته، رأى آيتور أنَّ هناك جرحًا عميقًا، وأنَّ الجمجمة غائرة. وفكَّر في أنَّ البرودة الشديدة هي التي أدَّت إلى التهاب الجرح؛ ولا بدَّ أنَّ هذا الرجل من حديد ليتمكَّن من البقاء حيًّا وهو على تلك الحال. أكَّد لهما الجبليّ خبر أنَّ فرنسا قد أغلقت الحدود، وأنَّ ذلك حدث منذ يومَيْن، وأنَّ هناك مئات آلاف اللّاجئين المحتجزين، ينتظرون وهم أشبه بالموتى من البرد والجوع، وأنَّ حُرّاسًا مسلَّحين يمنعونهم من المرور.

قال آنخل إنَّه يعمل راعيًا، ولكنَّ آيتور لم يُخدع بكلامه؛ إذ كان له مظهر مُهرِّب، مثلما كان أبوه، وهذه مهنة تدرُّ أرباحًا أكثر من رعاية الماعز. وبعد توضيح هذه النقطة، تبيَّن أنَّ الجبليّ يعرف إيبارًا الأب، وقال إنَّ جميع أبناء المهنة في هذه الأنحاء يعرفون بعضهم بعضًا. فالممرَّات الجبليَّة قليلة، والمصاعب كثيرة، والمناخ مخيف جدًّا مثل السلطات على جانبَي الحدود. وفي مثل هذه الظروف، يكون التضامن أمرًا لا بدَّ منه. «لسنا مجرمين، إنَّنا نقدِّم خدمة ضروريَّة، مثلما لا بدَّ أن يكون أبوك قد بيَّن لك، ثمَّ أضاف: إنَّه قانون العرض والطلب». أكَّد لهما أنَّه كان من المحال الوصول إلى فرنسا من دون دليل، لأنَّ الفرنسيِّين قد عزَّزوا الحراسة على الممرَّات الحدوديَّة، وأنَّه عليهما الآن أن يسلكا دربًا سرِّيًّا وخطِرًا في جميع الأوقات، ولكنَّه يكون أشدّ سوءًا في الشتاء. هو يعرف الطريق جيِّدًا، لأنَّه استخدم هذا الطريق عند بدء الحرب لاقتياد متطوِّعين أمميِّين إلى إسبانيا. «لقد كانوا شبَّانًا جيِّدين أولئك الأجانب، لكنَّ كثيرين منهم كانوا فتية مدلَّلين من أبناء المدن، وقد تخلَّف بعض

t.me/qurssan

دت أقودهم وضلُّوا في الطريق. فمن يتخلَّف أو يسقط منذ البداية،
هناك». عرض عليهما أن يقودهما حتَّى الجانب الآخر، ووافق على
دفعا له بالعملة الفرنسيَّة. وقال لأيتور: «يمكن لامرأتك أن تمضي
على حصاني، ونرافقها نحن مشيًا على الأقدام».

وعند الضحى، بعد تناولهم مشروبًا بديلًا عن القهوة، ودَّع أيتور
الرجال، وواصلا رحلتهما. نبَّههما الدَّليل إلى أنَّ المسير سيستمرّ
ما دام هنالك ضوء، وإذا ما تحمَّلا من دون توقُّف أكثر ممَّا هو ضروريّ،
يكون بإمكانهم قضاء اللَّيل في ملجأ للرعاة. كان أيتور يراقبه بحذر،
خشية أن يسطو عليهما. ففي تلك العزلات، في أراضٍ مجهولة، يمكن
أن يذبح كليْهما. وكانت الغنيمة الأثمن من النقود هي مسدَّسه،
وسكّينه متعدِّدة الاستعمالات، وجزمته، والعباءة القشتاليَّة. ساروا
ساعات وساعات. مبلَّلين، يعانون البرد، مستنفدي القوى، غاطسين في
الثلج. وكانت روزر تمشي كذلك لمسافاتٍ طويلة من أجل التخفيف
عن الحصان الذي كان صاحبه يهتمّ به كما لو أنَّه قريبٌ عجوز. توقَّفوا
مرّتين للراحة، وكانوا يشربون ثلجًا مُذابًا، ويأكلون بقايا من لحم البغلة
والخبز. عندما بدأ الظلام يخيّم، وانخفضت درجة الحرارة إلى حدٍّ ما
عادوا قادرين معه على فتح عيونهم بسبب الصقيع على أجفانهم. أشار
الرجل إلى صخرة عالية في البعيد. إنَّه الملجأ الذي حدَّثهم عنه.

تبيَّن أنَّها قبَّة صخريَّة طويلة كما لو أنَّها من آجرّ، لها فتحة ضيِّقة بلا
باب. أدخلوا إليها الحصان بالقوَّة للحيلولة دون تجمُّده في الخارج. كان
الفراغ في الداخل دائريًا ومنخفض السقف، وأكثر اتِّساعًا ودفئًا ممَّا يبدو
عليه من الخارج: وكانت هناك بضعُ قطع من الحطب، وأكوامٌ من القش،
ودلوٌ كبيرٌ فيه ماء، وفأسان وبضع أوانٍ مطبخيَّة. أشعل أيتور نارًا لطبخ

t.me/qurssan

أحد أرنبَي آنخل، كما أخرج من جرابه بعض اللَّحم المقدَّد، وجبنًا قاسيًا، وخبزًا أسمر ويابسًا، ولكنَّه أفضل من خبز الحرب الذي كانت تخبزه روزر في المخبز ببرشلونة. بعد أن تناولوا الطعام وعلفوا الحصان، استلقوا على القشّ متدثِّرين بالأغطية، ومستضيئين بالنار. «غدًا، عندما نغادر هذا المكان سنتركه مثلما وجدناه. يجب أن نقطع حطبًا، ونملأ الدلو بالثلج وهنالك أمر آخر، أيُّها الغوداريّ[1]، لا حاجة بك إلى السّلاح، يمكنك أن تنام مطمئنًا. فأنا مُهَرّب، ولكنُّني لستُ قاتلًا»، قال آنخل.

استمرَّ اجتياز جبال البيرينيه نحو فرنسا ثلاثة أيّام طويلة بلياليها، ولكنَّهم لم يضلُّوا الطريق بفضل آنخل، ولم يضطرُّوا إلى النوم في العراء، فمسير كلّ يوم كان ينتهي بمكان يقضون اللّيل فيه. اللّيلة الثانية، كانت في كوخ يسكنه فحّامان وكلب له مظهر الذئب. الرجلان اللذان يكسبان عيشهما من جمع الحطب ليصنعا منه فحمًا كانا جلفيْن وغير مضيافيْن، ولكنَّهما استضافاهم مقابل أجر. «حذارِ من هذيْن الشخصيْن، أيُّها *الغوداريّ*. إنَّهُما إيطاليّان»، قالها آنخل منبِّهًا آيتور على انفراد. فكان ذلك تنبيهًا للباسكيّ للتواصل معهما من خلال نصف دستة الأغنيات الإيطاليَّة التي يعرفها. وبعد أن تمَّ تجاوز الارتياب الأوليّ، أكلوا وشربوا وبدأوا يلعبون بأوراق لعب مهترئة جدًّا. تبيَّن أنَّ روزر لاعبة لا تُنافَس، إذ كانت قد تعلَّمت لعبة التوتي، وأساليب الغش في مدرسة الراهبات. وقد بدا ذلك ظريفًا جدًّا لمضيفيهما اللذيْن خسرا بطيبة خاطر قطعة لحم مقدَّد يابسة راهنا عليها. نامت روزر مستلقية على أكياس موضوعة على الأرض، وأنفها مدفون في وبر الكلب القاسي، وكان الكلب قد تكوَّر على

---

(1) غوداري gudari: الكلمة باللُّغة الباسكيَّة، وتعني: جنديّ أو مقاتل.

t.me/qurssan

. .جانبها بحثًا عن الدّفء. وعندما استيقظت في الصباح، قبّلت ..لماس من وجهيْهما ثلاث مرّات. مثلما هو الوداع الحقيقيّ؛ وقالت . إنّها ما كانت ستشعر بمثل هذه الراحة حتّى لو نامت على فراش الريش. وقد رافقهم الكلب لمسافة لا بأس بها، ملتصقًا بكعبي روزر.

في مساء يوم المسير الثالث، أخبرهما آنخل أنّه عليهما ابتداء من ... المكان أن يواصلا التّقدُّم بمفردهما، وأنّهما صارا في مأمن، وأنّ بقيّة ... ستكون نزولًا. «واصلا السّير على الحافّة الجبليّة. وستجدان أنقاض ... يمكنكما قضاء اللّيل هناك». أعطاهما بعض الخبز والجبن، ... أخره نقدًا، وتبادلوا الوداع بعناق مقتضب. «امرأتك تساوي وزنها ... أيّها الغوداري، حافظ عليها. لقد عملتُ دليلًا لمئات الرجال، ابتداء ... مجرّبين حتّى أشخاص مجرمين؛ ولكنّني لم أجد من يتحمّل ... دون أيّ شكوى مثلها. وهي بهذه البطن. وهذه ميزة أكبر لها».

عند اقترابهما من البيت المهدّم، بعد ساعة من المسير، خرج ... من بعيد رجلٌ مسلح ببندقيّة. فتوقّفا هادئين، وحبسا أنفاسهما. كان ... يثبّت المسدّس مجهّزًا وراء ظهره. وخلال لحظات بدت لانهائيّة، ... كلٌّ منهما يتأمّل الآخر، تفصل بينهما مسافة خمسين مترًا تقريبًا، ... أن تقدّمت روزر خطوة إلى الأمام، وصاحت قائلة إنّهما لاجئان. ... أخفض الرجل سلاحه بعد أن تأكّد أنّها امرأة، وأنّ القادميْن ... بديْن مرعوبيْن أكثر منه، وناداهما بالكتلانيّة *Veniu, veniu, no us fare res*»[1]. ثمّ قال لهما إنّهما ليسا أوّل ولا آخر لاجئين يمرُّون ... هناك؛ ثمّ أضاف أنّ ابنه قد ذهب أيضًا في ذلك الصباح بالذات

[1] العبارة بالكتلانيّة: «تعالا، تعالا، لن أُسبّب لكما أيّ أذى».

t.me/qurssan

إلى فرنسا خوفًا من أن يقبض عليه أتباع فرانكو. اقتادهما إلى ـ خرب، أرضيّته ترابيّة وينقصه نصف سقفه، وقدّم لهما فضلات مؤقد، واستطاعا أن يستلقيا على فراش بائس، لكنّه نظيف، حيث كان ينام ابنه بعد ساعات قليلة من ذلك، وصل ثلاثة إسبان آخرين، وقد استقبلهم أيضًا ذلك الرجل الطيّب. وعند الفجر، قدّم لهم ماءً ساخنًا مع ملح وقطع بطاطا، وبعض الأعشاب التي تساعد، بحسب قوله، على تحمّل البرد. وقبل أن يدلّهم على الطريق الذي عليهم أن ينطلقوا فيه؛ قدّم إلى روزر خمسة مكعّبات من السكّر، هي آخر ما لديْه، لتحلية رحلة الطفل

انطلقت الجماعة بقيادة آيتور وروزر، وبدأت المسير باتّجاه الحدود استمرّ مسيرهم طيلة النهار. ومثلما أخبرهم ذلك الكتالاني الذي قدّم لهم المأوى. وصلوا عند الغروب إلى قمّة ظهرت لهم منها فجأة بعض البيوت المضاءة. فعرفوا أنّهم صاروا في فرنسا، لأنّ لا أحد في إسبانيا يشعل أنوارًا مخافة التعرّض لقصف الطائرات. واصلوا النزول في ذلك الاتّجاه حتى بلغوا طريقًا عامًا، وما إن ساروا مسافة قصيرة حتّى ظهرت لهم شاحنة صغيرة تابعة لقوّة الحرس الرّيفي الفرنسيّ. فسلّموا أنفسهم لهم بكلّ رضى، لأنّهم صاروا في فرنسا المتضامنة، فرنسا الحريّة والمساواة والأخوة، فرنسا التي فيها حكومة يساريّة يترأسها اشتراكيّ. فتّشهم الشرطيّون بفظاظة، وانتزعوا من آيتور المسدّس والسكّين متعدّدة الاستخدامات، والنقود القليلة المتبقّية معه. لم يكن الإسبان الآخرون يحملون أسلحة. اقتادوهم إلى مستودع، عنبر مطحنة حبوب يستخدمونه كمأوى للّاجئين الذين كانوا يتوافدون بالمئات. كان المكان مكتظًّا بالناس. رجال ونساء وأطفال يتزاحمون خائفين، جائعين، مختنقين لعدم وجود تهوية، وبسبب غبار طحن الحبوب الذي يطفو في الجوّ. ومن أجل إطفاء الظمأ، كانت هناك

t.me/qurssan

...ة بيدونات ماء مشكوك في نظافته. وبدلًا من المراحيض، كانت توجد ...ر خارج العنبر حيث عليهم أن يقرفصوا تحت الحراسة. النساء كنَّ ...كين من المهانة، بينما الحرّاس يسخرون منهنَّ. أصرَّ آيتور على مرافقة ...وزر، وحين رأى الحرّاس بطنها يهتزّ متأرجحًا، سمحوا لهما. وبعد ذلك، ...ما هما يقرفصان في أحد الأركان، تقاسما قطعة الخبز الأخيرة واللّحم المقدّد المتيبّس الذي حصلا عليه من الإيطاليّين، بينما هو يحاول حمايتها من الحشد، ومن نوبات اليأس التي تنفجر فجأة بين المحتجزين. ...رت شائعة بأنَّ هذا المكان موقع انتقاليّ، وعمّا قريب سيجري اقتيادهم إلى مركز تجميع إداريّ. لكنَّهم لم يعرفوا ما الذي يعنيه ذلك!

في اليوم التالي، حملوا النساء والأطفال في شاحنات عسكريّة. ...رت مشاهد هلع بين العائلات؛ فكان على الجندرمة أن يفصلوا بينهم بالضرب بالهراوات. عانقت روزر آيتور، وشكرته على الكثير الذي فعله من أجلها، أكّدت له أنَّها ستكون على ما يرام، وخرجت متّجهة نحو الشاحنة باطمئنان. «سوف أبحث عنكِ، يا روزر، هذا وعد!»، تمكّن آيتور من القول لها صارخًا قبل أن يخرَّ على ركبتيْه غاضبًا، ومطلقًا اللّعنات.

بينما كانت أعداد كبيرة من السكّان المدنيّين تهرب كيفما ...ستطيع باتّجاه الحدود مع فرنسا، تتبعهم بقايا الجيش المهزوم، ...ان فيكتور دالماو والأطبّاء لا يزالون في مراكز عملهم، وكان بعض المتطوّعين ينقلون الجرحى من المستشفى في قطارات وسيّارات إسعاف وشاحنات. كانت الظروف حرجة ومضطربة إلى حدّ أنَّ المدير، الذي كان لا يزال على رأس قيادة المستشفى، اضطرَّ إلى اتّخاذ القرار المؤلم بترك المرضى الذين في حالة حرجة، لأنَّهم سيموتون على أيّ حال في الطريق، وإفساح مكان في السيّارات لأولئك الذين لديْهم

t.me/qurssan

أمل بالبقاء على قيد الحياة. وقد نُقلوا مكدَّسين في عربات قطارٍ لشحن الماشية وفي سيَّارات مخلَّعة، مطروحين على الأرض، متجمّدين من البرد، مُزعزعين، وبلا أغذية. أمَّا المقاتلون الذين أُجريت لهم عمليَّات جراحيَّة للتوّ، والجرحى، والعميان، ومبتورو الأعضاء، والمحمومون بالتيفوس أو الديزنطاريا أو الغرغرينا، فغادروا. العاملون في الجهاز الطبّيّ الذين لم نعُد لديهم وسائل لتخفيف المعاناة، ولم يعودوا قادرين على تقديم ما هو أكثر من الماء، أو كلمات مواساة أحيانًا، إذا ما طلب منهم أحد المحتضرين أن يُصلّوا من أجله.

لقد أمضى فيكتور أكثر من سنتيْن وهو يعمل جنبًا إلى جنب مع الأطبّاء أوسع منه خبرة؛ وقد تعلَّم الكثير في جبهات القتال، وتعلَّم أكثر من ذلك في المستشفى، حيث لم يَعُدْ هناك من يسأله عن مؤهّلاته الدارسيَّة، فما كان يؤخذ في الاعتبار هناك هو الانكباب على العمل. بل إنَّه هو نفسه كان ينسى أحيانًا أنَّه لا تزال تنقصه سنوات دراسيَّة من أجل التَّخرج، ويتظاهر بين المرضى بأنَّه طبيب كي يمنحهم إحساسًا بالأمان. لقد رأى جراحًا فظيعة، وشهد عمليَّات بترٍ من دون تخدير، وساعد عددًا من المصابين عاثري الحظّ على الموت، وكان يظنّ أنَّه صار له جلد تمساح لقدرته على تحمُّل كل ذلك العنف وتلك المعاناة. ولكنّ ذلك الطّريق المأساويّ في عربات القطار الذي كلّفوه به حطَّم حزمه. كانت القطارات تصل حتَّى خيرونا، وتتوقَّف هناك بانتظار وسائل نقل أخرى. وبانقضاء ثمانٍ وعشرين ساعة بلا طعام ولا نوم، وأثناء محاولته تقديم ماء الشرب لفتى مراهق كان يُحتضر بين ذراعيْه، انفجر شيء في صدر فيكتور. فدمدم «لقد انشطر قلبي». في تلك اللّحظة، أدرك المعنى العميق لهذه الجملة، وخُيّل إليه أنَّه سمع صوت زجاج يتكسَّر، وأحسَّ بأنَّ جوهر كيانه ينسكب ويتحوَّل إلى خواء، بلا ذاكرة من الماضي، وبلا

t.me/qurssan

، مي للحاضر، وبلا أمل بمستقبل. وتوصَّل إلى أنَّه لا بدَّ أن يكون هذا
م الذهاب في الدم، مثلما حدث لرجال كثيرين لم يتمكّن من إنقاذهم.
ر من الألم، كثير من الدناءة والخسّة في هذه الحرب بين الأخوة؛
الهزيمة أفضل من مواصلة القتل والموت.

كانت فرنسا تراقب بذعر كيف كانت تتجمّع على الحدود حشود
هائلة محبطة، نازحون تكاد تعجز عن كبحهم بعسكريّيها المسلّحين
وجنود مستعمراتها المخيفين من سنغاليّين وجزائريّين، على الخيول،
...ائمهم وبنادقهم وسياطهم. كانت البلاد قد فاضت بذلك النزوح
الجماعيّ غير المرغوب فيه، مثلما جرى تصنيفهم رسميًا. في اليوم
الثالث، وحيال الصخب الدوليّ، سمحت الحكومة الفرنسيّة بمرور
... والأطفال والمسنّين. بعد ذلك، راح يدخل من تبقّى من
...نيّين، وأخيرًا دخل المقاتلون الذين كانوا يمرّون في آخر حالات
الجوع والإنهاك، ولكنّهم كانوا يصدحون بأغنياتهم وهم يرفعون قبضاتهم
...، بعد أن تركوا أسلحتهم. تشكّلت تلال من البنادق على جانبَي
الطريق. وجرى اقتيادهم مشيًا على الأقدام، في مسيرات إجباريّة،
...وزيعهم على عدّة معسكرات تجميع مرتجلة، أقيمت على عجل من
أجل كبح الإسبان. وكان الحرّاس على الخيول يحثّونهم: *Allez! Al-*
...lez»[1]، بتوعّد وشتائم وضرب بالسياط.

وعندما لم يَعُد هناك من يتذكّرهم، راحوا يُحضرون الجرحى
المتبقّين أحياء. وكان معهم فيكتور وقلّة من الأطبّاء والممرّضين الذين
...وهم إلى هناك. وقد دخلوا إلى فرنسا بسهولة أكبر من موجات
اللاجئين الأولى، ولكنّهم لم يجدوا احتضانًا أفضل. فكثيرًا ما كان

(1) بالفرنسيّة في الأصل، وتعني: هيّا، تحرّك... بسرعة!

t.me/qurssan

الجرحى يعالجون بصورة سيِّئة في مدارس ومحطَّات قطارات، وحتى في الشوارع، لأنَّ المستشفيات المحلِّيَّة لم تكن كافيةً، ولم يكن هناك من يريدهم فيها. لقد كانوا أشدّ المحتاجين بين الجموع «غير المرغوب فيها». سمحوا لفيكتور بالبقاء للعناية بالرجال الذين كانوا تحت رعايته، وهكذا، استطاع التمتُّع بحريَّة نسبيَّة.

بعد الفصل بينها وبين أيتور إيبارّا، جرى اقتياد روزر مع نساء أُخريات وأطفال إلى مخيَّم أرجيليه ـ سور ـ مار، على بُعد خمسة وثلاثين كيلومترًا من الحدود، حيث كان قد وصل عشرات آلاف الإسبان. كان المكان عبارة عن شاطئ مسيَّج، وخاضع لحراسة الجندرمة وقوات من السنغاليِّين رمال وبحر وأسلاك شائكة. أدركت روزر أنَّهم أسرى مهجورين لمصيرهم، وصمَّمت على العيش بأيِّ حال؛ فإذا كانت قد تحمَّلت مشقَّة اجتياز الجبال، فسوف تتحمَّل ما سوف يأتي، من أجل الطفل الذي تحمله في أحشائها، ومن أجلها هي نفسها، ومن أجل الأمل بالاجتماع بوليام. كان اللّاجئون يظلُّون في العراء، معرَّضين للبرد والمطر، ومن دون أدنى شروط النظافة؛ لم تكن هناك مراحيض ولا ماء يصلح للشرب. فمن الآبار التي يحفرونها كان يخرج ماء مالح، عكر وملوَّث بالبراز والبول وبالجثث التي لا يتمّ سحبها بسرعة. كانت النسوة يجتمعن في جماعات متراصَّة للدفاع عن أنفسهنَّ من الاعتداءات الجنسيَّة التي يقوم بها الحرَّاس وبعض اللّاجئين، فبعد أن فقدوا كلّ شيء، لم يَعُدْ لديْهم حتَّى الوقار. حفرت روزر حفرة بيديها لتنام فيها وتحتمي من ريح الشمال، وهي ريح جليديَّة تحمل معها رمالًا تمزِّق الجلد، وتعمي العيون، وتدخل في كلِّ مكان، وتسبِّب قروحًا لا تلبث أن تلتهب. كانوا يوزِّعون مرَّة في اليوم حساء عدس كثير الماء، ويقدِّمون في بعض الأحيان قهوة باردة، أو تَمْرُ شاحنةٌ يرمون

t.me/qurssan

..ها أرغفة خبز. فكان الرجال يتصارعون حتّى الموت من أجل الإمساك , ..ب منها؛ وتتلقّى النساء وكذلك الأطفال بعض الفُتات إذا ما تقاسم ..ص رحيم حصّته معهم. كثيرون كانوا يموتون؛ ما بين ثلاثين وأربعين ..صًا كلّ يوم، بداية كان الأطفال يموتون بالديزنطاريا، وبعدهم يموت ا..سنّون بذات الرئة، وبعد ذلك بقيّة اللّاجئين شيئًا فشيئًا بسبب شحّ ا..وارد. وخلال اللّيل، يقوم البعض بالتناوب من أجل إيقاظ آخرين كلّ ..شر دقائق أو خمس عشرة دقيقة كي يتحرّكوا ويحولوا بذلك دون موتهم ..مُدًا. إحدى النساء، وكانت قد حفرت جحرها بالقرب من روزر، طلع ..ليها الصباح وهي تحتضن جثّة ابنتها ذات الخمسة شهور. فقد انخفضت . حة الحرارة في اللّيل إلى ما دون الصفر. حمل لاجئون آخرون جثمان ..فلة لدفنه على الشاطئ، في مكان بعيد بعض الشيء. أمضت روزر ..لك اليوم برفقة الأمّ التي ظلّت صامتة، من دون بكاء، ونظرها مصوَّب نحو الأفق. في تلك اللّيلة بالذات، ذهبت المرأة حتّى ضفّة الماء وتوغّلت في ال..حر إلى أن ضاعت. لم تكن الوحيدة. بعد وقت متأخّر جدًا، سيستخلص العالم الحسابات المفروضة: لقد مات قرابة خمسة عشر ألف شخصًا في ..خيّمات الجوع والحرمان وسوء المعاملة والأمراض الفرنسيّة تلك. تسعة من كلّ عشرة أطفال ماتوا.

وأخيرًا، نقلت السلطاتُ النساءَ والأطفال إلى مكان آخر على الشاطئ، مكان منفصل عن الرجال بحاجز مزدوج من الأسلاك الشائكة. ..كانت قد بدأت بالوصول مواد من أجل إقامة برّاكات، تولّى اللّاجئون أنفسهم بناءها، وأرسلوا عدّة رجال لبناء سقوف للنساء. طلبت روزر أن ..تكلّم إلى الضابط العسكريّ المسؤول عن المخيّم، وأقنعته بضرورة ..نظيم توزيع الأغذية القليلة المتوافرة، كيلا تضطرّ الأمهات إلى الشجار

t.me/qurssan

من أجل بعض أرغفة الخبز لأبنائهنّ. وفي هذه الأثناء، وصلت ممرضتان من الصليب الأحمر لتوزيع لقاحات ومسحوق حليب، مع تعليمات بتصفية الماء بخِرَق قماشيَّة، وجعله يغلي بضع دقائق قبل استخدامه في تحضير قوارير الرضاعة. وقد أحضرتا كذلك بطّانيّات، وثيابًا سميكة للأطفال، وأسماء عائلات فرنسيَّة مستعدَّة لتوظيف إسبانيّات كعاملات منزليّات أو في صناعات منزليَّة. وفي هذه الحالة، يفضّلونهنّ بلا أطفال. ومن خلال الممرّضتيْن، أرسلت روزر خبرًا إلى إليزابيث إيدنبنز، على أمل أن تكون في فرنسا. «أخبروها بأنّني زوجة أخي فيكتور دالماو وأنّني حبلى».

كانت إليزابيث قد رافقت، في البدء، المقاتلين في الجبهة. وبعد ذلك، عندما صارت الهزيمة وشيكة، رافقت جموع الهاربين في طريقهم إلى المنفى. اجتازت الحدود بثوبها الأبيض وقبّعتها الزرقاء من دون أن يتمكّن أحد من توقيفها. تلقّت رسالة روزر وسط مئات طلبات المساعدة، وربّما لم تكن لتمنحها الأسبقيَّة لو لم تقترن باسم فيكتور دالماو. إنّها تتذكّره بنوع من العذوبة، باعتباره الرجل الخجول الذي يعزف الجيتار، ويريد الزواج منها. في اليوم التالي لتلقيها الرسالة ذهبت إلى أرجيليه ـ سور ـ مار للبحث عن روزر بروغيرا. كانت مطّلعة على الظروف المؤسفة في مخيّمات التّجميع، ولكنّها تأثّرت بشدَّة عندما رأت تلك الشابَّة مشعَّثة الشعر والمتّسخة الشاحبة، مع دوائر ضاربة إلى الزرقة حول عينيْها الملتهبتيْن بفعل الرمل، والنحيلة إلى حدٍّ يبدو معه أنّ البطن مندلق من الهيكل العظميّ. وعلى الرّغم من مظهرها، قدَّمت روزر نفسها بقامة منتصبة، وبصوت متماسك وباعتدادها الدائم بنفسها. لم تكشف أيّ كلمة ممّا قالته عن غمٍّ أو استسلام، كما لو أنّها في حالة سيطرة مطلقة على ظروفها.

t.me/qurssan

ـ لقد أعطانا فيكتور اسمكِ، يا آنسة، قال إنّه يمكن لحضرتك أن تساعدينا في التواصل كي نجمع شملنا.

ـ من معك الآن؟

ـ إنّني وحيدة حاليًا، لكنَّ فيكتور وأخاه وليام سيأتيان، ووليام هو والد ابني، ولنا صديق يدعى أيتور إيبارّا، وربّما والدة فيكتور ووليام أيضًا، السيّدة دالماو. عندما يصلون أخبريهم بمكان وجودي، أرجوكِ. آمل أن يعثروا عليّ قبل الولادة.

ـ لا يمكنك البقاء هنا، يا روزر. إنّني أحاول مساعدة النساء الحوامل ومن لديهنّ أطفال رُضّع. لا يمكن لأيّ مولود أن يبقى على قيد الحياة في هذه المخيّمات.

أخبرتها أنّها قد فتحت بيتًا لاستقبال من سيصرن أمّهات، ولكنَّ الطلبات كثيرة والمكان محدود. لهذا، وضعت عينها على قصر مهجور في إيلن، حيث تحلم بإقامة دار أمومة لائقة، تكون واحة للنساء وأطفالهنَّ وسط كلّ هذا البلاء والمحن. لا بدَّ من إعادة بعث البناء من الدّمار. وهذا سيستغرق شهورًا.

ـ ولكنّكِ لا تستطيعين الانتظار، يا روزر، يجب أن تخرجي فورًا من هنا.

ـ كيف؟

ـ المدير يعرف أنّك ستذهبين معي. الحقيقة، أنَّ الشيء الوحيد الذي يريدونه هو التّخلّص من اللّاجئين، إنّهم يحاولون إجبارهم على العودة إلى موطنهم. وكلّ من يتمكّن من الحصول على حماية أو على عمل، يصبح حرًّا. هيّا بنا.

ـ هنا يوجد الكثير من النساء والأطفال، وهنالك حوامل بينهنَّ.

ـ سأفعل ما أستطيعه. سأعود بمزيد من المساعدة.

t.me/qurssan

في الخارج، كانت تنتظرهما سيّارة تحمل شعار الصليب الأحمر قرّرت إليزابيث أنّ ما تحتاج إليه روزر، أوّلًا وقبل أيّ شيء آخر، هو وجبة طعام ساخنة، وأخذتها إلى أوّل مطعم ظهر لهما في الطريق. الزبائن القليلون الذين كانوا يتواجدون في ذلك الوقت لم يُخفوا اشمئزازهم من هذه المتسوّلة كريهة الرائحة التي ترافق الممرّضة النّظيفة والمرتّبة أكلت روزر كلّ الخبز الموجود على المنضدة قبل أن يصل الفرّوج المطهو كمرًا في بُخاره. كانت الممرضة السويسريّة الشابّة تقود السيّارة كما لو أنّها درّاجة، تمضي في مسار متعرّج بين السيّارات، وتصعد على الأرصفة متجاهلة بتكبّر تقاطعات الطريق وإشارات المرور التي تعتبرها مسألة اختياريّة! وهكذا، وصلتا خلال وقت قصير جدًّا إلى بيربينيان. أوصلت روزر إلى دار تُستخدم كمركز للأمومة، حيث كانت هناك ثماني نساء شابّات، بعضهنّ في شهور الحمل الأخيرة، وأخريات يحملن بين أذرعهنّ صغارهنّ حديثي الولادة. استقبلوها بذلك التأثّر الخالي من تصنّع المشاعر الذي يميّز الإسبان. قدّمن لها منشفة، وصابونًا وشامبو ووجّهوها نحو الدوش لتستحمّ، وانهمكن أثناء ذلك في الحصول لها على ملابس. بعد ساعة من ذلك، مثلت روزر أمام إليزابيث نظيفة، بشعر مبلّل، ترتدي تنّورة سوداء، وجلبابًا قصيرًا من الصوف يغطّي بطنها، وحذاء ذا كعب. وفي تلك اللّيلة بالذات، أخذتها إليزابيث إلى حيث يوجد زوجان من الكويكرز الإنكليز، كانت قد تعاملت معهما في جبهة مدريد، للحصول على أغذية وملابس وحماية للأطفال ضحايا النزاع.

ـ ستبقين معهما هنا طوال الوقت الضروريّ، يا روزر، إلى أن تضعي وليدك على الأقلّ. وبعد ذلك، سنرى. إنّهم أناس طيّبون. الكويكرز يتواجدون دومًا حيث تكون ثمّة حاجة إليهم. إنّهم قدّيسون، القدّيسون الوحيدون الذين أحترمهم.

t.me/qurssan

الفصل الرَّابع

1939

...تني بفضائل صغار البرجوازيّين
... الضواحي
...ائلهم......

پابلو نيرودا

«ضواحٍ»، القلب الأصفر

t.me/qurssan

t.me/qurssan

غادرت «ملكة الباسفيك» ميناء بالبارايسو التشيليّ في بدايات
..هر أيّار/مايو لترسو في ليفربول بعد سبعة وعشرين يومًا. كان الرّبيع
في أوروبا يتراجع ليُخلي المكان لصيفٍ غير مؤكّد، تتوعّده طبول
..ب لا سبيل إلى تجنُّبها. قبل بضعة شهور من ذلك، كانت القوى
العظمى الأوروبيّة قد وقَّعت اتّفاقيّات ميونخ التي لم تكن لدى هتلر
أيّ نوايا للالتزام بها. كان العالم الغربيّ يراقب مشلولًا تمدُّد النازيّين
التوسّعيّ. أمّا على متن «ملكة الباسفيك»، فكانت أصداء النزاع الذي
..رب تُكتم مع ذلك، بسبب بُعد المسافة وضجيج محرّكات الديزل
التي تدفع تلك المدينة الطافية، والتي تزن 17702 طنًا عبر محيطيْن
..ين. بالنّسبة إلى مُسافري الدّرجة الثانية ـ وعددهم 162، ومسافري
الدّرجة الثالثة الـ 446، كان مدّة الرحلة تبدو طويلة؛ أمّا مسافرو الدّرجة
الأولى، فكانت إزعاجات الإبحار تتلاشى في الأجواء الراقية، حيث
تمرّ الأيّام طيرانًا، وحيث لا يُمكن لتدافع الأمواج أن يؤثّر على متعة
الرحلة. في الطبقة العليا، تكاد لا تُسمع ضجّة المحرّكات؛ فهناك تهيمن
على الجوّ أنغام موسيقى الخلفيّة اللّطيفة، والأحاديث المتبادلة بلغات
المئتي وثمانين مسافرًا، وحركة ذهاب البحّارة والضبّاط ومجيئهم بزيّهم
الأبيض من الرأس حتّى القدميْن، وعُمّال الخدمة بزيّهم الموحّد ذي

t.me/qurssan

الأزرار المذهَّبة، وفرقة أوركسترا، ورباعيّ آلات وتريَّة، والرنين المتواصل لكؤوس الكريستال، وأواني البورسلين وأدوات المائدة الفضّيَّة. ولم يكن المطبخ يهدأ إلّا في أشدّ ساعات الظلمة التي تسبق الفجر.

في الجناح المؤلَّف من حُجرتيْن، وحمَّاميْن، وصالة وشرفة، كانت لورا دل سولار تئنّ وتتأوَّه وهي تحاول أن تحشر نفسها في مِشدٍّ مطّاطيّ مرن، بينما بدلة الرَّقص تنتظرها فوق الفراش. إنَّها مخصَّصة لهذه اللَّيلة بالذات، اللَّيلة ما قبل الأخيرة في الرحلة، حيث يتباهى ركّاب الدُرجة الأولى بما هو أشدّ أناقة في صناديق أمتعتهم، وتتباهى نساؤهم بمجوهراتهنّ. ثوب لورا ذو الثنيات، تصميم شانيل، موصًى عليه من بوينس آيرس، وقد عمدت خيَّاطتها في سنتياغو إلى إضافة سبعة سنتمترات عند حدّ الخِياطة، ولكنْ بعد عدَّة أسابيع من الإبحار، ضاق عليها. وفي المرآة التي من زجاج مشدوف الحوافّ، كان زوجها إيسيدرو دل سولار، يضبط وضع ربطة العنق البيضاء على بدلة الإيتكيت بمزاج راضٍ. إنَّه أقلّ شراهة وأكثر انضباطًا منها؛ يحافظ على وزنه، ويبدو وسيمًا وهو في التاسعة والخمسين. لقد تغيَّر قليلًا فقط خلال السنوات التي مضت على زواجهما، خلافًا لحالها، إذ إنَّها تشوَّهت بفعل الأمومة وإكثارها من الحلوى. جلست لورا مغمومة على المُتَّكأ المُنجَّد بقماش الغوبلان المنسوج يدويًّا، برأسٍ منحنٍ وكتفيْن متهدّليْن.

ـ ماذا جرى، يا لوريتا؟

ـ أيُضايقك إذا أنا لم أرافقك هذه اللَّيلة، يا إيسيدرو؟ رأسي يؤلمني

انتصب زوجها أمامها بملامح استياء يتوصَّل بها على الدوام إلى هزيمة لورا.

t.me/qurssan

ـ تناولي قرصيْ أسبرين، يا لوريتا. اليوم هو يوم العشاء مع
الألمان. لدينا منضدة مهمّة، لقد كانت مأثرة كبيرة تُمكّنني من رشوة
كبير الخدم للحصول عليها. إنّنا ثمانية أشخاص، وغيابك سوف يُلحظ
فوراً

ـ أشعر بأنّني لست على ما يرام، يا إيسيدرو...

ـ ابذلي جهدًا. هذا عشاء عمل بالنّسبة إليّ. سوف نتقاسم
المنضدة مع السيناتور ترويبا ورجليْ أعمال إنكليزيّيْن مهتمّيْن بشراء
الصوف منّي. أتتذكّرين أنّني حدّثتك عنهما؟ ولديّ عرض من مصنع
آلات عسكريّة في هامبورغ، ولكنْ من الصّعب التفاهم مع الألمان.

ـ لا أظنّ أنّ السيّدة زوجة السيناتور ترويبا سوف تحضر.

ـ هذه المرأة غريبة جدًّا، يقولون إنّها تتكلّم مع الموتى، قال إيسيدرو.

ـ الناس جميعًا يتكلّمون مع الموتى بين حين وآخر، يا إيسيدرو.

ـ يا للحماقة التي تقولينها، يا لوريتا!

ـ لم يَعُدْ الثوب يتّسع لي.

ـ وما أهمّيّة بضعة كيلوغرامات إضافيّة؟ ارتدي ثوبًا آخر. أنتِ
كنتِ جميلة دومًا، قال بنبرة من كرّر ذلك الكلام نفسه من قبل مئة مرّة.

ـ كيف لن أسمن، يا إيسيدرو؟ فالشيء الوحيد الذي فعلناه على
هذه السفينة هو الأكلّ والأكل، ولا شيء سوى الأكل.

ـ حسن، كان بإمكانك ممارسة بعض التمارين، السباحة في
المسبح مثلًا!

t.me/qurssan

ـ كيف يخطر لك أنّني سأقبل الظهور بملابس الاستحمام!

ـ لا يمكنني إجبارك، يا لورا، ولكنّني أكرّر إنَّ حضورك هذا العشاء مهمّ جدًّا. لا تسبّبي لي الحَرَج. سوف أساعدك في تبكيل الثوب. ضعي عقد الياقوت، سوف يبدو بديعًا.

ـ إنّه فاخر جدًّا.

ـ لا شيء من هذا. إنَّه عقد متواضع، بالمقارنة مع المجوهرات التي رأيناها لدى نساء أخريات هنا، في السفينة ـ حسم إيسيدرو الأمر وهو يفتح صندوق خزنة بالمفتاح الذي يحمله في جيب صداره.

شعرتْ بالحنين إلى شرفة أزهار الكاميليا في بيتها بسنتياغو، وإلى ليوناردو وهو يلعب في ذلك الملاذ الحميم، حيث يمكن لها أن تحوك وتصلّي بطمأنينة، محميَّة من مفاجآت زوجها ونزوات زهوه الصاخبة. لقد كان إيسيدرو دل سولار هو قدرها، ولكنَّ الزواج يثقل عليها وكأنَّه إكراه. لقد اعتادت أن تحسد أختها، تريسا العذبة، الراهبة في دير مغلق، والمشغولة بالتأمُّل والقراءات الرُّوحيَّة الرحيمة، والتَّطريز لعرائس المجتمع الراقي. حياة مكرَّسة للربّ، من دون المشاغل التي تعاني هي منها، وبلا قلق مليوداميّات الأبناء والأقارب، والصراع مع عاملاتٍ منزليّات، وتبديد الوقت في زيارات، وقيام بالواجب كزوجة منكرة لذاتها. لقد كان إيسيدرو كلِّيُّ الحضور، الكون بأسره يدور حوله، وفق رغباته ومطالبه. هكذا، كان جدُّه وأبوه.. وهكذا، هم الرجال جميعًا.

ـ ارفعي معنويّاتك، يا لوريتا، قال إيسيدرو بينما هو يحاول إطباق القفل الدَّقيق جدًّا للحِلْية التي وضعها حول عنقها. أريد لكِ أن تستمتعي بالوقت، وأن تظلّ هذه الرّحلة ذكرى دائمة لا تُنسى.

t.me/qurssan

ذكرى خالدة لا تُنسى كانت الرحلة التي قاما بها قبل بضع
وات في عابرة المحيطات *نورماندي*، التي كانت قد دُشّنت للتوّ،
،١٠٠ طعامها الرئيسيّة التي تتّسع لسبعمئة مدعوّ، ومصابيح ومصادر
اضاءة من تصميم لاليك، وديكور آرت ديكو، وحديقتها الشتائيّة مع
أقفاص الطيور الإكزوتيّة. وخلال خمسة أيّام فقط بين فرنسا ونيويورك،
عاش الزوجان دل سولار ترفًا غير معروف في تشيلي، حيث القناعة
تعتبر فضيلة. وكلّما امتلك أحدهم أموالًا أكثر، يكون أكثر حذرًا في
١٠ اراة ذلك، والتستُّر عليه. كان المهاجرون العرب المغتنون من التجارة
هم وحدهم من يتباهون بثرائهم، ولكنْ لورا لم تتعرّف على أحد منهم؛
فأولئك الناس كانوا خارج دائرتها، وسيكونون كذلك دومًا. كانت تسافر
.. عابرة المحيطات *نورماندي*، تسافر مع زوجها في شهر عسل ثانٍ، بعد
.. الأطفال الخمسة مع جدّيهما والمربّية الإنكليزيّة والخادمة. وكانت
ا حجة المفاجئة هي حَبَلٌ آخر، في وقتٍ لم تكن تتوقّعه. كانت متأكّدة
.. أنّهما في تلك الرّحلة البحريّة القصيرة قد تسبّبا في الحبل بليوناردو،
ا للبريء المسكين، صغيرها! الطفل الذي وُلد بعد عدّة سنوات من
أوميليا التي كانت حتّى ذلك الحين أصغر أفراد الأُسرة.

لا يمكن لعابرة المحيطات *ملكة الباسفيك* أن تُقارَن بترف
نورماندي وفخامتها، ولكنّها ليست سيّئة على أيّ حال. كانت لورا تتناول
الفطور في الفراش، مثلما هي عادتها دائمًا، وترتدي ملابسها في حوالى
الساعة العاشرة صباحًا من أجل القدّاس في كنيسة السّفينة، ثمّ تصعد
إلى السّطح العلْويّ لتشمّ الهواء، على كرسيّ الشواطئ المخصّص لها،
حيث يأتي نادلٌ بحساء لحم جاموس وسندويتشات؛ ومن هناك تذهب
إلى مائدة الغداء، أربعة أطباق على الأقلّ، تلي ذلك ساعة تناول الشاي

t.me/qurssan

مع معجّنات وحلويات. تكاد لا تجد وقتًا لنوم القيلولة ولعب بضعة أدوار «كنستة» قبل أن ترتدي ثيابها من أجل الكوكتيلات والعشاء، حيث يكون عليها أن تبتسم بلا رغبة، وأن تتظاهر بأنّها تستمع لآراء الآخرين بعد ذلك، كان الرقص إجباريًا، لأنّ إيسيدرو خفيف القدميْن وجيّد السماع. أمّا هي، فتتحرّك بتثاقلٍ فقمةٍ على الرمل. في وجبة منتصف اللّيل الخفيفة، أثناء توقّف الأوركسترا عن العزف، تُقدَّم شطائر فوا جرا، وكافيار وشمبانيا وحلوى. وكانت تمتنع عن تناول الأصناف الثلاثة الأولى، ولكنّها لا تستطيع مقاومة تناول الحلويّات. في اللّيلة السابقة، كان كبير الطبّاخين في السّفينة، وهو فرنسيّ بتطرّف، قد قدّم تشكيلة حلويّات شوكولاتة متعدّدة الأشكال، تتصدّرها نافورة عجيبة تسيل منها شوكولاتة سائلة من خلال فم سمكة من الكريستال.

لقد كانت هذه الرحلة، بالنّسبة إليها، مفروضة عليها من زوجها. فلو أنّها إجازة راحة، لفضّلت الذهاب إلى إقطاعيّتها في الجنوب، أو إلى بيتها على شاطئ بينيا دل مار، حيث تمرّ الأيّام متثاقلة وكسلى. مشاوير مشي طويلة، شاي في ظلّ الأشجار، قدّاس عائليّ مع الأطفال وعمّال الخدمة. هذه الرحلة إلى أوروبا كانت بالنّسبة إلى زوجها فرصة من أجل تمتين علاقات اجتماعيّة، وغرس بذور صفقات تجاريّة جديدة. كانت لديه روزنامة كاملة لكلّ عاصمة سيزورونها. وكانت لورا تشعر بأنّها قد خُدعت، فالرحلة في الواقع ليست إجازة بأيّ حال. لقد كان إيسيدرو رجل رؤية مستقبليّة، مثلما يحدّد شخصيّته هو نفسه. وهذا أمر مثير للرّيبة عند أسرة لورا؛ فسهولة كسب المال في مغامرات تجاريّة هي مسألة خاصّة بالأثرياء الجُدد، بمحدثي النعمة، الوصوليّين. وهم يغضّون النظر عن نقيصة إيسيدرو هذه، لأنّه ليس هناك من يشكّك

t.me/qurssan

.. طيب أصول سلالته القشتاليَّة ـ الباسكيَّة، من دون أيَ أثر من الدم
العربيّ أو اليهوديّ في عروقه. فهو يتحدَّر من أحد فروع سلالة دل سولار
ا... لا تشوب مكانتها وعراقتها أيَّة شائبة، اللَّهم إلَّا من جهة أبيه، إذ
..م في سنيّ نضوجه في غرام معلِّمة مدرسة متواضعة، وأنجب منها
..بْن قبل أن تُكتشف فعلته. أسرته واسعة الامتداد، وعائلات أخرى
.. الطبقة نفسها، تضامنت في إغلاق السبل أمام تلك الزوجة وابنيْها
..ر الشرعيَّين. أمَّا هو، فرفض التُخلِّي عن عشيقته وهجْرها. فأغرقته
الفضيحة. كان عمر إيسيدرو آنذاك خمسة عشر عامًا. لم يَعُدْ إلى
..ة أبيه الذي واصل العيش في المدينة نفسها، ولكنَّه انحدر حوالى
.. رجتيْن في التراتبيُة الصارمة للطبقات الاجتماعيَّة، واختفى من محيطه
.. سابق. لا أحد يأتي الآن على ذكر تلك الدراما، ولكنُ الجميع يعرفونها.
ا..رة الزوجة المهجورة ساعدوها براتب حدّ أدنى، ووظَّفوا إيسيدرو، أكبر
الأبناء، الذي كان عليه أن يترك المدرسة والبدء بالعمل. تبيَّن أنَّ الفتى
أكثر ذكاء ونشاطًا من كلّ أقربائه مجتمعين، فقد توصَّل بعد سنوات
قليلة إلى وضع اقتصاديّ يليق بكنيته. وكان قادرًا على التفاخر بأنَّه لا
يدين لأحد بأيّ شيء. وعند بلوغه التاسعة والعشرين من العمر، تقدَّم
لطلب يد لورا بيثكارًا، مدعومًا بسمعته الجيِّدة، وبعدَّة أعمال تجاريَّة
مقبولة في وسطه الاجتماعيّ: تربية أغنام في باتاغونيا، واستيراد آثار
قديمة من الإيكوادور والبيرو، وامتلاك إقطاعيَّة توفِّر القليل من الأرباح،
لكنَّها مشهورة جدًّا. أمَّا عائلة العروس، المتحدِّرة من دون بيدرو دي
بيثكارًا، الحاكم المنتدب للمستعمَرة في القرن السادس عشر، فكانت
عصبة كاثوليكيَّة، محافظة متطرِّفة، غير مثقَّفة ومغلقة على نفسها؛ يعيش
أفرادها، ويتزوَّجون ويموتون فيما بينهم، من دون اختلاط بأناس آخرين،

t.me/qurssan

أو الاهتمام بمعرفة أفكار العصر الجديدة. كانوا محصَّنين ضدّ العلم، والفنون والآداب. وقد قُبل إيسيدرو لديْهم، لأنّه كسب التعاطف العام، واستطاع أن يُثبِت أنَّ له علاقة مصاهرة مع آل بيثكارًا من جهة أمّه.

على متن *ملكة الباسفيك*، أمضى إيسيدرو دل سولار أيّام الإبحار البضعة والعشرين في تعزيز اتّصالاته وممارسة الرياضة: كان يلعب البينغ بونغ، ويتلقّى دروسًا في المبارزة. يبدأ يومه بالركض متقامًا عدّة جولات على سطح السّفينة، وينهيه في ما بعد منتصف اللّيل مع أصدقاء معروفين، في البار وفي قاعة المدخّنين، حيث لا ترحيب بالسيّدات. فالسادة يتبادلون الحديث حول صفقات الماضي التجاريّة بلامبالاة متصنّعة، لأنّهم يرون في إبداء الكثير من الاهتمام سلوكًا غير مستحب، ولكنَّ الموضوع السياسيَ كان يستثير الشجون. كانوا يعلمون بالمستجدّات من الجريدة التي تصدر على متن السفينة، عبارة عن ورقتين تتضمّنان أخبارًا تصل بالتلغراف، وتوزّع على المسافرين في الصباح. وفي المساء، تكون الأخبار قد فقدت صلاحيّتها؛ فكلُّ شيء كان يتغيّر بطريقة دواريّة، والعالم المعروف كان يمضي مقلوبًا رأسًا على عقب. وكانت تشيلي، بالمقارنة مع أوروبا، جَنّةً متخلّفة ونائية لحسن الحظّ. صحيح، أنّه كان لديْها في ذلك الحين حكومة يسار الوسط، وكان الرئيس من الحزب الراديكاليّ، وماسونيًا مكروهًا من اليمين، اسمه لا يُذكر في أوساط «العائلات الراقية»، ولكنّه لن يستمرّ في الرئاسة إلّا لفترة قصيرة. فاليسار، بواقعيّته السوقيّة وتراتبيّته، كان بلا مستقبل؛ ولسوف يتولّى سادة تشيلي تحقيق ذلك. كان إيسيدرو يجتمع بزوجته في موعد تناول الطعام ومن أجل عروض المساء. فهم يقدّمون في السفينة عروض سينما، ومسرح، وموسيقى، وسيرك، ومتكلّمين من بطونهم، ومحاضرات

t.me/qurssan

ومين مغناطيسيّين ومُبَصّرين، يستثيرون افتتنان السيّدات وسخرية الرجال. وكان إيسيدرو المنفتح على الحياة ومحبّ الشراب، يحتفي بكلّ شيء وهو يمسك السيجار في يدٍ وكأس الشراب في اليد الأخرى، من دون أن يتأثّر من سلوك زوجته التي تُبدي استنكارها حيال تلك السعادة المفتعلة، والتي تنبعث منها رائحة الخطيئة والتهتُّك.

نظرت لورا إلى المرآة وهي تكبح دموعها. فهي تفكّر في أنَّ الثوب يبدو بديعًا على امرأة أخرى، أمّا هي فلا تستحقّه، مثلما لا تستحقّ أيّ شيء تقريبًا ممّا تملكه. كانت مُدركة لوضعها المتميّز، ولحسن حظّها بولادتها في أسرة آل فيثكارّا، وزواجها من إيسيدرو دل سولار ومنافع وامتيازات كثيرة أخرى تحصل عليها بصورة غامضة، من دون أن تبذل أيّ جهد أو تخطيط مسبق من جهتها. لقد كانت تنعم بالحماية والخدمة على الدوام. وقد أنجبت ستة أبناء من دون أن تضطرّ إلى تبديل حفّاضة واحدة لهم، أو تحضير زجاجة رضاعة؛ فهذه أمور تتولّاها خوانا الطيّبة، لأنّها المسؤولة عن متابعة المرضعات والخادمات. فخوانا هي من تولّت تربية الأطفال، بمن فيهم فيليبه الذي سيكمل عمّا قريب التاسعة والعشرين من عمره. لم يخطر للورا أن تسأل خوانا عن عمرها، أو عن عدد السنوات التي مضت عليها وهي تعمل في بيتها، كما أنّها لا تتذكّر متى وصلت إلى البيت. لقد منحها الرب الكثير. لماذا منحها هي بالذات؟ ما الذي يطلبه منها مقابل ذلك؟ لا يخامرها أيّ شكّ، فهذه الديون للإله تعذّبها. لقد أطلّت وهي في *النورماندي*، بدافع الفضول، لمراقبة الحياة في طبقة الدرجة الثالثة، خارقة بذلك التعليمات بعدم الاختلاط مع مسافرين من درجة أخرى لأسباب صحّيّة، مثلما يقول التنبيه المعلّق على باب الجناح، لأنّه إذا ما تسبّب سوء الحظّ بحدوث

t.me/qurssan

حالة تدرُّن رئويّ، أو أيّ مرض معدٍ آخر، يمكن أن ينتهي الأمر بوضع الجميع في الحَجْر الصحّيّ، هذا ما شرحه لها الضابط الذي دعاها إلى التقيُّد بالنظام. لقد تمكّنت لورا من رؤية ما يكفي، وتأكّدت ممّا لاحظته عندما كانت تذهب مع عضوات جمعيّة السيّدات الكاثوليكيّات لتوزيع الصدقات في المناطق الهامشيّة؛ الفقراء لهم لونٌ آخر، وروائحهم غريبة، بشرتهم أشدّ قتامة، وليس لشعرهم بريق، وثيابهم حائلة الألوان من هم أولئك الذين يسافرون في الدّرجة الثالثة؟ لا يبدو أنّهم مهلهلون يرتدون ثيابًا رثّة، أو بائسون، مثلما هي حال السكّان الأصليّين في مدينة سنتياغو، ولكنْ لبشرة وجوههم اللّون الرّماديّ نفسه. «لماذا هم وأنا لا؟»، كانت لورا تتساءل في هذه المناسبة بمزيج من الإحساس بالراحة والشعور بالعار. ظلّ السّؤال يطفو في الذهن مثل ضجّةٍ لجوجة كان الفصل بين درجات المسافرين في *ملكة الباسفيك* مشابهًا لما هو عليه في *نورماندي*، ولكنّ التضادّ كان أقلّ دراماتيكيّة، لأنّ الأزمنة كانت قد تغيّرت، وكانت السفن البخاريّة أقلّ ترفًا. فمسافرو الدرجة السياحيّة، وهي التسمية التي تُطلق الآن على مسافري الطابق السّفليّ الذين يصعدون إلى السفينة في تشيلي والبيرو وموانئ أخرى على الباسفيك، هم من المستخدمين والموظّفين والطلّاب وصغار التجّار والمهاجرين الذين يرجعون لزيارة عائلاتهم في أوروبا. وقد لاحظت لورا أنّهم يقضون وقتهم بطريقة أفضل بكثير من مسافري الدّرجة الأولى، في جوّ من التساهل والاحتفال مع غناء ورقص وشرب بيرة، ومسابقات وألعاب؛ لا أحد يرتدي بدلة من نسيج التويد من أجل الفطور، ولا من الحرير من أجل تناول الشاي، ولا يتقيّد ببدلة الإتيكيت من أجل العشاء.

t.me/qurssan

في هذه اللّيلة ما قبل الأخيرة من الرحلة، قبالة المرآة، وهي ،حنورة في ثوب الرَّقص، معطَّرة، وتضع حول عنقها العقد الموروث عن أمّها، لم تكن لورا ترغب إلّا بكأس نبيذها مع بضع قطرات من الماردين، والاستلقاء في سريرها والنوم لشهور، حتّى نهاية الرحلة، حتّى تجد نفسها وقد رجعت إلى بيتها وإلى برودة حجراته، إلى أجوائها، ولأن تكون مع ليوناردو. إنّها تشتاق إليه، وتعاني العذاب في قضاء شهور عديدة بعيدًا عن ابنها؛ ربّما لن يستطيع التّعرُّف عليها عند عودتها، فذاكرته ضعيفة، مثلما هو كلّ شيء فيه. وماذا لو مرض؟ من الأفضل عدم التّفكير في هذا الاحتمال. لقد منحها الربُّ خمسة أبناء ماديّين. وكملحق إضافيّ بهم، أرسل إليها هذا البريء، هذه الرُّوح الممتنة. النوم، لو كان بمقدورها النوم! الإحباط يحرق معدتها، تشعر بجمرة محبوسة في صدرها. وفكَّرت: «سأكون أنا من عليها أن تتنازل دومًا، وأن تُفرض عليَّ إرادة إيسيدرو، فهو أوَّلًا، وهو ثانيًا وهو ثالثًا، هذا ما يكرِّره لي، كما لو أنَّها ظرافة، وأنا أتقبَّل ذلك. كم أرغب في أن أصير أرملة!» عليها أن تقاوم هذه الخواطر التي تراودها بالصلوات والتّكفير والتوبة. فتمنّي الموت لشخص آخر خطيئة مميتة؛ إيسيدرو شخص ... المزاج، ولكنّه زوجٌ وأبٌ استثنائيّ، لا يستحقّ مثل هذه الرُّغبة الخبيثة من زوجته بالذات، وهي المرأة التي أقسمت له على الوفاء والطاعة عندما تزوّجا. لقد أقسمت على ذلك أمام المذبح. «إنّني حنونة، فضلًا عن كوني بدينة»، قالت متنهّدة، وسرعان ما بدت لها هذه النتيجة مسلّية. لم تستطع كبح ابتسامة ابتهاج، فسّرها زوجها على أنّها إشارة رضى. «هكذا تعجبينني، يا جميلتي»، وتوجّه نحو الحمّام مترنّمًا.

t.me/qurssan

دخلت أوفيليا إلى جناح أبويْها من دون أن تطرق الباب. فهي ،
التاسعة عشرة، ولا تزال فتاة مهملة وغير مبالية. متى ستنضج! يتعلّ
أبوها بلا قناعة، لأنّها هديّته المحبّبة، الوحيدة التي تشبهه بين أبنائه،
فهي جريئة وعنيدة مثله، من المحال ثنْي إرادتها. لم تكن الفتاة قا
حقّقت نجاحًا في المدرسة، وقد تخرّجت فقط لأنّ الراهبات كنّ راغبات
في إزاحتها عن كاهلهنّ. لم تتعلّم سوى القليل جدًّا خلال سنواتها
المدرسيّة الاثنتيْ عشرة، ولكنّها كانت تعرف كيف تداري جهلها
باللُّطف وخفَّة الرُّوح، بغريزة الصّمت وقوّة الملاحظة. ذاكرتها الجيّدة،
لم تتوصّل إلى تجاوز فصلها الدارسيّ للتاريخ أو حفظ جدول الضرب،
ولكنّها كانت تحفظ كلمات كلّ الأغاني التي تُبثُّ من المذياع. وكانت
شاردة الذهن، متغنّجة وجميلة، وحتّى وافرة الجمال، كان أبوها يخشى
أن تكون فريسة سهلة لرجال بلا وازع أخلاقيّ. جميع ضبّاط السفينة
ونصف المسافرين الذكور، بمن فيهم المتقدّمون في السنّ، وضعوا
أعينهم عليها، لقد كان واثقًا من ذلك. فأكثر من واحد منهم علّق أمامه
حول المواهب التي تتمتّع بها ابنته، مشيرين إلى اللّوحات المائيّة التي
ترسمها أوفيليا على سطح السّفينة، ولكنّهم لم يكونوا يحومون حولها
إعجابًا بلوحاتها التافهة، وإنّما لأسباب أخرى. كان إيسيدرو يأمل برؤيتها
متزوّجة في أسرع وقت، فتنتقل هكذا لتصبح من مسؤوليّة ماتياس
إيثاغيرّي - أي أنّها تصير «طحين ضفّة أخرى»، كما يقولون في الأمثال
- ويمكنه عندئذٍ التّنفُّس باطمئنان، ولكنْ سيكون من الأفضل أيضًا
الانتظار قليلًا، لأنّها إذا ما تزوّجت وهي صغيرة، مثل أخواتها، فسوف
تتحوّل خلال سنوات قليلة، مثل أخواتها، إلى متقدّمة في السنّ، نزقة
وغاضبة.

t.me/qurssan

الرحلة إلى أوروبا آتية من تشيلي، في أقصى جنوبي أميركا، هي
.. سبيّة طويلة ومكلفة لا يُمكن إلّا لعائلات قليلة تحمّلها. آل دل سولار
. يحسبون ضمن أكبر الأثرياء التشيليّين، ربّما يكون منهم أبو إيسيدرو
.. برك في إرثه ما تلقّاه هو منه، وأنفقه كلّه قبل أن يغادر الأسرة، ولكنّهم
كانوا قريبين جدًّا من أكبر الأثرياء. لكنّ الحالة الاجتماعيّة لم تكن
.. مد، على كلّ حال، على كثرة الأموال بقدر اعتمادها على النَسب
والسلالة. وخلافًا لكثير من العائلات الثريّة، ولكن على غرار العقليّة
الرهبيّة، كان إيسيدرو يرى أنّه لا بدّ من رؤية العالم. فقد كانت تشيلي
.ربرة تحدُّها من الشمال صحراء فسيحة مقفرة، ومن الشرق سلسلة
جبال الأنديز العصيّة على الاختراق، ومن الغرب المحيط الهادئ ومن
الجنوب قارّة أنتارتيكا الجليديّة. وقد كان التشيليّون محقّين عندما كانوا
.. شون وهم يتفحّصون سُرّتهم، بينما كان القرن العشرون في ما وراء
..ودهم ينطلق خببًا. فكان السفر، بالنّسبة إلى إيسيدرو، استثمارًا
ضروريًا. لقد أرسل ابنيْه الذكريْن إلى الولايات المتّحدة وأوروبا عندما
صارا في سنّ مناسبة، وكان يرغب في توفير الشيء نفسه لبناته، لكنّهن
تزوّجن قبل أن يجد اللّحظة المناسبة لسفرهنّ. وكان يسعى إلى تجنُّب
ذلك الإهمال مع ابنته أوفيليا؛ ويرى أنّه عليه إخراجها من جوّها المغلق
والمنافق في سنتياغو، ومنحها مسحة ثقافيّة. كان يبيّت الفكرة السرّيّة -
ولم تكن زوجته نفسها تعلم بها في تلك الأثناء - بترك أوفيليا في مدرسة
للآنسات في لندن بعد الانتهاء من جولتهم. فقضاء سنة أو سنتيْن من
تلقّي التربية البريطانيّة ستكون مناسبة؛ وستتمكّن كذلك من تحسين
لغتها الإنكليزيّة التي تعلّمتها منذ الصغر، مثل بقية إخوتها، باستثناء
ليوناردو طبعًا. إذ يمكن للإنكليزيّة أن تكون لغة المستقبل، اللّهم إلّا إذا

t.me/qurssan

تمكّنت ألمانيا من السّيطرة على أوروبا. فما تحتاج إليه ابنته هو مدرسة في لندن، قبل أن تتزوّج من ماتياس إيثاغيرّي، خطيبها الأبديّ، الذي سيتزوّج وهو يبني مستقبلًا بعمله في السّلك الدّبلوماسيّ.

كانت أوفيليا تشغل الحُجرة الثانية في الجناح، لا يفصل سوى باب بينها وبين حُجرة أبويْها. وخلال أيّام قصيرة، دبُت الفوضى في قُمرتها صناديق، وحقائب، ومظلّات مفتوحة، وملابس، وأحذية، ومستحضرات تجميل مبعثرة، ومضارب تنس، ومجلّات أزياء على الأرض. فالفتاة التي تقوم خادمات على خدمتها في البيت، كانت تمضي في الدُّنيا ناشرة الفوضى، من دون أن تتساءل من سيرتّب فوضاها ويُنظّفها! فمع قرع جرس يدويّ أو كهربائيّ، هنالك من يظهر بصورة سحريّة لخدمتها. في هذه اللّيلة، أنقذت من تلك الفوضى ثوبًا خفيفًا ومُحكمًا على جسدها، مما استثار استياء أبيها، الذي صرخ بها:

ـ من أين أخرجت ثوب النساء الخبيثات هذا؟

ـ إنّه اللّباس الرّائج الآن، يا أبي. أتريد أن تراني بثوب الرهبنة الذي تلبسه الخالة تيريسا؟

ـ دعكِ من الوقاحة. ما الذي سيقوله ماتياس إذا ما رآك بهذه الحال!

ـ سيقف فاغرًا فمه، مثلما هو فمه دومًا، يا بابا. لا توقع نفسك في الأوهام، فأنا لا أفكّر في الزواج منه.

ـ يجب ألّا تجعليه ينتظر إذًا.

ـ إنّه متديّن.

ـ أتفضّلين أن يكون ملحدًا؟

t.me/qurssan

ـ لا أريده أصلع ولا بباروكتيْن، يا أبي. لقد جئت لأستعير منكِ، ااه عقد الجدَّة، ولكنَّني أرى أنَّك تضعينه. يبدو بديعًا عليكِ.

ـ ضعيه أنت، يا أوفيليا، سيبدو وهو عليكِ أفضل ممَّا هو عليّ، ا ت الأمّ إلى القول، وهي تضع يدها على قفل العقد.

فقاطعها زوجها بتشدُّد:

ـ ولا بأيِّ حال، يا لورا! ألم تسمعيني حين طلبت منك أن تضعيه ه الليلة؟

ـ وما أهمّيَّة ذلك، يا إيسيدرو، إنَّه يبدو أجمل على الصغيرة.

ـ إنَّه مهمّ بالنّسبة إليَّ! وكفى. وأنتِ، يا أوفيليا، ضعي شالًا أو ي سترة، فهذا الذي تلبسينه يكشف صدرك كثيرًا. أمرها متذكّرًا لحظات العار التي مرَّ بها في حفلة التنكُّر في السفينة، عند اجتياز خطَ الاستواء، حين ظهرت أوفيليا بزيٍّ جارية محظيَّة، واضعة خمارًا على وجهها، ومرتدية بيجاما كاشفة.

ـ تظاهر بأنَّك لا تعرفني، يا أبي. لحسن الحظّ، أنَّني لستُ مضطرَّة إلى الجلوس على منضدتك مع أولئك المسنّين المملّين. آمل أن يكون مكاني مع أشخاص جيّديّ المظهر.

ـ لا تكوني تافهة! صاح بها أبوها قبل أن تخرج مغادرة بحركة راقصة فلامنكو.

بدت الدّعوة للعشاء مع القبطان أبديَّة بالنّسبة إلى كلٍّ من لورا وأوفيليا دل سولار. وبعد تناول الحلوى، كان هناك بركان مثلّجات وميرنغي مع شعلة مضاءة في الوسط، انسحبت الأمّ إلى قُمرتها في

t.me/qurssan

الجناح بعد أن شعرت بآلام رأس حادَّة، وانتقمت الابنة في الصالون برقصة سوينغ على إيقاع ترومبيتات متقنة. تجاوزت الحدود بتناول الشمبانيا، وانتهى بها الأمر في أحد أركان سطح السفينة تتبادل القبلات مع ضابط أسكتلنديٍّ له شعر بلون الجزر، ويدان جريئتان. ومن هناك، سحبها أبوها. «باللّـه عليكِ، ما كلّ هذه الإزعاجات التي تُسبِّبينها لي! ألا تعلمين أنَّ الإشاعات والتقوُّلات تطير محلِّقة؟ سوف يعلم ماتياس بهذا كلّه قبل أن نرسو في ميناء ليفربول. ولسوف ترين!»

في سنتياغو، في بيت شارع مار دل بلاتا، العائلة تتنفَّست الصعداء بعد رحلة طويلة وشاقَّة. أصحاب البيت أمضوا رحلة استمرَّت أربعة أسابيع، ولم يَعُد حتَّى الكلب المنزليّ يتذكَّرهم، ويشتاق إليهم غيابهم لم يؤثِّر على الروتين ولم يخفِّف من واجبات الخدم، ولكنْ ليس هناك من يتعجَّل كثيرًا. أجهزة المذياع تصدح بالتمثيليَّات الإذاعيَّة، وأغنيات البوليرو، ومباريات كرة القدم، وهنالك متَّسع من الوقت لنوم قيلولة طويلة. حتَّى ليوناردو المتعلِّق بأمّه يبدو سعيدًا، وقد توقَّف عن السُّؤال عنها. إنَّها المرَّة الأولى التي يبتعد أحدهما عن الآخر. وبعيدًا جدًّا عن التَّحسُّر، كان الصَّغير يستغلُّ الفرصة ليستكشف الأمكنة المحظورة ويرتادها في هذا البيت ذي الثلاث طبقات، والقبو، ومرآب العربة، ومستودع المؤن، وغرفة السطح. وكان الابن الأكبر، فيليبه، يتولّى مسؤوليَّة البيت ومسؤوليَّة أخيه الأصغر، يؤدِّي دوره بصورة سطحيَّة، لأنَّه يفتقد الميل إلى قيادة أسرة، ولأنَّ بين يديْه قضيَّة أكثر أهمّيَّة. فالسياسة تشتعل متأجِّجة بقضيَّة اللّاجئين الإسبان، ولهذا لم يكن يهمّه إذا كان ما يُقدَّم على المائدة مجرَّد حساء كثير الماء أم كركند، أو إذا ما كان الصَّغير نائمًا مع الكلب أم في السَّرير، ولم يكن يراجع حسابات

t.me/qurssan

.حرن، وإذا ما طلبوا منه تعليمات يردُّ عليهم بأن يقوموا بما اعتادوا أن ٭٭ماوه دومًا.

خوانا نانكوتشيو، خلاسيَّة من أم كريوليَّة وأب مابوتشيّ من ...كان الأصليِّين في أقاصي الجنوب، من الصَّعب تحديد عمرها، ...رة القامة ومتينة مثل الجذوع القديمة في غاباتها الأصليَّة، لها جديلة ...لة وبشرة صفراء مائلة إلى الخضار، تتصرَّف بأساليب فظَّة، لكنَّها ...ئة بحكم العادة، كانت تترأس الإدارة البيتيَّة منذ أزمنة لا ترقى إليها ...اكرة. تقود بإيماءة متجهِّمة الخادمات الثلاث، والطاهية، والغسَّالة، ...سنانيّ، والرجل الذي يتولَّى طِلاء خشب الأرضيَّة بالشَّمع، ويخزِّن ...حطب والفحم، ويتولَّى رعاية الدجاجات ويقوم بالأعمال الصعبة؛ ليس ... من يتذكَّر اسمه، فهو بكلِّ بساطة «الرجل الذي يلبِّي الطلبات».

...خص الوحيد المتحرِّر من رقابة خوانا هو السَّائق الذي يعيش في ...ة فوق الكراج، ويتبع مباشرة للسادة المالكين، مع أنَّ ذلك. بحسب ...أيها، يجعله يُقدم على كثير من التجاوزات؛ ولهذا تراقبه، لأنَّه غير ...نوف، ويُدخل نساءً إلى حُجرته. إنَّها متأكِّدة من ذلك. «هنالك فائض ... العاملين في هذا البيت»، هذا ما اعتاد قوله إيسيدرو دل سولار. ...ماطعه هي: «من الذي تفكِّر إذًا في صرفه من العمل، أيُّها السيِّد». «لا ...حد، أقول هذا لمجرَّد الكلام»، يتنصَّل من قوله فورًا. عندئذٍ تؤكِّد خوانا ...ها وبين نفسها: «لا بدَّ أنَّ لديْه بعض الحقّ»؛ كان الأطفال قد كبروا، ...انت هناك غرف عديدة مغلقة. الابنتان الكبيرتان تزوَّجتا، وصار لهما ...هما، والابن الثاني يمضي في دراسة التبدُّلات المناخيَّة في منطقة ...اريبيّ، «مع أنَّه لا وجود لما يُدرس في هذا الأمر، وكلّ ما هنالك أنَّه ...ب تحمُّل تلك التبدُّلات وحسب»، تؤكِّد خوانا، وفيليبه يعيش في

t.me/qurssan

بيته الخاصّ. وتبقى الصُغيرة أوفيليا التي ستتزوّج من الشاب ماتياس، اللّطيف جدًا، والشُهم جدًا، والعاشق جدًا؛ أمّا «البيبي»، فهو ملاكها الصُغير الذي سيبقى معها إلى الأبد، لأنّه لن يكبر.

لقد سافر أسيادها من قبل، عندما كان الأبناء أصغر سنًّا، قبل ولادة ليوناردو، وبقيت هي آنذاك كسيّدة للبيت. وقد أنجزت في تلك المناسبة واجباتها من دون أن تتلقّى أيّ تأنيب؛ أمّا في هذه المرّة، فقد خطر للسادة المالكين أن يكلّفوا فيليبه بتلك المسؤوليّة، كما لو أنّها هي مجرّد بلهاء بلا فائدة. وكانت تفكّر: كلّ تلك السنوات الطويلة في خدمة الأُسرة كي تكون مكافأتها هذه الكارثة. كانت لديْها الرّغبة في جمع ملابسها والمغادرة، ولكنْ ليس لديْها مكان تذهب إليه. لقد كان عمرها ستّ أو سبع سنوات عندما قدّموها هدية إلى بيثنتي بيثكارًا، والد لورا، مقابل جميل كان قد قدّمه لهم. حدث ذلك في الزمن الذي كان فيه السيّد بيثكارًا يتاجر بأخشاب ثمينة، ولكنْ لم يبقَ شيء من تلك الأخشاب في غابات منطقة مابوتشي الشذيّة، لقد هُزمت الغابات في مواجهة الفأس والمنشار؛ واستُبدلت الآن بأشجار عاديّة مزروعة في صفوف متوازية، مثل العساكر، من أجل صناعة الورق. كانت خوانا آنذاك مجرّد طفلة مخاطيّة حافية، تكاد لا تفهم إلّا بعض الكلمات بالإسبانيّة، فقد كانت لغتها هي الماوبدونغوين، لغة السكّان الأصليّين. وعلى الرّغم من مظهرها كمخلوقة متوحّشة، تقبّلها بيثكارًا كهديّة، لأنّ رفضها كان سيُعتبر إهانة رهيبة للمدين له. أخذها إلى سنتياغو، وسلّمها لزوجته التي نقلتها بدورها إلى خادمات البيت كي يدرّبنها على الأعمال الأساسيّة، وما تبقّى تعلّمته خوانا بنفسها، بلا أيّ مدرسة سوى قدرتها على السّماع، ومشيئتها في الطاعة والانصياع. عندما

t.me/qurssan

ن حت لورا، وهي إحدى بنات عائلة بيثكارًا، من إيسيدرو دل سولار، ...لوا خوانا لخدمتها. وقد قدَّرت خوانا أنَّها كانت في ذلك الحين في ...الى الثامنة عشرة من عمرها، مع أنَّ أحدًا لم يسجِّل متى ولدت، ...انت تُعتبر غير موجودة قانونيًّا. منذ البدء، كلَّفها كلٌّ من إيسيدرو ...ورا دل سولار بأن تكون مُدبِّرة البيت؛ وكانا يوليانها ثقة عمياء. وفي ... الأيّام، تجرَّأت على السُّؤال متلعثمةً عمَّا إذا كان يمكن للسَّيِّدين ... بدفعا لها قليلًا من المال، ليس كثيرًا، «وأرجو المعذرة، لأنّي ...الب ذلك». لقد كانت بحاجة إلى بعض النفقات، بعض الحاجات الضروريَّة... «ولكنْ، باللّه عليكِ، إذا كنت من الأُسرة، كيف سندفع ...»، كان هذا هو الردّ. «أرجو المعذرة، ولكنّني لست من الأُسرة، أنا ...مة وحسب». ولأوَّل مرَّة في حياتها، بدأت خوانا نانكوتشيو تتلقَّى ...، تنفقه في شراء الحلويَّات للأطفال، ومن أجل شراء ثوب جديد ... عام؛ وتدخِّر ما يتبقَّى. لم يكن هنالك من يعرف كلّ فرد من ... العائلة أفضل منها، لقد كانت حافظة الأسرار. عندما ولد ليوناردو ... واضحًا أنَّه مختلف عن الآخرين، بعذوبة وجهه القمريّ، وتأهَّبت ...وانا لتعيش ما هو ضروريّ من الزمن لتُعنى به حتَّى يومه الأخير. ...ان الطفل يعاني من مشاكل في القلب، وهو لن يعيش طويلًا بحسب ...أي الأطباء، لكنَّ غريزة خوانا وحنانها يرفضان ذلك التَّشخيص. ...لمته بصبر وحدب كيف يأكل وحده، وكيف يستخدم المرحاض. ...ائلات أخرى كانت تخبِّئ الأطفال الذين في مثل حالته، يخجلون من ...ودهم، كما لو أنَّهم عقاب من الربّ، ولكنَّ حالة «البيبي» لم تكن ...لك بفضلها. وعندما يكون نظيفًا ولا يصرخ أو يرفس، يقدِّمه أبواه ...واحد آخر من الأبناء.

t.me/qurssan

كان فيليبه، ابن الأسرة الأكبر، هو نور عينيْ خوانا نانكوتشير وظلَّ كذلك بعد ميلاد ليوناردو، لأنّه حبّ من نوع مختلف. كانت ترى في فيليبه دعامتها، العكّاز الذي ستستند إليه في شيخوختها. فقد كان على الدوام صبيًّا طيّبًا، وما زال كذلك بالنّسبة إليها. صار محاميًا، ولكن بالإكراه، لأنَّ هواه وميله هو الفنّ، وتبادُل الحديث والأفكار، لا شيء ممّا هو نافع في هذا العالم، مثلما اعتاد أبوه أن يقول. وكان فيليبه هو من علّم خوانا القراءة والكتابة والحساب بالإيقاع نفسه الذي هو يتعلّم به في المدرسة الدّينيّة، حيث يتولّون تعليم أبناء أشدّ العائلات محافظة ووجاهة في البلاد وتربيتهم. لقد ربط ذلك بينهما في تواطؤ راسخ. فخوانا تغطّي على شيطناته، بينما يُبقيها هو على اطّلاع. «ما الذي تقرأه الآن، أيّها الصّغير فيليبه؟» «انتظري إلى أن أنتهي من قراءة الكتاب، وسوف أروي القصّة لكِ، إنّه عن القراصنة»، أو ربّما: «لا شيء ممّا يهمّك، يا خوانا، إنّه كتاب عن الفينيقيّين الذين عاشوا منذ قرون عديدة، وليس هنالك الآن من يهمّه ذلك. لا أدري لماذا يعلّمنا القسّيسون هذه البلاهات»! كان فيليبه قد كبر بدنًا وسنًّا، ولكنّه واصل رواية قراءاته لها وشرح شؤون العالم؛ وساعدها فيما بعد في توظيف مدخّراتها في بعض أسهم البورصة، مثل الأسهم نفسها التي كان يشتريها إيسيدرو دل سولار. وكانت له حركات لطيفة معها، فهو يدخل خِفْية إلى حُجرتها ليترك لها نقودًا أو سكاكر تحت الوسادة. وكانت هي دائمة القلق على حالة فيليبه الصحّيّة، فقد كان ضعيف البُنية، يصيبه الرشح بفعل تيّارات الهواء، ويعاني آلام البطن بتأثير الانزعاج والمأكولات الثقيلة. ولسوء الحظ، أنَّ صغيرها فيليبه كان بريئًا وساذجًا مثل ليوناردو، وغير قادر على إدراك زَيْف الآخرين وغدرهم. فكانوا يسمّونه «المثاليّ». أضف إلى ذلك أنه

t.me/qurssan

..ر الشرود، يضيع منه كلّ شيء؛ وكان ضعيف الشخصيّة، يستغلّه الآخرون. فهو يقدّم ديونًا نقديّة لأيّ شخص، ولكنْ لا أحد منهم يردُّ إليه ..ك الديون. ويساهم في قضايا نبيلة تعتبرها خوانا غير مجدية، لأنَّ هذا العالم لا خلاص له. وكان محقًّا في أنّه لم يتزوّج، فأين هي المرأة التي ..كن لها أن تتحمّل نزواته تلك التي لا تليق إلّا بالقدّيسين، ولكنْ ..س لسيّد عاقل، مثلما كانت تقول. ولم يكن إيسيدرو دل سولار يقدّر ..لك سخاء ابنه الذي يمتدّ إلى ما هو أبعد من دوافعه الإحسانيّة، ..ؤثّر على وضوح تفكيره. فكان يتنهّد قائلًا: «سيأتي يوم يأتي فيه إلينا ..ملًا خبرًا مستجِدًا بأنّه قد صار شيوعيًّا». كان الجدال بين الأب ..به رهيبًا. ينتهي بهما إلى صفق الأبواب، ودائمًا لأسباب لا علاقة ..ها بالعائلة، مثل حالة البلاد والعالم، والتي ليست بحسب رأي خوانا ..ن مسؤوليّات أيّ منهما. في واحدة من تلك المواجهات، اختار فيليبه الذهاب إلى بيت مستأجَر على بُعد ستّة شوارع. فتعالى صراخ خوانا ..ى السماء، لأنَّ الابن الصالح لا يترك بيت أبيه إلّا عندما يتزوّج، ..س قبل ذلك بأيّ حال، ولكنَّ بقية أفراد الأُسرة تقبّلوا ذلك الأمر من دون إثارة أيّ نوع من الدراما. لم يختفِ فيليبه تمامًا، بل كان يأتي ..اول الغداء كلّ يوم، وكان لا بدّ من إعداد وجبة حِمْيته الخاصّة، ..غسل ملابسه وكيّها بالطريقة التي تروق له. وكانت خوانا تذهب إلى ..ه لتراقب عمل خادماته، وهما هنديّتان ضعيفتان ووسختان، بحسب رأيها. وباختصار، مزيد من العمل. وكان الأفضل لو أنّه ظلّ في حُجرته ..عازب، على حدّ قول خوانا. كان الخلاف بين فيليبه وأبيه مرشّحًا لأن ..كون أبديًّا، ولكنّ أزمة كبديّة حرجة أصابت السيّدة لورا أجبرتهما على المصالحة.

t.me/qurssan

خوانا تتذكَّر سبب ذلك النزاع. فمن المحال نسيانه، لأنّه م
البلاد، وما زال الحديث يدور عنه في المذياع. لقد وقع الخلاف في
خريف السنة الفائتة، في فترة الانتخابات الرئاسيَّة. كان هناك ثلاثة
مرشَّحين. ومرشح إيسدرو دل سولار المفضَّل هو مليونير محافظ،
مشهور كمضارب في البورصة؛ وآخر من الحزب الراديكاليّ، مُربٍّ
ومحام وسيناتور، وهو من كان يريد فيليبه التَّصويت له؛ وجنرال مارس
الرئاسة من قبلُ كديكتاتور، يلتمس دعمَ قوى من بينها حزب النازيّين
وهذا لم يكن يروق لأحد من الأسرة. لقد كان لدى فيليبه في طفولته
مجموعة دمى جنود من الجيش البروسيّ مصنوعة من الرصاص، ولكنَّه
فقد كلّ ما لديْه من تعاطف تجاه الألمان مذ وصل هتلر إلى السُّلطة
«هل رأيتِ النازيّين، يا خوانا وهم يستعرضون أنفسهم بزيِّهم الرَّمادي
وأذرعهم المرفوعة عاليًا في وسط سنتياغو؟ يا للمشهد المضحك!»
أجل، لقد رأتهم وهي تعرف شيئًا عن شخص يُدعى هتلر، لأنَّ فيليبه
كان قد أخبرها بذلك.

ـ أبوك متأكّد من أنَّ مُرشَّحه هو من سيفوز.

ـ أجل، لأنَّ اليمين هو من يفوز هنا دائمًا. أراد مؤيِّدو الجنرال
الحيلولة دون كسبه الانتخابات بافتعال حركة انقلابيَّة، ولكنَّهم فشلوا.

ـ يقولون في المذياع إنَّه جرى قتل بعض الشبَّان كالكلاب.

ـ لقد كانوا حفنة من النازيّين الاستفزازيّين، يا خوانا. احتلُّوا
مبنى جامعة تشيلي، وتظاهر آخرون أمام القصر الرئاسيّ. وقد قمعهم
رجال الدرك والعسكريُّون بسرعة. استسلموا ورفعوا أيديهم عاليًا، وكانوا
غير مسلَّحين، ولكنَّهم قتلوهم مع ذلك بالرصاص. كانت لديْهم أوامر
بألَّا يُبقوا أحدًا منهم حيًا.

t.me/qurssan

ـ أبوك قال إنَّهم يستحقُّون الموت، لأنَّهم أغبياء قميئون.

ـ لا أحد يستحقّ الموت، يا خوانا. وعلى أبي أن يكون أكثر ..ا في آرائه. لقد كانت مجزرة لا يليق اقترافها بتشيلي. وقد كسب .حابات بيدرو أغيرّي ثيردا، كما تعلمين. لدينا الآن رئيس رديكاليّ.

ـ ومن هو هذا؟

ـ إنَّه رجل أفكار تقدُّميَّة. وهو من اليسار بحسب رأي أبي. فكلّ .. لا يفكِّر مثل أبي يعتبره يساريًّا.

أمَّا اليسار واليمين بالنِّسبة إلى خوانا، فكانا اتِّجاهيْن في الشوارع، .. للأشخاص؛ واسم هذا الرئيس لا يعني أيّ شيء. فهو ليس من ..اء معروفة!

ـ كان بيدرو أغيرّي ثيردا يمثِّل الجبهة الشعبيَّة، المشكَّلة من .اب الوسط واليسار، مشابهة للَّتي ظهرت في إسبانيا وفي فرنسا. . تُرين ما شرحته لك عن الحرب الأهليَّة في إسبانيا؟

ـ أي أنَّه... يُمكن حدوث الشيء نفسه هنا.

ـ آمل أن لا يُحدث ذلك، يا خوانا. لو كان بإمكانك التصويت، .. صوّتِّ لأغيري ثيردا. سيأتي يوم تتمكَّن فيه النِّساء من التَّصويت ..في الانتخابات الرِّئاسيَّة، أعدكِ بذلك.

ـ وأنتَ لمن صوّتّ، يا صغيري فيليبه؟

ـ لأغيري ثيردا. إنَّه المرشَّح الأفضل.

ـ وهذا السيِّد لا يروق لأبيك.

ـ ولكنَّه يروق لي، ولكِ أيضًا.

ـ أنا لا أعرف شيئًا من هذا كلِّه.

t.me/qurssan

ـ أمر سيّئ ألّا تعرفي، يا امرأة. الجبهة الشعبيّة تمثّل العما
والفلّاحين، وعمّال مناجم الشمال، الأشخاص الذين مثلك.

ـ أنا لا أنتمي إلى أيّ من هؤلاء الذين ذكرتهم، وأنت كذلك. أنا خادمة منزليّة.

ـ أنت تنتمين إلى الطبقة العاملة، يا خوانا.

ـ ما أعرفه هو أنّك سيّد صغير، ولا أفهم لماذا تُصوّت للطبقة العاملة

ـ أنتِ بحاجة إلى تثقيف. الرئيس يقول إنّ الحكم تثقيف وتعليم إنّه تثقيف وتعليم مجّانيّ لجميع أطفال تشيلي. والصحّة العامّة للجميع وتقديم أجور أفضل. وتعزيز النقابات. ما رأيك؟

ـ أنا لا فرق لديّ.

ـ كم أنتِ جاهلة، يا خوانا! كيف تقولين لا فرق عندك! كـ بحاجة كبيرة للذهاب إلى المدرسة.

ـ أنتَ تلقّيْت الكثير من التّعليم، يا صغيري فيليبه، ولكنّك لا تعرف كيف تنفّ أنفك. وأنتهز الفرصة لأقول لك هنا بالذات ألّا تُحضر لي أناسًا إلى البيت من دون أن تخبرني مسبقًا. فالطاهية تغضب وأنا لا أريد الوقوع في مشاكل، وأن يذهب الزائرون ليقولوا إنّنا لا نعرف هنا كيف نستقبل الضيوف كما يجب! لقد تلقّى أصدقاؤك الكثير من التعليم أيضًا، ولكنّهم يشربونَ قوارير خمر السيّد من دون طلب إذن انتظر عودة أبيك، وسترى ما الذي سيقوله عندما يرى النقص في مستودع خموره.

كان السبت ما قبل الأخير من الشهر، يوم الاجتماع غير الرسمي لنادي الغاضبين، جماعة أصدقاء فيليبه، مثلما تسمّيهم خوانا نانكوتشيو

t.me/qurssan

.. الأزمنة العاديّة، يجتمعون حيث يُقيم فيليبه، ولكنْ منذ غياب أبويْه،
ا، فيليبه يستقبلهم في بيت شارع مار دي بلاتا، حيث وجبات الطعام
، وعلى الرغم من الازعاج الذي كان أولئك الأشخاص يسبّبونه
ا، كانت خوانا تسعى جاهدة للحصول لهم على أصداف بحريّة
ا، مة، وتقدّم لهم أفضل أطباق طبخها، فهي امرأة سيّئة الطباع، ولكنّها
.. التتبيل والطبخ. وكان أصدقاء فيليبه أعضاء في نادي الاتّحاد،
اما هم جميع ذكور طبقتهم الاجتماعيّة؛ وهناك كانوا يتباهوْن بأحوالهم
.، الفهم الشخصيّة، سواء الماليّة أو المتعلّقة بسياسات البلاد، ولكنّ
ا، الصالونات الكئيبة بألواحها الخشبيّة القاتمة، وثريّات إضاءتها
. المصابيح الخافتة، وأرائكها التي لا توفّر إلّا القليل لمجادلات
.امبين الفلسفيّة الحامية. أضف إلى ذلك أن نادي الاتّحاد كان
حال فقط، فماذا سيكون من شأن لقاءات المسامرة من دون الحضور
،ملب لبعض النساء العازبات والمتحرّرات، الكاتبات، المغامرات
،ان القيمة النوعيّة، بينهنّ أمازونيّة ذات لقب عائليّ كرواتيّ تسافر
.مردها إلى أمكنة لا تُذكر على الخريطة! وكان الموضوع الأكثر تداولًا
،ال السنوات الثلاث الأخيرة هو الوضع في إسبانيا؛ وفي الشهور
الأخيرة، مصير اللّاجئين الجمهوريّين الإسبان الذين ينهارون ويموتون
، شهر كانون الثاني/يناير في معسكرات التّجميع في فرنسا. النزوح
جماعيّ للناس من كتالونيا باتّجاه الحدود الفرنسيّة تزامن مع الزلزال
، ي، هزّ تشيلي بأسرها في شهر يناير، أسوأ زلزال في التاريخ. وعلى
، م من أنّ فيليبه كان يفاخر بأنّه عقلانيّ حتّى النخاع، إلّا أنّه رأى في
ا، التزامن دعوة إلى التراحم والتضامن. لقد خلّف الزلزال حصيلة
ا، ببضعة وعشرين ألف قتيل، ومدن بكاملها قد سوّيت بالأرض،

t.me/qurssan

ولكنْ بالمقارنة مع حرب إسبانيا، حيث خلَّفت مئات آلاف القتلى والجرحى واللَّاجئين، كانت مأساة إسبانيا أكبر بكثير.

في تلك اللَّيلة، كان لديْهم ضيف خاصّ، إنَّه پابلو نيرودا، الذي صار يعتبر، وهو في الرَّابعة والثلاثين، أفضل شعراء جيله، وهذه مأثرة، لأنَّ الشُّعراء في تشيلي يتكاثرون مثل الأعشاب الضارَّة. وقد تحوَّل بعض قصائد ديوانه «*عشرون قصيدة حبٍّ وأُغنية يائسة*» إلى جزء من الفلكلور الشعبيّ، حتَّى إنَّ الأمّيّين كانوا يردِّدونها عن ظهر قلب. وكان نيرودا رجلًا من الجنوب، من أراضي الأمطار والأخشاب، ابن عامل في سكَّة الحديد، اعتاد أن يلقي أشعاره بصوت أجشّ، ويصف نفسه بأنَّه صلب في الأنف وضئيل في العينيْن. شخصيَّة مثيرة للجدل، ولكن بسبب شهرته وتعاطفه مع اليسار، ولاسيَّما الحزب الشيوعي الذي سيناضل في صفوفه مستقبلًا، جعله يتولَّى منصب قنصل في الأرجنتين، وبيرمانيا، وسيلان، وإسبانيا، وبعد زمن طويل من ذلك في فرنسا، لأنَّ الحكومات المتعاقبة كانت تفضّل إبقاءه بعيدًا عن البلاد، على حدّ قول خصومه السياسيِّين والأدبيِّين. ففي مدريد، تواجد قُبيل اندلاع الحرب الأهليَّة، وعقد هناك صداقات مع مثقَّفين وسياسيِّين، منهم فيدريكو غارسيا لوركا الذي اغتاله الفرانكويُّون، وأنطونيو ماتشادو الذي مات في فرنسا، في قرية قريبة من الحدود أثناء الانسحاب من إسبانيا. وكان نيرودا قد نشر نشيدًا في تمجيد المناضلين الجمهوريين بعنوان «*إسبانيا في القلب*»، خمسمئة نسخة مرقَّمة طبعها رجال ميليشيا جيش الشرق في أبرشيَّة مونتيسرات، في أوج الحرب، بورق مصنوع بما هو متوافر في متناول اليد، ابتداء من قمصان مضرَّجة بالدم وحتى رايات العدو. وقد نشرت القصيدة كذلك في تشيلي في طبعة عاديَّة،

t.me/qurssan

... كانت لدى فيليبه نسخة من الطبعة الأصليّة. «وفي الشوارع دم الأطفال/يسيل بكلّ بساطة، كما دم الأطفال./[...]. تعالوا انظروا/الدم في الشوارع،/تعالوا لتروا الدم/في الشوارع!» كان نيرودا يحبّ إسبانيا ... مف، ويمقت الفاشيّة، ويشعر بقلق شديد على مصير الجمهوريّين المهزومين؛ فتوصّل إلى إقناع رئيس تشيلي الجديد بقبول عدد معيّن ... هم في تشيلي، متحدّيًا المعارضة المتشدّدة من أحزاب اليمين والكنيسة الكاثوليكيّة. ومن أجل التّحدُّث في هذا الأمر، تلقّى نيرودا ... موة من الغاضبين. كان يمرّ بسنتياغو، بعد أسابيع من المساعي لجمع ... ساعدات ماديّة للّاجئين الإسبان في الأرجنتين والأورغواي. مثلما ... ت تقول صحف اليمين، وكانت بلدان أخرى تقدّم الأموال، ولكنْ ... م يوافق أيّ بلد على استقبال الحمر، هؤلاء الذين يغتصبون النساء، ... ويقتلون، إنّهم أناس حملة سلاح، وملحدون بلا وازع، ويهود، يمكن لهم أن يعرّضوا أمن البلاد للخطر. أخبر نيرودا جماعة الغاضبين أنّه سيسافر في الأيّام التالية إلى باريس، كقنصل خاصّ للهجرة الإسبانيّة.

- في مُفوَّضيّة تشيلي بفرنسا لا يحبّونني، فالجميع هناك يمينيّون ... طرّفون، مصمّمون على عرقلة مهمّتي، قال الشاعر. الحكومة ترسلني بلا أيّ نقود، وعليّ أن أحصل على سفينة. سنرى كيف سأتدبّر الأمور.

أوضح أنّه تلقّى أوامر باختيار عمّال متخصّصين يمكنهم تعليم مهنهم لتشيليّين، وأن يكونوا أناسًا مسالمين وشرفاء، لا سياسيّين بأيّ حال، ولا صحفيّين ولا مثقّفين شديدي الخطورة بصورة كامنة. بحسب رأي نيرودا، فإنّ وجهة النظر التشيليّة بشأن الهجرة كانت عنصريّة على الدوام، فهنالك تعليمات سرّيّة للقناصل برفض منح التأشيرات لأشخاص من تصنيفات مختلفة، عرقيّة أو قوميّة، ابتداء

t.me/qurssan

من الغجر والزنوج واليهود، وحتّى من تُطلق عليهم تسمية الشرقيّين.
وهذا مصطلح غامض يحتمل تفسيرات متعدّدة! ويضاف الآن إلى
هذه المخاوف الشوفينيّة العنصر السياسيّ، لا شيء من الشيوعيّين
ولا الاشتراكيّين ولا الفوضويّين، ولكنْ بما أنّ ذلك كلّه لم يكن قد
حُدِّد خطّيًا بعد في التعليمات للقناصل، فإنّ هنالك هامشًا للتّصرُّف
لقد كانت بانتظار نيرودا مهمّة جبّارة: عليه أن يُموِّل سفينة ويُهيّئها، وأن
يختار المهاجرين، ويحصل لكلّ منهم على المبلغ الماليّ الذي تطالب
به الحكومة لضمان إعالتهم، في حالة عدم وجود أقارب لهم أو أصدقاء
يستقبلونهم في تشيلي. وكان المبلغ المطلوب ثلاثة ملايين من العملة
التشيليّة، يجب أن يودع في البنك المركزيّ قبل الإبحار.

- كم عدد اللّاجئين الذي يجري الحديث عنهم؟ سأله فيليبه.

- فلنقل إنّهم حوالى ألف وخمسمئة، ولكنّهم سيكونون أقلّ، لأنّنا
سنأتي بالرجال، ونترك هناك نساءهم وأطفالهم.

- ومتى سيصلون إلى هنا؟

- في أواخر شهر آب/أغسطس أو بدايات شهر أيلول/سبتمبر.

فقال فيليبه:

- هذا يعني أنّ لدينا ثلاثة أشهر تقريبًا من أجل تنظيم مساعدة
اقتصاديّة، والحصول لهم على مسكن وعمل. وسيتطلّب الأمر حملة
لمواجهة الدعاية اليمينيّة، وتحريك الرأي العامّ لمصلحة هؤلاء الإسبان.

- سيكون هذا سهلًا. فالتعاطف الشعبيّ يقف مع الجمهوريّين
الأغلبية العظمى من الجالية الإسبانيّة في تشيلي، الباسكيّون
والكتلانيّون مستعدّون للمساعدة.

t.me/qurssan

تبادل الغاضبون الوداع عند انتصاف اللّيل، وذهب فيليبه بسيّارته الفورد ليوصل الشاعر إلى البيت الذي يقيم فيه. وعندما رجع، وجد خوانا بانتظاره في الصالون وقد أعدّت أبريق قهوة ساخنًا.

- ماذا جرى، يا خوانا؟ يجب أن تكوني نائمة.

- كنت أسمع ما يقوله أصدقاؤك.

- أتتجسّسين علينا؟

- أصدقاؤك يأكلون كالمساجين، ولا حاجة للقول كيف يشربون! وهؤلاء النسوة بعيونهنّ الملوّنة يشربن أكثر من الرجال. إنّهم جماعة من المبتذلين، لا يحيّون ولا يقدّمون الشكر.

- لا أستطيع أن أصدّق أنّك انتظرتني كي تقولي لي هذا وحسب.

- انتظرتك كي توضّح لي لماذا هو مشهور ذلك الشاعر. لقد بدأ إلقاء الشعر ولم يَعُدْ يتوقّف! بلاهة بعد أخرى عن أسماك بسترات وعيون غسقيّة.. كيف يمكن لإحدانا أن تعرف أيّ مرض هو هذا؟

- إنّها توريات، يا خوانا. هكذا هو الشعر.

- فليذهب ويسخر من جدّته، لترقد روحها بسلام. كيف يمكن ألّا أعرف ما هو الشعر، إذا كانت المابودونغون[1] شعرًا خالصًا. أراهن أنّك لا تعرف ذلك! ولا شكّ أنّ هذا النيرودا، لا يعرف ذلك أيضًا. منذ سنوات طويلة، لم أعد أسمع لغتي، ولكنّني ما زلتُ أتذكّر. الشعر هو ما يبقى في الرأس، ولا يُنسى.

---

(1) المابودونغون mapudungún: لغة هنود المابوتشي جنوبي تشيلي. وهم أنفسهم من أطلق عليهم الغزاة الإسبان تسمية الأراوكانيّين. وما زالت لغتهم شائعة الاستعمال.

t.me/qurssan

ـ أجل. والموسيقى هي ما يُمكن الرقص بها، أليس كذلك؟

ـ أنت قلتها، أيُّها الصَّغير فيليبه.

تلقَّى إيسيدرو دل سولار برقيّة ابنه فيليبه في اليوم الأخير من إقامته في فندق سافوي، بعد أن أمضى شهرًا كاملًا مع زوجته وابنته في بريطانيا العظمى. ذهبوا إلى الأماكن السياحيّة الإجباريّة في لندن، وإلى التسوُّق، وإلى المسرح، وإلى حفلات موسيقيّة وسباقات خيل. وكان سفير تشيلي في إنكلترا، وهو ابن عمّ آخر من أبناء عمومة لورا بيشكارًا، قد وضع تحت تصرُّفهم سيّارة رسميّة كي يجولوا في الريف، ويزوروا كلّيّات أكسفورد وكامبردج. وقام كذلك بالمساعي من أجل دعوتهم لتناول الغداء في قلعة دوق أو مركيز، لم يكونوا متأكّدين من اللّقب، لأنَّ ألقاب النبالة في تشيلي قد أُلغيت منذ زمن طويل، ولم يعد هناك من يتذكّرها. قدَّم لهم السفير توجيهاتٍ عن أحكام وأنظمة السلوك والمَلبس: عليهم أن يتظاهروا بأنّه لا وجود للخدم، ولكنْ من المناسب تحيّة الكلاب؛ الامتناع عن التّعليق بشيء حول الطعام، ولكنْ يجب إبداء الافتتان بالزهور؛ ارتداء ملابس بسيطة وقديمة قدر الإمكان، لا شيء من الثياب المكشكشة ولا ربطات العنق الحريريّة، لأنَّ طبقة النبلاء تلبس ببساطة أشبه بالفقر وهي في الريف. ذهبوا إلى أسكتلندا، حيث كان إيسيدرو قد عقد صفقة لبيع أصواف مواشيه في بتاغونيا، كما ذهبوا إلى الغال، حيث كان يفكّر بصفقة مماثلة، ولكنَّها لم تتحقَّق.

ومن وراء ظهر امرأته وابنته، زار إيسيدرو مدرسة إنهاء «*finish-ing school*» قديمة للآنسات يعود تأسيسها إلى القرن السابع عشر، وهي دارة فخمة قبالة قصر وحدائق كنسينغتون. هناك تعلَّمت أوفيليا

t.me/qurssan

الإتيكيت، وفنّ إقامة العلاقات الاجتماعيّة، واستقبال الضيوف بطريقة لائقة، وإعداد قائمة طعام مميّزة، وأساليب السّلوك، وكيفيّة الجلوس، والصورة الشخصيّة وديكور المنزل، إضافة إلى مهارات أخرى ضروريّة .... وفكّر إيسيدرو: من المؤسف أنّ زوجته لم تتعلّم شيئًا من ذلك كلّه؛ ولا بدّ أنّ إقامة مؤسّسة مماثلة في تشيلي ستكون صفقة جيّدة، من أجل تهذيب كثير من الأنسات اللواتي ما زلن في الحالة الخاميّة في هذه الأنحاء. سوف يدرس هذا الاحتمال. إنّه يخفي خططه حتّى الآن عن أوفيليا، لأنّها سوف تستشيط غضبًا وتُفسد ما تبقى من أيّام الرحلة. سوف يُخبرها بذلك في النهاية، عندما لا يبقى ثمّة متّسع للرفس والنزق.

كانوا في قاعة القبّة الزجاجيّة في الفندق، إنّها سمفونيّة بياض ذهب وعاجيّ، أثناء شاي الخامسة الذي لا بدّ منه، بفنجانَي خزف مزيّنين برسوم أزهار، عندما حضر عامل في الفندق يرتدي زي أميرال يحمل برقيّة فيليبه. «منفيّو الشاعر يشغلون غرفًا. خوانا لا تفلت المفاتيح. أرسل تعليمات». قرأ إيسيدرو البرقية ثلاث مرّات، وقدّمها إلى لورا وأوفيليا.

ـ ما الذي يعنيه هذا الهذر؟

ـ أرجوك، لا تتكلّم بهذه الألفاظ أمام الصغيرة.

ـ آمل ألا يكون فيليبه قد أسرف في تناول الشراب ـ دمدم.

ـ ماذا ستردّ عليه؟ سألته لورا.

ـ أن يذهب إلى الجحيم.

ـ لا تغضب، يا إيسيدرو. من الأفضل ألّا تردّ عليه، فالأمور في معظم الأحيان تُحلّ من تلقاء ذاتها.

t.me/qurssan

- ما الذي يعنيه أخي؟ سألت أوفيليا.

- ليست لديَّ أيّ فكرة. لا شيء يهمُّنا - ردّ أبوها.

برقيّة أخرى مطابقة تمامًا وصلت إليهم وهم في الفندق بباريس. كان إيسيدرو قادرًا على قراءة جريدة الفيغارو بصعوبة، لأنّه تعلّم شيئًا من الفرنسيّة في المدرسة، ولكنّه لم يكن يعرف شيئًا من الإنكليزيّة، ولهذا لم يطّلع على الأخبار وهو في إنكلترا. وقد عرف من خلال الجريدة كلًّا من الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ ومصلحة إجلاء اللّاجئين الإسبان قد استأجروا سفينة شحن، السفينة وينيبيغ، وأنّهم يعملون على تأهيلها لإرسال أكثر من ألفي منفيّ إسبانيّ إلى تشيلي. أوشك على أن يصاب بالسكتة. فهذا هو ما كان ينقصه في زمن المصائب هذا، قالها مزمجرًا. فأوّلًا، رئيس للجمهوريّة من الحزب الراديكاليّ، وبعد ذلك زلزال قياميّ، وهم يريدون الآن أن يملأوا البلاد بشيوعيّين! وانكشف له مضمون الرسالة بكلّ ما تتضمّنه من معاني الشؤم: فما يريده ابنه ليس أقلّ من إدخال أولئك الحقراء إلى بيته بالذات. فلتتبارك خوانا التي لا تتخلّى عن المفاتيح.

- اشرح لي، يا أبي ما هي مسألة المنفيّين هذه - ألحّت عليه أوفيليا.

- انظري، أيّتها الجميلة، حدثت ثورة قام بها أشرار في إسبانيا، شيء فظيع. فتمرّد العسكريّون، وقاتلوا في سبيل القِيَم الوطنيّة والأخلاقيّة. وقد كسبوا بالطبع.

- ما الذي كسبوه؟

- الحرب الأهليّة. أنقذوا إسبانيا. والمنفيّون الذين يتحدّث عنهم فيليبه هم الجبناء الذين هربوا، واستقرّوا في فرنسا.

t.me/qurssan

ـ ولماذا هربوا؟

ـ لأنّهم خسروا، وعليهم أن يتحمّلوا النتائج.

ـ يُخيّل إليّ أنّ هناك الكثير من النساء والأطفال بين اللّاجئين، ا إيسيدرو. الجريدة تقول إنّهم مئات الآلاف... تدخّلت لورا بحياء.

ـ مهما يكن الحال. ما دخل تشيلي في ذلك؟ إنّها قضيّة يتحمّل • مسؤوليّتها نيرودا! ذلك الشيوعيّ! ليس لدى فيليبه أدنى قدر من الوعي، لا يبدو أنّه ابني. سوف يكون لي معه توضيح للأمور، ووضع النقاط على الحروف عندما نرجع.

تشبّثت لورا بتلك الأحداث كي تقترح أنّه سيكون من الأفضل ا، يعودوا إلى سنتياغو، قبل أن يُقدم فيليبه على تصرّف جنونيّ، ولكنّ الجريدة تشير إلى أنّ السفينة ستخرج في شهر آب/أغسطس. مازال ا لهم فائض من الوقت للذهاب إلى حمّامات المياه الحارّة في إيفان، وزيارة مدينة لورد الفرنسيّة، ومعبد سان أنطونيو دي بادوا في إيطاليا ا سديد نذور لورا كلّها، والذهاب إلى الفاتيكان لتلقّي المباركة الخاصّة من البابا الجديد بولس الثاني عشر، والتي كلّفتها الكثير من النفوذ والنقود، قبل العودة إلى إنكلترا. وهناك، تُترك أوفيليا في *مدرسة الإنهاء* القوّة إذا اقتضى الأمر، والإبحار بعد ذلك مع زوجته للعودة إلى تشيلي في السّفينة *ملكة الباسفيك*. وباختصار، إكمال رحلة متقنة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

القسم الثاني

منفى وغراميَّات وفراق

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الخامس
1939

«احفظ الغضب، والألم والدُّموع،
املأ الفراغ الكئيب
انتذكُر المحرقة/الموقد في اللّيل
ضياء النجوم المُتوفّاة.

پابلو نيرودا
«خوسيه ميغيل كاريرا (1810)»
النّشيد الشامل

t.me/qurssan

t.me/qurssan

أمضى فيكتور دالماو عدّة شهور في مخيم أرجيليه ـ سور ـ مار انجميع اللّاجئين، من دون أن يدور في خَلَده أنّ روزر موجودة هناك أيضًا. لم يحصل على أيّ أخبار من آيتور، لكنّه كان يتوقّع أن يكون قد أنجز ما كُلّف به بإخراج كلٍّ من أمّه وروزر من إسبانيا. في أثناء ذلك، كان معظم من يقيمون في المخيّم هم عشرات آلاف الجنود الجمهوريّين الخاضعين للجوع والبؤس والضرب والإهانات الدّائمة من قبل سجّانيهم. كانت الظروف لا تزال غير إنسانيّة، ولكنْ أقسى مراحل الشتاء كانت آخذة بالانقضاء على الأقلّ. نظّم الأسرى أنفسهم للبقاء على قيد الحياة من دون أن يُصابوا بالجنون. كانوا يعقدون اجتماعات دوريّة، منقسمين وفق انقسام أحزابهم السياسيّة، مثلما كانوا أثناء الحرب. يغنّون، ويقرأون ما يصل إلى أيديهم، ويمحون أمّيّة من هم بحاجة إلى ذلك، ويُصدرون جريدة ـ ورقة مكتوبة بخطّ اليد تنتقل من يد قارئ إلى آخر ـ ويحاولون الحفاظ على الوقار بقصّ شعورهم وتبادل انتزاع القمل من رؤوس بعضهم بعضًا، والاغتسال وغسل الملابس بمياه البحر الجليديّة. قسّموا المعسكر إلى شوارع تحمل أسماء سياسيّة، اختلقوا هذيان ساحات ورمبلات على الرّمل والطّين بتسميات برشلونيّة. اخترعوا وهمَ أوركسترا بلا أدوات موسيقيّة كي يعزفوا

t.me/qurssan

موسيقى كلاسيكيّة وشعبيّة؛ وأقاموا مطاعم مأكولات غير مرئيّة، يقدّم لها الطهاة وصفًا تفصيليًا، ويتلذّذ بها الآخرون بعيونٍ مغمضة. وبالمواد القليلة التي يتمكّنون من الحصول عليها، أقاموا عنابر وبرّاكات وأكواخ كانوا يعيشون متعلّقين بأخبار العالم الذي يقف على حافّة حرب أخرى، وبإمكانيّة خروجهم أحرارًا. كان بعضهم، أفضلهم تأهيلًا، يجدون عملًا في الحقول أو في الصناعة، لكنّ أغلبيّتهم، قبل أن يصبحوا جنودًا، كانوا مزارعين وحطّابين ورعاة وصيّادي أسماك، وباختصار، ليس لهم مهنة مفيدة في فرنسا. يتحمّلون ضغوط السّلطات المتواصلة لإعادتهم إلى بلادهم، وفي بعض الأحيان يحملونهم بالخداع إلى الحدود الإسبانيّة.

بقي فيكتور مع جماعة صغيرة من الأطبّاء والمرضى، لأنّ لديْه مهمّة على ذلك الشاطئ الجهنّميّ، إنّه يعمل في خدمة المرضى والجرحى والمخبولين. وكانت قد سبقته أسطورة أنّه قد أعاد النبض لقلب فتى ميّت في محطّة الشمال. فأكسبه ذلك ثقة عمياء بين المرضى، على الرّغم من أنّه اعتاد أن يكرّر القول بأنّه لا بدّ لهم في حالات المرض الكبيرة من اللّجوء إلى الأطبّاء. لم تكن ساعات النهار تكفيه للقيام بمهامه. كما لم يكن الضجر والاكتئاب، آفاتا معظم اللّاجئين، يؤثّران فيه؛ بل على العكس، كان يجد في العمل حماسة شبيهة بالسّعادة. لقد كان نحيلًا جدًّا، وخائر القوى، مثل بقيّة أهالي الأرياف، ولكنّه لم يكن يشعر بالجوع؛ وفي أكثر من مناسبة يقدّم حصّته الكبيرة من سمك المورة المقدّد لشخص آخر. فكان رفاقه يقولون إنّه يتغذّى على الرمل. يعمل منذ الفجر، ولكنْ تبقى لديْه بعد غياب الشمس بضع ساعات عليه أن يملأها. عندئذٍ، يتناول الجيتار ويغنّي. لقد فعل ذلك في مرّات نادرة خلال الحرب الأهليّة، ولكنّه يتذكّر الأغنيات الرّومانسيّة التي علّمته

t.me/qurssan

إ‍ياها أمّه لمقاومة الضجر، كما أنّه يتذكّر بالطبع الأغاني الثوريّة التي ،رنّم بها آخرون. كان الجيتار لشابّ أندلسيّ خاض الحرب محتضنًا اله الموسيقيّة تلك، وخرج إلى المنفى من دون أن يُفلتها، وعاش معها في مخيّم أرجيليه ـ سور ـ مار حتّى أواخر شهر شباط/فبراير، عندما مضى عليه التهاب رئويّ. ولأنّ فيكتور تولّى رعايته في أيّامه الأخيرة، فقد ترك الجيتار إرثًا له. لقد كان ذلك الجيتار واحدًا من الآلات الموسيقيّة الحقيقيّة في المخيّم، وكانت هناك آلات موسيقيّة أخرى وهميّة متخيّلة يقوم بمحاكاة أصواتها رجال ذوو مسامع جيّدة.

في تلك الشهور، بدأ الاحتقان البشريّ يخفّ في المخيّم. فالمسنّون والمرضى كانوا يموتون، ويجري دفنهم في مقبرة مجاورة. وكان المحظوظون يحصلون على حماية وتأشيرة هجرة إلى المكسيك وأميركا الجنوبيّة. وانضمّ جنود كثيرون إلى الفيلق الأجنبيّ في الجيش الفرنسيّ، على الرّغم من نظامه العسكريّ الفظّ، وسمعته كملاذ المجرمين، لأنّ أيّ شيء يعتبر أفضل من البقاء في المخيّم. ومن تتوافر لديهم الشروط المطلوبة جرى توظيفهم في شركة العمّال الأجانب، التي تأسست لتحلّ محلّ القوى العاملة الفرنسيّة التي تمّت تعبئتها وتجنيدها استعدادًا للحرب الوشيكة. وسيذهب لاجئون آخرون في ما بعد إلى الاتّحاد السوفييتيّ للقتال في صفوف الجيش الأحمر، أو سينضمّون إلى المقاومة الفرنسيّة. وقد مات الآلاف من هؤلاء في معسكرات الإبادة النازيّة، ومات آخرون في معسكرات الغولاغ الستالينيّة.

وفي أحد أيّام نيسان/أبريل، عندما تراجع برد الشتاء القاسي مفسحًا الطريق للربيع، وبدأت أوّل بوادر حرّ الصيف، استدعوا فيكتور إلى مكتب قائد المخيّم، لأنّ هناك زائرًا بانتظاره. وكان الزائر هو آيتور

t.me/qurssan

إيبارّا. رآه يضع قبّعة قشّ، وينتعل حذاء أبيض اللّون. وقد احتاج لدقيقة تقريبًا كي يتعرّف على فيكتور في فزّاعة العصافير المهلهل الذي أمامه. تعانقا بتأثّر، وتضمّخت عيون كليْهما بالدّمع.

ـ أنت لا تعرف كم تكلّفت من مشقّة للعثور عليك، يا أخي. فأنت غير موجود في أيّ من القوائم والسجلّات، لقد ظننتُ أنّك ميّت.

ـ إنّني كذلك تقريبًا. وأنت، كيف استطَعت ارتداءَ متأنّق؟

ـ بل قل رجل أعمال. سوف أخبرك بكلّ شيء.

ـ أخبرني أوّلًا ماذا جرى لكلٍّ من أمّي وروزر!

أخبره آيتور باختفاء كارمي. وبأنّه قام بالبحث والتقصّي من دون أن يتوصّل إلى أيّ شيء مؤكّد، ما يعرفه فقط هو أنّها لم ترجع إلى برشلونة، وأنّ بيت آل دالماو قد تمّت مصادرته. هناك أناس آخرون يعيشون فيه. أمّا عن روزر، بالمقابل، فقد حمل إليه أخبارًا جيّدة بخصوصها. لخّص له ظروف الخروج من برشلونة، والعبور مشيًا على الأقدام عبر قمم البيرينيه، وكيف جرى الفصل بينهما في فرنسا.. لم أعرف أيّ شيء عنها لبعض الوقت.

ـ لقد هربتُ فور تمكّني من ذلك، يا فيكتور، ولستُ أفهم سبب عدم محاولتك الهروب. الأمر سهل.

ـ إنّهم بحاجة إليّ هنا.

ـ بهذه العقليّة، يا رفيق، ستظلّ خاسرًا على الدوام.

ـ معك حقّ. ما الذي يُمكننا عمله؟ فلنعُد إلى موضوع روزر.

ـ لقد توصّلتُ إلى تحديد مكانها بلا مصاعب، فور تذكُّري اسم صديقتك، تلك الممرّضة. فمع كثرة التنقّلات والمفاجآت، مُحي اسمها

t.me/qurssan

.. داكرتي. لقد كانت روزر هنا، في هذا المخيّم بالذات، وخرجت
.. بفضل إليزابيث. إنّها تعيش الآن مع أسرة استقبلتها في بيربينيان،
..مل خيّاطة، وتعطي دروسًا على البيانو. أنجبت ابنًا سليمًا، صار عمره
..، شهرًا، وهو آية في الجمال.

لقد تدبّر آيتور أموره كما في السّابق، بالتفاوض. فقد كان يحصل
..لال الحرب على أثمن الأشياء، ابتداء من السّجائر والسّكر حتّى
الأحذية والمهدّئات، ويبادلها بأشياء أخرى في مقايضات نمل، ولكن
..م هامش منفعة له على الدوام. وكان يحصل كذلك على بعض الكنوز،
..ل المسدس الألمانيّ، والسكّين الأميركيّة متعدّدة الاستخدامات،
..ين استثارا كثيرًا دهشة روزر. ما كان ليتخلّى عن هذيْن الشيئيْن
..، وما زال يشعر بالغيظ كلّما تذكّر كيف انتُزعا منه. لقد تمكّن من
.. واصل مع أبناء عمومة بعيدين، هاجروا إلى فنزويلا قبل بضع سنوات،
..وف يستقبلونه ويحصلون له على عمل في تلك البلاد. وبفضل
..مهارته الفطريّة، جمع نقودًا تكفي لشراء تذكرة السّفر وتكاليف الفيزا.

- سوف أذهب خلال أسبوع، يا فيكتور. يجب الخروج من أوروبا
بأسرع ما يُمكن: إنّ حربًا عالميّة أخرى آتية، وستكون أسوأ من الأولى.
..ر وصولي إلى فنزويلا، سأقوم بالإجراءات كي تتمكّن من الذهاب،
وسأرسل لك تذكرة السفر.

- لا يمكنني ترك روزر وطفلها.

- وهي أيضًا ستأتي، بالطبع يا رجل.

زيارة آيتور خلّفت فيكتور أبكم طوال عدّة أيّام. لقد أيقن مرّة
أخرى من أنّه عالق، ويتدلّى في خواء، من دون قدرة على التّحكّم

t.me/qurssan

بمصيره. وبعد أن أمضى ساعات وهو يمشي على الشاطئ، يفكِّر ويقدِّر مسؤوليّاته تجاه مرضى المخيَّم، قرَّر أنَّ الوقت قد حان لإعطاء الأسبقيّة لمسؤوليَّته تجاه روزر والطفل، وكذلك تجاه مصيره الخاصّ. في اليوم الأوَّل من نيسان/أبريل، أعلن فرانكو عن نفسه بأنَّه كوديّيو إسبانيا، وهو لقب يتباهى به منذ كانون الأول/ديسمبر 1936، وأعلن أنَّ الحرب قد انتهت، وأنَّها قد استمرَّت تسعمئة وثمانية وثمانين يومًا. وكانت فرنسا وبريطانيا العُظمى قد اعترفتا بحكومته. لقد ضاع الوطن، ولم يَعُد هنالك أمل بالعودة إليه. استحمَّ فيكتور في البحر، وفرك جسمه بالرمل لعدم توافر الصابون، وطلب من رفيق له أن يقصّ له شعره، ثمَّ حلق ذقنه بدقَّة، وطلب تصريحه من أجل الذهاب في طلب صندوق الأدوية الذي يقدِّمونه إليه في المستشفى المحلّيّ، مثلما يفعل كلّ أسبوع. في البدء، كان يذهب بمرافقة حارس، ولكن بعد عدَّة شهور من الذهاب والمجيء، صاروا يسمحون له بأن يذهب وحده. خرج من دون أيّ مشكلة، ولم يرجع بكلّ بساطة. كان أيتور قد ترك له بعض النقود، استخدمها في وجبته الأولى المحترمة التي يتناولها منذ كانون الثاني/يناير، ولشراء بدلة رماديَّة، وقميصيْن وقبَّعة، وكلُّها أشياء مستعملة ولكنَّها في حالة جيِّدة؛ واشترى حذاءً جديدًا أيضًا. فبحسب قول أمّه: من ينتعل حذاءً جيِّدًا يُستقبل استقبالًا حسنًا. حمله سائق شاحنة.. وهكذا، وصل إلى بيربينيان، إلى مكتب الصليب الأحمر ليسأل عن صديقته.

استقبلت إيدنبنز فيكتور في مركز أمومتها المرتجل، إذ كانت تحمل وليدًا في كلّ ذراع، وكانت مشغولة إلى حدٍّ لم تتذكَّر معه قصّة حبِّهما التي لم تحدث قطّ. فيكتور لم ينسَ ذلك. وحين رآها بعينيْها الصافيتيْن، وزيّ الممرِّضة الأبيض، رزينة كعادتها، توصَّل إلى أنَّها

t.me/qurssan

ا ،مال متقنًا، وأنّه لا بدّ أن يكون أبله إذا تخيَّل أنَّها قد تلتفت إليه؛ ،ليس لهذه المرأة ميول عاشقة، وإنّما هي مُبشِّرة. حين عرفته إليزابيث، أمت الطفليْن لامرأة أخرى، وعانقته بتأثّر خجول.

ـ كم تغيَّرت، يا فيكتور! لا بدَّ أنّك عانيت الكثير، يا صديقي.

ـ أقلَّ من آخرين. لقد كنتُ محظوظًا على الرَّغم من كلّ شيء. أمّا أنتِ بالمقابل، فتُبدين على ما يرام دائمًا.

ـ أهذا ما تظنّه؟

ـ ما الذي تفعلينه لتَبدي دائمًا في حالة من الكمال، مطمئنّة ،باسمة، وبلا أيِّ شائبة؟ هكذا تعرَّفتُ عليكِ في وسط إحدى المعارك، وما ،ا على حالك، كما لو أنَّ الأزمنة السَّيِّئة التي نعيشها لا تؤثّر بكِ أبدًا!

ـ الأزمنة السَّيِّئة تجبرني على أن أكون قويَّة، وأن أعمل بإصرار، يا ،كتور. أنت آتٍ لرؤيتي من أجل روزر، أليس كذلك؟

ـ لا أدري كيف أشكرك على ما فعلتِهِ من أجلها، يا إليزابيث!

ـ لا وجود لما يستحقّ الشكر. علينا أن ننتظر حتّى الساعة الثامنة، عندما تنهي درسها الأخير على البيانو. إنَّها لا تعيش هنا. فهي تسكن عند بعض الأصدقاء الكويكرز، الذين يساعدونني في الحصول على موارد من أجل دار الأمومة.

وهذا ما فعلاه. قدَّمته إليزابيث إلى الأمَّهات اللّاتي يعشن في البيت، وجالت به على المنشآت، وجلسا بعد ذلك لتناول الشاي مع بسكويت، بينما كلٌّ منهما يُطلع الآخر على المشقّات التي تعرَّض لها منذ التقيا آخر مرَّة في ترويل. وفي الساعة الثامنة، أخذته إليزابيث

t.me/qurssan

في سيّارتها، وكانت مهتمّة بمتابعة المحادثة أكثر من اهتمامها بمقود السيّارة. ففكّر فيكتور بمدى سخرية أن يكون قد نجا من الموت في الحرب وفي مخيّم تجميع اللّاجئين، ليموت مسحوقًا كصرصار في سيّارة هذه الخطيبة غير المحتملة.

كان بيت الكويكرز على بعد عشرين دقيقة، وكانت روزر هي من فتحت لهما الباب. وما إن رأت فيكتور حتّى أطلقت صرخة، ووضعت يديْها على خدّيْها، كما لو أنّها أمام حلم هذيانيّ، فاحتضنها هو بين ذراعيْه. كان يتذكّرها نحيلة، بوركيْن ضيّقيْن وصدرٍ أملس، بحاجبيْن ثخينيْن وتقاطيع بارزة - نموذج المرأة غير المغرورة، والتي تجد نفسها مع مرور السنوات جافّة ورجوليّة. لقد رآها آخر مرّة في أواخر شهر كانون الأول /ديسمبر، ببطن بارز، وبثور حَبّ الشباب في وجهها. وقد أضفت عليها الأمومة الآن عذوبة حلوة، ومنحتها تكوّرات حيث كانت هنالك زوايا من قبل. كانت تُرضع ابنها، وكان ثدياها كبيريْن، وبشرتها فاتحة اللّون وشعرها لامعًا. كان اللّقاء مؤثّرًا جدًّا حتّى إنّ إليزابيث، وهي المعتادة على رؤية مشاهد تمزّق نياط القلب، قد تأثّرت. وتبيّن لفيكتور أنّ ابن أخيه عصيّ على الوصف؛ لأنّ جميع الأطفال في مثل تلك السنّ يشبهون وينستون تشرشل. فقد كان بدينًا وأصلع. وبعد نظرة أكثر تدقيقًا، اكتشف فيه بعض الملامح العائليّة، مثل العينيْن السّوداويْن الزيتونيّتيْن اللتيْن تُميّزان عيون آل دالماو.

- ما اسمه؟ سأل روزر.

- ما زلنا حتّى الآن ندعوه «الصّغير». إنّني انتظر مجيء وليام لنطلق عليه اسمًا، ونسجّله في السّجلّ المدنيّ.

t.me/qurssan

إنّها اللّحظة التي يُمكن إطلاعها فيها على الخبر المشؤوم، ولكن ، نتور لم يجد الشجاعة مرّة أخرى لفعل ذلك.

ـ لماذا لا تسمّيه وليام؟

ـ لأنّ وليام نبّهني إلى أنّه لن يسمّي أيًا من أبنائه باسمه. فهو لا يحبّ اسمه. لقد قلنا إنّنا سنسمّي الوليد مارسيل، إذا كان ذكرًا، أو ارمي إذا كانت طفلة، تكريمًا لأبيك وأمّك.

ـ حسن، أنت تعرفين إذًا...

ـ سأنتظر مجيء وليام.

أسرة الكويكرز، الأب والأمّ وطفلان، دعوا فيكتور وإليزابيث لتناول العشاء معهم. ولكونهم إنكليز، بدا الطعام مقبولًا. وكانوا يتكلّمون الإسبانيّة جيّدة، لأنّهم أمضوا سنوات الحرب في إسبانيا، حيث كانوا يساعدون منظّمات ترعى الطفولة؛ ومنذ الانسحاب، صاروا يعملون مع اللّاجئين. وهذا ما يقومون به دائمًا، على حدّ قولهم؛ ومثلما تؤكّد إليزابيث، فدائمًا هنالك حرب في مكان من العالم.

ـ إنّنا ممتنّون لكم جدًّا، قال لهم فيكتور. بفضلكم، نجد هذا الطفل بيننا الآن. لأنّه لو كان في مخيّم أرجيليه ـ سور ـ مار لما بقي حيًا، وأظنّ أنّ روزر ما كانت ستتمكّن من البقاء حيّة. نأمل ألّا نُثقل على كرمكم لوقت طويل.

ـ لا وجود لما يستدعي الشكر، أيُّها السيِّد. فروزر والطفل صارا جزءًا من العائلة. لماذا تسرُّعكم في المغادرة؟

حدَّثهما فيكتور عن صديقه أيتور، وخطَّة الهجرة إلى فنزويلا عندما يتمكَّن صديقه من مساعدتهم. يبدو أنّها الطريقة الوحيدة المتاحة.

t.me/qurssan

- إذا كان ما تريدونه هو الهجرة، فربّما يمكنكم الذهاب إلى تشيلي، قالت إليزابيث. فقد رأيتُ خبرًا في الجريدة عن سفينة ستأخذ إسبانيّين إلى تشيلي.

- تشيلي؟ أين هو هذا المكان؟ سألت روزر.

- عند قدميْ العالم، هكذا يبدو لي، قال فيكتور.

في اليوم التالي، عثرت إليزابيث على الخبر المذكور، وأرسلته إلى فيكتور. فالشاعر پابلو نيرودا، بتكليف من حكومة بلاده، يقوم بتأهيل سفينة اسمها وينيبيغ من أجل نقل منفيّين إسبان إلى بلاده. قدّمت له إليزابيث نقودًا كي يسافر في القطار إلى باريس، ويجرّب حظّه مع ذلك الشاعر، إلى المجهول.

تمكّن فيكتور، باستخدامه خريطة، من الوصول إلى جادة موت بيكيه 2، بالقرب من ليزانفاليد، حيث ينتصب مبنى مفوَّضيّة تشيلي الأنيق. كان هناك صفّ من الناس أمام الباب، يراقبهم بوّاب معكّر المزاج. وكان الموظّفون داخل البناء عدوانيّين كذلك، غير قادرين على أن يردُّوا على تحيّة. بدا ذلك لفيكتور إشارة سوء طالع، مثلما كانت تبدو مشؤومة أيضًا الأجواء الثقيلة والمتوتّرة لذلك الرّبيع الباريسيّ. كان هتلر قد بدأ بالتهام قضمات شرهة من الأراضي الأوروبيّة، وراحت غمامة الحرب السّوداء تملأ السّماء بالظلام. الناس الذين يصطفّون في رتل يتكلّمون الإسبانيّة، وجميعهم تقريبًا يحملون قصاصة الصحيفة في أيديهم. عندما جاء دوره، أشاروا له إلى جهة السلّم، الذي يبدأ رخاميًا ومزيّنًا بالبرونز في الطوابق الأولى، وينتهي ضيّقًا وبائسًا عند ما يشبه غرفةً فوق السّطح. لم يكن هنالك مصعد. وكان على فيكتور أن يساعد

t.me/qurssan

إسبانيًا آخر يعرج أكثر منه، إذ كان قد فقد إحدى ساقيْه، ويكاد يعجز عن الصعود متشبّثًا بحاجز الدرج.

ـ هل صحيح أنّهم لا يقبلون إلّا الشيوعيّين؟ سأله فيكتور.

ـ هذا ما يقولونه. هل أنت شيوعيّ؟

ـ أنا جمهوريّ وحسب.

ـ لا تعقّد الأمور أكثر. من الأفضل أن تقول للشاعر إنّك شيوعيّ، وينتهي الأمر.

في غرفة صغيرة، مؤثّثة بثلاثة كراس ومنضدة مكتب، استقبله بابلو نيرودا. كان لا يزال رجلًا شابًا، بعينيْن متفحّصتيْن ورموش عربيّة، عريض الكتفيْن وظهره منحنٍ قليلًا؛ يبدو أكثر امتلاء وترهُّلًا ممّا هو عليه في الواقع، وقد استطاع فيكتور التأكّد من ذلك عندما نهض الشاعر كي يودّعه. استمرّت المقابلة أقلّ من عشر دقائق، وخلّف لديْه انطباعًا بأنّه قد أخفق في محاولته. وجّه إليه نيرودا بضعة أسئلة عاديّة: العمر، الوضع العائليّ، الدّراسة والخبرة في العمل.

ـ سمعتُ أنّكم لا تختارون سوى الشيوعيّين... قال فيكتور، مستغربًا أنّ الشاعر لم يسأله عن انتمائه السياسيّ.

ـ لقد سمعتَ بصورة سيّئة. فالأمر سيكون حصصًا، الشيوعيّون، والاشتراكيّون، والفوضويّون، واللّيبراليّون. وستُحسم الأمور ما بين هيئة إجلاء اللّاجئين الإسبان وبيني أنا. الأهمّ هي طباع كلّ شخص، والفائدة التي يمكن له تقديمها في تشيلي. إنّني أدرس مئات الطلبات، وعندما تُتّخذ قرارات، سأُخبرك؛ لا تقلق.

t.me/qurssan

ـ إذا كان ردّك بالموافقة، يا سيّد نيرودا، فأرجوك أن تضع في اعتبارك أنّني لن أسافر وحيدًا. هنالك صديقة مع طفل عمره أشهر قليلة ستأتي معي أيضًا.

ـ أتقول إنّها صديقة؟

ـ اسمها روزر بروغيرا، خطيبة أخي.

ـ في هذه الحالة، يجب أن يأتي أخوك لمقابلتي، ويملأ استمارة الطلب.

ـ فلنفترض أنّ أخي قد مات في معركة الإيبرو، أيّها السيّد.

ـ يؤسفني ذلك. أنت ترى أنّه يجب عليّ أن أُعطي الأولويّة للأقرباء المباشرين، أليس كذلك؟

ـ إنّني أتفهّم موقفك. سأعود لرؤيتك خلال ثلاثة أيّام، إذا كنت تسمح لي.

ـ خلال ثلاثة أيّام لن أكون قد حصلت على جواب، يا صديقي.

ـ أما أنا فسأكون قد توصّلت إلى جواب. شكرًا جزيلًا.

في مساء ذلك اليوم بالذات، ركب قطار العودة إلى بربيبنيان. وصل متعبًا، وفي ظلام قاتم. نام في نزل براغيث، حيث لم يستطع مجرّد الاستحمام. وفي اليوم التالي، ذهب إلى مشغل الخياطة حيث تعمل روزر. خرجا إلى الشارع ليتمكّنا من تبادل الحديث. أمسك بها فيكتور من ذراعها، اقتادها إلى مقعد منعزل في ساحة قريبة، وأخبرها بما حدث معه في مُفوَّضيّة تشيلي، متجاهلًا بعض التّفاصيل، مثل سوء نوايا الموظّفين التشيليّين، وضآلة الثقة التي شعر بها تجاه نيرودا.

ـ إذا ما قبلك هذا الشاعر، يا فيكتور، فعليك أن تذهب بأيّ حال. لا تقلق بشأني.

t.me/qurssan

ـ روزر، هناك أمر كان عليّ أن أُخبرك به منذ أشهر، لكنّني كلّما حاولت ذلك، تخنقني قبضة حديديّة، وتُمسكتني. كما لو أنّها لا تريد لي أن أكون...

ـ وليام؟ أهو أمر متعلّق بوليام؟ صاحت هي مذعورة.

هزّ فيكتور رأسه، من دون أن يتجرّأ على النّظر إليها. ضمّها إلى صدره بعناق قويّ، ومنحها الوقت كي تبكي صارخة، كطفلة يائسة، راجفة، وجهها غارق في سترته المستعملة، إلى أن بُحّ صوتها ونفدت دموعها. وقد بدا له أنّ روزر تفرّج عن نفسها ببكاء مكبوح منذ وقت طويل، وأنّ الخبر الرّهيب لم يكن مفاجئًا، ولا بدّ أنّ الشكوك كانت تخامرها منذ وقت طويل، لأنّ هذا فقط هو ما يُمكن أن يُفسّر صمت وليام الطويل. صحيح، أنّ الناس يضيعون في الحرب، وأنّ الأزواج ينفصلون أحدهم عن الآخر، وأنّ شمل العائلات يتشتّت، ولكنْ لا بدّ أنّ الغريزة كانت تنبّه روزر إلى أنّه قد مات. لم تطلب أدلّة، ولكنّ فيكتور أراها مع ذلك محفظة الجيب نصف المحروقة، وصورتها التي كان وليام يحملها معه على الدوام.

ـ أترين لماذا لا يمكنني أن أتركك، يا روزر؟ يجب أن تذهبي معي إلى تشيلي، إذا هم قبلونا. ففي فرنسا، سوف تنشب الحرب أيضًا. ويجب علينا أن نحمي الطفل.

ـ وماذا عن أمّك؟

ـ لم يرها أحد منذ خروجنا من برشلونة. لقد ضاعت في الزحام. ولو كانت على قيد الحياة، لتواصلت معك أو معي. وإذا ما ظهرت في المستقبل، فسوف نبحث عن طريقة لمساعدتها. الأهمّ في هذه اللّحظة هو أنتِ وابنك، أتفهمين؟

t.me/qurssan

ـ أفهم، يا فيكتور. ماذا عليَّ أن أفعل.

ـ اعذريني، يا روزر، ولكن يجب أن نتزوّج.

وقفت تنظر إليه مشدوهة، فلم يستطع فيكتور كبح نفسه من الابتسام، وهو ما بدا غير لائق بوقار تلك اللّحظة. كرّر لها المعلومات التي أخبره بها نيرودا حول منح الأولويّة للعائلات.

ـ وأنتِ، يا روزر، لا تُعتبرين زوجة أخي.

ـ لقد تزوّجتُ من وليام بلا أوراق، وبلا مباركة، وبلا كاهن.

ـ لا أظنّ أنّ هذا كلّه يؤخذ في الحسبان في هذه الحالة. وبكلمات قليلة، يا روزر، أنتِ الآن أرملة من دون أن تكوني كذلك فعليًا. سوف نتزوّج اليوم بالذات، إذا كان ممكنًا، وسنسجّل الطفل على أنّه ابننا سأكون أباه؛ ولسوف أرعاه وأحميه، وأحبّه كما لو أنّه ابني.. أعدك بذلك. وهذا ينطبق عليكِ أنتِ أيضًا.

ـ ولكنْ لم يقع كلٌّ منّا في غرام الآخر...

ـ إنّك تطلبين الكثير، يا امرأة. ألا يكفيك الحنان والاحترام؟ وهذا أكثر من كافٍ في هذه الأزمنة التي نعيشها. لن أفرض عليك أبدًا علاقة لا ترغبين فيها، يا روزر.

ـ ما الذي يعنيه هذا؟ أيعني أنّك لن تنام معي؟

ـ هذا ما أعنيه بالضبط، يا روزر. لست بالوقح عديم الحياء.

وهكذا، خلال لحظات قليلة وعلى مقعد في الساحة، اتّخذا القرار الذي سيكون علامة حاسمة في حياتيْهما وفي حياة الطفل كذلك. في حالة الهروب المتسرّع تلك، وصل منفيّون كثيرون إلى فرنسا بلا

t.me/qurssan

. ، شخصيَّة، وفقدها آخرون في الدروب أو في مخيَّمات التَّجميع. أمَّا ..ا، فكانت لديْهما وثائقهما. وقد أفادهما الأصدقاء من طائفة الكويكرز ، هود على الزواج في طقوس مقتضبة بمبنى البلديَّة. كان فيكتور قد م حذاءه الجديد، وظهر بربطة عنق مستعارة؛ أمَّا روزر، فبدت هادئة، ا,, الرَّغم من انتفاخ عينيْها بسبب كثرة البكاء، وكانت قد ارتدت ام ل ثوب لديها مع قبُّعة ربيعيَّة. بعد إجراءات الزواج، قاما بتسجيل الطفل باسم مارسيل دالماو بروغيرا. وكان من المقرَّر أن يكون هذا هو مه لو أنَّ أباه ظلَّ حيًّا. احتفلوا بالزفاف في عشاء خاصّ بقسم الأمومة الصغير، الذي تشرف عليه إليزابيث إيدنبنز، وأنهوا العشاء بقالب حلوى م ،ربما مخفوقة. قطع الزوجان قالب الحلوى ووزَّعاه بالتساوي على ..امسرين.

ومثلما كان فيكتور قد وعد پابلو نيرودا، رجع بعد ثلاثة أيَّام امبط إلى مكتب المفوضيَّة التشيليَّة في باريس، ووضع فوق منضدته ..مة زواجه وشهادة ميلاد ابنه. رفع نيرودا نظرته ذات الرموش الناعسة، . مخصه مفتونًا لثوانٍ طويلة.

ـ أرى أنَّ لك مخيِّلة شاعر، أيُّها الشاب. أهلًا بكم في تشيلي ـ ال له أخيرًا وهو يضع دمغته على الطلب، ثمَّ أضاف: أقلتَ إنَّ امرأتك عارفة بيانو؟

ـ أجل، يا سيِّدي. وخيَّاطة أيضًا.

ـ لدينا خيَّاطات في تشيلي، ولكنَّنا بحاجة إلى عازفات بيانو. مصر مع امرأتك وابنك إلى مرفأ تروسبيلوب، في بوردو، يوم الجمعة ي وقت مبكِّر. ستنطلقون في السفينة وينيبيغ عند الغروب.

t.me/qurssan

ـ لا نملك نقودًا من أجل تذكرة السفر، يا سيِّدي...

ـ لا أحد يملكها. سوف نرى. وانسَ مسألة دفع تكاليف التأشيرة التشيليَّة التي يحاول بعض القناصل جبايتها. يبدو لي مقرفًا تقاضي رسم الفيزا من اللاجئين. وهذا أمر سننظر فيه هناك في بوردو.

ذلك اليوم الصيفيّ، الرابع من آب/أغسطس 1939، في مدينة بوردو، سيبقى إلى الأبد في ذاكرة فيكتور دالماو وروز بروغيرا، وأكثر من ألفي إسبانيّ سينطلقون باتّجاه تلك البلاد المتطاولة في أميركا الجنوبيَّة، والمتشبِّثة بالجبال كيلا تسقط في البحر، والتي ما كانوا يعرفون عنها شيئًا. وقد وصفها نيرودا في شعره بأنّها «*بتلة بحر ونبيذ وثلج متطاولة*».. وأنّها «*حزام زبد أبيض وأسود*». ولكنْ ما كان لهذا وحده أن يوصل المنفيِّين إلى وجهتهم. فتشيلي على الخريطة نحيلة وبعيدة جدًّا.

كانت ساحة بوردو تعجّ بالناس، حشد هائل يتعاظم مع مرور الدقائق، شبه مختنق بالحرّ، تحت سماء شديدة الزُّرقة. كانت تصل قطارات، وشاحنات ووسائل نقل أخرى ممتلئة بالناس، معظمهم من الخارجين مباشرة من مخيَّمات التَّجميع. أناس جائعون، ضعفاء، لم تتح لهم فرصة الاغتسال. ولأنّ الرجال كانوا منفصلين لعدَّة شهور عن النساء والأطفال، فإنَّ اللّقاء بين الأزواج وبين العائلات كان هذيان دراما وتأثّر. كانوا يتعلَّقون بالنوافذ، يتبادلون التنادي صارخين، يتعرَّفون على بعضهم بعضًا ويتعانقون باكين. أب كان يظنّ أنّ ابنه قد مات في معركة الإيبرو؛ أخوان لم يكن أيّ منهما يعرف شيئًا عن الآخر منذ أيّام جبهة مدريد؛ جنديّ قديم اكتشف وجود امرأته وابنه اللذيْن كان قد فقد الأمل بالعودة لرؤيتهما.. وهذا كلّه في نظام متقن، وبغريزة انتظام طبيعية سهَّلت مهمَّة الحرّاس الفرنسيِّين.

t.me/qurssan

كان پابلو نيرودا يرتدي ملابس بيضاء من القدمَيْن حتّى الرأس، ومعه زوجته ديليا دل كاريل، متّشحة كذلك بالأبيض مع قبّعة كبيرة جدًّا؛ وكان يوجّه إجراءات تحديد الهويّة، والصحّة والاختيار، مثل شبه إله، يساعده قناصل وموظّفون وأصدقاء يستقرّون وراء مناضد طويلة. الموافقة تصير جاهزة بتوقيعه عليها بحبرٍ أخضر وبختم مصلحة إجلاء اللاجئين الإسبان. حلّ نيرودا مشكلة التأشيرات بتأشيرة جماعيّة. كان الإسبان يصطفّون في جماعات، تؤخذ لهم صورة، ويتمّ تظهيرها على عجل، ثمّ يتولّى أحدهم قصّ الوجوه من الصورة الجماعيّة وإلصاقها على تصاريح المرور. كان هناك متطوّعون محسنون يوزّعون وجبة طعام ساخنة، وأدوات نظافة شخصيّة لكلّ شخص. بينما تلقّى الأطفال الثلاثمئة والخمسين تجهيزات كاملة لكلّ واحد منهم، وكانت إليزابيث إدنبنز هي من تولّت توزيعها.

في يوم انطلاق الرحلة، كانت لا تزال ثمّة مبالغ ماليّة كبيرة يجب دفعها من أجل ذلك الرّحيل الجماعيّ، وكانت الحكومة التشيليّة ترفض دفعها، لأنّه من المحال تبرير ذلك أمام رأي عام معادٍ ومنقسم. عندئذٍ، وبصورة غير متوقّعة، حضرت إلى المرفأ جماعة صغيرة من الأشخاص الرسميّين جدًّا، والمستعدّين لدفع نصف قيمة كلّ تذكرة سفر. رأتهم روزر من بعيد، فوضعت الطفل بين ذراعيْ فيكتور، وغادرت الرتل، وهرعت لتحيّتهم. لقد كان بين ذلك الفريق أسرة الكويكرز الذين احتضنوها. وقد جاؤوا باسم طائفتهم لتأدية الواجب الذي فرضوه على أنفسهم منذ نشأتهم في القرن السابع عشر، بخدمة البشريّة وتشجيع السلام. كرّرت عليهم روزر ما كانت قد سمعته من إليزابيث: «إنّكم تظهرون دومًا حيث تكون الحاجة ماسّة إليكم».

t.me/qurssan

صعد كلٌ من فيكتور وروزر والطفل مع أوَّل من صعدوا إلى السَّفينة. وهي سفينة ضخمة تزن قرابة خمسين ألف طنٍّ، تنقل شحنات من أفريقيا، وقد استُخدمت لنقل قوَّات عسكريَّة في الحرب العالميَّة الأولى. وكانت مهيَّأة لعشرين بحَّارًا في رحلات قصيرة، فأعيد تأهيلها لتنقل أكثر من ألفيْ شخص خلال شهر. لقد زوَّدوها على وجه السُّرعة بأسرَّة خشبيَّة من ثلاث طبقات في العنابر السُّفليَّة، وأقاموا فيها مطبخًا، وقاعة طعام وعيادة تمريض مع ثلاثة أطبَّاء. خصَّصوا أمكنة نوم الجميع في السفينة؛ فيكتور مع الرجال في مقدَّمة السَّفينة، وروزر مع النساء والأطفال في المؤخَّرة.

في الساعات التالية، أنهى المسافرون المحظوظون صعودهم، وظلَّ على اليابسة مئات اللَّاجئين الذين لم يجدوا لهم مكانًا. وعند الغروب، مع ارتفاع المدّ، رفعت السَّفينة وينيبيغ مرساتها. كان هناك من يبكون بصمت على السَّطح، وآخرون يترنَّمون بالكتلانيَّة، وهم يضعون يدهم على الصدر، بأغنية المهاجر: «*كتالونيا العذبة،/يا موطن قلبي،/ يُميتُني الحنين/عندما أبتعدُ عنكِ*». ربَّما كانوا يهجسون بأنَّهم لن يعودوا أبدًا إلى موطنهم. ومن المرفأ، ودَّعهم بابلو نيرودا ملوِّحًا بمنديل إلى أن غابوا عن النظر. وسيكون هذا اليوم بالنِّسبة إليه أيضًا، يومًا لا يُنسى، وسيَكتُب بعد سنوات: «*فلْيمحُ النقد شعري كلّه، إذا بدا له ذلك. لكنْ هذه القصيدة، التي أتذكَّرها اليوم، لن يستطيع محوها أحد*».

لقد كانت أسرَّة النوم أشبه بفجوات توابيت في مقبرة؛ فكان لا بدَّ من التَّسلُّق على أربعة، والبقاء من دون حراك على فرش مملوءة بالقشّ، لكنَّها تبدو مع ذلك ترفًا بالمقارنة مع جحور الرَّمل المبلَّل في مخيَّمات التَّجميع. كان لديْهم مرحاض لكلِّ خمسين شخصًا، وكانوا

t.me/qurssan

. .حون إلى ثلاث ورديّات في المطعم، ويُحترم هذا النظام من دون أن . ,, أحد ببنت شفة. فمن هم أتون من البؤس والجوع يجدون أنفسهم ,, الجنّة: لقد مضت عليهم شهور من دون تناول طبق ساخن، ومع أنّ الطعام في السفينة بسيط، إلّا أنّه لذيذ المذاق؛ فضلًا عن أنّه بالإمكان ..اده ملء الطبق بحساء البقول عدّة مرّات كما يشاء كلّ شخص؛ لقد ..انوا معذّبين بالقمل البقّ، بينما يمكنهم في السفينة أن يستحمّوا ,, أحواض صغيرة وبماء بارد وصابون؛ لقد كانوا أسرى اليأس وهم .. حون الآن نحو الحريّة. بل كان هناك تبغ أيضًا! وبيرة وخمور في بار .. مر لمن يقدر على دفع ثمنها. جميع المسافرين تقريبًا تقدّموا طالبين .. شاركة في المهامّ على متن السفينة، ابتداء من تشغيل المحرّكات، .. .. تقشير البطاطا وكنس سطح السفينة. في صباح اليوم الأوّل، .. م فيكتور نفسه تحت تصرّف الأطبّاء في العيادة. رحّبوا به، وأعطوه ..: أبيض، وأخبروه أنّ هناك عددًا من اللّاجئين تبدو عليهم أعراض ال بزنطاريا والتهاب القصبات الهوائيّة، ووجود حالتيْ تيفوئيد لهاربين .. رعاية الخدمات الصحّيّة.

نظّمت النسوة أنفسهنّ لرعاية الأطفال. وكنّ قد حدّدن مكانًا .. سطح السفينة، محميًا بحواجز، مخصّصًا لأن يكون روضة أطفال ومدرسة. ومنذ اليوم الأوّل، كان هناك قسم حضانة، وألعاب، وفنّ، وتمارين ودروس، لمدّة ساعة ونصف الساعة في الصّباح، وساعة ونصف الساعة في المساء. لقد أصيبت روزر بالدوار، مثلما حدث الآخرين جميعهم تقريبًا، ولكنّها ما إن تمكّنت من النهوض حتّى أبدت استعدادها لتعليم الصّغار الموسيقى على آلة السيلوفون، وعلى طبول مرتجلة من الدلاء. وكانت منهمكة في ذلك عندما جاء معاون الربّان،

t.me/qurssan

وهو فرنسيّ من الحزب الشيوعيّ، حاملًا لها خبر أنَّ نيرودا قد طلب ال بيانو وجهازيْ أكورديون إلى السّفينة من أجلها، ومن أجل من يعرفو العزف. وكان لدى بعض المسافرين جيتاران وكلارينيت. ومنذ تلك اللّحظة، صار هنالك موسيقى للأطفال، وحفلات عزف ورقص للكبار، إضافة إلى كورال نشط من الباسكيّين.

بعد خمسين عامًا من ذلك، عندما أُجريت مقابلة مع فيكتور دالماو في التلفزيون كي يروي أحداث أوديسا منفاه، تحدَّث عن السفينة وينيبيغ على أنّها سفينة الأمل.

كانت الرّحلة بالنّسبة إلى فيكتور دالماو أشبه بإجازة ممتعة، أمّا روزر التي كانت قد أمضت أشهرًا من الراحة في بيت أصدقائها الكويكرز، فقد عانت في البداية من الازدحام وسوء الرائحة. ولكنْ لم يخطر لها الحديث عن ذلك، لأنّه سيبدو ذروة عدم اللّياقة، وسرعان ما اعتادت على تجاهل الأمر وعدم ملاحظته. وضعت مارسيل في جعبة ظهر مرتجلة، وصارت تتجوّل به طوال الوقت ملتصقًا بظهرها، حتّى وهي تعزف على البيانو؛ وتتناوب مع فيكتور الذي كان يحمله أيضًا، عندما لا يكون في عيادة التمريض. لقد كانت الوحيدة القادرة على إرضاع صغيرها، بينما الأمّهات الأخريات، في حالة الوهن التي كنَّ عليها، اعتمدن على خدمة قوارير رِضاعة للأربعين رضيعًا على متن السفينة. نساء عديدات عرضن على روزر أن يغسلن لها ملابسها وأقمطة ابنها، كيلا تُلحق الأذى بيديْها. وكانت هناك فلّاحة مدبوغة بسنوات طويلة من العمل الشاقّ، وأمّ لسبعة أطفال، تتفحّص يديْ روزر مفتونة، من دون أن تفهم كيف يمكن لها أن تُخرج الموسيقى من البيانو من دون النّظر إلى ملامسه. لقد كانت تلك الأصابع سحريّة في نظرها! وكان زوجها يعمل في صناعة الفلّين قبل

t.me/qurssan

الحرب، وعندما أخبره نيرودا أنّه لا وجود في تشيلي لأشجار السنديان الفلّيني، ردّ عليه بجفاء: «سوف توجد إذًا». بدا الجواب للشاعر بديعًا، وضمّه إلى المبحرين جنبًا إلى جنب مع صيّادي الأسماك، والفلّاحين، والعمّال اليدويّين، والمهنيّين، وكذلك المثقّفين، على الرّغم من تعليمات الحكومة التشيليّة بتجنُّب الأشخاص حملة الأفكار. تجاهل نيرودا هذا الأمر؛ فمن البلاهة التّخلّي عن رجال ونساء دافعوا ببطولة عن أفكارهم وأفكارهنّ. وكان يأمل في دخيلة نفسه بأن يهزّ هؤلاء سُبات موطنه المديد.

كانت الحياة تتواصل على سطح السفينة حتّى وقت متأخّر، لأنّ التهوية في الأسفل سيّئة جدًّا، والمجال ضيّق يكاد لا يكفي للتّحرّك. أنشأ المسافرون جريدة تقدّم أخبار العالم التي تسوء من يوم إلى آخر مع ابتلاع هتلر لمزيد من الأراضي. في اليوم التاسع عشر من الإبحار، عندما عُرف خبر اتّفاق عدم الاعتداء بين الاتّحاد السوفييتيّ وألمانيا النازيّة، الموقّع في الثالث والعشرين من آب/أغسطس، شعر كثيرون من الشيوعيّين الذين كانوا قد ناضلوا ضدّ الفاشية بأنّهم تعرّضوا لخيانة كبيرة. فالخلافات السياسيّة التي قسّمت حكومة الجمهوريّة الإسبانيّة، تواصلت في السفينة؛ فكانت تنفجر في بعض الأحيان مشاجرات بسبب ضغائن سابقة، فيقوم مسافرون آخرون بإخمادها على جناح السرعة، قبل أن يتدخّل القبطان بوبين، وهو رجل يمينيّ لا يشعر بأيّ تعاطف مع المسافرين الذين تحت مسؤوليّته، ولكنّه يتمتّع بحسّ راسخ بالواجب. فكان الشكّ يخامر الإسبان الذين لا يعرفون هذا الجانب من شخصيّته، ويشعرون بأنّه قد يغدر بهم، ويحوّل المسار ويعيدهم إلى أوروبا. فكانوا يراقبونه بالحذر نفسه الذي يراقبون به مسار الإبحار. مساعد القبطان ومعظم البحّارة كانوا شيوعيّين؛ وكانوا هم أيضًا يضعون مراقبة بوبين نصب أعينهم.

t.me/qurssan

في الأمسيات، كانوا ينشغلون بالاستماع إلى عزف روزر والغناء الجماعيّ والرقص، وألعاب الورق والدومينو. نظّم فيكتور ناديًا للشطرنج لمن يعرفون اللّعب ومن يرغبون في تعلّمه. لقد ساعده الشطرنج على النجاة من الوقوع في اليأس في لحظات الضياع خلال الحرب، وفي مخيّم التّجميع، عندما لم تَعُد الرُّوح قادرة على تحمُّل المزيد؛ وكانت تراوده الرّغبة في أن يرتمي أرضًا مثل كلب، ويسلّم نفسه للموت. في تلك اللّحظات، إذا لم يكن هنالك لاعب خصم، فإنّه يستغرق في اللّعب ذهنيًا ضدّ نفسه على رقعة شطرنج وأحجار متخيّلة. لقد كانوا يقدّمون أيضًا في السفينة محاضرات حول العلم، وموضوعات أخرى، ولكنْ لا شيء من السياسة، لأنّ التزامهم مع الحكومة التشيليّة يتضمّن الامتناع عن الدعاية لنظريّات سياسيّة، يمكن لها أن تؤدّي إلى إشعال ثورة. «وبكلمات أخرى، أيّها السادة، لا نريدكم أن تأتوا لتقلبوا لنا خمّ الدجاج رأسًا على عقب»، هكذا لخّص الأمر مواطن تشيليّ كان يسافر أيضًا في السفينة وينيبيغ. كان التشيليّون يتبادلون أحاديث مع الآخرين على سبيل تهيئتهم لما سيواجهونه. وكان نيرودا قد وزّع عليهم كرّاسًا موجزًا، ورسالة واقعيّة إلى حدّ كبير حول البلاد: *«أيها الإسبان: ربّما كانت تشيلي بالنّسبة إليكم هي أبعد منطقة نائية في أميركا. ولقد كانت كذلك بالنّسبة إلى أجدادكم القدماء. فقد واجه الغزاة الإسبان القدماء وتحمّلوا الكثير من المخاطر والكثير من البؤس. وعاشوا طوال ثلاثمئة عام في معركة متواصلة ضدّ الأروكانيين[1] الذين لا سبيل إلى السّيطرة عليهم. من ذلك التواجد الصّعب، بقيت سلالة معتادة على مصاعب الحياة ومشقّاتها. تشيلي بعيدة جدًا عن أن تكون فردوسًا. فأرضنا*

---

(1) الأروكانيّون araucanos: تسمية السكّان الأصليّين في تشيلي، ويسمّوْن أيضًا المابوتشي.

t.me/qurssan

لا تسلّم ثرواتها إلّا لمن يعمل بجدّ ومشقّة». هذا التحذير وغيره من سبهات التشيليّين لم ترعب أحدًا. أوضحوا لهم أنّ تشيلي قد فتحت أبوابها لهم بفضل حكومة الرئيس بيدرو أغيرّي الشعبيّة، وأنّ الرئيس قد تحدّى أحزاب المعارضة، وتحمّل حملة التخويف التي شنّتها اليمين والكنيسة الكاثوليكيّة. «هذا يعني أنّ لدينا هناك الأعداء نفسهم الذين واجهناهم في إسبانيا»، قال فيكتور. فأوحى ذلك لعدد من الفنّانين أن يرسموا لوحة عملاقة تكريمًا للرئيس التشيلي.

عرفوا أنّ تشيلي بلاد فقيرة، يقوم اقتصادها على المناجم، لاسيّما مناجم النحاس، ولكنْ هنالك الكثير من الأراضي الخصبة، وآلاف الكيلومترات من السواحل الصالحة للصيد البحريّ، وغابات لامتناهية ومساحات كبيرة شبه خالية من السكّان، وتحتاج لمن يأتيها للإقامة والعمل والازدهار. الطبيعة عجائبيّة مُدهشة، ابتداء من الصحارى المقفرة في الشمال، وحتّى المناطق الجليديّة المتجمّدة في الجنوب. والتشيليّون معتادون على شحّ الموارد، وعلى الكوارث الطبيعيّة، كالزلازل التي تدمّر عادة كلّ شيء وتخلّف الكثير من الموت والدّمار، ولكنْ ذلك بدا للمنفيّين مجرّد شرّ صغير بالمقارنة مع ما عاشوه، وما ستصير إليه إسبانيا تحت سيطرة فرانكو. قالوا لهم أن يستعدّوا من أجل ردّ الجميل، لأنّهم سيتلقّون الكثير؛ فالمصائب الجماعيّة لا تسبّب المرارة للتشيليّين، بل تجعلهم مضيافين وكرماء، وقد كانوا مستعدّين على الدوام لفتح أذرعهم وبيوتهم. «اليوم أنا، غدًا أنت»، هذا هو الشعار. كما نصحوا العازبين بالحذر من التشيليّات، لأنّ من يضعن عينهنّ عليه، لن يجد مهربًا. إنّهنّ مغويّات، قويّات ومتجبّرات، تركيبة شديدة الوفاء. وكان لهذا كلّه وقع الخيال.

t.me/qurssan

بعد يومَيْن من الرحلة، تدخَّل فيكتور من أجل ولادة طفلة ف العيادة. كان قد رأى أشدّ الجراح فظاعة، والموت بكافَّة أشكاله، ولكن لم يكن قد حَظِي بحضور بداية حياة جديدة من قبل. وعندما وضعوا الوليدة الحديثة على صدر أمّها، وجد صعوبة في إخفاء دموعه. وقدّم القبطان شهادة ميلاد الطفلة آغنيس أميركا وينبيبغ. وذات صباح، لم يغادر فراشه الرجل الذي يشغل سريرًا علويًا في المهجع الذي ينام فيه فيكتور، ولم يخرج لتناول وجبة الفطور. ولاعتقادهم أنّه نائم، لم يحاول أحد إزعاجه حتّى منتصف النهار، عندئذٍ هزَّه فيكتور كي ينهض لتناول الغداء، فوجده ميّتًا. في هذه المناسبة، كان على القبطان بوبين أن يصدر شهادة وفاة. وفي مساء ذلك اليوم، بعد طقوس مقتضبة، ألقوا بالجثمان إلى البحر ملفوفًا بمشمَّع. ودَّعه رفاقه مصطفّين على سطح السفينة وهم يترنَّمون مع كورال الباسكيّين بواحدة من أغنيات الحرب. وقد علّقت روزر قائلة: «ها أنت ترى، يا فيكتور، كيف أنَّ الحياة والموت يمضيان على الدوام جنبًا إلى جنب».

تجاوز العاشقون عائق عدم توافر الخصوصيَّة باستخدامهم قوارب النجاة. فكان لا بدَّ لهم من التناوب بانتظام من أجل ممارسة الحبّ، مثلما يتناوبون من أجل كلّ شيء، فبينما يكون عاشقان يستمتعان في الزورق، يقوم صديق لهما بالحراسة من أجل تنبيه بقيَّة المسافرين، وشَغْل انتباه أيّ عنصر من طاقم الملاحة يقترب من المكان. وعندما عرفوا أنَّ فيكتور وروزر قد تزوَّجا حديثًا، تخلَّى لهما أكثر من واحد عن دوره، لكنَّهما كانا يرفضان ذلك بمظاهر امتنان وافرة؛ غير أنَّ تمنُّعهما ذاك استثار الشكوك بعد مضيّ شهر كامل من دون أن يُبديا أيّ نوع من التلهُّف الغرامي. فذهبا في مناسبتَيْن اثنتَيْن إلى مكان الغراميّات منفصلَيْن، مثلما يفعل

t.me/qurssan

..مع العاشقين الآخرين بحسب اتّفاق مسبق. ذهبت هي أوّلًا وقد
ا..ت وجهها حُمرة الخجل، ثمّ لحق بها وهو يشعر كما لو أنّه أبله، بينما
ال هناك شخص متطوّع يتمشّى حاملًا مارسيل على سطح السفينة.
ال الزورق خانقًا، وغير مريح، تفوح منه رائحة سمك متعفّن، ولكنْ
ا..حانيّة تواجدهما وحدهما معًا، وتبادلهما الحديث همسًا بلا شهود،
اد من اتّحادهما من دون أن يمارسا الحبّ. فاستلقاوهما متجاوريْن،
..ما هي تضع رأسها على كتفه، وتبادلهما الحديث عن الغائبيْن، وليام
و كارمي، من لا يريدان تصوُّرهما ميّتيْن، وليتأمّلا حول الأرض المجهولة
التي تنتظرهما في نهاية العالم، ويُخطّطا للمستقبل. سيحاولان الاستقرار
ف تشيلي والحصول على عمل في أيّ مجال مُمكن، فهذا هو الأمر
ا..ستعجل؛ بعد ذلك، يمكنهما الطلاق، ويكون لكلٍّ منهما حريّة
التصرّف بحياته. سبّبت لهما تلك الأحاديث الحزن. طلبت منه روزر
أن يبقيا صديقيْن دومًا، لأنّه الشخص الوحيد من العائلة المتبقّي لها
ولابنها. فهي لا تشعر أنّها جزء من أسرتها الأصليّة في سانتا فه، إذ لم
تزرها إلّا في مناسبات قليلة جدًّا، منذ أن أخذها سانتياغو غوثمان لتعيش
في بيته، ولم يَعُد هناك ما يربطها بتلك الأسرة. كرّر لها فيكتور وعده
بأن يكون أبًا طيّبًا لمارسيل. وأضاف: «طالما أنا قادر على العمل، لن
ينقصكما أيّ شيء». لم يكن هذا الأمر هو ما تعنيه روزر، فهي تشعر
بأنّها قادرة تمامًا على إعالة نفسها بنفسها، وعلى الخروج قدمًا بالطفل،
ولكنّها فضّلت الصمت. كان كلاهما يتجنّب الخوض في الموضوعات
العاطفيّة.

أوّل محطّة توقُّف للسفينة كانت في جزيرة غوادالوبي، التابعة
لفرنسا، من أجل تزويد السفينة بالمؤن والماء؛ واصلوا الإبحار بعد

t.me/qurssan

ذلك حتّى بنما، مع توخّيهم الحذر طوال الوقت من احتمال الالتقاء بغوّاصات ألمانيّة. وتوقّفوا هناك ساعات طويلة من دون أن يدروا ما الذي يحدث، إلى أن سمعوا عبر مكبّرات الصوت أنّهم قد واجهوا مشاكل إداريّة. وقد أدّى ذلك إلى ما يشبه الثورة بين المسافرين المقتنعين بأنّ القبطان بوبين قد وجد ذريعة مناسبة للرجوع إلى فرنسا. جرى اختيار فيكتور ورجليْن آخريْن، لأنّهم معروفون بالتّجرّد والاتّزان، وكُلفوا بمهمّة التّحري عمّا يحدث والتفاوض حول حلّ مناسب. فأوضح لهم بوبين بانزعاج شديد، أنّ المسؤوليّة تقع على من نظّموا الرحلة، ذلك أنّهم لم يدفعوا الرّسوم المتوجّبة للمرور في القناة، وهو الآن يضيّع الوقت ويخسر المال في هذا الجحيم. أوَتدرون ما هي تكاليف إبقاء وينيبيغ طافية؟ ومن أجل حلّ المشكلة تطلّب الأمر خمسة أيام من الانتظار الحرج، محتَجزين في السفينة وسط حرّ كأنّه كور حدّاد، إلى أن سُمح لهم أخيرًا بالمرور ودخلوا في هَويس القناة الأوّل. راقب فيكتور وروزر والمسافرون الآخرون والبحّارة النظام المركّب الذي ينقلهم من المحيط الأطلسي إلى المحيط الهادي. لقد كانت المناورات المتّبعة أعجوبة في الدقّة، وفي حيّز شديد الإحكام، بحيث يمكن لهم تبادل الحديث مع الرجال الذين يعملون على اليابسة، على جانبيْ السّفينة. وقد تبيّن أنّ بينهم شخصيْن باسكيّيْن رحّب بهما كورال مواطنيهم الذين على متن وينيبيغ بغناء بالباسكيّة. في بنما، شعر اللّاجئون بابتعادهم النهائيّ والحاسم عن أوروبا؛ فالقناة تفصلهم عن أرضهم وعن ماضيهم.

ـ متى سنتمكّن من الرجوع إلى إسبانيا؟ توجّهت روزر بالسؤال إلى فيكتور.

ـ آمل أن يكون ذلك قريبًا، فالكوديّيو فرانكو لن يَخلُد. لكنْ كلّ شيء مرتبط بالحرب.

t.me/qurssan

ـ لماذا؟

ـ الحرب توشك أن تقع، يا روزر. وستكون حرب أيدلوجيّات ،، ادن، ستكون حربًا بين طريقتيْن في فهم العالم والحياة، حرب ،، ،مقراطيّة في مواجهة النازيّة والفاشيّة، حرب بين الحريّة والتّسلُّط.

ـ سيضع فرانكو إسبانيا إلى جانب هتلر، ومع أيّ جهة سيقف الاتّحاد السوفييتيّ؟

ـ إنّه نظام ديمقراطيّة بروليتاريّ، ولكنّني لا أثق بستالين. يمكن ،، أن يتحالف مع هتلر، ويمكن له أن يتحوّل إلى طاغية أسوأ من فرانكو.

ـ الألمان لا يُهزمون، يا فيكتور.

ـ هذا ما يُقال. يجب أن نرى ما سيحدث.

المسافرون الذين كانوا يبحرون أوّل مرّة في المحيط الهادي، ،رحئوا بتسمية ذلك المحيط، إذ ليس فيه من الهادئ سوى القليل. ،،،، وآخرون كثيرون ممّن ظنّوا أنّهم قد شُفوا من دوار البحر الأوّليّ، عادوا للوقوع مصعوقين بهول الأمواج الهائجة، ولكنْ فيكتور لم يتأثّر إلّا قليلًا، لأنّه أمضى فترة الاضطراب مشغولًا، في حُجرة الإسعاف، بولادة طفل آخر. وبعد أن تجاوزوا كولومبيا والإكوادور، دخلوا في المياه الإقليميّة للبيرو. كانت درجات الحرارة قد انخفضت، ذلك أنّهم صاروا في شتاء نصف الكرة الأرضيّة الجنوبيّ؛ ومع انتهاء الحرّ الفظيع الذي كان أسوأ ما في ذلك التّكديس في السّفينة، تحسّنت معنويّات المسافرين كثيرًا. لقد صاروا بعيدين عن الألمان، وتضاءلت احتمالات أن يبدّل القبطان بوبين وجهة السفينة. إنّهم يقتربون من وجهتهم بمزيج من الأمل والتوجّس. وكان وضعهم سببًا في مجادلات حامية في مجلس

t.me/qurssan

الشيوخ، وفي الصحافة التشيليّة، ولكنُّهم علموا كذلك أنَّ هناك خططًا لمساعدتهم في الإقامة والعمل، تضعها الحكومة، وأحزاب سياسية يسارِيَّة، ونقابات وتجمُّعات مهاجرين إسبان جاؤوا قبل زمن طويل إلى البلاد. لن يُتخلّى عنهم، ولن يُتركوا لمصيرهم.

t.me/qurssan

الفصل السادس

1939 ـ 1940

...بل هو وطننا،
وفي خدّه العاري كسكّين
احمرّ رايتنا الحسّاسة.

پابلو نيرودا
«أجل، يا رفيق، إنّها ساعة حديقة»
البحر والأجراس

t.me/qurssan

t.me/qurssan

في الأيّام الأخيرة من شهر آب/أغسطس، وصلت وينيبيغ إلى اريكا، أوّل مرفأ في شمالي تشيلي، وكان المكان مختلفًا جدًّا عن الفكرة التي لدى اللّاجئين عن بلد أميركيّ جنوبيّ: فلا شيء من الأدغال المتشابكة أو الشواطئ المتوهّجة بنخيل جوز الهند؛ إنّها أكثر شبهًا بالصحراء. قيل لهم إنّ مناخها معتدل، والمنطقة المأهولة هي الأكثر جفافًا في العالم! تمكّنوا من رؤية الشاطئ من البحر. وفي البعيد، كانت سلسلة جبال بنفسجيّة أشبه بلطخات فرشاة ألوان مائيّة على سماء صافية بلون الخُزامى. توقّفت السّفينة في أعالي البحر، وسرعان ما اقترب منها زورق فيه موظّفو هجرة، وآخرون من الإدارة القنصليّة في وزارة الخارجيّة، وصعدوا إلى السّفينة. قدّم لهم القبطان مكتبه كي يبادروا إلى إجراء مقابلات مع المسافرين، وتزويدهم بوثائق شخصيّة، وتأشيرات، وإخبارهم في أيّ مكان من البلاد ستكون إقامتهم، بحسب نوع أعمالهم. دخل فيكتور وروزر، ومارسيل بين ذراعيْها، إلى قُمرة القبطان الضيّقة، ووقفوا أمام موظّف قنصليّ شابّ، ماتاياس إيثاغيري، الذي كان يختم تأشيرة دخول على كلّ وثيقة، ويمهرها بتوقيعه.

- يقولون هنا إنّ إقامتكم ستكون في مقاطعة تالكا - أوضح لهم. هذا التّحديد للمكان الذي يجب أن تستقرّوا فيه، ليس سوى بلاهة

t.me/qurssan

من إدارة الهجرة. ففي تشيلي، ثمّة حرّيّة التّنقّل. لا تهتمّوا بهذا.اذهبوا للإقامة في أيّ مكان تشاؤون.

ـ هل حضرتك باسكيّ، أيّها السيّد؟ إنّني أسأل بسبب الكنية، سأله فيكتور.

ـ أجداد أجدادي كانوا باسكيّين. أمّا هنا، فجميعُنا تشيليّون. أهلًا بكم في تشيلي.

كان ماتياس إيثاغيرّي قد انطلق في الرّحلة إلى أريكا في القطار كي يصل إلى السفينة وينيبيغ، التي وصلت متأخّرة بضعة أيّام، بسبب مشاكل في بنما. إنّه أحد أكثر الموظّفين شبابًا في الخارجيّة، وقد وقع عليه الاختيار لمرافقة رئيسه في العمل. لم يكن أيّ منهما قد جاء راغبًا، لأنّهما كانا معارضيْن جدًّا لفكرة قبول اللّاجئين في تشيلي، هذا القطيع من الحمر، الملحدين، وربّما يكونون مجرمين أيضًا، يأتون لينتزعوا من التشيليّين مواقع عملهم في الوقت الذي تنتشر فيه بطالة خطيرة، ولم تتمكّن البلاد من استعادة وضعها الطبيعيّ من حالة الانكماش الاقتصاديّ ولا من الزلزال المدمّر؛ ولكنّهما موظّفان يؤدّيان واجبهما. في المرفأ، جعلوهما يصعدان إلى زورق متأرجح، وحملوهما في تحدٍّ للموج إلى السّفينة، حيث عليهما أن يصعدا على سلّم من الحبال تتلاعب به الرّيح. ويدفعهما من أسفل بحّارة فرنسيّون من أشدّ الناس فظاظة. وفي الأعلى، استقبلهم القبطان بوبين بزجاجة كونياك وسيجار كوبيّ. الموظّفان يعرفان أنّ بوبين قد قام بهذه الرحلة مكرهًا، وأنّه يمقت حمولته، ولكنّهما فوجئا بالرجل. فقد تبيّن أنّ بوبين، خلال شهر من تبادل الأحاديث مع الإسبان، بدأتْ آراؤه تتغيّر بشأنهم، مع انّه

t.me/qurssan

،افظ على قناعاته السياسيّة. «لقد عانى هؤلاء الناس كثيرًا أيُّها السادة.
إنهم أشخاص طيّبو الخلق، منظّمون ومحترمون، وهم آتون إلى بلادكم
مستعدّين للعمل وتحسين حياتهم»، هذا ما قاله للموظّفيْن.

يتحدَّر ماتياس إيثاغيرّي من عائلة تعتبر أرستقراطيّة، ومن أجواء
«الوليكيّة ومحافظة، وهو معارض للهجرة، ولكنّه كلّما التقى بأحد هؤلاء
اللاجئين، سواء أكانوا رجالًا أم نساءً أم أطفالًا، اكتسب رؤية مختلفة
الموضع، مثلما حدث لبوبين. فقد تربّى في مدرسة دينيّة، وعاش محتميًا
في كنف امتيازات طبقته الاجتماعيّة. جدّه وأبوه كانا قاضييْن في
المحكمة العليا، واثنان من إخوته كانا محامييْن، وهو نفسه درس الحقوق،
مثلما هو متوقَّع في أسرته، مع أنّه لم يَكُنْ قد وُلد لهذه المهنة. وصل به
الأمر إلى ارتياد الجامعة مجبرًا لمدّة سنتيْن، ثمّ دخل بعد ذلك للعمل
في وزارة الخارجيّة بفضل اتّصالات أُسرته. بدأ من أسفل السُّلَّم، وكان قد
بلغ الرابعة والعشرين عندما كُلّف بمهمّة ختم سِمات الدخول للمهاجرين
في السُّفينة وينيبيغ، وكان قد جرَّب ما يعنيه الحصول على راتب موظَّف
جيّد ودبلوماسيّ. وبعد قرابة شهرين من ذلك، سيغادر إلى باراغواي في
أوّل مهمّة دبلوماسيّة له، ويأمل أن يفعل ذلك بعد أن يكون قد تزوّج، أو
أنجز خطوبته على الأقلّ من ابنة عائلة أقرباء لهُ تُدعى أوفيليا دل سولار.

بعد إنجاز مسألة الوثائق، غادر السُّفينة قرابة اثنيْ عشر مسافرًا،
لأنَّ لهم عملًا في الشمال، ثمّ أبحرت وينيبيغ باتّجاه جنوبي تلك «البتلة
الطويلة» بحسب قول نيرودا. وعلى متن السُّفينة، كان وجوم صامت قد
بدأ يسيطر على الإسبان. في اليوم الثاني من شهر أيلول/سبتمبر، رأوا
الوجهة البحريّة لمدينة بالبارايسو، الوجهة النهائيّة للرّحلة البحريّة. وعند
الغروب، رست السّفينة أمام المرفأ. كان التلهُّف الجزع على متن السفينة

t.me/qurssan

يتبدّى في الهذيان الجماعيّ.. أكثر من ألفيْ وجه متلهّف تجمّعت على السّطح العلويّ بانتظار اللّحظة التي سيطأون فيها تلك الأرض المجهولة، لكنّ سلطات الميناء قرّرت أن يتمّ النزول إلى البرّ في اليوم التالي على ضوء الصباح، وبهدوء. آلاف الأضواء المرتجفة في المرفأ وفي البيوت على هضاب بالبارايسو العالية كانت تتنافس مع النجوم، بحيث لم يكن بالإمكان تحديد أين ينتهي ذلك الفردوس الموعود، وأين تبدأ السماء. إنّها مدينة غريبة ومستهجنة، مدينة أدراج ومصاعد وشوارع ضيّقة للبغال، وبيوت معلّقة على سفوح شبه منتصبة، ممتلئة بالقطط والكسالى، بائسة وقذرة، مدينة تجّار، وبحّارة ورذائل، مثلما هي جميع الموانئ تقريبًا، ولكنّها رائعة. بدت من السّفينة كأنّها مدينة أسطوريّة مرصّعة بألماس. لم ينم أحد في تلك اللّيلة؛ ظلّ الجميع على سطح السّفينة مبهورين إعجابًا بذلك المشهد السّحريّ وهم يعدّون الساعات. ولسوف يتذكّر فيكتور هذه اللّيلة على أنّها أجمل ليلة في حياته. وفي الصباح، رست وينيبيغ أخيرًا في تشيلي، وظهرت عليها صورة عملاقة للرّئيس بيدرو أغيرّي ثيردا مرسومة على قماش، وراية تشيليّة معلّقة على أحد جانبَي السّفينة.

لم يكن هناك في السّفينة من ينتظر الاحتضان الذي استُقبلوا به فقد جرى تحذيرهم كثيرًا من حملة التشويه اليمينيّة، ومعارضة الكنيسة الكاثوليكيّة الصارمة، وتحفّظ التشيليّين الذي يُضرب به المثل. ففي اللّحظات الأولى، لم يفهموا ما الذي يحدث في الميناء، إذ كانت الجموع المصطفّة وراء حبال الحجز تحمل لافتاتٍ وأعلامًا إسبانيّة، أعلام الجمهوريّة، والباسك، وكتالونيا، وكانوا يهتفون مرحّبين بصراخ مبحوح. كانت هناك فرقة موسيقيّة تعزف نشيدَيْ تشيلي وإسبانيا الجمهوريّة، وكذلك النّشيد الأمميّ، بمشاركة كورال من مئات الأصوات. الأغنية

t.me/qurssan

الوطنيّة التشيليّة تلخّص في سطور قليلة، وعاطفيّة بعض الشيء، الرّوح المضيافة والميل الطبيعيّ إلى الحرّيّة لدى البلد الذي يستقبلهم: «أيُّها الوطن العذب، تلقَّ العهود/التي أقسمتْ عليها تشيلي فوق مذبحك،/إمّا أن تكون قبرًا للأحرار،/أو ملاذًا من الاضطهاد والطغيان». وعلى سطح السّفينة، كان المناضلون الجُلُف الذين مرّوا بتجارب قاسية، يبكون. في الساعة التاسعة، بدأ النزول من السّفينة في رتلٍ أحاديّ على ممرّ معلّق. وفي الأسفل، مرّ كلّ لاجئ من خيمة الرعاية الصحّيّة ليتلقى لقاحًا، ثمّ يرتمي بين ذراعيْ تشيلي، مثلما سيُعبّر عن ذلك بعد سنوات فيكتور دالماو، عندما تمكّن من تقديم الشكر شخصيًّا لپابلو نيرودا.

في ذلك الثالث من أيلول/سبتمبر 1939، اليوم المشرق الذي وصل فيه المنفيّون الإسبان إلى تشيلي، اندلعت الحرب العالميّة الثانية في أوروبا.

كان فيليبه دل سولار قد قام بالرّحلة إلى ميناء بالبارايسو في اليوم السّابق لوصول وينيبيغ، لأنّه يرغب في حضور ذلك الحدث التاريخيّ، كما كان يَصِفه. فبحسب رأي أصحابه في نادي *الغاضبين*، وهو رأي شديد المبالغة: يقولون فيه إنّ حماسته للّاجئين لم تكن تستند إلى طيبة قلبه، بقدر استنادها إلى رغبته في مخالفة موقف أبيه وعائلته. أمضى شطرًا لا بأس به من اليوم في مصافحة القادمين الجُدد. مختلطًا بالناس الذين ذهبوا لاستقبالهم، وتبادل الحديث مع من وجدوه هناك من معارفه. بين الحشود المتحمّسة في الميناء، كانت تتواجد سلطات حكوميّة، وممثّلون للعمّال والجاليتيْن الكتلانيّة والباسكيّة الذين كان على تواصل معهم خلال الأشهر الأخيرة، من أجل التّحضير لوصول وينيبيغ، وقد حضر إلى هناك أيضًا فنّانون ومثقّفون وسياسيّون. من بينهم طبيب من بالبارايسو يُدعى

t.me/qurssan

سلفادور ألليندي، هو قائد اشتراكيّ عُيِّن بعد أيّام من ذلك وزيرًا للصّحّ،
وبعد ثلاثين سنة أخرى سيكون رئيسًا لتشيلي. وعلى الرّغم من صه
سنّه، كان شخصيّة بارزة في الأوساط السياسيّة، يقدّره البعض ويعارض
آخرون، ولكنّه محترم من الجميع. وكان قد شارك أكثر من مرّة في لقاءا
الغاضبين، وعندما تعرّف على فيليبه دل سولار بين الحشد، حيّاه من بعيد

كان فيليبه قد حصل على دعوة للصّعود إلى القطار الخاص الذي نقل المسافرين من بالبارايسو إلى سنتياغو. وهناك توافرت له عدّة ساعات ليحصل على معلومات ساخنة حول ما جرى في إسبانيا، إذ لم تكن تُعرف من خلال الصحافة سوى شهادات أشخاص قليلين، مثل پابلو نيرودا. فمن تشيلي، كانت الحرب الأهليّة الإسبانيّة حدثًا نائيًا جدًّا، كما لو أنّه قد حدث في عصر آخر. كان القطار يتقدّم من دون توقُّف، ولكنّه يمرّ ببطء شديد أمام محطّات القرى التي على الطريق، ففي كلّ قرية، هناك حشدٌ يحيّي القادمين الجُدد برايات وأغنيات وشطائر وحلويّات، يقدّمونها من خلال النوافذ وهم يركضون إلى جانب العربات. في العاصمة سنتياغو، كانت تنتظرهم في المحطّة حشود ضخمة، وازدحام يجعل المشي أمرًا مستحيلًا؛ كان هناك أشخاص قد تسلّقوا الأعمدة، أو آخرون يتعلّقون على دعائم ويحيّون صارخين، يغنّون ويرمون أزهارًا في الهواء. فكان على رجال الدرك أن يتدخّلوا لإخراج الإسبان من المحطّة، وأخْذهم إلى العشاء، حيث قُدّمت تشكيلة مأكولات تشيليّة وافرة، أعدّتها لهم لجنة الاستقبال.

في القطار، كان فيليبه دل سولار قد سمع قصصًا مختلفة، يربطها بينها خيط النكبة المشترك. انتهى به المطاف إلى الوقوف بين عربتين ليدخّن مع فيكتور دالماو الذي قدّم له رؤيته للحرب، ابتداءً من الدم وحتّى الموت في مراكز الإسعاف الأوّلي والمستشفيات الميدانيّة.

t.me/qurssan

ـ ما عانيناه في إسبانيا هو عيّنة صغيرة لما سيعانونه الآن في أوروبا، ا ‌ى فيكتور إلى القول. لقد جرّب الألمان أسلحتهم بنا، خلّفوا قرى ا،ملها وقد تحوّلت إلى أنقاض. سيكون الوضع أسوأ في أوروبا.

ـ في الوقت الحالي، لا يقف في مواجهة هتلر سوى إنكلترا وفرنسا، ولكنّهما تعتمدان بكلّ تأكيد على حلفاء آخرين. سيكون على الأميركيّين أن يتّخذوا موقفًا ـ قال فيليبه.

ـ وماذا سيكون موقف تشيلي؟ سألته روزر، وكانت قد اقتربت حاملة طفلها على ظهرها في الجعبة نفسها التي استخدمتها طوال أشهر.

ـ هذه روزر، امرأتي، قدّمها فيكتور.

ـ تشرّفت، يا سيّدتي. اسمي فيليبه دل سولار، في خدمتكِ. لقد حدّثني زوجك عنكِ. حضرتكِ عازفة بيانو، أليس كذلك؟

ـ أجل. عاملْني من دون تكلُّف، أرجوك، قالت روزر، وكرّرت عليه السؤال.

حدّثها فيليبه عن حجم الجالية الألمانيّة الكبير، والمستقرّة في البلاد منذ عدّة عقود، وذكر النازيّين التشيليّين، ولكنّه أضاف أنّه ليس هناك ما يُخيف. فتشيلي ستبقى على الحياد بكلّ تأكيد خلال الحرب. ،قاسم معهما قائمة الصناعيّين ورجال الأعمال الرّاغبين بتوفير عمل لبعض الإسبان، بما يتّفق مع مهاراتهم، ولكنْ لم تكن أيّ واحدة من تلك الوظائف مناسبة لفيكتور. ولا يُمكنه أن يعمل في العمل الوحيد الذي يعرفه من دون أن تكون لديْه شهادة طبيب. نصحه فيليبه بالتّسجيل في جامعة تشيلي، فهي جامعة مجّانيّة ومشهورة جدًّا، ويمكنه أن يدرس هناك الطبّ. وربّما يعترفون له بما درسه سابقًا في برشلونة، وبالمعارف المكتسبة خلال الحرب.. ومع ذلك، سيحتاج إلى سنوات من الدراسة للحصول على الشهادة.

t.me/qurssan

ـ المهمّ أوّلًا هو كسب العيش، ردّ عليه فيكتور. سأحاول الحصول على عمل ليليّ كي أدرس في النهار.

ـ وأنا أيضًا بحاجة إلى عمل، قالت روزر.

ـ بالنّسبة إليكِ، سيكون الأمر سهلًا. فنحن بحاجة على الدوام إلى عازفي وعازفات بيانو في هذه الأنحاء.

ـ هذا ما قاله نيرودا، أضاف فيكتور.

ـ في الوقت الحالي، ستأتيان للإقامة في بيتي، قرّر فيليبه.

كانت لديْه غرفتان شاغرتان، وقد استبق وصول وينيبغ بالتعاقد مع عاملَيْن منزليَّيْن إضافيَّيْن؛ كانت لديْه طاهية وموظّفتان منزليّتان؛ وهكذا، يتجنَّب المزيد من المشاكل مع خوانا. مفاتيح الغرف الشاغرة في بيت أبويْه التي لم تكن المرأة الطيّبة تفلتها. كانت السّبب الوحيد للشجار بينهما طوال بضع وعشرين سنة، ولكنّهما كانا متحابيْن كثيرًا إلى حدٍّ لا يسمحان معه لمثل هذا الأمر بأن يفرّق بينهما. عندما وصلت برقيّة أبيه من باريس، موضحًا فيها أنّه لا يُمكن ولو لأحمر واحد أن يدخل بيته، كان فيليبه قد قرّر ترتيب أموره من أجل استقبال بعض الإسبان تحت سقفه. وقد بدت له أُسرة الزّوجيْن دالماو مثاليّة.

ـ أشكركَ جزيل الشكر، ولكنّني علمتُ أنّ لجنة اللّاجئين قد حصلت لنا على مأوى في بنسيون، وأنّهم سيتولّوْن دفع نفقات الإيجار خلال الأشهر السّتّة الأولى، قال فيكتور.

ـ لديَّ بيانو، وأنا أقضي اليوم في مكتبي. ويمكن لكِ يا روزر أن تعزفي عندما تشائين من دون أن يُزعجك أحد!

t.me/qurssan

كانت هذه حجّة حاسمة. البيت القائم في حيٍّ بدا للضيفيْن أنّه من مترفين، وكأحد أفضل أحياء برشلونة، كان بيتًا أنيقًا من الخارج، وشبه خاوٍ من الداخل، لأنّ فيليبه لم يشترِ سوى الأثاث الضروريّ الذي لا غِنَى عنه؛ فهو يمقت أسلوب أبويْه في التّدقيق بكلّ شيء. لا وجود لستائر على النوافذ ذات الزجاج المشدوف، ولا لسجاجيد على الأرضيّة الخشبيّة، ولا مزهريّة أو أيّة نبتة زينة مرئيّة، والجدران كلّها عارية؛ ولكنْ على الرّغم من ضآلة الديكور، كانت هناك أجواء لا شكّ في ترفها المرهف. قدّم لهما حُجرتَيْن وحمّامًا، مع خدمة إحدى العاملات التي خصّها فيليبه بدور المربّية للطفل. فهكذا، سيكون لدى الصّغير مارسيل من يعتني به خلال ذهاب أبويْه إلى العمل.

بعد يوميْن اثنيْن من ذلك، رافق فيليبه روزر إلى محطّة إذاعة، يديرها صديق له. وفي ذلك المساء بالذات، أجلسوها قبالة بيانو لترافق أحد البرامج. وبينما هي تعزف، تحدّثوا عن موهبتها في العزف وقدراتها كمعلّمة موسيقى، وعن أنّها لن تفتقر أبدًا إلى فرص عمل. وحصل فيكتور على عمل في بار نادي الفروسيّة بالوسيلة التقليديّة نفسها بين المعارف، حيث تعتبر المزايا والقدرات أقلّ أهمّيّة من التوصية. وكانت ورديّة عمله من السّاعة السّابعة مساءً حتّى الثانية بعد منتصف اللّيل؛ وهذا يتيح له متابعة الدراسة فور تمكّنه من التّسجيل في كلّيّة الطبّ، وهو ما سيكون سهلًا جدًّا بحسب رأي فيليبه، لأنّ عميد الكلّيّة من أقرباء عائلة أمّه، آل بيثكارّا.

بدأ فيكتور بحمل صناديق البيرة وغسل الكؤوس، إلى أن تعلّم التّمييز بين أنواع الأنبذة، وكيفيّة تحضير الكوكتيلات. عندئذٍ، وضعوه وراء منضدة الكونتوار، حيث عليه المثول ببدلة سوداء،

t.me/qurssan

وقميص أبيض وربطة عنق على شكل فراشة. لم يكن لديْه سوى غيار ملابس داخليّة واحد، والبدلة التي اشتراها بنقود آيتور إيبارّا عند هروبه من مخيّم أرجيليه ـ سور مار، ولكنّ فيليبه وضع خزانة ملابسه كلّها تحت تصرّفه.

تحمّلت خوانا نانكوتشيو أسبوعًا واحدًا من دون السؤال عمّن يكون هؤلاء الذين آواهم فيليبه في بيته! إلّا أنّ الفضول صار أقوى من عزّة النّفس، فحملت صينيّة لحم دجاج خارجة لتوّها من الفرن، وذهبت تتشمّم وتستطلع. فتحت لها الباب الخادمة الجديدة وهي تحمل طفلًا بين ذراعيْها. وقالت لها: «السادة غير موجودين». فأزاحتها خوانا جانبًا بدفعة واحدة ودخلت بخطوات واسعة. فتّشت كلّ شيء من أعلى إلى أسفل، وتأكّد لها أنّ أولئك «الحمر»، كما يسمّيهم دون إيسيدرو، كانوا نظيفين ومرتّبين بما يكفي؛ رفعت أغطية قدور المطبخ، وأعطت تعليمات لمربّية الطفل، وقدّرت أنّها صغيرة جدًّا ولها وجه بلهاء: «أين تمضي متسكّعة أمّ هذا الطفل؟ أمر لائق جدًّا إنجاب أبناء وتركهم مهملين. إنّه لطيف، هذا الصّغير مارسيل، لا يُمكن إنكار ذلك. عينان واسعتان، سمين وغير خوّاف، لقد ألقى بذراعيْه حول عنقي، وتعلّق بجديلة شعري»، هذا ما قالته فيما بعد لفيليبه.

في يوم الرابع من أيلول/سبتمبر، بباريس، كان إيسيدرو دل سولار يهيّئ امرأته كي يُخبرها بقراره حول مدرسة الآنسات في لندن، حيث كان قد سجّل أوفيليا، عندما فاجأهم خبر أنّ الحرب قد بدأت. كان النزاع الحربيّ متوقّعًا منذ عدّة شهور، ولكنّ إيسيدرو كان قد دبّر أموره لاستبعاد الهلع الجماعيّ، لأنّه يشوّش عليه إجازته. الصحافة تبالغ. العالم كان على الدوام على حافّة مشكلة حربيّة، فما الحاجة

t.me/qurssan

إلى الشعور بالغمّ لمثل هذا الأمر! ولكنْ كان يكفيه الإطلال من باب غرفته كي يُدرك خطورة ما يحدث. فقد واجهه نشاطٌ محموم، كان موظّفو الفندق يتراكضون حاملين حقائب وصناديق، بينما النُزلاء يتدافعون: السيّدات يحملن كلابهنّ المدلَّلة، والسّادة يتشاجرون على سيّارات الأجرة المتوافرة، والأطفال يبكون مشوَّشين. وفي الشارع كان يسود كذلك اضطراب وفوضى معركة: نصف المدينة يحاول الهروب إلى الرّيف ريثما تتّضح الأمور. كانت حركة المرور متوقّفة بسبب ازدحام وتشابك السيّارات المحمَّلة بحِزَم أمتعة حتّى السقف، وتحاول التُقدُّم بين مشاة متعجّلين، ويُسمع دويّ تعليمات حاسمة من مكبّرات صوت، وحرّاس خيّالة يحاولون الحفاظ على النظام. فكان لا بدَّ لإيسيدرو دل سولار من تَقبُّل أنَّ خططه بالعودة إلى لندن بطمأنينة، وإخراج السيّارة الأحدث موديلًا التي كان قد اشتراها لينقلها إلى تشيلي، ويبحر في السّفينة *ملكة الباسفيك*، قد ذهبت كلُّها إلى الشيطان. وصار عليه أن يغادر أوروبا بأقصى سرعة. اتّصل بسفير تشيلي في فرنسا.

مرّت ثلاثة أيّام غمّ، قبل أن تتمكّن المفوّضيّة التشيليّة من الحصول له على تذاكر سفر في آخر سفينة تشيليّة متوافرة، وهي سفينة شحن ممتلئة إلى حدّ الاكتظاظ بثلاثمئة مسافر، حيث يسافر في العادة خمسون شخصًا. ومن أجل إيجاد مكان لآل دل سولار، كانوا على وشك إنزال أسرة يهوديّة من السّفينة، كانت قد اشترت تذاكرها، ورشت قنصلًا تشيليًا بمجوهرات إحدى الجدّات من أجل الحصول على التأشيرات. ولكنْ حدث أنّه لم يَعُد يُسمح بصعود يهود، وإلّا ستُعاد السُّفن التي هم فيها إلى نقطة انطلاقها، إذ لا وجود لأيّ بلد يتقبّلهم. تلك العائلة، مثل عدّة عائلات أخرى بين المسافرين، كانوا قد خرجوا

t.me/qurssan

من ألمانيا بعد أن عانوا مضايقات رهيبة، وحُرموا من حمل أيّة مقتنيات ثمينة. لقد كان الابتعاد عن أوروبا، بالنّسبة إليهم، مسألة حياة أو موت. وقد سمعتهم أوفيليا يتوسّلون إلى القبطان، فبادرت إلى التنازل لهم عن كبينتها من دون أن تناقش الأمر مع أبويْها، مع أنَّ ذلك يعني أن تتقاسم سريرًا ضيّقًا مع أمّها. «في أزمنة الأزمات لا بدَّ من التأقلم»، هذا ما قاله إيسيدرو، ولكنّه كانَ غير مرتاح بخليط أناس من أجناس مختلفة، من ضمنهم قرابة ستّين يهوديًا، والطعام السيّئ المؤلّف من الرزّ والمزيد من الرزّ، وعدم توافر الماء للاستحمام، والخوف من الإبحار في الظلام للتّخفّي عن الطائرات. فكان يقول: «لا أدري كيف سنتحمّل البقاء شهرًا في الزحام مثل السردين في هذا الهيكل الحديديّ الصدئ!» بينما كانت امرأته تصلّي، وابنته تشغل نفسها بتسلية الأطفال ورسم صور ومشاهد ممّا يدور على متن السفينة. وسرعان ما أقدمت أوفيليا، بوحيٍ من كرم أخيها فيليبه الذي يُضرب به المثل، على توزيع جزء من ملابسها على اليهود الذين صعدوا إلى السُّفينة وليس لديْهم سوى ما يلبسونه. «لقد أنفقنا الكثير في المتاجر لتقوم هذه الصّغيرة بتوزيع ما اشتريناه! ولحسن الحظّ أنَّ جهازها كعروس موجود في الصناديق المحفوظة في مستودع السفينة»، غمغم إيسيدرو متفاجئًا بتصرُّف ابنته التي تبدو شديدة الطيش والاستهتار. بعد شهور من ذلك، ستعلم أوفيليا أنَّ الحرب العالميّة الثانية قد أنقذتها من مدرسة الأنسات اللندنيّة.

الإبحار في الأزمنة العاديّة يستمرّ ثمانية وعشرين يومًا، ولكنّه تحقّق بأقصى طاقة المحرّكات في اثنيْن وعشرين يومًا، مع تجاوز ألغام طافية، وتفادي البوارج الحربيّة لكِلا الجانبيْن المتحاربيْن. لقد كانوا نظريًّا بمنجى من الحرب، لأنّهم يسافرون تحت راية تشيلي المحايدة، ولكن يمكن عمليًّا

t.me/qurssan

ا، بحدث سوء تفاهم مأساويّ ينتهي بإغراق السفينة على يد الألمان، او على يد الحلفاء. وفي قناة بنما، شهدوا إجراءات حماية استثنائيّة ضدّ أعمال التخريب، وشبكات الخطف، وعمليّات غوص لالتقاط قنابل محتملة . روكة في أهوسة القناة. بالنّسبة إلى كلٍّ من لورا وإيسيدرو دل سولار، كان الحرّ والبرغش عذابًا حقيقيًّا، وانعدام الراحة ساحقًا، وغمّ الحرب يُبقيهما ،معدة مكبّلة. أمّا أوفيليا، فكانت تلك التجربة أكثر تسلية لها من الرحلة في ملكة *الباسفيك*، بهوائها المكيّف ومجون الشوكولاتة فيها.

كان فيليبه بانتظارهم في بالبارايسو بسيّارته وشاحنة مستأجرة، يقودها سائق الأُسرة، من أجل نقل الأمتعة. أخته التي كانت تبدو له ،وما زنخة الطبع وشاذّة المظهر، فاجأته هذه المرّة. وبدت له أكبر وأكثر حدّيّة، فقد طال جسدها، وبرزت تقاطيعها وملامحها؛ لم تَعُد تلك البنت التي لها وجه الدمية الذي كانت عليه، بل هي شابّة مثيرة للاهتمام. ولو لم تكن أخته لقال إنّ أوفيليا جميلة جدًّا. ماتياس إيثاغيرّي كان في المرفأ أيضًا، مع سيّارته، وكان يحمل باقة ورود لخطيبته الكارهة. وقد اندهش، مثل فيليبه، لرؤيته أوفيليا. فهي جذّابة على الدوام، ولكنّها تبدو له الآن أكثر فتنة، وداهمته شكوك فظيعة بأنّ شخصًا آخر أكثر منه ذكاء أو ثراء سينتزعها منه. قرّر أن يستبق مخطّطاته. سيطلعها فورًا على خبر مهمّته الدبلوماسيّة الأولى، وأنّهما سيكونان عمّا قريب وحدهما، وسيقدّم لها خاتم الألماس الذي كان لجدّة جدّته. أحسّ بعَرَق عصبيّ يبلّل قميصه، من يدري كيف سيكون ردّ فعل هذه الشابّة متقلّبة الأطوار بمسألة الزواج والعيش في الباراغواي!

مرّت قافلة السيّارتيْن والشاحنة وسط جماعة من قرابة عشرين شابًا يحملون صلبانًا معقوفة، ويحتجّون ضدّ اليهود الذين يسافرون

t.me/qurssan

في السّفينة، ويصرخون شاتمين من جاؤوا لاستقبالهم. «يا للناس المساكين، يأتون هاربين من ألمانيا.. وانظروا كيف يستقبلونهم هنا!» علّقت أوفيليا. فطمأنها ماتياس: «لا تهتمّي بهذا الأمر، سيتولّى رجال الدرك تفريقهم».

في الرّحلة إلى سنتياغو، أربع ساعات في طريق متعرّج وغير مرصوف، يمضي فيليبه بأبويْه في إحدى السيّارتيْن، وقد وجد الوقت ليروي لهما كيف بدأ الإسبانيّون بالتأقلم بصورة رائعة، وخلال أقلّ من شهر كان معظمهم قد استقرّوا، وبدأوا يعملون. وكيف أنّ عائلات تشيلية كثيرة قد استضافتهم؛ وبدا مخزيًا أن يكون لدينا بيت كبير فيه نصف دزينة من الغرف الخاوية، ولا نفعل ذلك. «أعرف أنّك قد أدخلت بعض الملحدين الشيوعيّين إلى بيتك. سوف تندم على ذلك»، نبّهه إيسيدرو فأوضح له فيليبه أنّ لا شيء من الشيوعيّين، ربّما يكونون فوضويّين، أمّا بشأن كونهم ملحدين، فلا بدّ من التّحري عن ذلك. حدّثهم عن الزوجيْن دالماو، وكيف أنّهما محترمان ومثقّفان، وعن الطفل الذي وقع في حبّ خوانا. كان إيسيدرو ولورا قد عرفا أنّ خوانا نانكوتشيو الوفيّة قد خانتهما، وأنّها تذهب يوميًا لرؤية الطفل مارسيل، وتشرف على طعامه والخروج به إلى الحديقة العامّة لتعريضه للشمس مع ليوناردو، نظرًا لأنّ الأمّ تبقى في الشوارع، على حدّ قولها، ولا تتواجد أبدًا في البيت بسبب البيانو، بينما الأب يعيش محشورًا في بار. بدا لفيليبه مدهشًا أن يكون أبواه قد حصلا على كلّ هذه المعلومات وهم في أعالي البحار.

في شهر كانون الأول/ديسمبر، سافر ماتياس إيثاغيرّي إلى باراغواي للعمل تحت إمرة سفير مستبدّ في معاملة مرؤوسيه، ومتذلّل مع من هم أعلى منه في السُّلّم الاجتماعيّ. وقد كان ماتياس في هذه المرتبة الاجتماعيّة

t.me/qurssan

ا٠الـ. ذهب وحيدًا، لأنَّ أوفيليا رفضت الخاتم بحجَّة أنَّها قد عاهدت أباها
ا،، البقاء عازبة حتَّى بلوغها الحادية والعشرين. كان ماتياس يعرف أنَّها
ا، أرادت الزواج، فليس بإمكان أحد أن يمنعها من ذلك! ولكنَّه استسلم
ا،ـنظار، مع المجازفة بما يقتضيه ذلك. لقد كان لدى أوفيليا فائض من
ا،محبين، لكنَّ حمويْه المستقبليَّيْن أكَّدا له أنَّها ستكون في رعاية حذرة
.ا. «أعطِ الصُغيرة وقتًا، يا ماتياس، إنَّها لا تزال غير ناضجة. سوف أصلِّي
،، أجلكما، كي تتزوَّجا وتكونان سعيدَيْن»، هذا ما وعدته به دونيا لورا.
، ١ان ماتياس يفكِّر في إغواء أوفيليا بصورة نهائيَّة عن بُعد، وعبر مراسلات
، واصلة. فيضان من رسائل الحبّ، فمن أجل هذا وُجدت خدمة البريد،
،م قادر على أن يكون أكثر فصاحة وبراعة في الكتابة ممَّا هو عليه في
ا خلُم. لا بدَّ من الصبر. إنَّه يحبّ أوفيليا مذ كانا صغيرَيْن، فقد ولدا ليكون
:لٌ منهما للآخر، وليس لديْه أدنى شكّ في ذلك.

قبل أيَّام من أعياد الميلاد، أمر إيسيدرو دل سولار بإحضار
حنوص من الريف لم يتغذَ إلَّا على الحليب، مثلما يفعل كلَّ عام في هذه
المناسبة، وتعاقد مع جزَّار لتقطيعه في الفِناء الثالث للبيت، بعيدًا عن
ظر كلٍّ من لورا وأوفيليا والطفل. وقد أشرفت خوانا على تحوُّل الحيوان
المسكين إلى لحم شواء ونقانق وشرائح، وجامبون وشحم مذاب. فقد
١ان إيسيدرو هو من سيتولَّى موضوع عشاء يوم 24 كانون الأوَّل/ديسمبر،
حيث تجتمع الأسرة الموسَّعة كلُّها، ولإقامة مغارة ميلاد في المدفأة مع
ـمى من الجبس جيء بها من إيطاليا. وفي وقت مبكِّر من الصباح، حين
ذهبت خوانا حاملة القهوة لسيِّدها في المكتبة، وقفت جامدة أمامه.

ـ هل حدث شيء، يا خوانا؟

ـ أنا أرى أنَّه يجب دعوة شيوعيِّي الطفل فيليبه.

t.me/qurssan

رفع إيسيدرو دل سولار نظره عن الجريدة، وظلَّ ينظر إليها -الرا

- أقول هذا من أجل مارسيل الصَّغير، قالت خوانا.

- من؟

- حضرتك تعرف عمَّن أتكلَّم، أيُّها السيِّد. إنَّه الطفل، ابن الشيوعيي

- الشيوعيُّون لا يهتمُّون بعيد الميلاد، يا خوانا. فهم لا يؤمنو بالربِّ أصلًا، ولا يعيرون أيَّ اهتمام للطفل يسوع.

كتمت خوانا صرخة مفاجئة، ورسمت إشارة الصليب. كان فيليبه قد شرح لها كومة من بلاهات الشيوعيِّين عن المساواة والصراع الطبقي ولكنَّها لم تسمع من قبل عن أحد لا يؤمن بالربِّ، ولا يهتمّ بالطفل يسوع وقد احتاجت لدقيقة كاملة كي تتمكَّن من استعادة القدرة على الكلام

- لا بدَّ أنَّ الأمر كما تقول، أيُّها السيِّد، ولكن ليس للصَّغير أيّ ذن في ذلك. وأنا أفكِّر بأنَّه لا بدَّ من دعوتهم لتناول العشاء هنا في ليلة الميلا لقد قلت هذا لصغيري فيليبه، وهو موافق. وكذلك السيِّدة لورا وأوفيليا.

وهكذا، كان أن أمضى آل دالماو أوَّل عيد ميلاد لهم في تشيلي مع آل دل سولار مجتمعين كلُّهم معًا. ارتدت روزر الثوبَ نفسَه الذي خاطته من أجل زفافها في بيربينيان، ثوبًا أزرق غامقًا مع تطبيقات أزهار بيضاء في العنق، وجمعت شعرها عند قذالها بشبكة سوداء مطرَّزة، وبروش من السبج الأسود، كانت قد أهدتها إيَّاه كارمي حين علمت أنَّها تنتظر مولد ابن لوليام. «لقد صرتِ كنَّتي، وهذا لا يتطلَّب أوراقًا ثبوتيَّة»، قالت لها. وارتدى فيكتور واحدة من بدلات فيليبه، وكانت واسعة عليه بعض الشيء، وقصيرة قليلًا في الساقيْن. وعندما وصلا إلى البيت في شارع مار ديلا بلاتا، استحوذت خوانا على مارسيل الصَّغير، وحملته للعب مع

t.me/qurssan

..دو، بينما كان فيليبه يدفع الزوجيْن دالماو إلى الصالون من أجل
..ارف الذي لا بدَّ منه. كان قد أخبرهم أنَّ الطبقات الاجتماعيَّة في
..الي أشبه بقالب حلوى من ألف طبقة رقيقة، ومن السَّهل الانحدار
..و الأسفل، ولكنْ من شبه المستحيل الصعود، لأنَّه لا يمكن للنقود أن
..ري حَسبًا ونَسبًا. والاستثناءات الوحيدة تعتمد على الموهبة، مثلما
..ي حال پابلو نيرودا، وعلى الجمال لدى بعض النساء. وقد كانت هذه
..ي حالة جدَّة أوفيليا، وهي ابنة تاجر إنكليزيّ متواضع، وفاتنة بهيئة مِلكةٍ
..لوكها، وقد جاءت لتحسين السلالة مثلما يقول المتحدِّرون منها، من
.. بيكارًا. ولو كان آل دالماو تشيليِّين، لما أتيح لهم بأيِّ حال أن يُدْعَوا
..إلى مائدة آل دل سولار، ولكنَّهم كغرباء أجانب، فإنَّهم يطفون حاليًا
.. ذلك النعيم. وإذا ما سارت أمورهم على ما يرام، فسوف ينتهي بهم
..طاف إلى واحدة من التَّصنيفات الفرعيَّة المتعدِّدة للطبقة الوسطى.
..ان فيليبه قد نبَّههم إلى أنَّهم سيكونون في بيت أسرته عرضة لأن يجري
..فحصهم، وكأنَّهم ضواري سيرك، من قبل أناس محافظين، متديِّنين وغير
..سامحين، ولكن ما إن يتمّ تجاوز ذلك الفضول الأوَّليّ حتّى يجري
احتضانهم بكرم الضيافة التشيليّ الإجباريّ. وهذا ما حدث. لم يسألهم
أحد عن الحرب الأهليَّة ولا عن أسباب الهجرة، بسبب الجهل من ناحية
فهم بحسب رأي فيليبه، يكادون لا يقرأون سوى صفحات الأخبار
الاجتماعيَّة في جريدة «الميركوريو»، ولكن بدافع اللُّطف أيضًا؛ لأنَّهم
لا يريدون إزعاجهم. وبصورة مباغتة، عاد إلى فيكتور حياء أيَّام مراهقته،
وكان يظنّ أنَّه قد تجاوزه، وظلَّ واقفًا في أحد أركان الصالون الفرنسيّ،
بين كرسيَّيْن من طراز لويس الخامس عشر وبغطاء تنجيد من حرير بلون
الطُّحلب، صامتًا أو يرد بأقلّ ما يُمكن من الكلام. أمَّا روزر بالمقابل،

t.me/qurssan

فكانت منطلقة على هواها، ولم تكن بحاجة إلى أن يتوسّلوا إليها كي تعزف ألحان أغنيات مرحة على البيانو، ورافقها ككورال عدّة أشخاص ممّن كانوا قد تناولوا كأسًا أكثر ممّا يجب.

أشدّ الحضور انبهارًا بالزوجيْن دالماو هي أوفيليا. فالقليل الذي كانت تعرفه عنهما وصل إليها من خلال تعليقات خوانا، فكانت تتخيّلهما كما لو أنّهما موظّفان سوفييتيّان كئيبان، بالرّغم من أنّ ماتياس قد حدّثها عن تجربته الطيّبة مع الإسبان عمومًا، عندما ختم لهم تأشيرات الدخول في السفينة وينيبيغ. كانت روزر شابّة تشعّ طمأنينة، بلا أيّ أثر من التفاهة أو الوصوليّة. وقد أوضحت لكورال من السيّدات، جميعهن يلبسن السّواد مع عقد من اللؤلؤ، وهو زيّ التشيليّات المتميّزات، أوضحت لهنّ أنّها كانت راعية ماعز، وخبّازة وخيّاطة، قبل أن تبدأ بكسب عيشها من البيانو. قالت ذلك بتلقائيّة احتُفي بها كما لو أنّها مارست تلك الأعمال مدفوعة بنزوة طارئة. جلست بعد ذلك إلى البيانو، وانتهى بها الأمر إلى إغوائهنّ. أحسّت أوفيليا بمزيج من الحسد والخجل لدى مقارنتها حياتها كآنسة جاهلة ومتكاسلة بحياة روزر التي لم تكن أكبر منها إلّا بنحو سنتيْن، بحسب ما قاله لها فيليبه، ولكنّها عاشت ثلاث حيوات. إنّها آتية من الفقر، ونجت من حرب خاسرة، وعانت أحزان المنفى وآلامه، وهي أمّ وزوجة، اجتازت البحار ووصلت إلى أرض غريبة، بيد من أمام ويدٍ من وراء، من دون خوف من أيّ شيء. أرادت أن تكون محترمة وقويّة وشجاعة، أرادت أن تكون هي نفسها. وكما لو أنّ روزر قد عرفت ما تفكّر فيه، فاقتربت منها وبقيتا معًا لبعض الوقت، تدخّنان على الشرفة لتهربا من الحرّ. فبالنّسبة إلى روزر، بدا من غير المفهوم لها هذا الاحتفال بعيد الميلاد في أوج الصيف. وفوجئت أوفيليا بأنّها تعترف

t.me/qurssan

ا.. المرأة المجهولة بحلمها في الذهاب إلى باريس أو بوينس آيرس
... رغ للرسم، وكيف أنَّ ذلك يبدو جنونًا، لأنَّها خُلقت لسوء الحظّ
... أة، أسيرة عائلتها، والقناعات الاجتماعيَّة السَّائدة. ثمَّ أضافت بتقطيبة
... حرة، كي تخفي رغبتها في البكاء، أنَّ العقبة الأسوأ هي التبعيَّة: لن
... دون بإمكانها أبدًا أن تكسب عيشها من الفنّ. «إذا كانت لديْك ميول
... مهنيَّة إلى الرَّسم، فسوف تبدأين الرَّسم عاجلًا أو آجلًا، ومن الأفضل
أن يكون عاجلًا. ولماذا يجب أن يكون ذلك في باريس أو بوينس آيرس؟
... ا تحتاجين إليه هو الانضباط وحسب. الرَّسم مثل البيانو، أتدرين؟
... ادرًا ما يوفِّر ما يكفي للعيش، ولكنْ لا بدَّ من المحاولة»، قالت لها روزر.

خلال تلك اللَّيلة، شعرت أوفيليا عدَّة مرَّات بنظرة فيكتور دالماو ... باشرة تلاحقها عبر الصالون، ولكنَّه ظلَّ واقفًا في ركنه من دون أن ... ي ما يشير إلى أنَّه سيقترب، فهمست لأخيها فيليبه أن يقدِّمه لها.

ـ هذا صديقي فيكتور، من برشلونة. كان مع الميليشيا خلال الحرب الأهليَّة.

ـ الحقيقة أنَّني كنت مساعد طبيب، ولم أطلق النار من أيِّ سلاح، أوضح فيكتور.

ـ ميليشياويّ؟ سألت أوفيليا التي لم تكن قد سمعت هذه الكلمة قطّ من قبل.

ـ هكذا كان يسمَّى المقاتلون قبل إلحاقهم بالجيش النظاميّ، أوضح لها فيكتور.

تركهما فيليبه وحدهما؛ وظلَّت أوفيليا لبعض الوقت مع فيكتور، محاولة البدء بحديث من دون أن تجد موضوعًا مشتركًا، وبلا أيّ صدى

t.me/qurssan

من جانبه. سألته عن البار، لأنّ خوانا كانت قد ذكرت ذلك؛ وبجرجرته إلى الكلام، تمكّنت من معرفة أنّه يريد إنهاء دراسة الطبّ التي بدأها في إسبانيا. وأخيرًا، ضاقت ذرعًا من وقفات الصمت الطويلة، فابتعدت وتركته وحيدًا. وعادت تفاجئه وهو يراقبها وقد أزعجتها جرأته قليلًا، مع أنّها كانت تدرسه خفية، وبدت مفتونة بذلك الوجه الزاهد ذي الأنف الصقريّ والوجنتيْن المنحوتتيْن، واليديْن العصبيّتيْن وأصابعهما الطويلة، وذلك الجسد النّحيل والصّلب. يروق لها أن ترسمه، أن ترسم له صورة بضربات قلم رصاص سوداء وبيضاء، مع خلفيّة رماديّة، صورة من المقاس الكبير مع بندقيّة بين يديْه أو بصدره العاري. اكتسى وجهها بحُمرة الخجل من هذه الفكرة؛ لم ترسم أحدًا عاريًا من قبل، والقليل الذي تعرفه عن تشريح الجسد الذكوريّ تعلّمته في المتاحف الأوروبيّة، حيث معظم التماثيل مبتورة أو مغطّاة بورقة دالية عنب. أشدُّها جرأة تبدو مخيّبة للأمل، مثل تمثال *داوود* لمايكل أنجلو، بيده الضخمة جدًّا و«حمامته» الطفليّة. لم تكن قد رأت ماتياس عاريًا، ولكنّهما كانا قد تبادلا ما يكفي من المداعبات لتعرف ما الذي يخفيه بنطاله. إذ لا بدّ من الرؤية من أجل الحكم. لماذا يعرج هذا الإسبانيّ؟ يمكن أن يكون السّبب جرحًا بطوليًا في الحرب. سوف تسأل فيليبه عن ذلك.

فضول أوفيليا تجاه فيكتور كان مشتركًا. فقد توصّل هو أيضًا إلى أنّهما آتيان من كوكبيْن مختلفيْن، وأنّ هذه الشابّة من صنف آخر، وأنّها مختلفة عن نساء ماضيها. فالحرب تشوّه وتبدّل كلّ شيء، حتّى الذاكرة. ربّما كان هنالك فيما مضى فتيات مثل أوفيليا، طازجات، محميّات من قبح العالم، بحيوات نقيّة، مثل صفحات بيضاء، حيث يُمكن كتابة قدرهنّ بخطٍّ متأنّق ومن دون أيّة خربشة، ولكنّه لا يتذكّر أيّ

t.me/qurssan

ماء من هذا النوع. لقد أخافه جمالها. أخافه، لأنّه معتاد على نساء،
ا ولمت مبكر، من آثار الفقر والحرب. تبدو طويلة القامة، لأنَّ كلّ ما
ما كان طولانيًا، ابتداء من الرّقبة الطويلة وحتّى القدميْن النحيلتيْن.
ماله عندما اقترب منها، رأى أنّها تصل إلى مستوى ذقنه. وكان لشعرها
طويل لون الخشب بتدرُّجات متعدّدة، مربوطة بشريطة من مخمل
ود، وفمها نصف مفتوح على الدوام، كما لو أنَّ هنالك نقصًا ببعض
الأسنان، ومطليًا بلون له حمرة الياقوت. وأكثر ما لفت الانتباه هما عيناها
الرماوان بحاجبيْهما المقوّسيْن بنهايتيْن دقيقتيْن، وهما منفصلان جدًّا،
، هبير ساهٍ كمن ينظر إلى البحر. وقد عزا ذلك إلى قليل من الحَول.

بعد تناول العشاء، ذهبت الأسرة بكاملها، مع الأطفال والخدم،
ي موكب إلى قدّاس منتصف اللّيل في كنيسة الحيّ. وقد فوجئ آل
ال سولار بأنَّ آل دالماو، المفترض أنّهما ملحدان، قد رافقاهم أيضًا،
ال إنَّ روزر تابعت الطقوس باللّاتينيّة، مثلما كانت الراهبات قد علّمنها.
في الطريق، أمسك فيليبه بذراع أوفيليا، وتخلّف معها عن الجميع
لكلّمها بوضوح: «إذا ما ضبطتُكِ تغازلين دالماو فسوف أخبر أبانا، هل
تفهمينني؟ وسنرى كيف سيكون ردّ فعله حين يعلم أنّك تضعين عينك
على شخص متزوّج، مهاجر ليس في جيبه بيزو واحد». تصنّعتْ هي
المفاجأة حيال ذلك الكلام، كما لو أنَّ تلك الفكرة لم تخطر في بالها
بأيّ حال. امتنع فيليبه من توجيه ذلك التّحذير أيضًا إلى فيكتور، لأنّه لم
يشأ إهانته وإذلاله. لقد كان التجاذب بينهما متبادلًا وصاعقًا، ولا بدَّ أنَّ
الآخرين قد انتبهوا إلى ذلك أيضًا. وقد كان على حقّ؛ ففيما بعدُ، عندما
ذهب فيكتور ليتمنّى ليلة طيّبة لروزر، وكانت تنام مع مارسيل الصُغير
في حُجرة أخرى، حذّرته هي أيضًا من غواية المغامرة في ذلك الطريق.

t.me/qurssan

ـ هذه الفتاة بعيدة المنال، ولا يمكنك الوصول إليها. انزعها من رأسك، يا فيكتور. لن تستطيع الانتماء بأيّ حال إلى وسطها الاجتماعي وأقلّ من ذلك إلى أسرتها.

ـ يمكن أن تكون هذه أسهل المصاعب. فهنالك عقبات أ... بكثير من الطبقة الاجتماعيّة.

ـ معك حقّ. ففضلًا عن كونك فقيرًا ومحل ريبة أخلاقيًا أمام عيون هذه العائلة المنغلقة على نفسها، فأنت لست بالشخص المح... جدًّا.

ـ إنّك تنسين ما هو أساسيّ: فأنا لديّ زوجة وابن.

ـ يمكننا الطلاق.

ـ في هذه البلاد لا وجود للطلاق، يا روزر، وبحسب قول فيليب، لن يكون له وجود أبدًا.

ـ أتعني أنّنا سنبقى عالقيْن إلى الأبد! هتفت روزر مذعورة.

ـ يمكنك التّعبير عن ذلك بطريقة أكثر حساسيّة. فطالما نحن نعيش هنا، سنظلّ متزوّجيْن رسميًّا، ولكنْ عندما نعود إلى إسبانيا، نستطيع الطلاق، وينتهي كلّ شيء.

ـ يمكن لهذا أن يتأخّر كثيرًا، يا فيكتور. وفي أثناء ذلك، سنبقى مستقرّين هنا. وأنا أريد لمارسيل أن يترعرع تشيليًّا.

ـ سيترعرع تشيليًّا، إذا أردتِ ذلك. ولكنْ بيتنا سيكون كتلانيًّا على الدوام، وبكلّ شرف.

ـ لقد حظَرَ فرانكو التّكلُّم بالكتلانيّة، ذكّرته روزر.

ـ ولهذا السّبب بالذات، يجب أن نتكلّم الكتلانيّة، يا امرأة.

t.me/qurssan

الفصل السابع

1940 ـ 1941

. . معك
...ال اللّيل، بينما
...الأرض القاتمة تدور
...باء وأموات . . .

پابلو نيرودا
«اللّيل في إيسلانيغرا»،
أشعار القبطان

t.me/qurssan

t.me/qurssan

دخل فيكتور دالماو إلى الجامعة ليستكمل دراسته للطبّ بفضل نظام علاقات الصداقة التشيليّ الناجع. فقد قدّم فيليبه دل سولار الطّلب إلى سلفادور أليندي، أحد مؤسّسي الحزب الاشتراكيّ، والرجل الذي ينعم بثقة رئيس الجمهوريّة، ويشغل منصب وزير الصّحّة. كان أليندي قد تابع باهتمام مؤثّر انتصار الجمهوريّة في إسبانيا، ثمّ التّمرّد العسكريّ، وهزيمة الدّيمقراطيّة، وما تبع ذلك من ديكتاتوريّة فرضها فرانكو، كما لو أنّه كان يحدس أنّه سيغادر الحياة ذات يوم في نزاع مماثل في بلاده! استمع أليندي إلى القليل الذي رواه له فيكتور دالماو عن الحرب والمنفى، ولكنّه هو بنفسه ما تبقّى. وباتّصال هاتفيّ واحد، توصّل أليندي إلى أن تعادل له كلّيّة الطبّ سنوات الدّراسة التي تابعها في إسبانيا، وتسمح له باستكمال ثلاث سنوات أخرى ليحصل على الشهادة. لقد كانت الدّراسة مكثّفة. وكانت معارف فيكتور مثل معارف أساتذته في مجال الممارسة العمليّة، ولكنّه لم يكن يعرف إلّا القليل جدًّا في الميدان النظريّ؛ فمعرفة تجبير العظام المهشّمة هي مسألة مختلفة تمامًا عن معرفة تلك العظام بأسمائها. ذهب إلى مكتب الوزير، ليقدّم له الشكر، من دون أن يدري كيف يمكنه أن يردّ إليه الجميل. فسأله أليندي إذا كان يعرف لعب الشطرنج، وتحدّاه في لعب دور على الرّقعة التي يحتفظ

t.me/qurssan

بها في مكتبه. خسر ألليندي بمزاج رائق. وقال له عند الوداع: «إذا كنت تريد مكافأتي على خدمتي لك، فتعال للعب الشطرنج معي عندما أتّصل بك». وسيكون لعب الشطرنج هو أساس صداقة بين الرجلين، ولسوف يحدّد لعب الشطرنج كذلك المنفى الثاني لفيكتور دالماو.

عاش فيكتور وروزر والطفل مع فيليبه بضعة أشهر، إلى أن صار بمقدورهما دفع إيجار غرفة في نُزل. رفضا تقبّل مساعدة من اللّجنة، لأنّ هناك آخرين بحاجة للمساعدة أكثر منهم. أراد فيليبه أن يستبقيهم في بيته، ولكن فيكتور وروزر قدّرا أنّهما قد تلقّيا الكثير، وأنّ الوقت قد حان ليعتمدا على نفسيْهما. كانت خوانا نانكوتشيو أشدّ المتأثّرين بالتبدُّل، فمن أجل رؤية مارسيل صار عليها أن تركب الترام. صداقة فيكتور وفيليبه تواصلت، غير أنّه صار من الصّعب تنميتها، لأنّهما ينتميان إلى أوساط اجتماعيّة مختلفة، وكان كلاهما مشغولًا جدًّا. حاول فيليبه أن يضمّ فيكتور إلى نادي الغاضبين، مُقدِّرًا كم يمكن له أن يضيف إلى مسامراتهم، التي بدأت تفقد حماسها واندفاعها الثقافيّ، وتكتسب نبرة تزداد تفاهة أكثر فأكثر، إلّا أنّه بدا جليًّا عدم وجود ما هو مشترك بين فيكتور وأصدقاء فيليبه. وفي المناسبة الوحيدة التي حضر فيها فيكتور أحد تلك اللّقاءات، تعامل بكلمات مقتضبة مع سيل الأسئلة الموجّهة إليه حول حياته التعيسة المحفوفة بالمخاطر، وحول الحرب في إسبانيا؛ وسرعان ما ملّ أعضاء المنتدى من إمكانيّة الحصول منه على أيّة معلومات، وتخلّوا عن الاهتمام به. ومن أجل تجنُّب اللّقاء بين فيكتور وأوفيليا، لم يَعُدْ فيليبه يصطحبه إلى بيت أبويْه.

كان عمل فيكتور اللّيليّ في البار لا يكاد يكفيه للعيش، ولكنّه أفاده في تعلُّم هذه المهنة المثيرة للفضول، وفي دراسة أحوال الزبائن.

t.me/qurssan

، ـهدا، تعرَّف على جوردي مولينيه، وهو أرمل كتلانيّ، مُهاجر إلى تشيلي ، ـه ما يقارب العشرين عامًا، صاحب مصنع لصنع الأحذية، يستقرّ عند ، ـصدة الكونتوار ليشرب، ويتحدَّث بلغته الكتلانيَّة. في واحدة من تلك الليالي الطويلة، وبينما هو يداعب كأس خمرته، شرح لفيكتور كيف أنْ صناعة الأحذية سمجة ومُضجرة، على الرّغم من أنّها مربحة جدًّا، وأنّه الآن وحيدٌ، آخذ بالهرم والتّقدُّم في السنّ، وقد حان الوقت ليمنح ـفسه المتعة. عرض عليه أن يقيم حانة على الطريقة الكتلانيَّة؛ وقال إنّه سيقدِّم النقود من أجل البدء، بينما يقدِّم فيكتور الخبرة. فأجابه فيكتور ـأنّ ميْله الحقيقيّ هو أن يكون طبيبًا وليس خمّارًا! ولكنّه في تلك اللّيلة، عندما أخبر روزر بالاقتراح الرهيب الذي عرضه عليه الكتلانيّ، بدت لها الفكرة رائعة؛ فأن يكون لديْك عملك الخاصّ أفضل من العمل عند آخرين، وإذا لم ينجح المشروع تكون خسارتك ضئيلة، لأنّ ذلك الحذّاء هو من سيجازف برأس المال. ولا بدَّ من توخّي الحذر في النفقات، والأخذ في الحسبان أنَّ الزبائن يذهبون إلى الحانات لشرب الخمر ونسيان أحزانهم، وما سوى ذلك ليس له كبير أهمّيّة. استلهما من «الروسينانتي»، تلك الحانة البرشلونيَّة التي كان أبو فيكتور يلعب فيها الدومينو حتَّى الأيّام الأخيرة من حياته. وأقاموا الحانة في جُحر بائس، باستخدام براميل خشبيَّة كموائد، وعلّقوا أفخاذ لحم مقدَّد وحبال ثوم تتدلّى من السقف، ونشروا في المكان رائحة نبيذ زنخ، لكنّ موقع الحانة كان جيّدًا في وسط مدينة سنتياغو. انضمّت إليهما روزر لتتولّى مسألة الحسابات، لأنّ عقلها ومعارفها الحسابيّة أفضل من الشريكيْن كليْهما. كانت تصل ومعها مارسيل، فتُجلسه مع ألعابه في قفص أطفال خلف منضدة الكونتوار، بينما تنهمك هي في تسجيل الحسابات. لم يكن

t.me/qurssan

يفلت كأس بيرة واحد من حساباتها الصارمة. وتمكّنوا من التوصّل إلى طاهية قادرة على تحضير سُجق البوتيفارّا الكتلانيّ مع مكعّبات باذنجان، وأسماك سردين صغيرة، وكلامار بالثُّوم، وتونا بالطماطم، ولذائذ أخرى من موطنهم البعيد، فاجتذبوا زبائن أوفياء من المهاجرين الإسبان. وأطلقوا على الحانة اسم «وينيبيغ».

خلال الشهور الثمانية عشرة التي أمضياها متزوّجيْن، طوّر فيكتور وروزر علاقة أخويّة ورفاقيّة متقنة. كانا يتقاسمان كلَّ شيء باستثناء الفراش. فقد قرّرت روزر أنَّ الحبّ يتحقّق مرّة واحدة فقط، وقد نالت حصّتها منه. وكان فيكتور من جهته يعتمد عليها في الصراع مع أشباحه، فهي صديقته المفضّلة، ويزداد حبّه لها أكثر فأكثر كلّما ازداد معرفة بها؛ فكان يرغب أحيانًا في تجاوز الحدّ الوهميّ الذي يفصل بينهما، وأن يمسك بها من خصرها في لحظة سهو ويقبّلها، ولكنَّ ذلك سيكون خيانة لأخيه وسيؤدّي إلى نتائج مشؤومة. لا بدَّ أن يأتي يوم يكون عليهما أن يتحدّثا في هذا الشأن، عن كمّ من الوقت يمكن للحِداد أن يستمرّ، وكم من الوقت يجب عليهما التّفكير في الموتى. سيأتي اليوم عندما تقرّر روزر ذلك، مثلما تقرّر هي كلّ شيء؛ وحتّى ذلك الحين سيشغل نفسه في التّفكير بأوفيليا دل سولار، مثل من يفكّر بكسب اليانصيب.. مجرّد تأمُّلات غير مجدية. لقد وقع في حبّها منذ النظرة الأولى وبزخمِ مراهق، ولكنْ عدم عودته لرؤيتها بعد ذلك، جعل الحبّ يتحوّل بسرعة إلى خرافة. ففي أحلام يقظته المتكاسلة، يسترجع تفاصيل وجهها، حركاتها، ثوبها، صوتها؛ أوفيليا سراب متذبذب لا يلبث أن يتلاشى عند أدنى تردُّد. إنّه يحبُّها نظريًا، مثلما كان يفعل شعراء التروبادور قديمًا.

t.me/qurssan

منذ البدء، طرح فيكتور وروزر نظام ثقة وتعاون متبادليْن، وهو ما ا ىدّ منه من أجل حُسن التعايش والمضيّ قُدمًا في المنفى. اتّفقا ا‌‌ا‌ٍ أن تكون الأولويّة لمارسيل حتّى بلوغه الثامنة عشرة. نادرًا ما كان ف نور يتذكّر أنّ الطفل ليس ابنه، وإنّما هو ابن أخيه، ولكنّ هذا الأمر اا حاضرًا على الدوام في ذهن روزر. ولهذا، كانت تحبّ فيكتور بقدر منه لطفلها. وكانت نقود كليْهما توضع في علبة سيجار من أجل النفقات المشتركة، وكانت روزر هي من تتولّى الإنفاق؛ وتفصل نفقات الشهر ءانبًا في أربعة مُغلّفات، واحد منها لكلّ أسبوع، وتلتزم بصرامة بالاكتفاء بهذا المبلغ، حتّى لو اضطرّا إلى الاقتصار على أكل الفاصولياء، ولا ي ء سوى الفاصولياء. أمّا العدس، فلا يريدان أيّ ذكر له: لقد أُتخم ، نور به في معسكر التّجميع. وإذا ما بقي فائضٌ ضئيلٌ من النقود، ، إنّهما يأخذان الطفل لتناول بعض المثلّجات.

كانا متناقضَي الطباع، ولهذا كانا يتفاهمان جيّدًا. لم تكن روزر سقط في مشاعر حزن المنفيّين عن موطنهم، لا تتطلّع إلى الخلف، ولا تحاول بأيّ حال إضفاء المثاليّة على إسبانيا التي لم يَعُد لها وجود في نظرها. فقد غادروها لسبب ما. وكان حسُّها المؤكّد بالواقع يُنقذها من الرّغبات المحبَطة، ومن تأنيب الذات غير المُجدي، ومن الضغائن الثقيلة ومن رذيلة النّدم والتحسُّر. لم تكن تبالي بالتعب واليأس، ولا ترى في بذل الجهد أو التضحية أيّة مبالغة. لديْها تصميم دبّابة على سحق العوائق والعقبات. وكانت خططها واضحة النقاء. فلا شيء من مواصلة العزف على البيانو في التمثيليّات الإذاعيّة، حيث القائمة نفسها من المقطوعات الكئيبة، الرّومانسيّة المعهودة أو الضبابيّة الغائمة. لقد ضاقت ذَرعًا بمارش أوبريت *عايدة* و*الدّانوب الأزرق*. لأنّ ما يهمُّها هو

t.me/qurssan

الموسيقى بكلّ جدّيّة، باعتبارها الهدف الوحيد في الحياة، ولبدء كلّ ما عدا ذلك إلى الشيطان، ولكنْ عليها الانتظار. فما إن تبدأ الحا... بتوفير ما يكفي للعيش، ويتخرّج فيكتور من الجامعة، فسوف تسجّل م... نفسها في كلّيّة الموسيقى، وسوف تمضي على خطى مرشدها، وتتحوّل إلى أستاذة ومؤلّفة موسيقى مثل مارسيل لويس دالماو.

أمّا زوجها بالمقابل، فقد اعتاد الوقوع في حالات يأس بنا... توالي صدمات الذكريات السّيّئة، وصرامة الحنين. وكانت روزر وحدها من تعلم بمراحل التكدُّر والاكفهرار، لأنَّ فيكتور كان يواصل الذّهاب إلى الكلّيّة، يدرس، ويتابع العمل في الحانة ليلًا كما في الأزمنة العاديّة، ولكنّه يمضي كمن هو غائب عن الوعي، ليس بسبب التعب الذي يصيب من لا ينام إلّا لحظات قصيرة متفرّقة وهو واقف على قدميْه، مثل الخيول، بل لإحساسه بأنّه مُستَنفَد ومُستَهلك، أسير متاهة من المسؤوليّات، فبينما كانت روزر تتخيّل مستقبلًا مشرقًا، كان هو لا يرى سوى ظلال قاتمة ذات اليمين وذات الشمال. فكان يقول: «إنّني عجوز وأنا في السّابعة والعشرين»، ولو أنَّ روزر سمعته يومًا وهو يقول ذلك لانقضّت عليه بكلّ ضراوة: «ما ينقصك هي الخصيات، لقد مررنا جميعنا بالبؤس والعوز، ولأنّه ليس لديْك سوى التذمُّر والشكوى، فإنّك لا تُقدِّر ما نملكه؛ أنت جاحد سيّئ. في الجانب الآخر من البحر هنالك حرب مرعبة، بينما نحن نعيش هنا ببطون ممتلئة وبسلام؛ وأنبّهك إلى أنّنا سنبقى هنا لوقتٍ طويل، لأنَّ الكوديّيو، عليه اللّعنة، يتمتّع بصحّة جيّدة، فالأشرار يعيشون حياة مديدة». ومع ذلك، تتحوّل إلى العذوبة في بعض اللّيالي حين تسمعه يصرخ وهو نائم. عندئذٍ تذهب لإيقاظه، وتندسّ في فراشه، تحتضنه كأمّ، وتتركه يفضفض عن نفسه، ويتحرّر من

t.me/qurssan

،ابسه عن الأعضاء المبتورة والصدور المهشّمة بالرشّاشات وجِراب
" ادق، وبُرَك الدم والحُفَر الممتلئة بالعظام.

كان لا بدَّ من انقضاء أكثر من سنة قبل أن يعود كلّ من أوفيليا ،مكتور إلى اللّقاء. وفي هذا الوقت، كان ماتياس إيثاغيرّي قد استأجر ،، أحد شوارع أسونسيون الرّئيسيّة بيتًا مهيبًا، لا يتناسب كثيرًا مع ، صبه كشخص ثانٍ في السفارة، ولا مع راتبه كموظّف عموميّ. بدا ،الك للسّفير ضربًا من الوقاحة، وصار يتحيَّن أيَّ فرصة ليعلّق على الأمر بعبارات ساخرة. أثّث ماتياس إيثاغيرّي البيت بشحنة مفروشات، ،تحف زينة أُرسلت من تشيلي؛ وسافرت أمّه خصّيصًا من أجل تدريب عاملِيّ الخدمة المنزليّة، وهي مهمّة ليست هيّنة، لأنَّ الخدم يتكلّمون اللغة الغواراني[1]. وكانت عروسه العنيدة قد وافقت أخيرًا على الزواج، ،بفضل مراسلاته الغراميّة المتواصلة، وفعالية القداديس والصلوات التساعيّة التي تقيمها حماته المستقبليّة، السيدة لورا. وفي بدايات شهر كانون الأول/ديسمبر، عندما أكملت أوفيليا السنة الحادية والعشرين من عمرها، ذهب ماتياس إلى سنتياغو من أجل حفل إشهار الخطوبة رسميًا، وقد أقيم الاحتفال في حديقة بيت آل دل سولار مع الأقرباء المقرَّبين للأسرتيْن، قرابة مئتي شخص فقط. وتولّى مباركة الخطوبة ابن أخت السيّدة لورا المدعوّ بيثنتي أوربينا، وهو كاهن كاريزماتيّ، مدبِّر مكائد وحيويّ، كان يمكن لبدلة كولونيل أن تكون مناسبة له أكثر من مسوح الكهنوت. وعلى الرّغم من أنَّ أوربينا هذا ما زال دون الأربعين من عمره، إلّا أنَّ له تأثيره المُخيف على من هم أعلى مرتبة كنسيّة منه،

(1) الغواراني guaraní هي لغة السكّان الأصليّين في الباراغواي، وما زالت تعتبر اللّغة الرسميّة الثانية في البلاد، إلى جانب اللّغة الإسبانيّة.

t.me/qurssan

وعلى رعيته في الحيّ العالي الذين يعمل بينهم كمستشار ناصح وحكم وقاضٍ. وكان وجوده ضمن الأسرة يعتبر امتيازًا كبيرًا.

تمّ تحديد موعد الزفاف في شهر أيلول/سبتمبر، من العام التالي، وهو شهر الزيجات الراقية. وضع ماتياس خاتم الألماس القديم في خنصر يد أوفيليا اليُمنى، لتنبيه منافسيه المحتملين إلى أنَّ الشابة محجوزة، وسوف ينقله إلى اليد الأخرى في يوم الزّفاف، كإقرار نهائي بأنّها قد أُخذتْ. أراد أن يشرح لها بالتّفصيل التّجهيزات والاستعدادات التي أنجزها في الباراغواي من أجل استقبالها كملكة، ولكنّها قاطعته وهي أقرب إلى السهو. «ولماذا التّسرُّع هكذا، يا ماتياس؟ من الآن حتى أيلول/سبتمبر يمكن أن تحدث أمور كثيرة». سيطر عليه الذُّعر، وسألها عن تلك الأمور التي قد تحدث، فذكرت هي أنّه يمكن للحرب العالمية الثانية أن تصل إلى تشيلي، أو أن يحدث زلزال آخر، أو قد تقع أيّ كارثة أخرى في الباراغواي. فقال ماتياس: «أي أنّها أمور لا علاقة لنا بها».

كانت أوفيليا تستمتع في مرحلة الانتظار تلك بترتيب جهاز عرسها في صناديق خشبيّة، ووضع ورق حرير وأغصان خزامى بين الملابس، وتوصي في دير خالتها تيريسا على تطريز الحروف الأولى من اسمها واسم ماتياس متشابكة على شراشف وملاءات ومناشف، وتتيح لصديقاتها الاحتفاء بها في صالون الشاي بفندق كريلون، وهي تجرّب وتعيد تجريب فستان الزّفاف وجهاز عرسها، وتتعلّم من أخواتها أصول التّدبير المنزليّ، وقد أبدت في هذا المضمار انضباطًا والتزامًا مفاجئيْن، بسبب شُهرتها كمتكاسلة وغير مرتّبة. كانت لديْها فترة تسعة شهور قبل الزفاف، ولكنّها بدأت تضع خططًا وتبحث عن وسائل لتمديد فترة الهدنة تلك. كانت مرتعبة من الإقدام على خطوة الزواج التي لا رجعة عنها

t.me/qurssan

الأبد؛ ومن العيش مع ماتياس في بلد آخر لا تعرف فيه أحدًا، بعيدًا عن أسرتها، ومحاطة بهنديّات من قبائل الغواراني؛ وإنجاب أبناء، وانتهاء الأمور بها إلى الإذعان والإحباط، مثل أمّها وأخواتها.. ولكنّ البديل كان أسوأ. فالبقاء عزباء يعني الاعتماد على كرم أبيها وأخيها فيليبه في الشأن الماديّ، والتحوُّل إلى منبوذة اجتماعيًا. وإمكانيّة العمل من أجل كسب العيش هو وهمٌ لا يقلُّ عبثيّة عن الذهاب إلى باريس للرُّسم في غرفة على السطح في مونماتر. كانت تخطّط لسبحة من الذرائع لتأجيل الزواج، من دون أن تتخيّل أنَّ السّماء سترسل إليها الذريعة الوحيدة الناجعة: فيكتور دالماو. عندما التقت به صدفة، بعد شهرين من تحوُّلها إلى مخطوبة، وسبعة أشهر قبل الموعد المحدَّد للزفاف، اكتشفت حبّ الروايات، الحبّ الذي لم يلهمها إيّاه ماتياس قطّ بوفائه الرّاسخ!

في منتصف صيف سنتياغو القائظ والجافّ، حيث يهاجر بصورة جماعيّة كلّ من هو قادر على ذلك، والتوجُّه نحو الشواطئ والأرياف، التقى فيكتور وأوفيليا في الشارع. جمّدت المفاجأة كليْهما، كمن ضُبطا في وضع خاطئ، ومرَّت لحظة أشبه بأبديّة، قبل أن تبادر وتحيّيه مختنقة بكلمة «مرحبا» تكاد لا تُسمع، فسُرها هو في مصلحته. فقد مضت سنة بكاملها وهو يظنّ أنّه يحبُّها من دون أدنى أمل، ليتبيَّن الآن أنّها هي أيضًا قد فكّرت به، مثلما بدا له جليًا في ارتباك الفتاة الذي بدا كعصبيّة مُهْر صغير. بدت له أجمل ممّا يتذكّرها، بعينيْها الزرقاويْن الفاتحتيْن، وبشرتها البرونزيّة، وثوبها واسع فتحة الصدر، وخصل شعرها المتفلّتة من قبّعة مدرسيّة. تمكّن من السيطرة على نفسه لبدء حوار عاديّ؛ وهكذا، علم أنّ آل دل سولار يُمضون شهور الصيف الثلاثة ما بين إقطاعيّتهم وبيتهم على شاطئ بينيا دل مار؛ وأنّها قد جاءت إلى العاصمة لتقصّ شعرها،

t.me/qurssan

ولتذهب إلى عيادة طبيب الأسنان. وتكلّم هو بدوره أربع جُمل عن رور، والطفل، وعن الجامعة والحانة. وسرعان ما نفدت موضوعات الحديث بينهما، وظلّا صامتيْن، يتعرّقان تحت الشمس، وكلاهما كان يدرك أنّهما إذا افترقا فسوف يضيّعان فرصة ثمينة. عندما بدأت هي بمحاولة الوداع، أمسكها فيكتور من ذراعها، وسحبها إلى أقرب ظلّ، تحت مظلّة صيدلية، وطلب منها بكلمات سريعة أن يمضيا فترة المساء معًا.

ـ يجب أن أعود إلى بينيا دل مار. السّائق ينتظرني، قالت من دون أدنى قناعة.

ـ اطلبي منه أن ينتظر. يجب أن نتبادل الحديث.

ـ سوف أتزوّج، يا فيكتور.

ـ متى؟

ـ ما أهمّيّة ذلك؟ أنت متزوّج.

ـ هذا هو بالتّحديد ما أودّ أن نتحدّث عنه. ليس الأمر مثلما تظنّين، دعيني أشرح لكِ.

اقتادها إلى فندق متواضع، مع أنّه لا يستطيع السّماح لنفسه بتلك النفقات؛ وعادت هي إلى بينيا دل مار قرابة منتصف اللّيل، عندما كان أبواها على وشك إخبار الدرك عن اختفائها. أمّا السّائق، وقد تلقّى رشوة مناسبة، فقال إنّ إحدى عجلات السيّارة قد ثُقبت خلال الطريق. منذ بلوغها الخامسة عشرة، وعندما وصلت إلى قامتها النهائيّة وتقاطيعها كامرأة، كانت أوفيليا تجتذب الرجال بقدرة إغواء خارجة عن نواياها. لم تكن تنتبه إلى زوبعة التأثُّر الهوجاء التي تخلّفها لدى مرورها، اللّهم إلّا في حالات قليلة بلغ الأمر بالعاشق حدّ التّهديد، وكان على أبيها أن

t.me/qurssan

. ، مل. كانت حياتها الهادئة كآنسة تمضي في دلال وتحت الحماية،
، سف ذي حدَّين؛ فمن جهة، تحدّ تلك الحماية من المجازفات
، المخاطر، لكنَّها تحول من جهة أخرى دون إكسابها شيئًا من الفطنة أو
الـ داهة. فتحت سلوكها المتغنّج تختبئ سذاجة مذهلة. وقد تأكَّد لها في
السنوات التالية أنَّ مظهرها يفتح لها أبوابًا، ويُسهِّل لها كلّ شيء تقريبًا.
، كان هذا هو أوَّل ما يراه الجميع، وربَّما يكون الشيء الوحيد الذي يرونه
،بها أحيانًا! لم تكن هنالك حاجة لأن تبذل أيّ جهد من جانبها، لأنَّ
أفكارها وآراءها تمرّ من دون أن تثير أيّ اهتمام. فخلال الأربعمئة عام
التي مضت منذ غزو ذلك الفاتح الجلف للمستعمرة، كان آل بيثكارًا
،حسّنون إرثهم الجينيّ بدماء أوروبيّة نقيّة، على الرّغم من أنَّ فيليبه
ل سولار يرى أنَّ لا أحد في تشيلي، مهما بدا أبيض، إلّا وفيه شيء
من السّكان الأصليّين، باستثناء المهاجرين حديثيّ المجيء. أوفيليا
نتمي إلى سلالة نساء جميلات، ولكنَّها الوحيدة بينهنَّ التي خرجت
بعينيْن زرقاويْن مبهرتيْن، ورثتهما عن الجدَّة الإنكليزيَّة. كانت لورا دل
سولار تؤمن بأنَّ الشيطان هو من يزرع الجمال لهدف وحيد هو إضاعة
الأرواح وتبديدها، سواء لمن يحمل الجمال أو لمن ينجذب إليه؛
ولهذا السّبب، لم يكن هناك من يتحدَّث في بيتها عن المظهر البدنيّ،
لأنَّه حديث سيّئ الوقع، ومجرَّد ابتذال. كان زوجها يُقدّر جمال نساء
أخريات، ولكنَّه يعتبره مشكلة في بناته، لأنَّ عليه الاهتمام بالفضيلة
لديهنَّ، ولاسيّما أوفيليا. وقد انتهى الأمر بالفتاة إلى تقبُّل نظريَّة الأسرة
بأنَّ الجمال يتعارض مع الذكاء: يمكن امتلاك أحد الأمريْن، ولكنَّهما
لا يتوافران معًا. وهذا يفسّر الحالة السّيّئة التي كانت عليها في المدرسة،
وتكاسلها في تعلُّم الرّسم، والمصاعب التي تواجهها للبقاء على الطريق

t.me/qurssan

المستقيم الذي يعظ الأب أوربينا داعيًا إليه. لقد كانت تعذّبها حسّ... التي لا تعرف كيف تحدّد ماهيتها. وكان سؤال الأب أوربينا اللح... حول ما الذي تفكّر بعمله في حياتها يدور في رأسها من دون أن تجد... جوابًا، فقدر الزواج وإنجاب أبناء يبدو لها خانقًا مثل الدَّيْر، ولكنّها تتف... أنّه قدرٌ لا مفرّ منه، يمكن لها أن تؤجّله قليلًا وحسب؛ ولأنّ الجميع كانوا يكرّرون القول لها بأنّه عليها أن تكون شاكرة لوجود ماتياس إيثاغيري... الطيب جدًّا، والنبيل والوسيم؛ وأنّها محظوظة إلى حدٍّ تُحسد عليه.

لقد كان ماتياس حبيبها غير القابل للعزل منذ الطفولة. معه اكتشفت وارتادت الشهوة إلى حيث تسمح بذلك التربية الكاثوليكية الصارمة، والشهامة الرجوليّة الطبيعيّة لديْه، على الرّغم من أنّها كثيرًا ما كانت تحاول تجاوز تلك الحدود؛ فما هو الفرق في نهاية المطاف بين المداعبة حتّى الإغماء من دون خلع الملابس، وفعل تلك الخطيئة عاريَيْن بكلّ بساطة؟ فالعقاب الإلهيّ سيكون هو نفسه. وبالنّظر إلى ضعفها، تحمّل ماتياس وحده مسؤوليّة امتناع كليْهما. كان يحترمها مثلما هو مطلوب من آخرين أن يحترموا أخواتهم، وأقنع نفسه بأنّه لن يخون أبدًا الثقة التي منحته إيّاها عائلة دل سولار. فشهوة الجسد لا يُمكن إشباعها إلّا بعد اتّحاد مقدّس من الكنيسة، بهدف إنجاب أبناء، مثلما كان يؤمن. لم يكن ليتقبّل، ولا في أعمق أعماق قلبه، أنّ السّبب الأساسيّ لامتناعه لم يكن الاحترام أو الخطيئة، وإنّما الخشية من الحبل. لم تكن أوفيليا تتحدّث عن الموضوع مع أمّها أو أختيْها، ولكنْ كان واضحًا لديْها أنّ هذا النوع من الخطأ، مهما كان خفيفًا، لا يُمحى إلّا بالزواج. فسرُّ الاعتراف يغفر تلك الخطيئة. ولكنّ المجتمع لا يُسامح ولا ينسى. «فسمعة أيّ آنسة محترمة أشبه بحرير أبيض، يمكن لأيّ

t.me/qurssan

المطها أن تقوّضه»، هذا ما تؤكّده الراهبات. فلا حاجة بها لقول كم من «المطحات راكمتها مع ماتياس.

في ذلك المساء الحار، ذهبت أوفيليا إلى الفندق مع فيكتور «الماو وهي موقنة بأنّ الأمر سيكون شيئًا مختلفًا عن المناوشات المنهكة مع ماتياس، والتي كانت تخلّفها في حيْرةٍ وغاضبة. لقد فاجأها تصميمها الذاتيّ الذي حسمته في لحظة واحدة، وبمثل تلك الخفّة التي بادرت فيها ذات مرّة وهي معه على انفراد في الغرفة. وجدت نفسها جيّدة معارف، لم تكن تعلم من أين حصلت عليها، وبغياب للحياء لا يأتى عادة إلّا بعد ممارسة طويلة. لقد تعلّمت عند الراهبات التّعرّي على مراحل، فكانت ترتدي في البدء ثوبًا بكُمّيْن طويلَيْن، يغطّي جسمها من العنق حتّى القدميْن، وتبدأ بعد ذلك بنزع الملابس بالتلمّس ابتداء من أسفل؛ ولكنّها في ذلك المساء مع «الماو، تبخّر ما لديها من التواضع؛ تركت الثوب، وكذلك التنّورة التحتانيّة، وحمّالة الصدر والسروال، تسقط كلّها على الأرض، ومرّت فوقها عارية وأولمبيّة، بمزيج من الفضول لما سوف يحدث، ومن التوتّر ضدّ ماتياس، لأنّه منافق. «يستحقّ الخيانة»، قرّرت بحماسة.

لم يخامر أيّ شكّ فيكتور في أنّه يمكن لأوفيليا أن تكون عذراء، إذ لا شيء من ثقة الشابّة الساحقة يشير إلى ذلك، كما أنّها لم تطرح الأمر. كانت العذريّة قد أُبعدت إلى سنوات ملتبسة، غير مؤكّدة وشبه منسيّة من سنّ المراهقة، آتية من واقع آخر، من ثورة ألغت الفروق الاجتماعيّة، والتّكلّف في العادات وسلطة الدّين. في إسبانيا الجمهوريّة، صارت العذريّة أمرًا مهجورًا وخارج التداول؛ ففتيات الميليشيا والممرّضات اللّواتي أحبّهنّ لأوقات قصيرة كنّ يتمتّعن بالحرّيّة الجنسيّة نفسها التي

t.me/qurssan

يتمتّع بها هو. ولم يخطر له كذلك أنَّ أوفيليا قد رافقته بدافع كونها امرأة مدلَّلة، بقدر ما فعلت ذلك بدافع الحبّ. لقد كان مغرمًا بها، وافترض بصورة آليّة أنّها هي أيضًا مغرمة به. ولسوف يحلّل حجم ما حدث فيما بعد، عندما يستريحان بعد ممارسة الحبّ، متعانقَيْن في هذا السرير ذي الملاءات الضاربة إلى الصفرة من كثرة الاستخدام، والملوَّثة بلطخات دم العذريّة. وبعد أن شرح لها كيف ولماذا تزوَّج من روزر، واعترف لها بأنّه يحلم بها هي منذ أكثر من سنة.

ـ لماذا لم تخبريني بأنّها المرّة الأولى؟ سألها.

ـ لأنّك كنتَ ستتراجع، ردَّت عليه وهي تتمطّى مثل هرّ.

ـ كان عليّ أن أكون أكثر حذرًا معك، يا أوفيليا، اعذريني.

ـ لا حاجة للاعتذار. إنّني سعيدة، أشعر بدغدغة في جسدي. ولكنْ عليّ أن أذهب الآن، فقد تأخّر الوقت كثيرًا.

ـ أخبريني متى سنلتقي مجدَّدًا.

ـ سأخبرك عندما أستطيع الهروب. بعد ثلاثة أسابيع، سنرجع إلى سنتياغو، وعندئذٍ سيكون الأمر أسهل. يجب أن نكون حذرين جدًّا جدًّا، لأنّه إذا عُرف هذا الأمر، فسوف ندفع الثمن غاليًا. لا أريد التّفكير في ما قد يفعله أبي.

ـ لا بدَّ أن تأتي لحظة يكون عليّ فيها أن أتحدَّث إليه...

ـ هل أنت مصاب بمرضٍ في رأسك؟ كيف يخطر لك مثل هذا الأمر! إذا ما عرف أنّني أمضي مع مهاجر متزوّج وأب لابن، فسوف يقتلنا كلَيْنا. لقد سبق أن حذّرني فيليبه.

t.me/qurssan

وبذريعة مراجعة طبيب الأسنان، تدبَّرت أوفيليا أمر العودة مرّة أخرى إلى سنتياغو. خلال أسابيع الفراق، تبيَّنت بذعر أنَّ فضولها الأوّليّ قد فتح المجال لأن يتسلَّط على ذهنها هوس تذكُّر أدقَ تفاصيل الك المساء في الفندق، وإحساس بالحاجة الملحَّة لرؤية فيكتور مجدَّدًا، وممارسة الحبّ، وتبادل الحديث مطوَّلًا معه، إخباره بأسرارها والتَّحرّي عن ماضيه. تريد أن تسأله لماذا يعرج بساقه، وأن تُعدَّ قائمة بندوب جراحه، وأن تعرف عن أسرته وعن المشاعر التي تجمعه برورز. فهذا الرَّجل محمَّل بالكثير من الأسرار، وحلّ أسراره سيكون مهمَّة طويلة: ما الذي يعنيه المنفى، التَّمرُّد العسكريّ، القبر الجماعيّ، مخيَّم التَّجميع، وما هو ذلك الكلام عن البغال الممزَّقة وعن خبز الحرب! لقد كان فيكتور دالماو في سنّ مقاربة إلى هذا الحدّ أو ذاك لعمر ماتياس إيثاغيرّي، ولكنَّه أكثر هزمًا بصورة لامتناهية، وأشدّ صلابة من الإسمنت في مظهره الخارجيّ، وعميق لا سبيل إلى سبر أغواره من الداخل، يحمل آثار جراحٍ وذكريات سيِّئة. وعلى العكس من ماتياس الذي يحتفي بطبعها الناريّ المتفجّر ونزواتها المفاجئة، كان فيكتور يضيق ذرعًا بولدناتها الطفوليَّة، لأنَّه ينتظر منها صفاء الذَّكاء. لم يكن يُبدي اهتمامًا بأيّ شيء سطحيّ. فإذا ما وجَّه إليها سؤالًا، يستمع إلى الجواب باهتمام أستاذ، من دون أن يُفسح لها المجال للتهرُّب بعبارة مازحة أو بتغيير موضوع الحديث. وبذعرٍ، واجهت أوفيليا تحدّي أن تُعامَل بجدّيَّة.

المرّة الثانية التي استيقظت فيها وهي بين ذراعيْ حبيبها، حين غفت بضع دقائق بعد ممارسة الحبّ، قرّرت أوفيليا أنّها قد وجدت رجل حياتها. فلا أحد من شبّان وسطها، المتودّدين، المدلَّلين والرخويّين ممَّن طريقهم ممهَّد بمال أسرته وسلطتها، يمكنه المنافسة معه. تلقَّى

t.me/qurssan

فيكتور ذلك الاعتراف متأثرًا، لأنّه هو أيضًا كان يشعر أنّها هي ضالّته المختارة، ولكنّه لم يفقد عقله: أخذ في الاعتبار زجاجة النبيذ التي تقاسماها وهذا الوضع المستجدّ بالنّسبة إليها. الظروف تؤدّي إلى ردود فعل مغالية؛ ولهذا، لا بدّ من تبادل الحديث عندما يبرد الجسد.

كان يمكن لأوفيليا أن تُلغي خطوبتها مع ماتياس إيثاغيرّي من دون تردُّد، لو سمح لها فيكتور بذلك، ولكنّه جعلها ترى أنّه ليس حرًّا، وليس لديْه ما يقدّمه إليها، باستثناء هذه اللّقاءات المتعجّلة والممنوعة. عندئذٍ، اقترحت عليه أن يهربا إلى البرازيل أو إلى كوبا، حيث يمكنهما العيش تحت بعض أشجار النخيل من دون أن يكون هناك من يعرفهما. ففي تشيلي محكوم عليهما بالسرّيّة، ولكنّ العالم كبير. «لديَّ واجب تجاه روزر ومارسيل، إضافة إلى أنّكِ لا تعرفين ما هو الفقر والمنفى. لن تتحمّلي البقاء معي أسبوعًا واحدًا تحت أشجار النخيل تلك»، ردَّ عليها فيكتور بمزاج مرح. بدأت أوفيليا تترك رسائل ماتياس من دون أن تردَّ عليها، لترى إذا ما كان سيضجر من تلقاء نفسه من لامبالاتها، ولكنْ ذلك لم يحدث، لأنَّ المغرم اللّجوج عزا صمتها إلى توتُّر الأعصاب الذي يصيب عروسًا حسّاسة مثلها. عندئذٍ، واصلت هي نفسها، متفاجئة من ازدواجيّة سلوكها، بإظهار تقبُّل لطيف، كانت أبعد ما يكون عن الشعور به، لاستعدادات حفلة الزفاف. تركت بضعة أشهر تمرّ من دون أن تحسم أمرها، بينما كانت تلتقي بفيكتور خلسةً في لحظاتٍ مسروقة، ولكنْ مع الاقتراب المتزايد لشهر أيلول/سبتمبر، أدركت أنّه عليها البحث عن الشجاعة لقطع علاقة خطوبتها، سواء أوافق فيكتور أم لم يوافق؛ كانوا قد وزّعوا الدّعوات، ونشروا إعلانًا عن حفلة الزفاف في جريدة *الميركوريو*. وأخيرًا، من دون أن تُخبر أحدًا، ذهبت إلى وزارة الخارجيّة لتطلب من

t.me/qurssan

م . بق هناك أن يرسل مغلّفًا في الحقيبة الدبلوماسيّة إلى باراغواي. و.. وضعتْ في المغلف خاتم الخطوبة، ورسالة تشرح فيها لماتياس أنّها ـحبّ شخصًا آخر.

ما إن تلقّى ماتياس إيثاغيرّي رسالة أوفيليا حتّى سافر طائرًا إلى ـشيلي، جلس على الأرضيّة في طائرة عسكريّة، لأنّه في خضمّ الحرب العالميّة، كان هناك شحّ في وقود الطائرات من أجل رحلات زهوٍ خياليّة. دخل كعاصفة إلى البيت في شارع مار دل بلاتا في ساعة تناول الشاي، وكان يزيح من طريقه المناضد والكراسي الهشّة ذات القوائم الرّفيعة الملتوية، ووجدت أوفيليا نفسها أمام شخص تجهله. فخطيبها اللّطيف والمتسامح قد استُبدل بشخص ممسوس بلوثة شيطانيّة، راح يهزّها وقد اكتسى وجهه بحُمرة الغضب، وابتل بالعرق والدُّموع. عبارات تأنيبه بأعلى صوت اجتذبت الأسرة؛ وهكذا، علم إيسيدرو دل سولار ما الذي كان يحدث منذ بعض الوقت تحت أنفه بالذات. تمكّن من إخراج العريس الغاضب من بيته مع الوعد بأنّه سيتولّى بنفسه تسوية هذا الضرر على طريقته، ولكنّ سلطته التي لا يُعلى عليها جوبهت بعناد ماكر من جانب ابنته. رفضت أوفيليا تقديم أيّ تفسير، والاعتراف باسم حبيبها، وأقلّ من ذلك بكثير إعلان الندم عن قرارها. أطبقت فمها بكلّ بساطة، ولم تكن ثمّة طريقة للحصول منها ولو على كلمةٍ واحدة، غير مبالية بتهديدات أبيها، وبكاء أمّها، والحجج القياميّة التي يستعين بها الكاهن بيثنتي أوربينا الذي هرع مستجيبًا لنداءٍ مستعجَل، باعتباره الدَّليل الرُّوحيّ والمدبّر لصاعقة الرب العقابيّة. ونظرًا لاستحالة العقلانيّة معها، منعها أبوها من الخروج من البيت، وكلّف خوانا بمهمّة إبقائها معزولة.

t.me/qurssan

أولت خوانا نانكوتشيو الأمر كلّ اهتمامها، لأنّها كانت تعلّق ... على ماتياس إيثاغيرّي، فهذا الشاب سيّد محترم من سلالة نقيّة، من أولئك الأشخاص الذين يُسَلِّمون على الخدم بأسمائهم، وهو يحب ... أوفيليا حدّ العبادة.. فما الذي تريده أكثر من ذلك. أرادت بكلّ حسن نيّة أن تنفّذ أمر سيّدها، ولكنّ مساعيها كسجّانة لم تكن مجدية حيال مَكر العاشقين. إذ إنّ فيكتور وأوفيليا كانا يتدبّران الأمور ليلتقيا في أوقات وأمكنة غير متوقّعة: في بار وينيبيغ عندما يكون مغلقًا، وفي فنادق رخيصة، وفي حدائق وفي دور سينما، وبتواطؤ دائم تقريبًا من السّائق. كانت تتوافر لأوفيليا أوقات فراغ كثيرة، بعد مغافلة رقابة خوانا، ولكنّ فيكتور الذي يعيش لحظة بلحظة وهو يركض من جانب إلى آخر من أجل إنجاز واجباته في الدراسة وفي الحانة، كان يجد مشقّة كبيرة في التفلّت لمدّة ساعة من هنا، وساعة أخرى من هناك، يقضيها معها. أهمل أسرته تمامًا. لاحظت روزر التبدُّل في روتينه، وواجهته بصراحتها المعهودة. «إنّك واقع في الحبّ، أليس كذلك؟ لا أريد أن أعرف من هي، ولكنّني أطالبك بالتكتّم. إنّنا ضيوف في هذه البلاد، وإذا ما ورّطت نفسك في مشكلة فسوف يطردوننا. هل هذا واضح؟» أغضبته صرامة روزر، مع أنّها كانت تتلاءم تمامًا مع اتّفاق زواجهما الغريب!

في شهر تشرين الثاني/نوفمبر، مات الرّئيس بيدرو أغيرّي ثيردا بداء السلّ، بعد ثلاث سنوات فقط من ولايته. الفقراء الذين استفادوا من إصلاحاته، بَكوه كما لو أنّه أبوهم في مأتم لم يُعرف له مثيل بالحزن والتأثّر. حتّى إنّ خصومه من قوى اليمين اضطرّوا إلى الاعتراف بنزاهته، وتقبُّل رؤيته مكرهين ـ كان قد شجّع التصنيع والصحّة والتّعليم، ولكنّهم لن يسمحوا لتشيلي بأن تنزلق نحو اليسار. فالاشتراكيّة جيّدة

t.me/qurssan

ا وفيت الذين يعيشون بعيدًا جدًّا، وليسوا سوى برابرة! ولكنّها لن هم أبدًا لوطنهم. وروح الرّئيس المتوفّى العلمانيّة والدّيمقراطيّة ما هي لا سابقة خطيرة يجب عدم السماح بأن تتكرّر.

التقى فيليبه دل سولار مع آل دالماو في جنازة الرّئيس. لم يكونوا « التقوا منذ شهور. وبعد موكب الجنازة، دعاهما لتناول الغداء والاطّلاع على آخر التطوّرات. عرف أنّ كليْهما يحرز تقدُّمًا، وأنّ مارسيل، الذي ام بكمّل السنتيْن بعد، قد بدأ يتلعثم بعبارات بالكتلانيّة والإسبانيّة. و حدّثهما بدوره عن أسرته، عن أنّ أباه مريض في القلب، وأنّ أمّه تنوي أخذه للحجّ في معبد سانتا روسا دي ليما، لأنّ هنالك نقصًا مؤسفًا القدّيسين المحلّيّين، وأنّ زفاف أخته أوفيليا قد تأجّل. لم يلحظ في فيكتور شيئًا من الحركة التي هزّته من الداخل لدى سماعه يتحدّث عن أوفيليا، ولكنّ روزر أحسّت بردّة فعل في جلدها، وعرفت عندئذٍ، بدون أيّ شك، من هي عشيقة زوجها. كانت تفضّل لو أنّ هويّتها ظلّت سرًّا، لأنّ ذكر اسمها يتحوّل إلى واقعٍ لا يُمكن تجنّبه. كان الوضع أسوأ بكثير ممّا يُمكن تصوُّره.

- قلت لك أن تنساها، يا فيكتور! أنّبته روزر في تلك اللّيلة، عندما صارا وحدهما.

- لا أستطيع، يا روزر. أتتذكّرين كيف أحببتِ وليام؟ وكيف ما زلتِ تحبينه؟ هذا هو ما يحدث لي مع أوفيليا.

- وماذا عنها هي؟

- الحبّ متبادل. هي تعلم أنّه لا يُمكن لنا أبدًا أن نكون معًا بصورة علنيّة، وتتقبّل ذلك.

t.me/qurssan

ـ إلى متى تظنّ أنّ هذه الصّغيرة ستتحمّل البقاء في دور العنسه؟
إنّ في انتظارها حياة امتيازات. ولا بدّ أن تكون مجنونة إذا ضحّت بذلك من أجلك. أكرّر لك، يا فيكتور، إذا ما خرج هذا الأمر إلى العلن، فسوف يطردوننا ركلًا بالأقدام من هذه البلاد. إنّهم أناس متنفّذون.

ـ لن يعلم أحد بالأمر.

ـ كلّ شيء يُعرف عاجلًا أو آجلًا.

أُلغي زفاف أوفيليا بذريعة سوء حالة العروس الصحّيّة، ورجع ماتياس إيثاغيرّي إلى وظيفته في الباراغواي، وكان قد غادرها بصورة متسرّعة من دون إذن من رئيسه المباشر أو من وزارة الخارجيّة. هروبه من مكان عمله كلّفه تنبيهًا من دون أيّة تبعات أخرى، لأنّه كان قد أظهر مهارات قليلة التداول في الميدان الدّبلوماسيّ، وتوصّل إلى دخول أجواء سياسيّة واجتماعيّة، حيث لم يكن بإمكان السّفير، وهو رجل ضغائن وضئيل الموهبة، أن يصل إليها. أمّا أوفيليا، فعوقبت بالبطالة الإجباريّة. ووجدت الشابّة نفسها، وهي في الحادية والعشرين من عمرها، تجلس متقاطعة الذراعيْن في البيت، ضجرة حتّى الموت، بينما خوانا نانكوتشيو تراقبها ولا ترفع بصرها عنها. لم يفدها في شيء التّذرّع بأنّها قد بلغت سنّ الرشد بحسب القانون، ذلك أنّه ليس لديْها مكان تذهب إليه، وليست قادرة على توفير نفقاتها بنفسها، مثلما أبلغوها بوضوح. «كوني حذرة جدًّا، يا أوفيليا، لأنّك إذا خرجتِ من باب البيت، فلن تعودي للدخول إليه»، قال لها أبوها متوعّدًا. حاولت الحصول على تعاطف فيليبه أو إحدى أخواتها، ولكنّ العائلة المتماسكة رصّت الصفوف لحماية شرف الأسرة، ولم تحصل أوفيليا في نهاية المطاف إلّا

t.me/qurssan

ءال مساعدة السّائق، وهو رجل استقامة قابلة للتفاوض. انتهت حياتها الاجتماعيّة، إذ كيف يمكن لها الذهاب إلى حفلات في الوقت الذي تُعرض أنّها مريضة. فكانت حالات خروجها الوحيدة هي زياراتها لأديرة الفقراء مع جمعيّة السيّدات الكاثوليكيّات، وإلى القدّاس مع أسرتها، وإلى دروس الفنّ، حيث من الصّعب أن تلتقي بأحد من وسطها. وكانت قد توصّلت، بعد نوبة عصبيّة ملحميّة، إلى دفع أبيها للموافقة على مسألة الدروس. وكانت لدى السّائق تعليمات بأن ينتظرها عند الباب خلال ثلاث أو أربع ساعات تقضيها في ورشة الرّسم. مضت عدّة أشهر من دون أن تحقّق أوفيليا تقدّمًا يُذكر في دراستها الفنّ، مثبتة بذلك أنّها تخلو من الموهبة، مثلما صار يُعرف في الأسرة. والحقيقة، أنّها كانت تدخل مدرسة الفنّ من البوابة الرّئيسية، مسلّحة بأقمشة لوحاتها ومنصبها ورسومها، فتجتاز المبنى وتخرج من الباب الخلفيّ، حيث ينتظرها فيكتور. كانت المواعيد قليلة التواتر، لأنّ فيكتور يجد صعوبةً في موافقة أوقات فراغه القليلة مع مواقيت دروسها.

كان فيكتور يمضي كمَن لم ينم طوال اللّيل، بعينيْ من يمشي وهو نائم، مستنفد القوى، بحيث إنّ النعاس يغلبه في بعض الأحيان قبل أن تتمكّن حبيبته من خلع ملابسها أثناء مواعيدهما في الفندق. وبالمقابل، كانت روزر تتباهى بطاقةٍ لا تُضاهى. لقد كانت تعتاد على المدينة، وتتعلّم التعامل مع التشيليّين، وهم في العمق يشبهون الإسبان بكَرَمهم ونَزَقهم ومأساويّتهم؛ وقد قرّرت أن تعقد صداقات، وأن تُكوِّن لنفسها سمعة جيّدة كعازفة بيانو. كانت تعزف في الإذاعة، وفي فندق كريّون، وفي الكاتدرائيّة، وفي أنديةٍ وبيوتٍ خاصّة. وذاع صيتها بأنّها فتاة حسنة المظهر وطيّبة العادات، قادرة على العزف سماعيًا كلّ ما

t.me/qurssan

يُطلب منها؛ يكفي تصفير لحظة من اللَّحن لتقوم خلال ثوانٍ بعزفه على البيانو! لقد صارت الاحتياطيّ المثاليّ للحفلات والمناسبات الوقور. تكسب أكثر بكثير ممَّا يكسبه فيكتور في حانة وينيبيغ، ولكنْ كان عليها أن تكتشف دورها كأمّ؛ لم يكن ابنها يدعوها «ماما»، وإنَّما «سيِّدة»، حتى بلوغه السنة الرابعة. وأوَّل كلمات نطقها الصبيّ كانت «نبيذ أبيض» بالكتلانيَّة، يتلفَّظ بها من حاويته وراء منضدة كونتوار حانة أبيه. كان فيكتور وروزر يتناوبان حمله في الجعبة على الظهر، إلى أن صار ثقيلًا الضيق ودفء الجعبة الملتصقة بجسد أمّه أو أبيه كانا يمنحانه الأمان؛ لقد كان طفلًا هادئًا، صامتًا، يتسلَّى وحده، ونادرًا ما يطلب شيئًا ما. كانت أمّه تأخذه إلى الإذاعة وأبوه إلى الحانة، ولكنَّه يقضي معظم الوقت في بيت أرملة لديْها ثلاث قطط، تقوم برعايته والعناية به مقابل مبلغ زهيد.

وخلافًا لما هو متوقَّع، راحت علاقة فيكتور وروزر تتعزَّز في ذلك الزمن المضطرب، حيث لم يكن هنالك تلاقٍ تقريبًا بين حياتيْهما، وكان قلبه مشغولًا بامرأة أخرى. لقد تحوَّلت الصداقة الطويلة إلى تواطؤ، حيث لا متَّسع للأسرار أو الشكوك أو الإساءات؛ انطلاقًا من قاعدة أنْ أيًّا منهما لن يتسبَّب أبدًا بأيّ أذيَّة للآخر، وإذا ما حدث ذلك، فسيكون مجرَّد خطأ. كان كلّ منهما يحمي ظهر الآخر. وبهذه الطريقة، كان بإمكانهما تحمُّل بؤس الحاضر وأشباح الماضي.

خلال الشهور التي أمضتها روزر في بيربينيان، عندما كانت تعيش مع الكويكرز، تعلَّمت الخياطة. وفي تشيلي، اشترت بأوَّل نقود وفَّرتها ماكينة خياطة سنجر، ببدَّالة تُحرَّك بالقدميْن، سوداء اللَّون، لامعة، مزدانة بحروف وأزهار مذهَّبة، وأعجوبة في الفعاليَّة. الصوت الإيقاعيّ لماكينة الخياطة كان يحاكي تمارين البيانو، ولدى الانتهاء من خياطة

t.me/qurssan

. . أو تَبّانٍ لطفل تشعر بالرضى، مثلما تشعر به عند تلقّيها تصفيق
الجمهور. كانت تستنسخ من مجلّات الأزياء، وتتجوّل دومًا بملابس
... ومن أجل حفلاتها الموسيقيّة، خاطت ثوبًا طويلًا رصاصيَّ اللّون،
. انت تضيف إليه أن تنزع منه شرائط متعدّدة الألوان، وأكمامًا قصيرة
أو طويلة، وياقة وأزهارًا ومشابك زينة، بحيث تبدو في كلّ حفلة كما
لو أنّها تلبس ثوبًا مختلفًا. وكانت تسرّح شعرها على الطريقة القديمة،
.م عقصة في مؤخّرة الرأس مزيّنة بأمشاط وبروشات، وتطلي أظفارها
وشفتيْها بالأحمر، مثلما ستظلّ تفعل حتّى نهاية حياتها، عندما صار
الشّيب يغزو شعرها، وصارت شفتاها جافّتيْن. «امرأتك جميلة جدًّا»،
هذا ما قالته أوفيليا لفيكتور في إحدى المناسبات. كان قد التقى بها
صدفة في مأتم عمّ لها، وكانت روزر تعزف مقطوعات حزينة على أرغن،
بينما أقارب المتوفّى يمرّون مقدّمين تعازيهم إلى الأرملة والأبناء. وعند
رؤيتها أوفيليا، توقّفت روزر عن العزف، وتبادلت معها التحيّة بقبلة على
الخدّ، وهمست في أذنها أن تعتمد عليها في كلّ ما يمكن أن تحتاج
إليه. فأكّد ذلك لأوفيليا أنّ رواية فيكتور عن العلاقة الأخويّة مع زوجته
كانت صحيحة. وقد فاجأ فيكتور تعليق أوفيليا حول مظهر روزر، لأنّه
لدى التّفكير بروزر، كانت الصورة التي ترد إلى ذهنه هي صورة الفتاة
النحيلة والبسيطة في إسبانيا، البنت المخذولة فاقدة الحماية التي تبنّاها
أبواه، خطيبة وليام الضئيلة. وأن تكون روزر السّابقة تلك، أو التي أطرت
عليها أوفيليا، لا يبدّل الواقع الجوهريّ عن مدى وكيفيّة حبّه لها. لا
شيء، ولا حتّى المحاولة غير المحتملة للهرب مع أوفيليا إلى فردوس
شاطئ أشجار نخيل، يمكن أن يدفعه إلى الابتعاد عنها وعن الطفل.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثامن

1941 ـ 1942

والآن،
إذا رحتِ، شيئًا فشيئًا، تتخلّين عن حبّي،
سوف أتخلّى عن حبّك شيئًا فشيئًا
إذا ما نسيتني
فجأة
فلا تبحثي عني،
لأنني سأكون قد نسيتك

پابلو نيرودا،
«إذا ما نسيتني»،
أشعار القبطان

t.me/qurssan

t.me/qurssan

'عندما حبسوا أوفيليا في بيت شارع مار دي بلآتا، صارت اللّقاءات
'امراميّة في الفندق أكثر تباعدًا واقتضابًا. وفي حياته الجديدة،
..ث لا تتوافر له أوفيليا في أيّ لحظة، رأى فيكتور دالماو أنّ الزمن يطول
.بِدِ، وأنّه يُمكن له بين حينٍ وآخرٍ أن يتقبّل دعوة سلفادور ألليندي
'امب دور شطرنج. كان يحمل الفتاة الشابّة في روحه، ولكنّه لم يَعُد
.ماني التلهُّف الدّائم للهرب من أجل معانقتها خِفية، ولم يكن بحاجة
إلى الدراسة طوال اللّيل من أجل تعويض الساعات التي يقضيها معها.
ي الجامعة، كانت يتفلّت من الدروس النظريّة حيث لا أحد يهتمّ بتفقُّد
الحضور، إذ بإمكانه دراسة ذلك من الكتب ودفاتر الملاحظات. فكان
بركّز على المختبر، وعلى دروس التشريح وساعات الممارسة العمليّة
ي المستشفى، حيث عليه أن يُخفي خبرته العمليّة كيلا يتسبّب بإهانة
للأساتذة. وفي الحانة، كان ينجز بصورة تامّة مناوبته اللّيليّة، ويستغلّ
رصة اللّيالي التي يتضاءل فيها عدد الزبائن، وعينه على قفص الأطفال
الذي يضعون مارسيل فيه. وتبيّن أنّ جوردي مولينيه، الحذّاء الكتلانيّ،
هو شريك مثاليّ، فهو يرضى دومًا بأرباح حانة الوينيبيغ المتواضعة،
ويكون ممتنًّا لحصوله على مكان خاصّ، أكثر احتضانًا من بيته كرجل

t.me/qurssan

وحيد. فمن أجل تبادل الحديث مع أصدقاء، وشرب كاراخيّو[1] النسكافيه مع قليل من الكونياك، والاستمتاع بأطباق بلاده، وعزف ألحان أغنيات على الأكورديون. كان فيكتور قد اقترح عليه أن يعلّمه لعب الشطرنج، ولكنّ مولينيه لم يفهم قطّ الغاية من تحريك أحجار الشطرنج إلى هنا وإلى هناك على الرُّقعة من دون تحقيق أيّ مكسب ماديّ! في بعض اللّيالي، عندما يلاحظ مدى إنهاك فيكتور، يطلب منه أن يذهب للنوم ويحلّ هو محلّه بكلّ سعادة، مع أنّه لم يكن يقدّم للزبائن سوى النبيذ والبيرة والكونياك؛ أمّا تركيب الكوكتيلات، فلم يكن يعرف عنه أيّ شيء، ويعتبره تقليعة مفروضة من المخنّثين. وكان يكنُّ احترامًا كبيرًا لروزر ومحبّة لمارسيل؛ يمكن له قضاء لحظات طويلة منحنيًا وراء منضدة الكونتوار وهو يلعب مع الطفل: فقد كان يرى فيه الحفيد الذي يفتقر إليه. في أحد الأيّام، سألته روزر إذا ما كان قد تبقّى أحد من أفراد أسرته في كتالونيا، فأخبرها بأنّه غادر قريته بحثًا عن حياة منذ أكثر من ثلاثين عامًا، وأنّه كان بحّارًا في نوبي شرق آسيا؛ وحطّابًا في أوريغون؛ وسائق قطار، وبنّاء في الأرجنتين.. وباختصار، مارس مِهَنًا كثيرة قبل أن يصل إلى تشيلي ليجني أموالًا من مشغله لصنع الأحذية.

ـ فلنقل بادئ ذي بدء أنّه بقيتْ لي أسرة في تلك الأنحاء، ولكنْ من يدري ما الذي حلّ بها. خلال الحرب، كانوا منقسمين: البعض كانوا جمهوريّين، وكان آخرون مع فرانكو؛ هنالك أعضاء في الميليشيا الشيوعيّة من جهة، وكهنة وراهبات من جهة أخرى.

ـ أأنتَ على اتّصال بأحد منهم؟

---

(1) الكاراخيّو هو فنجان قهوة تضاف إليه جرعة صغيرة من الكونياك، أو مشروب قويّ آخر.

t.me/qurssan

ـ أجل، مع اثنيْن من الأقارب. لديَّ ابن عمّ ظلَّ مختبئًا حتّى نهاية الحرب، وهو الآن عُمدة القرية. إنّه فاشيّ، ولكنّه شخص طيّب.

ـ في أحد الأيّام، سأطلب منك معروفًا...

ـ اطلبيه الآن حالًا، يا روزر.

ـ أثناء الانسحاب من برشلونة، ضاعت حماتي، أم فيكتور، ولم نستطع معرفة أيّ شيء عنها. بحثنا عنها في مخيّمات التّجميع في فرنسا، وقمنا بالبحث والتّقصّي في جانبَي الحدود، ولكنْ من دون جدوى!

ـ حدث هذا لأناسٍ كثيرين. كثير من الموتى، والمنفيّين والمنتقلين! وكثيرون يعيشون متخفّين في السرّيّة! السجون ممتلئة إلى حدّ التخمة، وفي كلّ ليلة يُخرجون سجناء من دون تدقيق وكيفما اتّفق، ويعدمونهم رميًا بالرصاص.. هكذا، بلا مبرّر، وبلا محاكمة أو أيّ شيء مشابه. إنّها عدالة فرانكو. لا أريد أن أكون متشائمًا، يا روزر، ولكنْ يُمكن لحماتك أن تكون قد ماتت!

ـ أعرف ذلك. فكارمي تفضّل الموت على المنفى. لقد انفصلت عنّا ونحن في الطريق إلى فرنسا، واختفت في اللّيل من دون وداع، ومن دون أن تخلّف أثرًا. إذا كانت لك اتّصالات مع أحد في كتالونيا، فلربّما يستطيعون السؤال عنها!

ـ أعطني المعلومات، وسوف أتولّى الأمر، ولكن الأمل ضعيف، يا روزر. الحرب إعصار يخلّف في مروره الكثير من الدّمار.

ـ وتقول هذا الكلام لي، يا سيّد جوردي!

لم تكن كارمي هي الشخص الوحيد الذي تبحث روزر عنه.

t.me/qurssan

فأحد أعمالها غير النظاميّة، إنّما المتواترة بكثرة، كان في سفارة فنزويلا، دارة مدفونة بين أشجار حديقة وارفة، حيث يتمشّى طاووس متوحّد. فالنتين سانتشيث، السفير، كان ذوّاقةً محبًّا للمطبخ الجيّد والخمور الفاخرة، وقبل ذلك كلّه الموسيقى. ينتمي إلى سلالة موسيقيّين وشعراء وحالمين. كان قد قام بعدّة رحلات إلى أوروبا لإنقاذ ألحان منسيّة، ولديْه في صالونه الموسيقيّ مجموعة استثنائيّة من الآلات الموسيقيّة، ابتداء من قيثارة تُنسب إلى موزارت، وحتّى كنزه الأثمن ناي يعود إلى ما قبل التاريخ كان، على حدّ قول صاحبه، مصنوعًا من ناب ماموث. فكانت روزر تكتم شكوكها حول صحّة الحديث عن القيثارة أو الناي، ولكنّها تشكر كتب تاريخ الفنّ والموسيقى، التي يعيرها إيّاها فالنتين سانتشيث، وشرف كونها الوحيدة التي يسمحون لها باستخدام بعض قطع مجموعة آلاتهم الموسيقيّة. في إحدى اللّيالي، ظلّت لبعض الوقت مع مضيفها بعد أن غادر الزائرون، كانا يتناولان كأسًا، ويتحدّثان عن المشروع الغريب الذي خطر لها، وقد استوحته من مجموعة السفير، لتشكيل أوركسترا، ويريد هو أن يكون راعيها. وقبل الوداع، تجرّأت روزر على طلب مساعدته في العثور على شخص ضائع في المنفى. وقالت له: «اسمه أيتور إيبارّا، وقد ذهب إلى فنزويلا، فهناك له أقارب يعملون في تجارة البناء». بعد قرابة الشهرين من ذلك، اتّصلت به سكرتيرة من السفارة مع معلومة عن إنياكي إيبارّا وأبنائه، شركة مواد بناء في ماراكايبو. كتبت روزر عدّة رسائل بإحساس أنّها تلقي إلى البحر رسالة في قارورة. لم تتلقّ أيّ جواب قطّ.

ذريعة سوء حالة أوفيليا الصحّيّة التي استغلّتها الأسرة طوال عدّة شهور لتفسّر تأجيل زواجها من ماتياس إيثاغيرّي، تحقّقت تمامًا مع

t.me/qurssan

. ابات السنة التالية، عندما انتبهت خوانا نانكوتشيو إلى أنَّ الفتاة حُبلى. في البدء، كانت حالات التقيُّؤ الصباحيّ الذي حاولت خوانا، من دون جدوى، أن تعالجه بمغلي الشُمرة والزنجبيل والكمُّون، ثمَّ انتبهت إلى أنَّ تسعة أسابيع قد مضت من دون وجود حفاضات صحّيَّة بين الغسيل. في أحد الأيَّام، عادت لرؤية أوفيليا كمن تتقيَّأ أحشاءها في المرحاض، مواجهتها وهي تضع يديْها على خصرها، قائلة لها بتحدٍ: «سوف تخبرني مع من ورَّطتِ نفسك، قبل أن يكون أبوك هو من يتحرَّى ذلك». كان تجاهل أوفيليا بجسدها شبه مطلق؛ فحتى اللَّحظة التي سألتها فيها خوانا مع من تورَّطت، لم تكن تربط فيكتور دالماو بأسباب تلك الإزعاجات التي تصيبها، فكانت تنسبها إلى فيروس في الجهاز الهضميّ. في تلك اللَّحظة، أدركت ما يحدث لها، وحال الذعر دون تمكُّنها من الكلام. فألحَّت عليها خوانا: «من هو؟» فردَّت عليها أوفيليا عندما تمكَّنت من الكلام: «لن أخبرك ولو متُّ». وسيكون هذا هو جوابها الوحيد خلال الخمسين عامًا التالية.

تولَّت خوانا الموضوع بنفسها، وكانت تفكِّر بأنَّه يمكن للصلوات والأساليب البيتيَّة أن تحلّ المشكلة من دون إثارة شكوك الأسرة. قدَّمت نذرًا من عدَّة شموع زكيَّة الرَّوائح للقدِّيس يهوذا تداوس، قدِّيس الحالات المستعصية، وقدَّمتْ لأوفيليا شايًا من عشبة الرودا، وأدخلت سيقان بقدونس في رحمها. لقد أعطتها عشبة الرودا وهي تَعْلم أنَّها سامَّة، لأنَّها قدَّرت أن حدوث ثقب في المعدة يظلّ أقلّ خطورة من «هواتشو»، ابن زنا. ومع انقضاء أسبوع من دون التوصُّل إلى نتيجة سوى ازدياد مثير للذعر في التقيؤ وإنهاك لا يُقاوم، قرَّرت خوانا اللُّجوء إلى فيليبه، الشخص الذي تثق به دومًا. جعلته يُقسم لها أوَّلًا أنَّه لن يُخبر

t.me/qurssan

أحدًا. ولكنَّها حين أخبرته بما يجري، أقنعها فيليبه بأنَّ هذا السّر أكبر بكثير من أن يتحملاه وحدهما.

وجد فيليبه أخته أوفيليا ممدَّدة على السَّرير، متشنِّجة من الام البطن التي تسبِّبها عشبة الرودا، ومحمومة من الغمّ والقلق.

ـ كيف حدث هذا؟ سألها وهو يحاول الحفاظ على هدوئه.

ـ مثلما يحدث دومًا، ردَّت عليه.

ـ هذا أمر لم يحدث في عائلتنا من قبل.

ـ هذا ما تظنّه أنت، يا فيليبه! فهذا يحدث في كلِّ لحظة من دون أن يعلم الرجال به. إنَّها أسرار نسائيَّة.

ـ مع من فعلـ...؟ ـ تردَّد، من دون أن يدري كيف يقول ذلك، ومن دون أن يُغضبها.

ـ لن أخبرك ولو ميِّتة، كرَّرت الردّ.

ـ عليكِ إخباري، يا أختاه، لأنَّ المخرج الوحيد هو زواجك ممَّن فعل بك ذلك.

ـ هذا أمر مستحيل. فهو لا يعيش هنا.

ـ ما الذي تعنينه بأنَّه لا يعيش هنا؟ أينما يكون، سوف نجده، يا أوفيليا. وإذا لم يتزوَّجك...

ـ ما الذي تفكِّر بعمله؟ أتريد قتله؟

ـ باللّـه عليكِ! يا للكلام الذي تقولينه. سأتكلَّم معه بصرامة، وإذا لم ينفع هذا، فسوف يتدخَّل أبونا في الموضوع...

ـ لا! بابا لا!

t.me/qurssan

ـ يجب عمل شيءٍ ما، يا أوفيليا. من المحال إخفاء هذا الأمر، سوف يلحظ الجميع ذلك قريبًا، وستكون الفضيحة مرعبة. سوف أساعدك قدر استطاعتي. أعدك بذلك.

وأخيرًا، اتُّفقا على أن يُخبرا الأمّ، كي تقوم هي بتهيئة معنويّات زوجها؛ وبعد ذلك، سيرون ما الذي يُمكن عمله. تلقَّت لورا دل سولار الخبر بيقين أنَّ الرب يعمل أخيرًا على تصفية الحسابات معها على الكثير التي تدين به. فمأساة أوفيليا ليست سوى جزء من الثمن الذي عليها أن تدفعه للسماء، والجزء الآخر، الجزء الأغلى ثمنًا، هو أنَّ قلب الصَّغير ليوناردو يخفق بوثبات وصمت. مثلما كان الأطبّاء قد تنبأوا عند ولادته، فأجهزته ضعيفة، وحياته ستكون قصيرة. الطفل آخذ بالانطفاء من دون مهرب، بينا أمّه المتشبّثة بالصلاة وبالتعامل مع القدّيسين، ترفض تقبُّل المؤشّرات الجليّة. أحسَّت لورا كما لو أنّها تغرق في مخاضةٍ وحلٍ كثيف، وتجرّ معها أُسرتها كلُّها. بدأ وجع الرأس فورًا، ضربة هراوة على الرقبة، أظلمت بصرها، شوَّشتها. كيف ستخبر إيسيدرو بذلك؟ لا يُمكن لأيّ استراتيجيّة أن تخفّف من وقع الصدمة أو من ردّ فعله. لا مُتّسع إلّا لقليل من الانتظار، لعلَّ الرّفق الإلهي يحلّ مشكلة أوفيليا بصورة طبيعيّة ـ حالات حبل كثيرة تُحبَط في البطن، ولكنَّ فيليبه أقنعها بأنّهم كلّما انتظروا لوقت أطول، يصبح الوضع أكثر صعوبة. تولّى هو نفسه مهمّة عقد اجتماع مغلق مع أبيه في المكتبة، بينما كانت لورا وأوفيليا معتكفتيْن في أقصى البيت، تصلّيان بحماسة شهداء الدين.

مضى أكثر من ساعة إلى أن جاءت خوانا في طلبهما، مع الأمر بأن تمثلا فورًا في المكتبة. استقبلهما إيسيدرو دل سولار عند العتبة،

t.me/qurssan

وبادر على الفور بتوجيه صفعتيْن إلى وجه أوفيليا، قبل أن تتمكّن لورا من الوقوف أمامه، ويتمكّن فيليبه من إمساكه من ذراعه.

ـ مَن التعيس الذي دمَّر حياة ابنتي؟ أخبريني من هو!، قال مزمجرًا

ـ لن أفعل ولو ميّتة، ردّت عليه أوفيليا وهي تمسح بكُمّها الدم النازف من أنفها.

ـ سوف أجعلك تخبرينني حتّى لو اضطررت إلى جلدكِ!

ـ افعل ما تشاء. لن أخبر أحدًا من هو.

ـ أبتاه، أرجوك... ـ قاطعه فيليبه.

ـ اصمت! أولم آمر بأن تبقى مخاطيَّة الخراء هذه محبوسة؟ أين كنتِ حضرتك، يا لورا، يا من أذنتِ بحدوث هذا؟ أظنّ أنّك كنت في الصلاة، بينما الشيطان يتجوّل في البيت. أتدركون مدى المهانة... والفضيحة؟ كيف سنواجه الناس! وواصل الصراخ بحدّة لوقت لا بأس به، إلى أن تمكّن فيليبه من مقاطعته للمرّة الثانية.

ـ اهدأ يا أبتاه، ولنبحث عن حلّ. سوف أقوم ببعض التحرّيات...

ـ تحرّيات؟ ما الذي تعنيه؟ سأله إيسيدورو، براحة مفاجئة، لأنّه لم يكن هو من عليه أن يقترح ما لابدّ منه.

ـ تشير إلى أنّك ستُجري لي عملية إجهاض، قالت أوفيليا من دون تأثّر.

ـ وهل يخطر لك حلّ آخر؟ واجهها إيسيدرو.

عندئذٍ، تدخّلت لورا دل سولار أوّل مرّة لتقول بصوت مرتعش، ولكنّه واضح جدًّا، إنّ هذا عمل لا يُمكن مجرّد التّفكير فيه، لأنّه خطيئة مميتة.

t.me/qurssan

ـ سواء أكان خطيئة أم لم يكن، هذه المشكلة لا تُحل في السّماء، ا، هنا على الأرض. سنفعل ما هو ضروريّ، وسيتفهَّم الربُّ ذلك.

ـ لن نتَّخذ أيّ إجراء قبل أن نتحدَّث مع الأب أوربينا، قالت لورا.

هرع الأب بيثنتي أوربينا استجابة لدعوة آل دل سولار في تلك الليلة بالذات. مجرَّد حضوره بثَّ فيهم الطمأنينة؛ كان يشعّ بذكاء وحزم ..، بعرف كيف يصارع أرواحًا قلقة، ومن له اتِّصال مباشر بالربّ. تقبّل ذاس نبيذ أبورتو الذي قدَّموه إليه، وأعلن أنّه سيتكلَّم مع كلّ واحد ..هم على انفراد، وسيبدأ بأوفيليا التي كان وجهها في أثناء ذلك قد بورّم، وكانت إحدى عينيْها مغمضة. ظلَّ معها قرابة الساعتيْن، ولكنَّه لم ..وصَّل كذلك إلى جعلها تعترف باسم العشيق، ولا أن تذرف دموعًا. «ابس ماتياس، لا تحمّلوه المسؤوليّة»، كرَّرت أوفيليا ذلك عشرين مرّة، مثل نغمة مكرورة. كان أوربينا معتادًا على تنويم أتباعه مغنطيسيًّا بالتخويف، ولكنَّ برودة هذه الفتاة الجليديَّة توشك أن تُخرجه عن طوْره. كان الوقت قد تجاوز منتصف اللَّيل عندما انتهى من الحديث مع أبوي الخاطئة وأخيها. وقد استجوب كذلك خوانا التي لم تستطع توضيح أيِّ شيء، لأنَّه لا شكَّ لديْها فيمن كان ذلك العشيق الغامض. «لا بدَّ أن يكون الرُّوح القدس، يا أبتاه»، توصَّلت إلى القول بمراوغة.

استبعد الأب أوربينا اقتراح الإجهاض فورًا، لأنّه جريمة أمام القانون، وخطيئة لا تغتفر أمام الربّ، المتحكِّم الوحيد بالحياة والموت. هنالك بدائل، ولسوف يدرسونها خلال الأيَّام التالية. الأمر المهمّ يتمثَّل في إبقاء المسألة ضمن جدران البيت. يجب ألَّا يعلم بذلك أحد، ولا حتَّى أختيْ أوفيليا، ولا أخاها الآخر المنهمك في قياس شدَّة الأعاصير في منطقة الكاريبيّ. «إنَّ للتقوّلات أجنحة»، مثلما اعتاد إيسيدرو القول؛

t.me/qurssan

والأمر المهمّ هو الحفاظ على سمعة أوفيليا وعلى شرف العائلة. ومد[...]
أوربينا كلّ واحد منهم بنصائحه: فنصح إيسيدرو بأن يتجنّب العن[...]
لأنّه يقود إلى الخطأ، بينما المطلوب في هذه الحالة أقصى ما يُمكن [...]
الحذر؛ ونصح لورا بأن تواصل الصلوات والإسهام في أعمال الإحـ[...]
التي تقدّمها الكنيسة؛ ونصح أوفيليا بالندم وبأن تعترف، لأنّ شهو[...]
الجسد ضعف، ولكنّ رحمة الربّ غير متناهية. وأخذ فيليبه جانبًا، وقال
له إنّ عليه أن يكون دعامة أسرته في هذه الأزمة، وأن يذهب للّقاء به في
مكتبِه كي يتوافقا على وضع خطّة.

تبيّن أنّ خطة الأب أوربينا مجرّد بساطة بدائيّة. تُمضي أوفيليا
الشهور القادمة بعيدًا عن سنتياغو، حيث لا يراها أحد من المعارف،
وبعد ذلك، عندما لا يعود بالإمكان إخفاء تضخُّم البطن، تذهب إلى
عزلة في أحد أديرة الراهبات، حيث ستكون في رعاية جيّدة إلى أن
تضع وليدها، وتتلقّى العون الرُّوحيّ الذي هي بحاجة كبيرة إليه. «بعد
ذلك؟» سأله فيليبه. فأجابه: «بعد ذلك، يقدِّم الطفل أو الطفلة لتتبنّاه
عائلة محترمة. وهذا أمر سوف أتدبّره بنفسي. وسيكون عليك أنت
أن تهتمّ بطمأنة أبويك وأختك، وأن تتولّى بعض التّفاصيل. ولسوف
تكون هنالك بعض النفقات بالطبع..».. أكّد له فيليبه أنّه سيتولّى ذلك
شخصيًّا، وسيقدّم تعويضًا لراهبات الدير أيضًا. وطلب منه فيليبه كذلك،
عند اقتراب موعد الولادة، أن يحصل على إذن للخالة تيريسا، وهي
راهبة من طائفة أخرى، كي تكون إلى جانب ابنة أختها.

الشهور التالية في إقطاعيّة العائلة كانت ماراتون صلوات، ونذورًا
للقدّيسين، وتوبة وتكفيرًا وأعمال إحسان من جانب دونيا لورا، بينما
كانت خوانا نانكوتشيو تركض في الروتين البيتيّ، تُعنى بالصّغير، الذي

t.me/qurssan

٢٠١٠ إنّني محطَّمة وضائعة، مثلما يقول الجميع، فليس هناك من يهتمّ
... براني. سأكون عازبة بدينة». أسلمت نفسها بلين ليد الأب أوربينا
... أسرتها، من دون أن تشارك في اتّخاذ القرارات بشأن الطفل الذي
ولد. مثلما تقبّلت الاختفاء في الرّيف والعيش بسرّيّة، رضخت لتقبُّل
... الذي انتهى الكاهن والظروف المحيطة إلى ترسيخه في ذهنها،
وصّلت إلى القناعة بأنّ التبنّي أمر لا مفرّ منه. وأنّه لا وجود لمخرج
أمر أمامها. وكانت أمّها قد قالت لها: «لو أنّني أكثر شبابًا، لقلت إنّ
الملك هو ابني، ولكان بمقدورنا تربيته ضمن الأسرة، ولكنّني في الثانية
والخمسين من العمر، ولن يصدّق أحد أنّه ابني». في تلك الفترة، كان
الحمل يحول دو... رة أوفيليا على التّفكير، فالشيئان الوحيدان اللذان
... ترغب فيهما هما النوم والأكل، ولكنّها في الشّهر السابع تقريبًا،
...لمّت عن تخيُّل أنّ هنالك ورم بداخلها وشعرت بصورة واضحة بحضور
الكائن الآخذ بالتّشكُّل. كانت الحياة قبل ذلك تتبدّى لها كخفق
جناحيْ طائر مذعور، ولكنّها الآن، لدى تلمّس بطنها تتمكّن من تخطيط
شكل الجسد الصغير، وتحديد قدمه أو الرأس. عندئذ، عادت لتناول
قلم الرصاص لترسم في دفاترها أطفالًا وطفلات يشبهنها هي نفسها،
وبلا أيّ ملمح من ملامح فيكتور دالماو.

كلّ خمسة عشر يومًا كانت تحضر إلى الإقطاعيّة داية لفحص أوفيليا، يرسلها الأب أوربينا. اسمها أوريندا نارانخو وهي تعرف، على حدّ قول الكاهن، أكثر من أيّ طبيب حول الأمراض النسائيّة، وهذه هي التسمية التي يُطلقها على التكاثر. وكانت تلك القابلة توحي بالثقة منذ الوهلة الأولى، بصليبها الفضّيّ المعلّق حول عنقها، وزيّ الممرّضة الذي ترتديه، وكانت تحمل حقيبة فيها أدوات مهنتها. تقيس

t.me/qurssan

بطن أوفيليا، وتقيس ضغطها، وتنصحها بالنبرة المؤثّرة لمن يتحا
إلى محتضرة. كانت أوفيليا تشعر نحوها بعدم ثقة عميق، ولكنّها
تبذل مجهودًا لتبدو لطيفة، لأنّ دور هذه المرأة سيكون أساسيًا في
الولادة. ولأنّها لم تكن تولي أهمّيّة لحسابات دورتها الشهريّة ولا
لتواريخ اللّقاءات مع عشيقها، لم تستطع أن تعرف متى بدأ حَمْلها، لكنّ
أوريندا نارانخو قدّرت التاريخ التقريبيّ للولادة من خلال حجم البطن
تنبّأت بأنّ الولادة ستكون معسّرة، بالنّظر إلى كون أوفيليا بكريّة، ولأنّ
بدانتها أكثر من المعقول، إنّما يمكنها الاطمئنان، لأنّها تمتلك خبرة
كبيرة جدًّا، وكانت قد أخرجت إلى الدُّنيا أطفالًا أكثر من أن تتّسع لهم
ذاكرتها. أوصت بنقل أوفيليا إلى الدير في سنتياغو، حيث توجد عيادة
مزوّدة بكلّ ما هو ضروريّ، وفي حالة حدوث أيّ طارئ، المكان قريب
من عيادة خاصّة. وهذا ما فعلوه. هرع فيليبه بسيّارة العائلة لنقل أخته،
ووجد نفسه أمام شخص لا يُمكنه التّعرُّف عليه! كانت بدينة جدًّا، مع
بقع على الوجه، تجرجر قدمَيْن هائلتين ببابوج، وتلتحف بعباءة بونتشو
تعبق برائحة خروف. «كون إحدانا امرأة مسألة كارثيّة، يا فيليبه»، قالت
له على سبيل توضيح الحالة. كانت أمتعتها تتألّف من ثوبيْن أموميَّيْن
لهما شكل الخيمة، وسترة سميكة رجاليّة، وعلبة ألوانها ـ علبة أدوات
رسم، وحقيبة بديعة تضمّ ملابس كانت أمّها وخوانا قد أعدّتاها للوليد.
أمّا القليل الذي حاكته هي نفسها، فكان مشوّهًا.

بعد أسبوع من الإقامة في الدير، استيقظت أوفيليا دل سولار فجأة
من حلم مزعج وهي مغطّاة بالعرق، وبانطباع من نامت شهورًا في غسق
مديد. كانت قد خُصّصت لها حُجيْرة فيها سرير معدنيّ، وفرشة صغيرة
من وبر الخيول وشعرها، وبطانيّتان من صوف خامّ، وكرسيّ، وصندوق

t.me/qurssan

..اله العودة إلى ماتياس. وأنهت الرّسالة بوداعٍ حاسم، مع تحذيره من ..اوله التواصل معها إلى الأبد.

تلقّى فيكتور رسالة أوفيليا باستسلام من كان ينتظرها، ومن استعدَّ لها مسبقًا. لم يؤمن قطّ بأنّه يُمكن لذلك الحبّ أن يزدهر، لأنّه، مثلما صحت له روزر منذ البداية، أشبه بنبتة بلا جذور، وسيكون مصيره المحتوم هو الذبول؛ وأكّدت له أن لا شيء ينمو في عتمة الأسرار، فالحبّ بحاجة إلى الضوء والفضاء كي يتمدّد ويتّسع. قرأ فيكتور رسالة أوفيليا مرّتيْن، ثمّ أعطاها لروزر قائلًا لها: «لقد كنتِ على حقّ، كما هي العادة دائمًا». اكتفت بنظرة سريعة لتقرأ بين السطور، ولتدرك أنّ برودة الموت التي كتبت بها أوفيليا تكاد تعجز عن إخفاء غضب رهيب، وظنّت أنّها قد عرفت السّبب الذي لم يكن يقتصر على انعدام الأمل بمستقبل مع فيكتور أو على ردّة فعل آنسة متقلّبة. توقّعت أن تكون الفتاة قد اختُطفت من قبل أُسرتها من أجل التّستر على عار حَبَلٍ غير شرعيّ، ولكنّها امتنعت عن إخبار فيكتور بشكوكها، لأنّ عمل ذلك بدا لها أمرًا شديد القسوة؛ فما الحاجة إلى تعذيبه بمزيد من الشكوك. كانت تشعر بمزيج التعاطف والأسى تجاه أوفيليا، بالغة النقاء والسذاجة؛ إنّها أشبه بجولييت تهزّها ريح عاطفة طفوليّة، ولكنّها بدلًا من روميو الشاب، تورّطت مع رجل متصلّب.

تركت الرّسالة فوق منضدة المطبخ. أمسكت فيكتور من يده، واقتادته إلى الأريكة، مكان الجلوس المريح الوحيد في مسكنها. «استلقِ هنا، أريد أن أحكّ رأسك». استلقى فيكتور على الأريكة واضعًا رأسه على تنّورة روزر، واستسلم لعذوبة أنامل عازفة البيانو في شعره، وليقين أنّها طالما هي موجودة، لن يكون وحيدًا في عالم النكبات هذا. فمادامت وطأة أسوأ الذكريات تبدو له محتملة وهو معها، فسوف يكون

t.me/qurssan

كذلك أيضًا الفراغ الذي ستخلّفه أوفيليا في منتصف صدره. كان ير،
أن يعترف لروزر بالألم الذي يخنقه، ولكنْ كانت تنقصه الكلمات لير،
لها ما عاشه مع أوفيليا، وكيف اقترحت عليه في إحدى اللّحظات ا
يهربا معًا، وكيف أقسمت له على أنّهما سيظلّان عاشقيْن إلى الأبد ا م
يكن قادرًا على قول ذلك، ولكنّ روزر كانت تعرفه جيّدًا، ومن المؤ
أنّها تعرف ما يشعر به. وكانا مستغرقيْن في هذه الحال، عندما استيقظ
مارسيل من قيلولته، وراح يناديهما صارخًا.

لم تخطئ روزر الحدْس في ما يتعلّق بمشاعر أوفيليا. ففي الأيّام التي مضت منذ معرفتها حقيقة وضعها، راحت عاطفتها تتحوّل إلى غضبٍ أصمّ يحرقها من الداخل. كانت تقضي ساعات وهي تحلّل سلوكها، وتتفحّص ضميرها، مثلما طلب منها الأب أوربينا، ولكنّها بدل النّدم بسبب الخطيئة المزعومة، كانت تتأسّف لبلاهتها الجليّة لم يخطر لها أن تسأل فيكتور عمّا يفعلونه للحيلولة دون حدوث حَمْل، لأنّها افترضت أنّه يُخضع ذلك لرقابته، وأنّه لن يحدث، لأنّهما يلتقيان بصورة متباعدة وغير متواترة. وهو تفكير سحريّ. أمّا فيكتور، فلكونه أكبر سنًّا وأكثر خبرة، يتحمّل مسؤوليّة ذلك الحادث الذي لا يغتفر؛ فهي، الضحيّة، سيكون عليها دفع عقوبة كليْهما. إنّه ظلمٌ هائل. تكاد لا تتذكّر سبب تشبُّثها بهذا الحبّ الذي بلا أمل، ومع رجل لا تجمعها به سوى أشياء قليلة مشتركة. فبعد أن تكون معه في الفراش، ودائمًا في مكان غير نظيف، ودائمًا بتسرُّع وبطريقة غير مريحة، يظلّان غير راضيين، مثلما كانت الحال في الملامسات المختلسة مع ماتياس. وتوقّعت أنّه كان يُمكن للأمر أن يبدو مختلفًا لو توافر لهما المزيد من الثقة والوقت من أجل أن يتعارفا، ولكنّها لم تتوصّل إلى أيّ شيءٍ من ذلك مع فيكتور. لقد

t.me/qurssan

،.. . في حبّ فكرة الحبّ، في القصّة الرّومانسيّة والماضي البطوليّ ،.. المحارب أو رجل حرب العصابات، كما اعتادت أن تسمّيه. لقد .. أوبرا لا بدّ لنهايتها بالضرورة من أن تكون مأساويّة. كانت تعرف . ... تور مغرم بها، على الأقلّ كلّ الغرام الذي يُمكن أن يحمله قلب .. بالجراح؛ أمّا من جانبها، فكان دافعًا وحسب، مجرّد وهم متخيّل، .. أخرى من نزواتها. كانت تشعر بعصبيّة شديدة، بأنّها عالقة ومريضة، .. تفاصيل المغامرة مع فيكتور، حتّى أشدّ تلك التّفاصيل سعادة، .. مشوّهة بالخوف من أنّها قد دمّرت حياتها. كان الأمر بالنّسبة إليه .. بلا مخاطر، أمّا بالنّسبة إليها فمخاطرة بلا متعة. والآن، في النهاية، .. من تعاني من النتائج، بينما يستطيع هو مواصلة حياته كما لو أنّ .. لم يحدث. إنّها تكرهه. أخفت عنه أنّها حُبلى، لأنّها خشيت، إذا ما .. فيكتور ذلك، أن يطالب بدوره كأب ولا يتركها بسلام. فكلّ قرار .. أن هذا الحَبَل يخصّها هي وحدها، وليس لأحد الحقّ بإبداء الرأي، .. لاسيّما هذا الرجل بالذات الذي سبّب لها ما يكفي من الأذى. لم .. تضمّن الرسالة شيئًا من هذا، ولكنْ روزر تكهّنت به.

بعد ثلاثة أشهر، توقّفت أوفيليا عن التقيؤ؛ داهمها سيل جارف من الطاقة بطريقة لم تعرفها من قبل قطّ. عندما أرسلت الرّسالة إلى فيكتور، كانت قد أغلقت هذا الفصل، وتوقّفت خلال أسابيع قليلة عن تعذيب نفسها بذكريات وتأمّلات حول ما كان يُمكن لها أن تكونه. بدأت تشعر بأنّها متحرّرة من عشيقها، قويّة، معافاة، وبشهيّة مراهقة؛ تقوم بمسيرات طويلة بخطوات راسخة في الرّيف، تتبعها الكلاب، تدخل إلى المطبخ لتطهو إنتاجًا غير متناهٍ من البسكويت والخبز المُحَلّى لتوزيعه على أطفال الإقطاعيّة، وتُشغل نفسها برسم لوحات زيتيّة مع ليوناردو،

t.me/qurssan

لطخات ألوان مهيبة تبدو أكثر جاذبيّة من المناظر الطبيعيّة نفسها، ومن لوحات الطبيعة الصامتة السّابقة، خطر لها أن تكوي ملاءات، أمام ارتباك الغسّالة وحيرتها، فكانت تقضي ساعات وسط مكاوي فحم ثقيلة، تتعرّق وتبتهج. «اتركوها، سوف تتجاوز هذا»، قالت خوانا. وكان طيب مزاج أوفيليا يبدو صادمًا لدونيا لورا التي تنتظر رؤيتها مستغرقة في البكاء، بينما هي تحوك ملابس طفل رضيع، ولكنّ خوانا ذكّرتها بأنّها هي نفسها كانت قد مرّت أيضًا بأشهر من البهجة خلال فترات حَبَلها، قبل أن يصبح ثقل البطن حِمْلًا لا يُطاق.

كان فيليبه يذهب إلى الإقطاعيّة مرّة كلّ أسبوع ليتولّى موضوع الحسابات والنفقات، وتوجيه التّعليمات إلى خوانا التي تحوّلت إلى سيّدة البيت، لأنّ سيّدتها كانت مشغولة بمفاوضات معقّدة مع القدّيسين يأتي بأخبارٍ من العاصمة، لا يهتمّ بها أحد، وبعبوات ألوان رسم ومجلّات لأوفيليا، ودببة من الفرو وصنوج للبيبي الصّغير الذي لا يتكلّم، والذي عاد إلى الحبو. وكان بيثنتي أوربينا يظهر مرّتيْن برائحة قداسته، مثلما تقول خوانا نانكوتشيو، التي ليست سوى نتانة مسوحه الكهنوتيّ الذي لا يُغسل ولوسيون الحلاقة، يجيء لتقييم الوضع، وتوجيه أوفيليا في الطريق الرّوحانيّ، وحثّها على تقديم اعتراف كامل. وكانت هي تستمع لكلماته الحكيمة بمزاج الغياب لدى أصمّ، من دون أن تُبدي أدنى تأثّر حيال اقتراب موعد تحوُّلها إلى أمّ، كما لو أنّ ما تحمله في بطنها مجرّد ورم. فكان أوربينا يفكّر: هذا يُسهّل كثيرًا مسألة التبنّي.

امتدّت الإقامة في الريف من أواخر الصّيف حتّى الشتاء، وكانت لها فضيلة تهدئة تضرّعات دونيا لورا الجامحة إلى السّماء. لم تكن تتجرّأ على طلب حدوث معجزة إجهاض تلقائيّ، يشكّل حلًّا للمأساة

t.me/qurssan

«الهالبة، لأنّ طلب ذلك لا يقلّ خطورة عن طلب موت زوجها، ولكنّها
... تُدخل الطلب بخفّة ملتوية في تضرُّعاتها وصلواتها. سلام الطبيعة،
إيقاعها الثابت والهادئ، النهارات الطويلة واللّيالي الصامتة، حليب
... الماشية الفاتر والرغويّ، الصواني الكبيرة المترعة بالفواكه وبالخبز
البلديّ الخارج لتوّه من الفرن الطينيّ، تتوافق مع مزاجها الخجول أكثر
بكثير من ضوضاء سنتياغو. ولو كان الأمر بيدها، لبقيت هناك إلى الأبد.
لقد استرخت أوفيليا أيضًا في ذلك الجوّ الرعويّ، وتحوّل الحقد على
الدكتور دالماو إلى زعلٍ خفيّ؛ لأنّه لم يكن المذنب الوحيد، فالمسؤوليّة
طالها هي أيضًا. بدأت تفكّر بماتياس إيثاغيرّي بشيء من الحنين.

كان البيت مشيّدًا بأسلوب الهندسة الكولونياليّة والبناء القديم، بجدران سميكة من اللبن الطينيّ، وقرميد، وعوارض خشبيّة وأرضيّة من الخزف، ولكنّه تحمّل جيّدًا زلزال عام 1939، خلافًا لبيوت أخرى في المنطقة تحوّلت إلى أنقاض؛ فقد حدثت شروخ فقط في بعض الجدران، وسقط نصف قرميد السطح. وفي فترة الفوضى التي تلت الزلزال، تضاعفت أعمال السطو في هذه الأنحاء؛ فكان هناك كسالى يبحثون عن لقمة عيشهم، وكثيرون من العاطلين عن العمل، ينسبون إليهم الأزمة الاقتصاديّة العالميّة في الثلاثينيّات وأزمة ملح البارود. عندما جرى الاستعاضة عن ملح البارود الطبيعيّ بآخر اصطناعيّ، آلاف العمّال تحوّلوا إلى عاطلين عن العمل، وكانت المعاناة من عقابيل تلك الأحداث لا تزال موجودة بعد عشر سنوات من وقوعها. ففي الأرياف، كان اللُّصوص يدخلون في اللّيل، بعد أن يسمّموا الكلاب، ويسطون على الثّمار والدّجاج، ويسرقون خنزيرًا في بعض الأحيان، أو حمارًا لبيعه. فكان الحرّاس يبعدونهم برصاص البنادق. ولكنّ أوفيليا لم تكن تعلم

t.me/qurssan

شيئًا من كلّ ذلك. ففي أيّام الصيف، وهي طويلة جدًّا، كانت أوميلي
تقضي أوقات الحرّ مستريحة في برودة الممرّات، أو وهي ترسم مشاهد
من الرّيف، لأنّ البيبي الصغير لم يَعُد قادرًا على مرافقتها لتلطيخ قطع
قماش كبيرة بضربات فرشاة. كانت ترسم على بطاقات صغيرة العربة الـ
تجرّها الجواميس والمحمَّلة بالحشائش الجافّة، وأبقار الحليب الناعسة
وفِناء الدجاج، والغسّالات، وجني محصول العنب. نبيذ آل دل سولا،
لا يُمكنه المنافسة في النوعية مع أنبذة أخرى أوسع شهرة. كان إنتاجه
محدودًا، وتباع الكمّيّة كلّها لمطاعم يرتبط إيسيدرو بعلاقات معها. كان
نبيذه أبعد ما يكون عن المردود التّجاريّ، ولكنْ من المهمّ بالنّسبة إليه أن
يُحسب ضمن أصحاب الكروم، هذا النادي الذي يضمّ عائلات معروفة

الشهر السادس من حَبَل أوفيليا تصادف مع بداية الخريف
الشمس تغيب باكرًا، واللّيالي الباردة والمظلمة تصبح أبديّة؛ يتدفّأون
ببطّانيّات ومدافئ فحم، ويستضيؤون بشموع، لأنّ عليهم الانتظار عدّة
سنوات قبل أن تصل تمديدات الكهرباء إلى تلك المناطق النائية. كان
تأثير البرد عليها ضئيلًا جدًّا، لأنّ راحة الشهور السّابقة أفسحت المجال
لمنحها ثقل لبوة بحريّة، وليس في الجسد وحده ـ فقد زاد وزنها خمسة
عشر كيلوغرامًا، وكانت ساقاها منتفختيْن كفخذيْ خنزير، وإنّما كذلك
في الرُّوح. توقّفت عن الرّسم، وعن التّجوّل في الحظائر، وعن القراءة،
وعن الحياكة والتّطريز، لأنّها صارت تغفو خلال أقلّ من خمس دقائق.
ارتضت مواصلة السّمنة، وأهملت نفسها إلى حدّ اضطرّت معه خوانا
نانكوتشيو على إجبارها على الاستحمام وغسل شعرها. وكانت أمّها
تنبّهها إلى أنّها هي نفسها قد أنجبت ستة أبناء، ولو أنّها اهتمت بنفسها
فربّما كانت ستحتفظ بشيء من جاذبيّة الشباب. «وما أهمّيّة ذلك، يا

t.me/qurssan

ا مع إلى أزمنة الحفاضات، وصار لا بدّ من تغذيته بملاعق صغيرة من
مصـ.ـدة الخضار المهروسة، ومراقبة الطفلة المنكوبة ـ مثلما خطر لها أن
نفي أوفيليا. وكان إيسيدرو دل سولار قد استقرّ في البيت بسنتياغو،
طاهرًا بأنّه قد نَسِي المأساة التي تتطوّر بعيدًا بين نساء أسرته، واثقًا من
أنّ طبيبه قد اتّخذ إجراءات لإسكات التقوّلات. كان قلقًا جدًّا من الوضع
السياسيّ الذي يمكن له أن يؤثّر على أعماله وصفقاته. فقوى اليمين
ا هُزمت في الانتخابات، والرئيس الجديد من الحزب الراديكاليّ،
ينوي مواصلة الإصلاحات التي بدأها سلفه. كان لموقف تشيلي في
الحرب العالميّة الثانية أهمّيّة حيويّة بالنّسبة إلى إيسيدرو؛ فعلى ذلك
الموقف، يعتمد تصديره لصوف الخراف إلى أسكتلندا، وكذلك إلى
ألمانيا، من خلال السويد كوسيط. كانت قوى اليمين تدافع عن الحياد
لماذا الالتزام مع ما يحمله ذلك من المجازفة بالخطأ! ولكنّ الحكومة
والشعب بصورة عامّة يؤيّدان الحلفاء. فإذا ما تمّ اعتماد هذا التّوجّه في
التأييد، فإنّ مبيعاته لألمانيا سوف تذهب إلى الجحيم، مثلما كان يكرّر.

تمكّنت أوفيليا من إرسال رسالة إلى فيكتور دالماو مع السّائق،
قبل أن يطردوه من العمل بصورة صاخبة. أمّا هي، فنقلوها سجينة إلى
الرّيف. فخوانا التي كانت تكره السّائق، اتّهمته من دون أيّة أدلّة بأنّها
شهدت بعض الوشوشات بينه وبين أوفيليا. «لقد قلت لك هذا من
قبل، يا سيّدي، ولكنّك لم تهتمّ بكلامي. هذا الجلف هو المذنب.
وبسببه، حبلت الصّغيرة أوفيليا». صعدت دماء إيسيدرو دل سولار كلّها
إلى رأسه، وأحسّ أنّ رأسه سينفجر. فإقدام شُبّان البيت على إساءة
استغلال الخادمات المنزليّات، بين حين وآخر، أمرٌ طبيعيّ، أمّا أن تفعل
ابنته الشيء نفسه مع عاملٍ لديه، له شعر هنديّ وأثر قرحة جدريّ في

t.me/qurssan

وجهه، فهو ما لا يُمكن تصوُّره بالنِّسبة إليه. تخيَّل بصورةٍ عابرة ا...
عارية بين ذراعَي السَّائق، هذا الصعلوك خبيث المولد، ابن الكلبة، م
الغرفة التي فوق الكراج، فكاد يُغمى عليه. وأحسَّ براحة هائلة عند...
أوضحت له خوانا أنَّ هذا الرجل لم يكن سوى القوَّاد، استدعاه إلى
المكتبة، واستجوبه بصوت صارخ كي يعترف له باسم المذنب. هدَّد
بإرساله إلى السِّجن، كي ينتزع منه رجال الدرك الحقيقة بضربه بأعقاب
البنادق وركله بالأقدام. وعندما لم يوصله هذا التَّهديد إلى نتيجة، حاول
أن يشتريه، ولكنَّ الرجل لم يستطع أن يُخبره بأيِّ شيء، لأنَّه لم يكن قد
رأى فيكتور أبدًا. واستطاع فقط أن يُخبره بالتوقيت الذي كان يوصل فيه
أوفيليا إلى مدرسة الفنّ، ويأتي بها من هناك. انتبه إيسيدرو إلى أن ابنته
لم تكن تحضر الدروس أبدًا؛ فمن المدرسة كانت تواصل طريقها مشيًا،
أو في سيَّارة أجرة إلى ذراعَي العشيق. لقد كانت الفتاة اللَّعينة أقلّ
بلاهة ممَّا كان يفترضه، أو ربَّما أنَّ الشَّبق هو الذي جعلها خبيثة وماكرة.

رسالة أوفيليا كانت تتضمَّن التَّفسير الذي كان عليها أن تقدِّمه لفيكتور شخصيًّا، ولكنَّها في اللَّحظات الوحيدة التي تمكَّنت من الاتِّصال به، لم يكن موجودًا في بيته ولا في حانة وينيبيغ. إنَّها معزولة في العمق؛ فأقرب هاتف موجود على بُعد خمسة عشر كيلومترًا. قالت له الحقيقة: إنَّ هذا الحبّ كان أشبه بسَكْرَةٍ شوَّشت عقلها، وأنَّها تفهم الآن ما كان يلحّ عليه دومًا، بأنَّ العقبات التي تفصل بينهما لا يُمكن تجاوزها. وتقبَّلت بنبرة تجاريَّة أنَّ ما شعرت به في الواقع موجة ولع طائش أكثر من كونها حبًّا، وأنَّها أسلمت نفسها وانساقت للجديد، ولكنَّها لا تستطيع التضحية بسمعتها وحياتها من أجله. أخبرته أنَّها ستذهب في رحلة مع أمِّها لبعض الوقت، وبعد ذلك، وبأفكار أشدّ وضوحًا، سترى

t.me/qurssan

التحقت بالمجتمع من دون أن تسمح لنظرات الفضول وللوشوشات وراء ظهرها بأن تُخجلها. وصلت إلى ماتياس إيثاغيرّي في الباراغواي همس الإشاعات، فاستبعدها على أنّها مثال آخر على النفاق والنمائم في بلاده. وحين عَلِم أنّ أوفيليا مريضة، وأنّهم أخذوها إلى الرّيف، كتب إليها مرّتيْن.. وعندما لم تردّ عليه، أرسل برقية إلى فيليبه يسأله عن صحّة أخته. فردّ عليه فيليبه: «تتابع حياتها بصورة عاديّة». كان يمكن لهذا الردّ أن يبدو مريبًا لأيّ شخص آخر باستثناء ماتياس الذي لم يكن أبله، مثلما كانت تظنّ أوفيليا، وإنّما هو واحد من أولئك الرجال الطيّبين. في نهاية السنة، حصل ذلك العريس العنيد على إجازة لترك موقع عمله مدّة شهر، والذهاب في إجازة إلى تشيلي، بعيدًا عن الحرّ الرّطب وزوابع الرياح في أسونسيون. وصل إلى سنتياغو في يوم خميس من شهر كانون الأول/ديسمبر. وفي يوم الجمعة، كان أمام البيت المتفرنس في شارع مار دل بلاتا. استقبلته خوانا نانكوتشيو مذعورة، كما لو أنّ رجال الدّرك هم من ظهروا أمامها، لأنّها ظنّت أنّه آتٍ لتأنيب الصّغيرة أوفيليا على ما فعلته، لكنّ نوايا ماتياس كانت مختلفة تمامًا، إذ كان يحمل في جيبه خاتم الجدّة الماسيّ. قادته خوانا عبر البيت الغارق في شبه ظلمة، لأنّهم في الصيف يُبقون ستائر النوافذ الخشبيّة مغلقة، وبسبب الحِداد الاستباقيّ على الصّغير ليوناردو. لا شيء من الأزهار الطازجة، مثلما هي الحال دومًا، ولا رائحة دُرّاق وشمّام مجلوب من الإقطاعيّة، والتي تعطّر الجوّ في الأحوال العاديّة، ولا شيء من الموسيقى يأتي من المذياع، ولا ترحيب الكلاب الصاخب.. لا شيء سوى الحضور الضاغط للأثاث الفرنسيّ، واللّوحات القديمة في أُطرها المذهّبة.

t.me/qurssan

وجد أوفيليا على شرفة الكاميليا، تحت مظلّة، ترسم بريشة ناعمة وبالحبر الصينيّ، وتحتمي من انعكاس أشعّة الشمس بقبّعة من القشّ. توقّف لحظة لتأمّلها، مغرمًا جدًّا بها كما في السّابق، من دون أن يلحظ الكيلوغرامات التي ما زالت زائدة لديْها. نهضت أوفيليا واقفة، وتراجعت خطوة إلى الوراء مشوّشة، لأنّها لم تكن تتوقّع أن تعود لرؤيته. قدّرته لأوّل مرّة كلّه وبكامله، باعتباره الرجل الذي هو عليه، وليس باعتباره ابن الخالة المتوسّل والمتواطئ الذي سَخِرت منه طوال ما يزيد على عشر سنوات. لقد فكّرتْ به كثيرًا خلال تلك الشهور، مضيفة فقدانه إلى الثمن الذي كانت تدفعه مقابل أخطائها. مظاهر شخصيّة ماتياس التي كانت تستثير ضجرها سابقًا، صارت الآن فضائل نادرة. بدا لها متبدّلًا، وأنّه أكثر نضوجًا ومتانة، وأكثر وسامة أيضًا.

جاءته خوانا بشاي بارد وحلوى حليب، وظلّت وراء شجيرة الردندرة تحاول سماع ما يقولانه. فبسبب موقعها في الأُسرة، يجب عليها أن تكون مطّلعة بصورة جيّدة، هذا ما كانت تكرّر قوله لفيليبه عندما يؤنّب سعيها للتنصّت والتلصّص من وراء الأبواب. «وما حاجة أوفيليا إلى تحطيم قلب الشاب ماتياس؟ وهو الشخص الطيّب جدًّا؛ لا يستحقّ أن يعاني هذا الغمّ. تصوّر، يا صغيري فيليبه، قبل أن يتمكّن هو من سؤالها عن أيّ شيء، راحت تروي له كلّ ما حدث. وبكلّ تفصيل.. فتصوّر»!

كان ماتياس قد استمع إليها صامتًا، يمسح العرق عن وجهه بمنديل، ويبدو مثقلًا باعتراف أوفيليا، وبالحرّ وعبق تلك الورود والياسمين التافه الذي يأتي من الحديقة. وعندما انتهت أوفيليا من الكلام، احتاج هو لوقت لا بأس به كي يرتّب الانفعالات، والتوصّل إلى

t.me/qurssan

ـ وما الذي تعرفينه أنتِ عن درجات الخطيئة، يا أوفيليا؟

ـ لا شيء.

ـ اعتراف غير كامل هو أشبه بعدم الاعتراف.

ـ حضرتك تموت من الفضول، أليس صحيحًا، يا أبتاه؟ ابتسمت أوفيليا.

ـ لا تكوني سفيهة! واجبي الكَهَني هو توجيهك إلى طريق الصواب والخير. وأظنّ أنّك تعرفين هذا!

ـ أجل، يا أبتاه، وأشكرك كثيرًا. لا أدري ما الذي كان بإمكاني عمله في حالتي هذه لولا مساعدتك، قالت ذلك بنبرة شديدة المذلّة، تشعّ منها السُّخرية.

ـ ما علينا، يا ابنتي. لقد كنتِ محظوظة، على الرّغم من كلّ شيء. إنّني أحمل لك أخبارًا طيّبة. لقد قمتُ بتحرّيات مستفيضة بحثًا عن أفضل زوجيْن محتمليْن من أجل تبنّي طفلك، ويمكنني أن أستبق الأمور بالقول إنّني قد وجدتهما على ما أظنّ. إنّهما زوجان طيّبان جدًّا، شغّيلان، وضعهما الماديّ مريح، وهما كاثوليكيّان بالطبع. لا يمكنني أن أقول أكثر من هذا، ولكنْ اطمئني، فسوف أتولّى بنفسي السّهر عليكِ وعلى طفلكِ.

ـ إنّها طفلة.

ـ كيف تعرفين ذلك؟ جفل الكاهن.

ـ لأنّني حلمتُ بذلك.

ـ الأحلام هي أحلام وحسب. ليس أكثر.

ـ هنالك أحلام نبوئيّة. ولكنْ مهما يكن الأمر، سواء أكان طفلًا أو طفلة، أنا أمّه وأنوي تربيته بنفسي. انسَ مسألة التبنّي، أيّها الأب أوربينا.

t.me/qurssan

ـ ما الذي تقولينه، حبًا بالرب!

تبيَّن أنَّ قرار أوفيليا حاسم، ولا رجعة عنه. حجج الكاهن وتهديداته لم تؤثر عليها. وفي ما بعد، عندما وصلت أمّها ومعها أخوها فيليبه في محاولة لإقناعها، معزَّزيْن بكبيرة الراهبات. استمعت إليهم أوفيليا بصمت، مستمتعة بعض الشيء، كما لو أنّهم يتكلّمون بلغة المنافقين، ولكنَّ هجمة التأنيب المتمادية والتَّحذيرات المُرعبة انتهت إلى التأثير عليها، أو ربّما كان السّبب هو أحد تلك الفيروسات الشتائيّة التي تقتل كلّ عام عشرات المسنّين والأطفال. فقد سقطت منهارة بارتفاع حادّ في درجة الحرارة، تهذي بالتُّحدُث عن حوريّات بحر، خائرة القوى من آلام الظهر، وينهكها السّعال الذي يحول دون تمكُّنها من تناول الطعام أو النوم. الطبيب الذي جاء به فيليبه وَصَف لها صبغة الأفيون مُذابة في نبيذ أحمر، وعدَّة عقاقير في قوارير زرقاء بلا أيَّة تسمية محدَّدة، ولكنّها مرقَّمة. وعالجتها الرّاهبات بمنقوع أعشاب من الحديقة، وبلبخات من بزر الكتّان من أجل الاحتقان. بعد ستّة أيّام، كان صدرها محروقًا من اللُّبخات، ولكنّها بدت في حالة أفضل. استطاعت النهوض، بمساعدة راهبتيْن مستجدَّتيْن تولَّتا العناية بها نهارًا وليلًا، وتمكَّنت من الوصول بخطوات صغيرة حتّى قاعة التسلية في الدير، حيث تجتمع الراهبات في أوقات راحتهنَّ، وهي حُجرة مرحة، مُفعمة بضياءٍ طبيعيّ، وأرضيّة خشبيّة صقيلة ولامعة، وأصص نباتات، ويتصدَّرها تمثال لعذراء الكارمن، شفيعة تشيلي، والطفل يسوع بين ذراعيْها، وكلاهما يضع تاجًا إمبراطوريًّا من الصفيح المذهّب. هناك أمضت الصباح متكوّرة على نفسها، متلحّفة ببطّانيّة، نظرتها تائهة في السّماء الغائمة من النافذة، ومرفوعة إلى الجنّة بمعادلة الأفيون والكحول الإعجازيّة. بعد ثلاث

t.me/qurssan

ساعات من ذلك، عندما ساعدتها الراهبات المستجدّات على النهوض والوقوف، رأين اللُّطخة على المقعد، وخطَّ الدم الذي يسيل على ساقيْها.

وفقًا لتعليمات الأب أوربينا، لم يتّصلن بالطبيب، وإنّما بأورينندا مارانخو. ظهرت المرأة بمزاجها الاحترافيّ وصوتها النادب، وقرّرت أنّه يمكن للولادة أن تحدث في أيّ لحظة، على الرّغم من أنّ حساباتها كانت تقدّر أنّه ما زال هنالك أسبوعان من الحَمْل. أصدرت التّعليمات للراهبات بأن يُبقين المريضة مضطجعة، وساقيْها إلى أعلى، ووضع كمّادات ماء بارد على بطنها. ثمّ أضافت: «صلّين! فالنبض يكاد لا يُسمع، الوليد ضعيف جدًّا». وبمبادرة منها، عالجت الراهبات النزيف بمزيج من شاي القرفة والحليب الفاتر مع بذور الخردل.

عند تلقّيه تقرير القابلة، وجّه الأب أوربينا الأمر إلى لورا دل سولار بأن تستقرّ في الدير لمرافقة ابنتها. لأنّ ذلك سيُشعر كلتيْهما بالسّعادة، على حدّ قوله، وسيساعدهما على المصالحة. فلفتت نظره إلى أنّه لا وجود لأيّ خصام بينهما، فأوضح لها أنّ أوفيليا غاضبة من الجميع، وحتّى من الربّ نفسه. قدّموا للورا حُجرة مشابهة تمامًا لحُجرة ابنتها، واستطاعت لأوّل مرّة في حياتها أن تجرّب سلام الحياة الدّينيّة العميق، والذي طالما رغبت فيه. تأقلمت على الفور مع تيّارات الهواء الجليديّة في المبنى، وعلى مواعيد الطقوس الصارمة. كانت تغادر الفراش باكرًا كي تنتظر بزوغ الفجر في المصلّى وهي تصلّي للربّ وتمجّده، وتشارك بتناول القربان في قدّاس السّابعة، وتتناول على الغداء حساء وخبزًا وجبنًا مع أعضاء الأخويّة الرّهبانيّة، بصمت، بينما يكون هناك من يقرأ بصوت عالٍ القراءة اليوميّة المقرّرة. وفي المساء، تتوافر لها ساعات خاصّة للتأمّل والصلاة. وعند حلول اللّيل، تشارك في صلاة المساء.

t.me/qurssan

ويجري العشاء بصمت أيضًا، وهو بسيط ومتقشّف مثل الغداء، لكنّه يُستكمل بقليل من السّمك. كانت لورا تشعر بالسّعادة في ذلك الملجأ النسويّ، حتّى إنّ تلوّيات الجوع وغياب الحلويّات صارت تبدو لها ممتعة لدى تفكيرها أنّها ستخفّض وزنها بذلك. أحبّت الحديقة الفاتنة، والممرّات الطويلة والفسيحة، حيثُ للخُطى وقع رنينِ كرنين صنّاجات الأصابع، وأحبّت شذى الشموع والبخّور في المُصلّى، وصرير الأبواب الثقيلة، وصوت الأجراس، والأناشيد، وحفيف المسوح، وتمتمة الصلوات. أعفتها الأمّ الكبيرة من العمل في البستان وورشة التطريز، ومن المطبخ وغسل الملابس، كي تتفرّغ للعناية البدنيّة والرُّوحيّة بابنتها أوفيليا. ويجب عليها، بتكليف من الأب أوربينا، أن تُقنع ابنتها بالموافقة على التبنّي، لأنّه يمنح الشرعيّة لهذا المخلوق الذي هو حصيلة الشبق، ويمنحها هي نفسها فرصةً لإعادة تكوين حياتها. كانت أوفيليا تتناول الإكسير السّحريّ ممزوجًا مع كأس نبيذ آخر، وتنام. مثل دميةٍ خامدة في فراشها الذي من وبر الخيل، ترعاها الراهبات المستجدّات، ويهدل لها ترنّم صوت أمّها، من دون أن تفهم ما تقوله. وقد كان الأب أوربينا من اللّطف بأن زارهما، وبعد أن تأكّد مرّة أخرى من عناد تلك الشابّة الضالّة، أخذ لورا دل سولار للتمشّي في الحديقة حاملًا مظلّة، تحت مطر خفيف جدًّا كأنّه الطّلّ. ولن يعلّق أيٌّ منهما بشيء إلى الأبد عن الموضوع الذي تحدّثا فيه.

تحدّثا عن الولادة التي كانت، بحسب ما أخبروه، طويلة ومُجهدة، وعن الأيّام التالية للولادة التي لم يَبق لدى أوفيليا أدنى قدر من الذاكرة عنها، كما لو أنّها لم تعشها، بفضل الأثير، والمورفين، وأشربة أورِيندا نارانخو السرّيّة الغامضة التي أدخلت أوفيليا في غيبوبة حميدة استمرّت

t.me/qurssan

طوال ما تبقّى من الأسبوع. بدأت تستيقظ قليلًا، وكانت في حالة ضياع وغياب عن الوعي، نسيت معها حتّى اسمها. ولأنّ أمّها كانت تصلّي بلا توقّف وهي مستحمّة بالدّموع، كان على الأب بيثنتي أوربينا أن ينقل إليها الخبر السيّئ. ظهر عند أقصى سريرها، بعد أن كانت قد تخلّصت المنوّ من تأثير المخدّرات والعقاقير، واستعادت الوعي بما يكفي لتسأل عمّا حدث وأين هي ابنتها. «لقد أنجبتِ ابنًا ذكرًا، يا أوفيليا ـ أخبرها الأسقف بأشدّ نبرة مشفقة يستطيعها، ولكنّ الربّ، بحكمته، أخذه بعد دقائق قليلة من ولادته». وأوضح لها أنّ الطفل جاء مخنوقًا بالحبل السرّيّ حول عنقه، ولكنّهم تمكّنوا لحسن الحظّ من تعميده قبل موته. وهكذا، لن ينتهي به الأمر في اللمبوس، وإنّما في الفردوس مع الملائكة. لقد جنّب الربّ هذا الطفل البريء المعاناة والمهانة على الأرض، وبرحمته اللّامتناهية يوفّر لها هي أيضًا الخلاص. «صلّي كثيرًا، يا ابنتي. عليكِ أن تتحكّمي بغطرستك، وتتقبّلي المشيئة الإلهيّة. اطلبي من الربّ أن يسامحك ويساعدك على حمل عبء هذا السرّ وحدك، بكرامة وبصمت، طوال ما تبقى من حياتك». أراد أوربينا مواساتها بعبارات من الكتابات المقدّسة وبحُجج وبراهين استوحاها بنفسه، ولكنّ أوفيليا راحت تصرخ بصوت كأنّه عواء ذئب، وتفلّت من بين أيدي المستجدّات اللّاتي حاولن تثبيتها، إلى أن أجبروها على ابتلاع كأس أخرى من النبيذ الممزوج بالأفيون. وهكذا، من كأس إلى آخر، عاشت وهي شبه نائمة طوال أسبوعيْن كامليْن؛ وبعدهما، قدّرت حتّى الراهبات أنفسهنّ أنّه يكفي صلوات وأشربة، وأنّه لا بدّ من إعادتها إلى عالم الأحياء. وعندما استطاعت النهوض على قدميْها، تأكّدن من أنّها قد تضاءلت كثيرًا، وصار لها من جديد شكل امرأة، ولم تعد تشبه منطاد زيبلين!

t.me/qurssan

ذهب فيليبه لإحضار أخته وأمّه من الدير. طالبت أوفيليا برؤية قبر ابنها، فرجعوا باتّجاه الريف، إلى المقبرة الصّغيرة في القرية المجاورة، وتمكّنت هي من وضع أزهارٍ على المكان المحدَّد بصليب خشبيّ أبيض يحمل تاريخ الوفاة، ولكنْ بلا اسم، حيث يرقد الطفل الذي لم يتوصّل إلى أن يعيش. «كيف سنتركه هنا؟ إنّه بعيد جدًّا من أجل المجيء لزيارته»، قالت أوفيليا منتحبة.

عند العودة إلى البيت في شارع مار دل بلاتا، امتنعت لورا عن إخبار زوجها بما حدث خلال الشهور الأخيرة، لأنّها افترضت أنّ فيليبه يُطلعه على الأمور أوّلًا بأوّل، ولأنّ إيسيدرو يفضّل دومًا أن يعرف أقلّ ما يُمكن، مخلصًا بذلك لعادته في البقاء على هامش الهراء الانفعاليّ لنساء عائلته. استقبل ابنته بقبلة على جبينها مثلما يفعل في أيّ صباح عاديّ؛ وسوف يموت بعد ثلاثة وثلاثين عامًا من دون أن يكون قد سأل أبدًا عن الحفيد. بحثت لورا عن مواساة في الكنيسة وفي الحلويّات. وكان البيبي ليوناردو قد دخل المرحلة الأخيرة من حياته القصيرة، وصار يستحوذ بالكامل على اهتمام كلٍّ من أمّه وخوانا وبقيّة الأُسرة.. وبهذا، تركوا أوفيليا بسلام مع أحزانها.

لم يشعر آل دل سولار قطّ بجزع أنّهم قد تجنّبوا فضيحة حَبَل أوفيليا، لأنّ الأقاويل من هذا النوع تطير عادة مثل العصافير سريعة العبور في أجواء العائلة. لم يَعُدْ أيّ من أثواب أوفيليا وهي آنسة يتّسع لها، وفي مساعي شراء وطلبات تفصيل أثواب أخرى، تراخت أجواء الحزن قليلًا. كان البكاء يداهمها ليلًا، حين تكون ذكرى الطفل شديدة الزّخم، وتشعر بوضوح برفسه اللّعوب في بطنها، وبنقط حليب تقطّر من حلمتيْها. عادت إلى دروس الرّسم، بجدٍ في هذه المرّة،

t.me/qurssan

احفظ ملابسها ومنضدة خشبيّة خشنة. لم تكن بحاجة إلى ما هو أكثر من ذلك، وحمدت هذه البساطة الإسبارطيّة المتقشّفة التي تتوافق مع حالتها المعنويّة. كانت للحُجرة نافذة تطلّ على حديقة الراهبات، وفي منتصفها نافورتها الموريسكيّة، وأشجار هرمة، ونباتات غريبة، وصوانٍ خشبيّة فيها أعشاب طبّيّة، وتخترق الحديقة دروب نحيلة مرصوفة بأحجارٍ بين أقواس حديديّة، تغطّيها في الرّبيع ورود كثيفة متسلّقة. أيقظ أوفيليا الضوء الشتائيّ لذلك الفجر المتأخّر وهديل حمامة على النافذة. احتاجت لدقيقتيْن لتنتبه إلى مكان وجودها وما الذي حدث لها، لأنّها كانت عالقة في جبل من اللّحم، ثقيل إلى حدّ تبدو معه عاجزة عن التّنفُّس. دقائق السُّكون تلك أتاحت لها أن تتذكّر تفاصيل من الحلم الذي بدت فيه الفتاة التي كانتها في السّابق، خفيفة ورشيقة، وأنّها كانت ترقص حافية على شاطئ رمالٍ سوداء، الشمس تصفع وجهها، وشعرها يتلوّى بفعل النسيم المالح. وسرعان ما بدأ البحر يضطرب، وحملت موجةٌ طفلةً مغطّاة بالحراشف، وقذفت بها إلى الرمل، كما لو أنّها مسخ حوريّة بحر. ظلّت في الفراش عندما سمعت الناقوس يدعو للصلاة. وعندما مرّت، بعد ساعة من ذلك، راهبة مستجدّة تطرق على مثلّث معدنيّ لتعلن عن موعد الفطور. ولأوّل مرّة منذ زمن طويل، لم تشعر بأيّ شهيّة، وظلّت متناومة طوال فترة الصباح.

في هذا اليوم بالذات، عند المساء، في ساعة الصرّة بالمسبحة، وصل الأب بيثنتي أوربينا في زيارة. استقبلته زوبعة من المسوح السّوداء والقلانيس البيضاء، وصخب نساء متوحّدات يقبّلن يده، ويطلبن مباركته. إنّه رجل لا يزال شابًا ومتكبّرًا؛ يبدو متنكّرًا بمسوح الكهنوت. «كيف حال محميّتي الفتية؟» سألهنّ بطيبة قلب بعد أن استقرّ جالسًا،

t.me/qurssan

وفي يده فنجان من الشكولاته الكثيفة. ذهبت الراهبات بحثًا عن أوفيليا التي جاءت متمايلة مثل عقاب بحر على ساقيْن ضخمتيْن. مدَّ لها أوريا يده من أجل القبلة الإجباريّة، ولكنّها صافحتها مصافحة قويّة.

ـ كيف تشعرين، يا بُنَيَّتي؟

ـ كيف تريدني أن أشعر بمثل هذه البطِّيخة في بطني؟ أجابت هي بجفاء.

ـ أتفهَّم ذلك، يا ابنتي، ولكنْ عليكِ أن تتقبّلي هذه الإزعاجات، إنّها عاديّة في مثل وضعك؛ قدّميها إلى الرب كلّيّ القدرة. هذا ما تقوله الكتابات المقدَّسة: الرجل عليه أن يعمل بعرق جبينه، والمرأة بالألم تلد.

ـ ما أعرفه، يا أبتاه، أنّك لا تتعرَّق وأنت تعمل.

ـ حسن، حسن، أرى أنّكِ تتغصَّين.

ـ متى ستأتي خالتي تريسا؟ حضرتك قلت إنّك ستحصل لها على تصريح كي تأتي لمرافقتي.

ـ سوف نرى، يا ابنتي. تقول لي أوريندا نارانخو إنّه يُمكننا انتظار مجيء الطفل خلال أسابيع قليلة. تضرَّعي إلى رب آمالنا كي يساعدك، واستعدّي لهذا التطهُّر من الخطيئة. وتذكَّري أنَّ النّساء في لحظات إخراج الوليد إلى النُّور يسلِّمن أرواحهنَّ للربّ.

ـ لقد اعترفتُ، وتناولتُ خبز القربان منذ مجيئي إلى هنا.

ـ هل قدَّمتِ اعترافًا كلِّيًّا؟

ـ أتريد حضرتك أن تعرف إذا ما كنتُ قد أخبرتُ كاهن الاعتراف باسم أب الطفل... لا أرى ذلك ضروريًّا، لأنَّ المهمّ هو الخطيئة، وليس مع من ارتُكبت الخطيئة.

t.me/qurssan

انَّ شيئًا لم يتبدَّل في الحقيقة! فأوفليا ستظلّ المرأة الأجمل في العالم، الوحيدة التي أحبَّها دومًا، وسيظلّ يحبُّها حتَّى نهاية أيَّام حياته. حاول أن يقول ذلك بمثل بلاغة رسائله، ولكنَّ الكلمات الزاهرة خانته.

ـ أرجوكِ، يا أوفيليا، وافقي على الزواج منِّي.

ـ ولكنْ، ألم تسمع ما انتهيتُ من قوله لك؟ ألن تسألني من هو أبو الطفل؟

ـ ليس مهمًّا. الشيء الوحيد المهمّ هو إن كنتِ ما تزالين تحبِّينه.

ـ لم يكن حبًّا، يا ماتياس، كان سخونةً تهيُّجًا.

ـ إنَّه أمر ليست له أيّ علاقة بنا إذًا. أعرف أنَّكِ تحتاجين لبعض الوقت من أجل استعادة عافيتك، مع أنَّني أتوقَّع أنَّه لا يُمكن أن يستعاد أيّ شيء بعد موت ابن، ولكنْ عندما تكونين مستعدَّة وجاهزة، سأكون بالانتظار.

أخرج علبة المخمل الأسود الصَّغيرة من جيبه، ووضعها برفق على صينيَّة الشاي.

ـ وهل كنتَ ستقول الكلام نفسه لو أنَّ طفلًا غير شرعيّ بين ذراعيّ؟ قالت له متحدِّيَة.

ـ أجل، بالطبع.

ـ يُخيَّل إليّ أنَّ شيئًا من كلّ ما قلته لك لم يفاجئك، يا ماتياس! لا بدَّ أنَّك قد سمعت تقوُّلات. سمعتي السيِّئة ستظلّ تلاحقني أينما ذهبت. وهذا سيدمِّر مسيرتك الدِّبلوماسيَّة، وحياتك أيضًا.

ـ ستكون هذه مشكلتي أنا.

t.me/qurssan

من وراء أزهار شجيرة الردندرة، لم تستطع خوانا نانكوتشيو من رؤية أوفيليا وهي تتناول علبة المخمل، وتتفحّصها بتمعُّن فوق راحة يدها، كما لو أنّها خنفساء مصريّة، ولم تسمع سوى الصمت. لم تتجرأ على أن تُطلّ من بين أزهار الشجيرة المتشابكة، ولكنْ عندما بدا لها أنْ الصُمت قد استمرّ طويلًا، خرجت من مخبئها، ومثلت أمامهما مستعدةً لحمل الطَّبَق. عندئذٍ، رأت الخاتم في إصبع أوفيليا ـ الخنصر.

إنّهما يريدان الزواج من دون ضجيج أو صخب، ولكنّ هذا في نظر إيسيدرو دل سولار يعادل الاعتراف بالذنب، إضافة إلى أنَّ عرس ابنته يشكّل فرصة رائعة لإنجاز ألف واجب اجتماعيّ؛ وفي أثناء ذلك، توجيه صفعة إلى خبيثي النشأة والمولد ممّن يشيعون تقوّلات حول أوفيليا. لم يسمعها بنفسه، ولكنْ في أكثر من مناسبة بدا له أنّهم في نادي الاتّحاد يضحكون وراء ظهره. جرت التّحضيرات بحدودها الدُّنيا، لأنَّ كلّ شيء كان جاهزًا لدى العروسيْن منذ السنة الفائتة، بما في ذلك الملاءات والشراشف المطرّزة بالحروف الأولى من اسميْهما. وعادوا إلى نشر الإعلان المناسب على الصفحات الاجتماعيّة في جريدة *الميركوريو*، وقامت الخيّاطة على عجل بإنجاز ثوب زفاف العروس، وهو مشابه للثوب السابق، لكنّه أكثر اتّساعًا منه بكثير. وشرّفهما الأب بيثنتي أوربينا بتزويجهما بنفسه؛ وكان مجرّد حضوره كافيًا لترميم سمعة أوفيليا. وعند تهيئة العروسيْن لطقوس سرّ الزواج مع التّحذيرات والنصائح الصارمة، جرى تجاوز حساسيّة موضوع ماضي العروس، ولكنّ أوفيليا منحت نفسها متعة الإعلان عن أنّ ماتياس يعرف كلّ ما حدث، وأنّه ليس عليها أن تحمل هذا السرّ وحدها طوال ما تبقّى من حياتها.. وأنّهما سيتحمّلانه معًا.

t.me/qurssan

قبل الذهاب إلى باراغواي، أرادت أوفيليا العودة إلى المقبرة الرّيفيّة، حيث كان طفلها؛ فرافقها ماتياس. قوّما مَيَلان الصليب الأبيض الذي على القبر، ووضعا أزهارًا، وصلّيا. وقال لها ماتياس: «ذات يوم، عندما يصبح لدينا مكاننا الخاصّ في المقبرة الكاثوليكيّة، سوف ننقل طفلك ليكون معنا، مثلما يجب أن يكون».

أمضيا أسبوع شهر عسل في بوينس آيرس، قبل أن يواصلا برًّا إلى أسونسيون. وقد كانت تلك الأيّام القليلة كافية لأن تعرف أوفيليا أنّها بزواجها من ماتياس قد اتّخذت أفضل قرار في حياتها. «سوف أحبّه مثلما يستحقّ، سأكون وفيّة له وأوفّر له السّعادة»، عاهدت نفسها في أعماقها. وأخيرًا، تمكّن هذا الرجل العنيد والصبور مثل ثور أن يجتاز عتبة بيته، المجهّز بكثير من الدقّة والنفقات، حاملًا امرأته بين ذراعيْه. كانت تزن أكثر ممّا هو متوقّع، ولكنّه كان رجلًا قويًّا.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

القسم الثالث

عودات وجذور

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل التاسع
1948 ـ 1970

الكائنات جميعها
سيكون لها الحق
الأرض والحياة،
وهكذا سيكون أيضًا خبز الصباح...

بابلو نيرودا
«أغنية للخبز»، أغنيات بدائية

t.me/qurssan

t.me/qurssan

في صيف العام 1948، بدأ تقليد محدَّد لدى آل دالماو سيستمر لمدَّة عقد من السنين. روزر ومارسيل يذهبان في شهر شباط/فبراير إلى كوخ مستأجر على الشاطئ، بينما يبقى فيكتور في عمله، ويجتمع بهما في عطلات نهاية الأسبوع، مثلما يفعل معظم الأزواج التشيليّين الذين ينتمون إلى الوسط نفسه، ممَّن يفاخرون بأنَّهم لا يأخذون إجازات أبدًا، لأنَّه لا يُستغنى عنهم في عملهم. وبحسب رأي روزر، كانت تلك عبارة أخرى من قاموس المازوشيَّة الكريوليَّة المحلّيَّة، كيف يُمكن لهم التَّخلّي عن حرّيَّة العازبين الصيفيَّة التي يُمكنهم الاستمتاع بها. صحيح أنَّه سيُنظر باستياء إلى تغيُّب فيكتور عن المستشفى طوال شهر كامل، ولكنَّ السَّبب الأساسيّ لديه هو أنَّ شاطئ البحر يجلب له ذكريات سيّئة من مخيَّم اللّاجئين في أرجيليه ـ سور ـ مار. لقد قرَّر عدم العودة للمشي على الرِّمال. وفي شهر شباط/فبراير ذاك بالتَّحديد، توافرت لفيكتور فرصة أن يردَّ الجميل إلى پابلو نيرودا الذي اختاره للهجرة إلى تشيلي. كان الشاعر آنذاك أحد سيناتورات الجمهوريَّة، ووقع خصامٌ بينه وبين رئيس الجمهوريَّة الذي كان في صراع مع الحزب الشيوعيّ، على الرَّغم من أنَّ هذا الحزب قد دعمه في صعوده إلى السُّلطة. فلم يترك نيرودا إهانات إلّا ووجَّهها إلى ذلك الرجل «*منتَج الطبخ السياسيّ*»، وكان يعتبره

t.me/qurssan

خائنًا، و«مصّاص دماء صغير دنيء وضارّ». اتُّهمت الحكومة الشاعر بالشتم والافتراء، وعُزل من منصبه كسيناتور، وقامت الشرطة بمطاردته

حضر اثنان من قادة الحزب الشيوعيّ، سرعان ما سيعتبران خارجيْن عن القانون، إلى المستشفى للتّحدُّث إلى فيكتور. وقالا له:

ـ أنت تعلم أنَّ هناك أمرًا باعتقال رفيقنا نيرودا.

ـ لقد قرأت الخبر اليوم في الصحيفة. أجد صعوبة في تصديق ذلك!

ـ يجب توفير مخبأ آمن له طالما هو في السرّيّة. ونتوقّع أنَّ هذا الأمر سيُحلّ قريبًا؛ أمَّا إذا لم يحدث ذلك، فسيكون من الواجب إخراج الشاعر من البلاد بطريقةٍ ما.

ـ كيف يمكن لي المساعدة؟ سألهما فيكتور.

ـ بإيوائه لبعض الوقت، لن تكون الفترة طويلة. يجب أن نبدّل مكان إقامته بكثرة لتجنُّب الشرطة.

ـ طبعًا، سيكون ذلك شرفًا لي.

ـ لا حاجة بنا إلى القول أنّه يجب ألّا يعلم أحد بذلك.

ـ زوجتي وابني في إجازة. إنّني وحدي في بيتي. سيكون آمنًا هناك.

ـ علينا أن ننبّهك إلى أنّك قد تتورّط في مشكلة جدّيّة بتستُّرك عليه.

ـ ليس مهمًّا، ردّ عليهما فيكتور، وبادر إلى إعطائهما العنوان.

وهكذا كان، أنَّ بابلو نيرودا وزوجته الرسّامة الأرجنتينيّة ديليا دل كاريل، عاشا أسبوعيْن مختبئيْن في بيت آل دالماو. تخلّى لهما فيكتور عن سريره، وكان يأتيهما بالطّعام الذي يُحَضّر في مطبخ حانته، في أوعية صغيرة من أجل عدم لفت اهتمام الجيران. لم تَفُتِ الشاعر مصادفة أنَّ

t.me/qurssan

مساءه يأتي من حانة وينيبيغ. وكان لا بدَّ كذلك من تزويده بالصحف، والكتب وويسكي، وهو الشراب الوحيد الذي يهدّئه، ويشجّعه على المحادثة، حيث إنَّ الزيارات كانت مقيّدة ومحدودة. لقد كان شرّيبًا حبّذا واجتماعيًّا، بل إنّه يحتاج إلى خصوم أيديولوجيّين كي يمارس مبارزة المناظرات الكلاميّة. وفي سهرات لانهائيّة في ذلك الحيّز الضيّق، راجع فيكتور بالخطوط العريضة قائمة أولئك اللّاجئين الذين ألهمهم الشاعر من بوردو في ذلك اليوم البعيد من عام 1939، وغيرهم من رجال ونساء ذلك الخروج الإسبانيّ الكبير، ممَّن راحوا يصلون إلى تشيلي في السنوات التالية. بيّن فيكتور كيف أنَّ نيرودا بعدم امتثاله للأوامر باختيار العمال المؤهّلين فقط، واختياره لاجئين فنّانين ومثقّفين كذلك، قد أغنى البلاد بفيْضٍ من المواهب والمعارف والثقافة. فخلال أقلّ من عقد واحد من السنوات، لمعت أسماء علماء وموسيقيّين ورسّامين وكتّاب وصحفيّين، بل ومؤرّخ كذلك يحلم بمهمّة هائلة تتمثّل في استعادة تاريخ تشيلي منذ أصوله.

بدأ ذلك الحبس يصيب نيرودا بالجنون. كان يلفّ ويدور، ويعيد اللّف الدّوران كوحشٍ ضارٍ في قفص، يمشي بلا كلل بين أربعة جدران؛ لم يكن بإمكانه مجرّد الإطلال من النافذة. أمّا امرأته التي تخلّت عن كلّ شيء، حتّى عن فنّها، لترافقه، صارت تجد مشقّة في إبقائه مختبئًا وراء الأبواب. في تلك الفترة، ترك الشاعر لحيته تنمو، وكان يقتل الوقت بالكتابة بعصبيّة وغضب في مؤلّفه الشّهير «النشيد الشامل». وكمقابل لِكَرَم الضّيافة، كان يلقي بنبرته الكئيبة التي لا يُمكن عدم التّعرّف عليها أشعارًا قديمة، وأخرى غير مكتملة بعد؛ فنقل إلى فيكتور الإصابة بعدوى لوثة الشعر التي ستستمرّ معه إلى الأبد.

t.me/qurssan

في إحدى الليالي، ومن دون أيّ إشعار مسبق، وصل شخصان مجهولان يرتديان معاطف، ويحمل كلّ منهما مظلّة سوداء، على الرّغم من أنّ حرّ الصيف كان يغلي ويفور في تلك السنة. بدا أنّهما تحرّيان، ولكنّهما عرّفا بنفسيْهما كرفيقيْن في الحزب؛ ومن دون مزيد من التوضيح، أخذا الزوجيْن نيرودا إلى مكان آخر، وقد مَنَحا الشاعر وقتًا لا يكاد يكفي لأن يدسّ في حقيبتيْن الملابس والأشعار التي لا تزال غضّة. رفضا إخبار فيكتور بالمكان الذي يمكنه الذهاب إليه لرؤية الشاعر، ولكنّهما نبّهاه إلى أنّه قد يكون عليه أن يستضيفه مرّة أخرى، لأنّهم يجدون صعوبة في العثور على مخابئ. فهنالك فريق يضمّ أكثر من خمسمئة شرطيّ يتتبّعون آثار الشاعر الهارب. أخبرهم فيكتور بأنّ أُسرته ستعود في الأسبوع القادم من الشاطئ، ولن يكون بيته عندئذٍ آمنًا. لقد شعر في أعماقه بالراحة لاستعادته الراحة والطمأنينة في بيته. فقد كان ضيفه قد احتلّ كلّ ركن بحضوره الهائل. وسوف يعود للّقاء به بعد ثلاثة عشر شهرًا من ذلك، عندما كان عليه أن ينظّم، مع صديقيْن آخريْن، هروب الشاعر على حصان، عبر ممرّات في سلسلة الجبال الجنوبيّة، نحو الأرجنتين. خلال ذلك الوقت، كان نيرودا الذي لا يُمكن التّعرف عليه بلحيته الكثّة، قد اختبأ في بيوت أصدقاء ورفاق من حزبه، بينما كانت الشرطة تلاحقه وتصل إلى مقربة منه أحيانًا. تلك الرحلة إلى الحدود سوف تترك في فيكتور آثارًا لا تُمحى، مثل الشعر. انطلقوا على الخيول في ذلك المشهد البديع للغابة الباردة. أشجار معمّرة منذ آلاف السنين، جبال وماء؛ ماء في كلّ مكان، يسيل في جداول إجباريّة ما بين جذوع هرمة، يسقط من السماء في شلّالات، يجرف كلّ شيء في طرقه كأنهارٍ صاخبة؛ أمكنة لا بدّ للمسافرين من اجتيازها بقلب معلّق بخيط. بعد سنوات طويلة من ذلك، سيتذكّر نيرودا

t.me/qurssan

في مذكراته ذلك العبور الجبليّ: «*كلّ واحد منّا يتقدّم مشوّش الذهن في ممالك العزلة التي بلا ضفاف، في ذلك الصمت الأخضر والأبيض. [...] كل شيء كان طبيعة مذهلة وسرّيّة، ولكنّه يختبئ في الوقت نفسه توعُّدًا بمزيد من البرد والثلج والمطاردة*».

ودّعه فيكتور عند الحدود مع الأرجنتين، حيث كان بانتظاره فرسان غاوتشو. معهم خيول بديلة مستريحة لمواصلة الرحلة. وقال له وهو يعانقه: «الحكومات تذهب والشُّعراء يبقون، يا دون پابلو. ولسوف تعود حضرتك محاطًا بالمجد والمهابة. تذكُر هذا الذي أقوله لك».

وسوف يخرج نيرودا من بوينس آيرس مستخدمًا جواز سفر ميغيل انخل آستورياس، الرّوائيّ الغواتيماليّ الكبير، والذي في بنيته الجسديّة وملامحه شيءٌ من الشبه مع نيرودا، فكلاهما له «*أنف طويل وامتلاء في الوجه والجسد*». وفي باريس، استقبله پابلو بيكاسو كأخ له، وأقيم له حفل تكريم في المؤتمر من أجل السلام، بينما كانت الحكومة التشيليّة تصرّح للصحافة أنّ ذلك الرجل مخادع نصّاب، يمثّل دور البديل لپابلو نيرودا، لأنّ نيرودا الحقيقيّ موجود في تشيلي، وقد حدّدت الحكومة مكان وجوده.

في اليوم نفسه الذي أكمل فيه مارسيل دالماو بروغيرا عشر سنوات من عمره، وصلت رسالة جدّته كارمي، بعد أن جالت على نصف العالم قبل أن تجد المُرسَل إليه. كان أبواه قد حدّثاه عن الجدّة، ولكنّه لم يكن قد رأى من قبل صورة لها، وكانت قصص العائلة الأسطوريّة في إسبانيا غريبة جدًّا عن واقعه، وكان قد صنّفها في مرتبة اللّامعقول نفسها لروايات الرُّعب والخيال التي يقتنيها. في تلك السنّ، كان يرفض

t.me/qurssan

التّكلّم بالكتلانيّة، ويقتصر على التّكلّم بها مع العجوز جوردي مولينيه في حانة وينيبيغ. أمّا مع بقيّة بني البشر، فكان يتكلّم الإسبانيّة مع مبالغة باللّكنة التشيليّة، ولغة عاميّة شوارعيّة تستحقّ عليها صفعات مدوّية من أمّه! ولكنّه، باستثناء هذا الأمر، كان طفلًا مثاليًّا: فهو يتولّى بنفسه أمور دراسته، ومواصلاته، وملابسه، وكذلك طعامه في أحيان كثيرة، بل ويتولّى كذلك مسألة مواعيده عند طبيب الأسنان وصالون الحلاقة. لقد كان يبدو شخصًا بالغًا ببنطال قصير.

لدى عودته ذات يوم من المدرسة، أخرج الرّسائل من صندوق البريد. وضع جانبًا مجلّته الأسبوعيّة التي تروي قصصًا عن مخلوقات من كواكب أخرى وعن روائع الطبيعة، وترك ما تبقى فوق منضدة المدخل الصغيرة. كان معتادًا على أن يكون البيت خاويًا. وبما أنّ مواعيد عمل أبيه غير منتظمة، فقد أعطاه مفتاح الباب مذ كان في الخامسة من عمره، وكان يتنقّل بمفرده بالترام أو الحافلات العامّة منذ بلوغه السادسة. لقد كان بارز العظام وطويل القامة، محدّد التقاطيع والملامح، له عينان سوداوان ذاهلتان، وشعر قاس وخشن، يسيطر عليه بصعوبة باستخدام مستحضر تثبيت للشعر. وفضلًا عن تسريحة مغنّي التانغو، كان يقلّد فيكتور دالماو بحركاته المدروسة وميْله إلى التّكلّم بإيجاز وتجنّب التّفاصيل. كان يعرف أنّ فيكتور ليس أباه، وإنّما هو عمّه، ولكنّ هذه المعلومة لم تكن تعني سوى القليل، مثل أسطورة تلك الجدّة التي ترجّلت عن دراجة ناريّة في منتصف اللّيل، وضاعت وسط جموع يائسة. في البدء، جاءت روزر ومعها كعكة عيد ميلاد، وبعد قليل وصل فيكتور، وكان قد أمضى مناوبةً لمدة ثلاثين ساعة متواصلة في المستشفى، ولكنّه لم ينسَ أن يأتيه بالهديّة التي كان يحلم بها منذ ثلاث سنوات.

t.me/qurssan

وقال له مازحًا وهو يعانقه: «هذا مجهر احترافيّ، من أكبر المجاهر، كي يبقى معك إلى أن تتزوّج». لقد كان أبوه أكثر إظهارًا لعواطفه من أمّه، وأكثر وداعة بكثير: فهي لا يمكن ثني إرادتها بأيّ حال؛ أمّا مارسيل بالمقابل فكان يعرف أكثر من عشر خدع ليفعل ما يحلو له مع أبيه.

بعد تناول العشاء، وتقطيع قالب الحلوى، جاء الطفل برسائل البريد إلى المطبخ. «انظر، هذه رسالة من فيليبه دل سولار. لم أره منذ شهور»، علّق فيكتور عندما رأى اسم المرسل. كان المغلّف كبيرًا، وعليه شعار مكتب محاماة دل سولار. وداخل المغلّف رسالة قصيرة تقول إنّ الوقت قد حان لنجتمع ونتناول الطعام معًا في أحد هذه الأيّام، والمعذرة للتأخّر في تسليم الرّسالة المرفقة التي وصلت إلى بيته القديم، ولا بدّ أنّها قد جالت طويلًا قبل أن تصل إليه، لأنّه يعيش الآن في شقّة قبالة نادي الغولف. وعلى الفور، أجفلت صرخة فيكتور كلًّا من زوجته وابنه، ولم يكونا قد سمعاه يرفع صوته من قبل. «إنّها من أمّي! إنّها حيّة!» وانقطع صوته.

لم يبدِ مارسيل كبير اهتمام بالخبر، وكان يفضّل لو أنّ أحد الكائنات الفضائيّة قد تجسّد بدلًا من ظهور تلك الجدّة، ولكنّه غيّر رأيه عندما أخبروه بأمر الرحلة. فمنذ تلك اللّحظة، صار كلّ ما يجري هو استعدادات للّقاء مع كارمي: رسائل تذهب وتجيء من دون انتظار أيّ ردّ، برقيّات تتقاطع في الفضاء، إهمال برنامج دروس روزر وحفلاتها الموسيقيّة وعمل فيكتور في المستشفى. لم يهتمّ أحد بمارسيل؛ فالجدّة المنبعثة تستحقّ أن تضيع السنة الدراسيّة من أجلها، إذا تطلّب الأمر ذلك. سافروا على خطوط جويّة بيرويّة مع وقفات في خمس مدن، قبل وصولهم إلى نيويورك؛ ومن هناك إلى فرنسا بالسّفينة، ثمّ السّفر

t.me/qurssan

من باريس إلى تولوز بالقطار، والوصول أخيرًا إلى إمارة أندورا، في حافلة تتسلّ منزلقة على طريق بين الجبال مثل ثعلب. لم يكن أيّ من الثلاثة قد سافر في طائرة من قبل، فأفادت تلك التجربة في الكشف عن نقطة الضعف الوحيدة التي عُرفت لدى روزر في الحياة: رهاب الأمكنة العالية. في الحالات اليوميّة، كالإطلال من شرفة طابق أخير، كانت تداري رعشة رهابها برباطة الجأش نفسها التي تتحمّل بها أيّ نوع من الآلام ومشقّات العيش. الضغط على الأسنان والاندفاع قُدمًا بلا تململ، كان هذا هو شعارها؛ ولكنّ أعصابها خانتها في الطائرة، وكذلك توازنها. فكان على زوجها وابنها أن يمسكا بيديْها، وأن يواسياها، ويشغلا تفكيرها ويساعداها عندما تتقيّأ خلال ساعات لا تُحصى أمضوها في الجوّ، وإنزالها شبه محمولة في كلّ مطار، لأنّها لم تكن قادرة على المشي وحدها. عند وصولهم إلى ليما، محطّة الهبوط الثانية في تلك الأوديسّة بعد محطّة أنتوفاغستا، رأى فيكتور أنّها في حالة سيّئة جدًّا، وقرّر إعادتها إلى البيت برًّا، وأن يواصل رحلته مع مارسيل، ولكنّ روزر واجهته بصلابتها المعهودة. «سأصل طيرانًا إلى الجحيم نفسه. وإيّاك أن تعود إلى الحديث في هذا الأمر». واصلت الرّحلة حتّى نيويورك وهي ترتجف خوفًا، وتتقيّأ في أكياس ورقيّة. لقد كانت تتدرّب، لأنّها تعرف أنّه سيكون عليها أن تسافر جوًّا بكثرة في المستقبل، إذا ما تمت الموافقة على مشروع الأوركسترا الموسيقيّة القديم الذي بدأت صياغته تتحدّد.

كانت كارمي بانتظارهم في محطّة الحافلات ـ أندورا المدينة، جالسة على مقعد، متيبّسة مثل خشبة، تدخّن كعادتها، ترتدي ثوب حِداد على الموتى، وعلى الضائعين، وعلى إسبانيا، مع قبّعة عبثيّة وحقيبة فوق ركبتيْها، يطلّ منها رأس كلب صغير أبيض. كان التّعرُّف عليها

t.me/qurssan

ولا، لأنَّ أيًّا من الثلاثة لم يكن قد تغيَّر كثيرًا خلال سنوات الفراق العشر تلك. بدت روزر هي نفسها مثلما كانت في السَّابق، لكنَّها قد ... الأسلوب المناسب لها، وقد أحسَّت كارمي بقليل من الحميميَّة أمام هذه المرأة جيِّدة الملبس، المتبرِّجة والواثقة من نفسها. كانت قد رأتها آخر مرَّة في تلك اللَّيلة الرَّهيبة في الجبال، وكانت حُبلى، مستنزفة القوى، وترتجف من البرد في المقعد الجانبيّ للدرَّاجة الناريَّة. الوحيد الذي كان متأثِّرًا إلى حدِّ الدموع هو فيكتور؛ فالمرأتان تبادلتا التحيَّة ... على الوجه، كما لو أنَّهما كانتا معًا في اليوم السَّابق، وكما لو أنَّ الحرب والمنفى مجرَّد وقائع وأحداث تافهة لا معنى لها في حياتيْهما. «وأنتَ يجب أن تكون مارسيل. أنا جدَّتك. هل أنت جائع؟» كانت هذه ... تحية الجدَّة للحفيد، ومن دون أن تنتظر جوابًا، قدَّمت إليه خبزًا ... أخرجته من حقيبتها العجيبة، حيث يتعايش الكلب مع الخبز. أمَّا مارسيل المفتون، فراح يدرس الجغرافية المعقَّدة لتجاعيد وجه الجدَّة، وأسنانها الصفراء بفعل النيكوتين، وشعرها الرَّماديّ الذي يظهر كعشب يابس تحت القبعة، وأصابعها الملتوية بفعل التهاب المفاصل، وفكَّر: لو أنَّ لها أنتينات في رأسها، فسوف تكون واحدة من الفضائيِّين.

حملتهم سيَّارة أجرة قديمة، يزيد عمرها على العشرين عامًا عبر مدينة محصورة وسط جبال، هي على حدِّ قول كارمي عاصمة الجاسوسيَّة والتهريب، وهما المهنتان الوحيدتان اللَّتان لهما مردود جيِّد في ذلك الزمان. وكانت هي نفسها تعمل في المهنة الثانية، لأنَّ مهنة التجسُّس تتطلَّب اتِّصالات جيِّدة مع القوى العظمى الأوروبيَّة ومع الأميركيِّين. كان قد مضى أكثر من أربع سنوات على نهاية الحرب العالمية الثانية، عام 1945، وكانت المدن المُدمَّرة تُستعاد من الجوع والخراب، ولكنْ لا

t.me/qurssan

تزال هناك مع ذلك حشود من اللاجئين والنازحين الباحثين عن مكان لهم في العالم. أوضحتْ لهم الجدّة أنّ أندورا كانت وكر جواسيس خلال الحرب، وهي لا تزال كذلك الآن، في أجواء الحرب الباردة. لقد كانت في السابق طريق هروب للألمان الفارّين، وبصورة خاصة اليهود والأسرى الهاربين الذين يتعرّضون أحيانًا لخيانة المهرّبين، وينتهي الأمر باغتيالهم أو تسليمهم للعدوّ لانتزاع أموالهم وما يحملونه من مجوهرات. هنالك العديد من الرعاة الذين تحوّلوا فجأة إلى أثرياء، وفي كلّ عام، عند ذوبان الثلوج، تظهر جثث مقيّدة الأيدي من الرّسغين بأسلاك، قال لهم سائق سيّارة الأجرة الذي كان يشاركهم المحادثة. بعد الحرب، صار يمرّ عبر أندورا ضبّاط ألمان ومؤيّدون للنازيّين هاربين نحو وجهات محتملة في أميركا الجنوبيّة. ينتظرون المرور عبر إسبانيا، والعثور على مساعدة من فرانكو، ولكنّه نادرًا ما كان يمنحهم مساعدته. ثمّ أضافت كارمي: «أمّا بالنّسبة إلى التّهريب، فلا شيء يستحقّ الذكر: تبغ، ومشروبات كحوليّة، وأشياء بسيطة أخرى من هذا النوع، لا وجود لشيء خطير».

استقرّوا في الكوخ البدائيّ الذي تتقاسمه كارمي مع الزوجيْن الفلّاحين اللذيْن أنقذا حياتها. جلسوا إلى المائدة ليأكلوا لحم أرنب مسلوق مع الحمُّص، ومع إبريقيْ نبيذ أحمر، وليتبادلوا رواية أحداث ما جرى لهم خلال السنوات العشر الأخيرة. فأثناء الانسحاب، عندما قرّرت الجدّة أنّ قواها لم تَعُد تُمكّنها من مواصلة المسير، وكانت فكرة المنفى لا تُطاق، ابتعدت عن روزر وعن آيتور إيبارّا لتُلقي بنفسها إلى الموت بردًا في ذلك اللّيل، وبعيدًا عنهم. ولكنّها استيقظت على الرّغم منها في اليوم التالي، وكانت شبه مخدّرة، وبإحساس شديد بالجوع،

t.me/qurssan

ا.كنّها أكثر حيويّة ممّا كان يمكن لها أن تتمنّاه. ظلّت هناك بالذات، بلا ـراك، بينما جموع الهاربين تمرّ متجرجرة من حولها، وبأعداد متناقصة اكثر فأكثر، إلى أن وجدت نفسها عند الغروب وحيدة، متكوّرة على ـسها مثل حلزون فوق الأرض الجليديّة. قالت إنّها لا تتذكّر ما الذي كانت تشعر به، لكنّها عرفت أنّ الموت صعب، وأنّ استدعاء الموت ليس سوى سلوك جبان. لقد مات زوجها، وربّما يكون ابناها ميّتين أيضًا، ولكنّ روزر وابن وليام الذي تحمله في أحشائها موجودان؛ عندئذٍ، قرّرتْ أن تواصل، لكنّها لم تستطع النهوض. بعد قليل، اقترب منها كلب صغير ضائع، يمضي متشمّمًا في أثر صفوف اللّاجئين، قالت له أن يبقى معها لتمنحه الدفء. فكان ذلك الحيوان نجاتها. بعد ساعة أو اثنتيْن، مرّ زوجان فلّاحان، كانا قد باعا منتجات زرْعهما للهاربين المتأخّرين، ويريدان العودة إلى بيتهما. سمعا لهاث الكلب، وظنّا أنّه لهاث طفل. وهكذا، اكتشفا وجود كارمي وساعداها. عاشت معهما، تعمل مثلهما في الأرض بجهدٍ كبير وحصيلة هزيلة، إلى أن جاء ابن تلك الأسرة الأكبر، وأخذهم إلى أندورا. وهناك، أمضوا سنوات الحرب العالميّة بممارسة التهريب ما بين إسبانيا وفرنسا، وكانوا يُهرّبون كلّ شيء، بما في ذلك البشر إذا ما توافرت الفرصة!

ـ وهل هذا هو الكلب نفسه؟ سألها مارسيل الذي كان يضع الكلب على ركبتيْه.

ـ إنّه هو نفسه. لا بدّ أنّ عمره قرابة أحد عشر عامًا، وسوف يعيش سنوات كثيرة أخرى. اسمه غوسيت.

ـ هذا ليس اسمًا. فهذا يعني جرو صغير بالكتلانيّة.

t.me/qurssan

ـ هذا الاسم يكفي، ولا يحتاج لأيِّ اسم آخر، كرَّرت الجدَّة «١ بين مجَّتيْن من سيجارتها.

مضت سنة كاملة قبل أن تصبح كارمي مستعدَّة للهجر، والاجتماع بالأُسرة الوحيدة المتبقِّية لها. ولأنَّها لم تكن تعرف أيَّ شيء عن تشيلي، تلك الدودة الطويلة في جنوبي الخريطة، راحت تبحث في الكتب، والسُّؤال هنا وهناك عمَّا إذا كان هنالك من يعرف شخصًا تشيليًا لاستجوابه، ولكنْ لم يمرّ أيّ تشيليّ بمدينة أندورا في ذلك الحين كانت تخشى ألَّا تروق لها تشيلي. «يقول عمِّي جوردي إنَّ تشيلي مثل كتالونيا»، طمأنها مارسيل في إحدى رسائله.

وعندما اتُّخذت القرار، ودَّعتْ الأصدقاء، تنفَّست بعمق، وأزاحت المخاوف والقلق من ذهنها، مستعدَّة للاستمتاع بالمغامرة. سافرت برًّا وبحرًا طيلة سبعة أسابيع، ومعها الكلب في حقيبة يدويَّة، بلا تسرُّع، مانحة نفسها الوقت للقيام بجولات سياحيَّة كي تستمتع بمشاهد ولغات أخرى، ولتتذوَّق مأكولات غريبة، وتقارن بين عادات أجنبيَّة وعاداتها. كانت تبتعد يومًا بعد يوم عن الماضي المعروف، لتتوغَّل في بُعد آخر. ففي سنوات عملها كمعلِّمة مدرسة، درَّست وعلَّمت عن العالم، وها هي تتبيَّن الآن أنَّه لا يشبه وصف النصوص المكتوبة عنه، ولا الصور الفوتوغرافيَّة؛ إنَّه أشدّ تعقيدًا وتلوُّنًا بكثير، وأقلّ رهبة. وكانت تتبادل انطباعاتها مع الحيوان الذي يرافقها، وتدوِّنها في دفتر مدرسيّ إلى جانب ذكرياتها، كإجراء احتياطيّ إذا ما خذلتها الذاكرة في ما بعد. وكانت تُجمّل الأحداث، لأنَّها تعي أنَّ الحياة مثل الحكايات، ولهذا لا مبرِّر لأن تُدوِّن توافه الحياة. المرحلة الأخيرة من تجوالها كانت رحلة الإبحار عبر المحيط الهادي نفسها التي قامت بها الأُسرة في العام 1939. كان ابنها قد أرسل إليها نقودًا من أجل

t.me/qurssan

، ،ر، السفر في الدُرجة الأولى، متذرّعًا بأنّها تستحقّ ذلك، بعد كلّ ما
،.، به من العَوَز، ولكنّها فضّلت السفر في الدُرجة السياحيّة، حيث
،ون أكثر راحة. فالحرب وسنوات حياتها كمُهَرّبة جعلتها أكثر تكتُّمًا.
،انها، قرّرت تبادل الحديث مع الغرباء، لأنّها اكتشفت أنّ الناس يحبُّون
،ادل الحديث، ويكفي توجيه سؤالَيْن لعقد صداقة، ومعرفة أشياء كثيرة.
،كلّ شحص له قصّة، ويرغب في أن يرويها.

أمّا غوسيت، الذي كان يعاني من بعض مصاعب التّقدُّم في السنّ، فقد أعادت الرحلة إليه فتوّته على مراحل. ولدى الاقتراب من ،واحل تشيلي، صار يبدو كأنّه كلب آخر، أكثر تيقُّظًا، وفيه قدر أقلّ من ،ائحة الظَّرِبَان. في ميناء بالبارايسو، كان كلٌّ من فيكتور وروزر ومارسيل ،ي استقبال الجدّة والكلب. وكان يرافقهما سيّد له كرش لا يتوقَّف عن الثرثرة، قدّم نفسه بالقول: «جوردي مولينيه، عند قدميكِ، يا سيّدتي». ثمّ أضاف بالكتلانيّة إنّه مستعدّ ليُريها أفضل ما في هذه البلاد الجميلة. «أوتدرين أنّنا في السنّ نفسها تقريبًا؟ وأنا أرمل أيضًا»، أضاف بشيء من التغنُّج. في القطار إلى سنتياغو، عرفت كارمي دور الخال الجدّ الذي يؤدّيه ذلك الرجل على أكمل وجه، وكيف أنّ حفيدها زبون دائم في حانته، حيث يذهب كلّ يوم تقريبًا لإنجاز واجباته المدرسيّة، كيلا يظلّ وحده في البيت. لم يَعُد فيكتور يعمل في وينيبيغ ليلًا، فقد صار طبيب أمراض قلبيّة في مستشفى سان خوان دي ديوس، كما أنّ روزر لم تَعُد تتردّد بكثرة على الحانة، ولكنّها تتابع من بعيد الحسابات التي صار يتولّاها محاسب متقاعد مقابل الرّفقة والطعام والشراب.

لقد عثرت كارمي أخيرًا على ذويها بفضل إليزابيث إيدنبنز التي استقرّت في فيِنّا، متفرّغة بالكامل للمهمّة التي تولّتها على الدوام:

t.me/qurssan

مساعدة النساء والأطفال. كانت المدينة قد قُصفت بهمجيّة؛ وعندما وصلتْ إليزابيث إليها، بعد قليل من انتهاء الحرب، كان الأهالي الجائعون ينبشون في القمامة بحثًا عن أغذية، ومئات الأطفال الضائعين يعيشون كالفئران بين أنقاض المدينة التي كانت ذات يوم أجمل مدينة إمبراطوريّة. في العام 1940، عندما كانت في جنوبي فرنسا، حقّقت إليزابيث مشروع الأمومة النموذجيّ في قصر إيلنا المهجور، حيث احتضنت النساء الحوامل كي يضعن أبناءهنّ بسلام. صحيح أنّهنّ كنّ في البدء إسبانيّات لاجئات في مخيّمات التّجميع، بعد ذلك جاءت يهوديّات أيضًا، وغجريّات ونساء أخريات هاربات من النازيّين. ولأنّها تحت حماية الصليب الأحمر، كان لا بدّ لدار الأمومة في إيلنا من أن تبقى محايدة، وأن تمتنع عن مساعدة سياسيّات هاربات، ولكنّ إليزابيث لم تكن تتمسّك كثيرًا بالأنظمة على الرّغم من المراقبة، فأدّى ذلك إلى أن يغلقها الجستابو في 1944. وكانت قد توصّلت إلى إنقاذ أكثر من ستمئة طفل.

تعرّفت كارمي عن طريق الصدفة، في أندورا، على واحدة من أولئك الأمّهات المحظوظات، وقد روت لها أنّه تمكّنت، بفضل إليزابيث، من إنجاب ابنها حيًّا. عندئذٍ، ربطت كارمي بين تلك الممرّضة واسم الشخص الذي كان رابطة الوصل مع أسرتها في فرنسا، إذا ما تمكّنت من اجتياز الحدود. كتبت للصليب الأحمر، ومن مكتب إلى آخر، من بلد إلى آخر، من خلال مراسلات لجوجة تغلّبت على العقبات والموانع البيروقراطيّة، واجتازت أوروبا في اتّجاهات متعدّدة، وتوصّلت إلى التّحرّي عن مكان تواجد إليزابيث في ڤيننّا؛ وهي من قالت لها في رسالة أنّ أحد ابنيْها على الأقلّ، المدعوّ فيكتور، على قيد الحياة وقد تزوّج من روزر،

t.me/qurssan

أنجبت المذكورة ابنًا اسمه مارسيل، وثلاثتهم صاروا في تشيلي. هي لا تعرف كيف تبحث عنهم، ولكنّ روزر كانت قد كتبت إلى الأسرة التي احتضنتها عند خروجها من مخيّم أرجيليه ـ سور ـ مار. لم يكلّف الكثير التواصل مع جماعة الكويكرز الذين كانوا يعيشون في لندن. كان عليهم أن ينبشوا في غرفة السطح كي يجدوا مُغلّف رسالة روزر، والعنوان الوحيد الذي لهم: بيت فيليبه دل سولار بسنتياغو. وهكذا، وبتأخيرِ عدّة سنوات، جمعت إليزابيث شمل آل دالماو.

ذهبت روزر إلى كاراكاس في أواسط عقد الستينيّات، مدعوّة مرّة أخرى من صديقها فالنتين سانتشيث، السفير الفنزويليّ السّابق، بعد أن تقاعد من السّلك الدّبلوماسيّ، وتفرّغ تمامًا لشغفه بالموسيقى. خلال السنوات الخمس والعشرين التي انقضت منذ وصول السّفينة وينيبيغ، صارت أكثر تشيليّة من أيّ مولود في هذه الأراضي، مثل معظم اللّاجئين الإسبان؛ فهؤلاء لم يكونوا مواطنين تشيليّين وحسب، بل أكمل كثيرون منهم حلم بابلو نيرودا بهزّ سبات المجتمع. لم يَعُد هناك من يتذكّر أنّه في أحد الأيّام كانت هنالك معارضة ضدّهم، ولا يمكن لأحد أن ينكر المساهمة العظيمة التي قدّمها أولئك الذين دعاهم نيرودا إلى تشيلي! وقد تمكّنت روزر ومعها فالنتين سانتشيث من أن يؤسّسا، بعد سنوات من التّخطيط، ومن المراسلات والرّحلات المكثّفة، أوّل أوركسترا للموسيقى القديمة في القارّة، برعاية البترول، هذا الكنز الذي لا ينفد تدفُّقه الغزير في الأراضي الفنزويليّة. وبينما هو يجوب أوروبا لاقتناء آلات موسيقيّة ثمينة، وينقّب عن نوتات مجهولة، كانت هي تعكف على تدريب العازفين باختيارات جماليّة من موقعها الجديد كنائبة لعميد كليّة الموسيقى في سنتياغو. كان هناك فائضٌ من طلبات

t.me/qurssan

المتقدّمين للانتساب تأتي من بلدان متعدّدة، على أمل أن يكونوا جزءًا من هذه الأوركسترا اليوتوبيّة. لم تكن تشيلي تمتلك الوسائل لمثل تلك المهمّة؛ فهنالك أولويّات أخرى في ميدان الثقافة، والمناسبات القليلة التي توصّلت فيها روزر إلى استثارة الاهتمام بمشروع ما، كان يأتي زلزال أو تغيير حكوميّ فيُرمى المشروع جانبًا. أمّا في فنزويلا، فكان بالإمكان تحقيق أيّ حلم إذا ما توافر النفوذ والعلاقات المناسبة، وهي أمور لدى فالنتين سانتشيث فائض منها، لأنّه أحد السياسيّين القليلين القادرين على البقاء طافين بلا منغّصات وسط الدكتاتوريّات والانقلابات العسكريّة والمحاولات الديمقراطيّة والحكومة المهادنة الحاليّة التي يترأسّها أحد أصدقائه الشخصيّين. كانت بلاده تخوض مواجهة ضدّ حرب عصابات تستوحي نموذج الثورة الكوبيّة، مثل حركات ثوريّة أخرى في القارة باستثناء تشيلي، حيث بدأت ترى النور للتوّ حركة ثورية نظريّة أكثر منها مقاتلة. لم يكن أيّ شيء من ذلك يؤثر على ازدهار البلاد، ولا على حبّ الفنزويليّين للموسيقى، مهما كانت هذه الموسيقى قديمة. كان فالنتين يتردّد على تشيلي بكثرة؛ ولديه هناك شقّة في سنتياغو، يبقيها مفتوحة كي يُشغلها لأدنى نزوة. وكانت روزر تزوره في كراكاس، وقد جالا معًا في أنحاء أوروبا من أجل موضوع الأوركسترا. وكانت هي قد تعلّمت السّفر في الطائرات بمساعدة المهدّئات، والمواد المخدّرة والخمر.

لم تكن تلك الصداقة تستثير قلق فيكتور دالماو، لأنّ صديق زوجته كان مثليًّا معلنًا، ولكنّها توحي بوجود عشيق افتراضيّ. ففي كلّ مرّة ترجع فيها روزر من فنزويلا، تبدو أكثر شبابًا، تأتي محمّلة بثياب جديدة، وعطر حظية أو مجوهرة رصينة، مثل قلب ذهبيّ معلّق حول العنق بسلسلة نحيلة،

t.me/qurssan

... لن تشتريه روزز لنفسها، لأنّها كانت متقشّفة في نفقاتها الشّخصيّة. ... هو أكثر كشفًا بالنّسبة إلى فيكتور هو عاطفتها المتجدّدة، كما لو أنّ ... اللّقاء به تتطلّب ممارسة نوع من الأكروبات تتعلّمه مع آخر. ستبدو ... مضحكة في العلاقة المتراخية التي يتقاسمانها، بل إنّها شديدة ... اخي، ولو شاء فيكتور أن يُعرّفها لقال إنّها علاقة رفاقيّة. وقد تأكّدت له صحّة المثل الذي تقوله أمّه: للغيرة لسع أقوى من لسع البراغيث. كانت ... معجبة بِلَعْبها دور الزوجة. ففي الأزمنة التي كانوا فيها فقراء، عندما ... لا يزال مغرمًا بأوفيليا دل سولار، اشترت بأقساط شهريّة، ومن دون أن نسأله رأيه، خاتميْ زفاف، وطلبت منه أن يواظبا على استخدامهما إلى أن يتمكّنا من الطلاق. وانسجامًا مع اتّفاق التّمسُّك بالصّدق المتّفق عليه ... البدء، كان على روزز أن تحدّثه عن العشيق، ولكنّها كانت تتمسّك بأنْ تجاهلًا رحيمًا يكون أكبر قيمة من حقيقة غير مجدية؛ واستنتج فيكتور أنّها إذا كانت تطبّق هذا المبدأ على تفاصيل تافهة، فسيكون لديها مسوّغ أقوى بأن تفعل ذلك في حالة خيانة. لقد تزوّجا بالتوافق المصلحيّ، ولكنْ مضى عليهما ستة وعشرون عامًا معًا، ويحبّ كلّ منهما الآخر بما هو أكثر من الطمأنينة المتقبّلة في تلك الزيجات المرتّبة في الهند. كان مارسيل قد أكمل الثامنة عشرة من عمره منذ وقت طويل، وهذه المناسبة التي تشكّل خطّ نهاية التعهُّد القائم بينهما على البقاء معًا حتّى بلوغه هذه السنّ، لم تفد في شيء سوى تعزيز المحبّة القائمة بينهما، والنيّة بالمواصلة كزوجيْن لمزيد من الوقت، على أمل أنّهما، بالانتقال من تأجيل إلى تأجيل آخر، لا يصلان إلى الفراق أبدًا.

مع السنوات التي تمضي متشابهة في الأذواق والنزوات، وإن لم تكن كذلك في الطّباع. كانت لديْهما أسباب قليلة للجدل، ولم يكن

t.me/qurssan

هنالك أيّ سبب للشجار. كانا متّفقيْن على ما هو أساسيّ، ويشعر كلٌّ
منهما بأنّه مستريح وسعيد بحضور الآخر، كما لو أنّهما وحيدان. وكان
كلٌّ منهما يعرف الآخر بعمق، وكانت ممارسة الحبّ أشبه برقصة سهلة
تخلّف كليْهما راضيًا. لم يكن الأمر يتمثّل في تكرار الرّوتين نفسه، لأنّها
كانت ستشعر بالضجر من ذلك، وهو ما يعرفه فيكتور. فروزر العارية في
الفراش مختلفة جدًّا عن المرأة الأنيقة والمتّزنة فوق منصّة مسرح، أو
الأستاذة الصارمة في مدرسة الموسيقى. كانا قد مرّا معًا بحالات مدّ وجزر
حتّى الوصول إلى الحياة الهانئة في سنوات النضوج هذه، بلا مشاكل
اقتصاديّة أو انفعاليّة. يعيشان وحدهما، لأنّ كارمي كانت قد انتقلت إلى
بيت جوردي مولينيه عندما مات غوسيت، الكلب الصغير، بعد أن هرم
كثيرًا، وصار أعمى وأصمّ، ولكنّه ظلّ فطنًا على أكمل وجه؛ وكان مارسيل
قد استقرّ في شقّة مع زميليْن اثنيْن. لقد درس هندسة المناجم، وصار
يعمل موظّفًا لدى الحكومة في صناعة النحاس. لم يكن قد ورث أدنى
قدر من الموهبة الموسيقيّة من أمّه أو جدّه مارسيل لويس دالماو؛ ولا
مزاج أبيه المتمرّس على الصّعاب، أو أيّ من الميول الطبّيّة، مثل فيكتور،
أو التّعليم مثل جدّته كارمي التي كانت معلّمة مدرسة حتّى وهي في
الحادية والثمانين. «كم أنت غريب، يا مارسيل! أيّ شياطين جعلتك تهتمّ
بالأحجار؟»، سألته كارمي عندما عرفت ما هو التّخصّص الدّراسيّ الذي
سيختاره. فأجابها حفيدها: «لأنّ الأحجار لا تُبدي رأيًا ولا تردُّ جوابًا».

العلاقة الفاشلة مع أوفيليا دل سولار سبّبت لفيكتور دالماو غضبًا
خفيًّا وصامتًا، استمرّ قرابة السنتيْن، وتقبّله كتفسير عادل لكونه قد تصرّف
كشخص فظّ وقاسٍ بوقوعه في حبّ تلك الفتاة العذراء، وهو يعرف أنّه
ليس حرًّا، بل لديْه مسؤوليّة زوجة وابن. لقد حدث ذلك قبل سنوات

t.me/qurssan

ا. ومنذ ذلك الحين، كان الحنين المتأجّج الذي خلّفه ذلك الحبّ راح يتلاشى ويختفي في المنطقة الرّماديّة من الذاكرة، حيث يأخذ مضناه بالاختفاء والتلاشي. كان يعتقد أنّه قد تعلّم درسًا، على الرّغم أنّ مغزاه العميق كان مشوّشًا. وظلّت تلك هي حالة سهوه الغراميّة حيدة طوال سنوات كثيرة، لأنّه يعيش مستغرقًا في متطلّبات عمله. كان يكتفي بحدوث لقاء غراميّ متسرّع بين حين وآخر، لا يُحتسب، مع ممرّضة متساهلة؛ ويكون ذلك، بصورة عامّة، في إحدى ورديّات المناوبة التي تستمرّ يوميْن متتاليين في المستشفى. تلك المعانقات المستعجلة لا تتوصّل قطّ إلى أن تكون مُرضية، فهي بلا ماضٍ، وتُنسى خلال ساعات قليلة. حبّه الرّاسخ لروزر كان مرساة وجوده.

في عام 1942، بعد قليل من تلقّيه رسالة أوفيليا الحاسمة، عندما كان فيكتور لا يزال يحلم بوهم العودة لغزوها، مع أنّه كان يعلم أنّ ذلك سيكون أشبه برشّ ملحٍ على القلب الجريح؛ وقدّرت روزر آنذاك أنّه بحاجة إلى علاج شديد المفعول كي يخرج من حالة الاستغراق في التأمّل، فاندسّت في إحدى اللّيالي في فراشه بلا دعوة منه، مثلما فعلت قبل سنوات من ذلك مع أخيه وليام. وقد كانت تلك هي أفضل مبادرة في حياتها، لأنّ محصّلتها تمثّلت في إنجابها مارسيل. أمّا في هذه اللّيلة، فكانت تفكّر بمفاجأة فيكتور، ولكنّها فوجئت بأنّه كان ينتظرها. لم يفاجأ حين رآها عند عتبة الحُجرة، شبه عارية وشعرها مفلت، بل تحرّك بكلّ بساطة في السرير ليفسح لها مجالًا، وتلقّاها بين ذراعيْه بتلقائيّة زوْج. تقلّبا معًا لشطر لا بأس به من اللّيل، في تعارف توراتيّ ضئيل البراعة، ولكنْ بطيب مزاج؛ وكلاهما يعي أنّه كان يرغب في مجيء هذه اللّحظة منذ المناوشات في زورق النجاة بالسفينة وينيبينغ، عندما كانا يتهامسان

t.me/qurssan

بعفّة، بينما يقف في الخارج أزواج آخرون ينتظرون دورهم لممارسة الحبّ. لم يتذكّرا أوفيليا ولا وليام الذي كان شبحه المتسلّط يرافقهما خلال الرحلة البحريّة؛ أمّا في تشيلي، فانشغل بالمستجدّات، وراح ينسحب شيئًا فشيئًا إلى حجيرة سرّيّة في قلبيهما معًا، حيث لا يسبّب أيّ إزعاج. منذ تلك اللّيلة الأولى، صارا ينامان في السّرير نفسه.

كان الاعتزاز بالنّفس يمنع فيكتور من التّجسّس على روزر، أو طرح شكوكه عليها. لم يربط بين ارتيابه وألم المعدة الدائم الذي يعذّبه، عزا ذلك إلى قرحة معويّة، ولكنّه لم يفعل شيئًا لتأكيد التّشخيص، واكتفى بتناول حليب المغنيسيا بكمّيّات مثيرة للذعر. مشاعره تجاه روزر كانت مختلفة جدًّا عن العاطفة النزقة التي عانى منها مع أوفيليا، فكان لا بدّ من مرور أكثر من سنة من العذاب قبل أن يتمكّن من وضع تسمية لتلك الحالة! ولكي يشغل نفسه عن مشاعر الغيرة، لجأ إلى أوجاع مرضاه في المستشفى وإلى الدراسة. كان عليه أن يتابع تقدّم الطبّ ومستجدّاته، وكانت مستجدّات عجائبيّة، حيث تسري شائعات عن إمكانيّة زرع القلب البشريّ بنجاح. فقبل سنتيْن، كانوا قد وضعوا قلب شمبانزي لشخص محتضر، وعلى الرّغم من أنّ المريض لم يعش سوى عشرين دقيقة، فقد رفعت التجربة من احتمالات وصول العلوم الطبّيّة إلى مستوى المعجزة. فكان فيكتور دالماو، مثل آلاف الأطبّاء الآخرين، يتلهّف لتكرار المأثرة باستخدام قلب متبرّع بشريّ. فمنذ أن أمسك بأصابعه قلب لاثارو، قبل حياة كاملة، تسلّط هذا العضو السّحريّ على عقله.

خارج العمل والدراسة، حيث كان يركّز نشاطه وطاقته، دخل فيكتور في واحدة من مراحل اكتئابه. «إنّك تمضي ذاهلًا، يا بنيّ»، قالت له كارمي أثناء تناول الطعام مع الأسرة في أحد أيّام الآحاد في

t.me/qurssan

، حوردي مولينيه. هناك، كان الحديث يدور بالكتلانيّة، ولكنّ كارمي ...ول إلى التّكلّم بالإسبانيّة عندما يكون مارسيل حاضرًا، لأنّ حفيدها ...ي بلغ السادسة والعشرين ما زال يرفض التّحدّث بلغة أُسرته. «العادة محقّة، يا أبي؛ فأنت تبدو كالمخبول. ماذا جرى لك»؟ أضاف ...ارسيل. فردّ عليه فيكتور باندفاع مفاجئ: «إنّني مشتاق لأمّك». كان ...اك بوْحًا بالنّسبة إليه. فقد كانت روزر في فنزويلا، في سلسلة أخرى ... الحفلات الموسيقيّة التي بدأت تبدو لفيكتور في الآونة الأخيرة أنها صارت أكثر تواترًا. ظلّ يفكّر في ما قاله، لأنّه حتّى اللّحظة التي ...اع فيها ما يعبّر عن حاجته إليها، لم يكن قد انتبه بصورة كاملة لمدى ...ه لها. فهما المعتادان على التّحدّث في كلّ الأمور بلا تابوات، لم ...را قطّ عن الحبّ بالكلام، بتأثير حياء لا يُمكن تفسيره؛ فما هي الحاجة للمضيّ في التصريح عن المشاعر، يكفي إثبات ذلك عمليًا. وطالما أنّهما معًا، فلأنّ كلّ منهما يحبّ الآخر، وما من حاجة لتقليب هذه الحقيقة البسيطة.

بعد يومَيْن من ذلك، بينما كان لا يزال يجترّ فكرة مفاجأة روزر بتصريح رسميّ بحبّه لها، وبخاتم الزفاف الذي كان عليه أن يقدّمه إليها منذ سنوات، رجعت هي من جديد إلى سنتياغو (أم فنزويلا؟) volvió a Santiago من دون إخبار بذلك، فظلّت خطط فيكتور مؤجّلة. وقد جاءت مبتهجة، كما في رحلاتها السّابقة الأخرى، بذلك المزاج من الرضى الكامل الذي يستثير شكوكًا لدى زوجها، وبثوبٍ قصيرٍ إلى ما فوق الركبتَيْن مزركش بمربّعات حمراء وسوداء، مثل شرشف مطبخ، غير مناسب بأيّ حال لشخصيّتها الرّزينة. «ألا يبدو لكِ أنّه قصير جدًّا لمن هي في مثل عمرك؟»، سألها فيكتور بدلًا من أن يقول لها العبارات

t.me/qurssan

اللّطيفة التي كان قد أعدّها بدقّة بالغة. «عمري ثمانية وأربعون عامًا، ولكنّني أشعر كما لو أنّني في العشرين»، ردّت عليه بمزاج طيّب.

كانت المرّة الأولى التي تستسلم فيها لآخر صيحات الموضة؛ فحتّى ذلك الحين، كانت وفيّة لأسلوبها، ولا تبدّل فيه إلّا قليلًا جدًّا. موقفها المتحدّي أقنع فيكتور بأنّه من الأفضل ترك الأمور على ما هي عليه، وتجنُّب تصريحات يمكن لها أن تكون مؤلمة جدًّا أو نهائيّة وحاسمة.

لقد علم فيكتور دالماو بعد عدّة سنوات من ذلك، عندما لم يَعُد هنالك ما يهمّه بأيّ حال، أنّ عشيق روزر هو صديقه القديم أيتور إيبارّا. تلك العلاقة السّعيدة، رغم كونها تقوم على لقاءات متفرّقة، لأنّهما لا يلتقيان إلّا عندما تذهب هي إلى فنزويلا، وليس هنالك في بقية الأوقات أيّ اتّصال بينهما، وقد استمرّت تلك الحال سبع سنوات كاملة. بدأ الأمر في الحفل الأوّل لأوركسترا الموسيقى القديمة، وكان الحدث الثقافيّ الأبرز خلال تلك الفترة في كاراكاس. رأى أيتور في الصحافة اسم روزر بروغيرا، وفكّر في أنّها ستكون مصادفة أكبر من أن تحدث إذا ما كانت هي نفسها المرأة الحُبلى التي اجتاز معها جبال البيرينيه أثناء الانسحاب، وتحسّبًا لأن تكون هي نفسها التي اشترى لها بطاقة دخول. قدّمت فرقة الأوركسترا عملها في القاعة الكبرى بالجامعة المركزيّة، حيث ألواح الفنان كالدير الطافية وأفضل إمكانيّة استماع في العالم. وعلى المنصّة الفسيحة، بدت روزر صغيرة جدًّا وهي تقود الموسيقيّين بآلاتهم الموسيقيّة البديعة، بعض تلك الآلات لم يكن الجمهور قد رآها من قبل قطّ. وباستخدام منظار مُقرّب، تفحّصها أيتور من الخلف، فكان الشيء الوحيد الذي استطاع تحديده والتّعرُّف عليه هو عقيصة شعرها المربوطة فوق العنق، وهي العقيصة نفسها التي كانت لها في أيّام

t.me/qurssan

الشباب. تعرّف عليها فور استدارتها لتلقّي التصفيق، أمّا هي فوجدت صعوبة أكبر في التّعرُّف عليه، عندما قدّم نفسه في حُجرة الممثّلين، لأنّه لم يبق إلّا القليل من ذلك الشاب النحيل، المتسرّع والمَزوح الذي تدين له بحياتها. لقد تحوَّل إلى رجل أعمال مزدهر، بحركات وإيماءات متطبنة، مع عدّة كيلوغرامات زائدة، وقليل من الشعر في رأسه مع شارب نحيف، ولكنّه يحتفظ ببريق نظرته. كان متزوّجًا من امرأة رائعة، كانت ملكة جمال، ولديْه أربعة أبناء وعدّة أحفاد، وقد حقّق ثروة. وصل إلى فنزويلا، وليس في جيبه سوى خمسة عشر دولارًا، احتضنه بعض الأقارب، وانكبّ على العمل في مهنته التي يُتقنها: إصلاح السيّارات. أمام كراج ميكانيكيّ، وبعد وقت قصير كانت له فروع في عدّة مدن؛ ومن هذا العمل، لم يكن يحتاج إلّا لخطوة واحدة للتوسّع إلى تجارة السيّارات القديمة لهواة جمع السيّارات. لقد كانت تلك هي البلاد المناسبة لشخص مبادر وبعيد الرؤية مثل أيتور. «فرص الثراء هنا تتساقط من الأشجار مثل ثمار المانجا»، قال لروزر.

كانت ستّ سنوات من العاطفة شديدة الزخم في المشاعر والخفيفة في التّعبير. اعتادا أن يقضيا يومًا كاملًا محبوسيْن في غرفة فندق يمارسان الحبّ كمراهقيْن، وهما يموتان من الضحك، مع قارورة نبيذ أبيض من نبيذ الرين Rin وخبز وجبن، مفتونيْن بما يتقاسمانه من الرهافة الثقافيّة والشّهوة اللّامتناهية، وهو الحدث الفريد في حياتيْهما، لأنّهما لم يعرفا من قبل قطّ، ولن يعرفا في ما بعد، إحساسًا بهذه الطريقة. وقد تدبّرا الأمور للحفاظ على حبّهما في مكان مغلق ومختوم وسرّيّ في حياتيْهما، من دون أن يؤثّرا في شيء على الزواج السعيد لكلٍّ منهما. فأيتور يحبّ امرأته الجميلة ويحترمها، تمامًا مثلما تحبّ روزر فيكتور

t.me/qurssan

وتحترمه. ففي البدء، عندما كانا على وشك فقدان عقليْهما حيال مفاجأة وقوعهما في الحبّ، فقرّرا أن تكون الثمرة الوحيدة المُمكنة لذلك الانجذاب الرّهيب هو بقاؤه ضمن حدود السرّيّة؛ وألّا يسمحا بأن يقلب حياتيْهما رأسًا على عقب، ويسبّب آلامًا لأُسرتيْهما. وقد فعلا ذلك طوال تلك السنوات السّبع المباركة، وكان يُمكن لهما أن يواصلا معًا لوقت أطول بكثير لولا صدمة دماغيّة حكمت على أيتور إيبارّا بالشلل، وبأن يظلّ في رعاية زوجته.

ولكنَّ فيكتور لم يعرف أيّ شيء من ذلك كلّه إلى أن أخبرته به روزر.

عاد فيكتور دالماو إلى اللّقاء ببابلو نيرودا بكثرة، عن بعد في مهرجانات سياسيّة، وفي بعض الأحيان في بيت عضو مجلس الشيوخ السيناتور سلفادور ألليندي، الذي اعتاد أن يلعب معه الشطرنج. كما أنَّ الشاعر نفسه قد دعاه إلى اجتماع في بيته بإيسلا نيغرا، وهو مَسكَن عضويّ، له شكل سفينة جانحة، ومشيّد بهندسة جنونيّة، متسلّقًا/ مُتشبّثًا على بروز مرتفع قبالة البحر. لقد كان مكان الإلهام والكتابة. «*بحر تشيلي، البحر الرهيب، بمراكب تنتظر، بأبراج زبد بيضاء وسوداء، بصيّادين ساحليّين تعلّموا الصبر، البحر الطبيعيّ، الفيضانيّ، اللّامتناهي*». هناك كان يعيش مع ماتيلدي، زوجته الثالثة، والوفرة غير المعقولة بمجموعات أشيائه، ابتداء بالقوارير المعفّرة بالغبار المشتراة من سوق البراغيث، وحتّى أقنعة ودمى من التي تُثبّت في مقدّمة السفن، يحصل عليها من سفن غارقة. في ذلك البيت، كان يستقبل شخصيّات بارزة من العالم بأسره، ممّن يأتون لتحيّته وليقدّموا له دعوات لزيارة بلدانهم، وسياسيّين محلّيّين، ومثقّفين وصحفيّين، ولكنْ قبل

t.me/qurssan

«الا» جميعهم كان يستقبل هناك أصدقاءه الشخصيِّين، وبينهم عدد .. لاجئي وينيبيغ. لقد كان شخصيَّة واسعة الشهرة، مترجَمًا إلى كلّ اللغات الموجودة في العالم؛ ولم يَعُد بإمكان حتّى أسوأ أعدائه أن ينكروا القدرة السّحريَّة لأشعاره. وكان أكثر ما يرغب فيه الشاعر محبّ الحياة الجيّدة، هو أن يكتب بلا توقُّف، وأن يطبخ بنفسه لأصدقائه، وأن يُترك بسلام، ولكنْ يبدو أنَّ ذلك لم يكن مُمكنًا حتّى في تلك المنطقة الصخريَّة المسمَّاة إيسلا نيغرا؛ أناس من كلّ الأصناف كانوا يفدون ليطرقوا بابه، وتذكيره بأنَّه صوت الشعوب المعانية والمتألّمة، ولما كان هو بالذات يُعرّف نفسه. وهكذا، جاء إليه رفاقه ذات يوم لمطالبته بأن يمثّلهم في حملة الانتخابات الرّئاسيَّة. فسلفادور أللّيندي، المرشّح الكُفؤ والأكثر أهليَّة لدى اليسار قد تقدَّم للمنافسة على موقع الرّئاسة ثلاث مرّات من قبل، ولم يحقّق النجاح، حتّى إنَّه صار يقول إنّه موسوم بالإخفاق. وهكذا، ترك الشاعر دفاتره وقلم حبره الأخضر، وخرج ليجوب أنحاء البلاد في سيّارات وحافلات وقطارات، والالتقاء بالشعب وإلقاء أشعاره، مرافقة كورال عمّال وفلّاحين، وصيّادي سمك، وعمّال سكك حديد، ومنجميّين، وطلّاب وفنّانين ترتعش أرواحهم مع صوته. وقد أفادته تلك الحملة الانتخابيَّة في منح مزيد من الألق لشعره المناضل، وفي إدراك أنّه لم يولد للسياسة. وما إن سنحت له الفرصة حتّى انسحب ليدعم ترشيح سلفادور أللّيندي الذي، على الرّغم من كلّ الرّياح والأنواء، انتهى إلى الوقوف على رأس الوحدة الشعبيَّة، وهو تحالف مجموعة أحزاب يساريَّة. وكان نيرودا نائبه في الحملة الانتخابيَّة.

عندئذٍ، كان على أللّيندي أن يجوب البلاد من الشمال إلى الجنوب في القطارات، مشجّعًا الناس الذين كانوا يجتمعون في كلّ

t.me/qurssan

محطّة لسماع خطاباته المؤثّرة، وفي قرى صغيرة متكلّسة بالرّمل والملح وقرى أخرى مظلمة في أمطار أبديّة. لقد رافقه فيكتور دالماو عدّة مرات، بصورة رسميّة كطبيب، ولكنّه كان يرافقه في الواقع كشريك في لعب الشطرنج، وهي التسلية الوحيدة للمرشّح الرّئاسيّ، لأنّه لا وجود في القطار لأفلام رعاة البقر، وهذه وسيلته العلاجيّة الأخرى لتخفيف التوتّر. كان شديد الحيويّة والنشاط، حاسمًا ومؤرّقًا، لا يُمكن لأحد أن يجاريه في خطواته، فكان على مرافقيه أن يعملوا معه بالتناوب. تولّى فيكتور مسؤوليّة ساعات اللّيل المتأخّرة، حيث يكون المرشّح الرّئاسيّ مستنفدًا وبحاجة إلى أن يُخرج من ذهنه ضجيج الحشود وصخب صوته بالذات، وذلك عن طريق لعب دور شطرنج، قد يمتدّ أحيانًا حتّى الفجر، أو يُعلّق لمواصلته في اللّيلة التالية. كان ألليندي لا ينام إلّا قليلًا جدًا، ولكنّه يستغلّ عشر دقائق هنا وعشر دقائق أخرى هناك، ليغفو هنيهة وهو جالس في أيّ مكان، فينبعث بعدها حيًّا ونشيطًا كمن استحمّ للتوّ. يمشي منتصب القامة وبصدرٍ مندفع إلى الأمام، كمن هو مستعدٌّ للقتال، ويتكلّم بصوت ممثّل وببلاغة تنويريّ. كان يتحكّم بحركاته وإيماءاته، وسريع البديهة، ولا يتراجع عن قناعاته الأساسيّة. وخلال مسيرته السياسيّة الطويلة، توصّل إلى معرفة تشيلي كما لو أنّها فناء بيته، ولم يفقد الإيمان أبدًا بقدرته على القيام بثورة سلميّة، وطريق تشيلي إلى الاشتراكيّة. بعض محازبيه، بوَحْيٍ من الثورة الكوبيّة، كانوا يؤكّدون أنّه من المحال القيام بثورة حقيقيّة والإفلات من الإمبرياليّة الأميركيّة بالحسنى، لأنّ ذلك لا يُمكن تحقيقه إلّا بالكفاح المسلّح؛ أمّا هو، فكان يؤمن بوجود متّسع مريح للثورة في الدّيمقراطيّة التشيليّة الرّاسخة، وفي احترام الدستور. وظلّ يؤمن حتّى النهاية أنّ المسألة كلّها تتمثّل في

t.me/qurssan

.. ـ والشرح والاقتراح، والدُعوة إلى الممارسة، كي ينهض العمّال
.. وأوا مصيرهم بأيديهم. وقد كان يعرف جيّدًا كذلك قدرات خصومه
. ،انبانهم. وكشخصيّة عامّة، كان يقود باعتزاز فيه قليل من الغرور،
' ،.. خصومه بالعجرفة، ولكنّه في حياته الخاصّة يبدو بسيطًا ومزوحًا.
.. كان وفيًّا لكلمته؛ لا يستطيع تخيُّل أيّ خيانة، وهذا ما تسبَّب أخيرًا
'ر صياعه.

لقد فاجأت الحرب الأهليّة الإسبانيّة فيكتور دالماو وهو فتيّ
.ا قاتل في الجانب الجمهوريّ. اشتغل، ثمّ خرج إلى المنفى بسبب
اك، تقبّل أيديولوجيّة فريقه من دون أن يُخضعها للتأمُّل والنقاش. وفي
لمي، التزم بمطلب الامتناع عن التدخُّل في السياسة الذي فُرض
.. لاجئي السفينة وينيبيغ، ولم يناضل في أيّ حزب، ولكنْ
. .اقته مع سلفادور ألليندي راحت تحدِّد أفكاره بالوضوح نفسه الذي
.ددت به الحرب الأهليّة الإسبانيّة مشاعره. كان فيكتور يقدّر ألليندي
على المستوى السياسيّ، كما كان يقدِّره أيضًا، مع بعض التحفُّظات،
على المستوى الشُخصيّ. فصورة ألليندي كزعيم اشتراكيّ تتناقض مع
عاداته البرجوازيّة، وملابسه ذات النوعية العالية، ومغالاته في التّدقيق
بأن يكون محاطًا بأشياء فريدة يمتلكها كهدايا عفويّة espontáneos من
حكومات بلدان أخرى، ومن فنّانين مهمّين في أميركا اللّاتينيّة: لوحات،
منحوتات، مخطوطات أصليّة، أدوات بيتيّة قديمة وسابقة لاكتشاف
أميركا.. ولسوف يختفي ذلك كلّه في عمليّة النهب التي جرت في آخر
يوم من حياته. كان يستسلم بسهولة إلى الملاطفة والنساء الجميلات،
يمكنه اكتشافهنّ بنظرة واحدة وسط الحشود، ويجتذبهنّ بشخصيّته
وباستفادةٍ من موقعه في السُلطة. هذا النوع من الضعف كان يزعج

t.me/qurssan

فيكتور، وقد علّق عليه مرّة واحدة فقط في حديث مع روزر، فردّت «ا
«يا لك من متطلّب صارم، يا فيكتور! أللّيندي ليس غاندي». كلاهما
صوّت له، ولم يكن أيّ منهما يعتقد بصدق أنّه سوف يربح الانتخابات
بل إنّ أللّيندي نفسه كان يشكّ في ذلك، ولكنّه في شهر أيلول /سبتم
نال أصواتًا أكثر من المرشّحين الآخرين. ولعدم توافر أغلبية مطلقة، قرّ
الكونغرس الحسم بين المرشّحيْن اللذيْن حصلا على أعلى الأصوات
اتّجهت أنظار العالم بأسره إلى تشيلي، هذه اللّطخة المتطاولة على
الخريطة، والتي تتحدّى ما هو متعارف عليه!

أنصار اليوتوبيا الثوريّة الاشتراكيّة في الدّيمقراطيّة لم ينتظروا قرار الكونغرس: اندفعوا جماعيًا إلى الشارع للمشاركة في ذلك الانتصار الذي طال انتظاره. عائلات كاملة، ابتداء بالجدّيْن وحتّى الأحفاد، وجميعهم بملابس أيّام الآحاد، خرجوا يغنّون متحمّسين ومبهورين، ولكنْ من دون أيّ تجاوزات، كما لو أنّهم قد توافقوا بطريقة سرّيّة على الانضباط. اختلط كلٌّ من فيكتور وروزر ومارسيل بالجموع ملوّحين برايات، ومنشدين «الشعب الموحّد لن يُهزم أبدًا». لم ترافقهم كارمي، لأنّها وهي في الخامسة والثمانين لم تَعُد تجد في الحياة ما يكفي للحماسة من أجل شيء شديد التقلّب كالسياسة، على حدّ قولها، ولكنّها قلّما كانت تخرج في الحقيقة، إذ كانت تكرّس كلّ إمكانيّاتها للعناية بجوردي مولينيه الذي هرم وسط التوعكّات وعدم الرّغبة في التّحرّك من بيته. لقد حافظ على شبابه إلى أن خسر باره. فبار وينيبيغ الذي توصّل في سنوات وجوده إلى أن يكون مَعْلَمًا في المدينة، اختفى من الوجود عندما هدموا منطقته كلّها، ليشيدوا أبراجًا مرتفعة سوف تنتهي، على حدّ قول مولينيه، إلى الانهيار والسقوط في الزلزال القادم. أمّا كارمي، بالمقابل،

t.me/qurssan

... لا تزال معافاة ونشيطة كعادتها. كانت قد تقلّصت حجمًا، تبدو • بعصفور منتوف الريش، كومة من العظام والجلد، وقليل من الشّعر ... الرأس، وسيجارة دائمة بين شفتيْها. إنّها لا تكلّ، وفعّالة، جافّة ... لموب وعاطفيّة بصورة سرّيّة، تقوم بالعمل المنزليّ، وترعى جوردي ... طفل عاجز. كلاهما كان يخطّط لرؤية مشهد الانتصار الانتخابيّ في ... امربون مع زجاجة نبيذ أحمر ولحم خنزير جبليّ مقدّد. جاءت جموع ... اس حاملة لافتات ومشاعل. شعرا بالبهجة والأمل. «لقد عشنا هذا ... امع من قبل في إسبانيا، يا جوردي. أنت لم تكن هناك في العام 36، ... امنّي أقول لك إنّه الشيء نفسه. عسى ألّا ينتهي الأمر بصورة سيّئة ... ما حدث هناك!» كان هذا هو تعليق كارمي الوحيد.

بعد منتصف اللّيل، عندما بدأت تتناقص أعداد الناس في ... شوارع، التقى آل دالماو فجأة بفيليبه دل سولار، الذي لا يُمكن عدم ... التعرّف عليه بسترته التي من شعر الجمل، وبنطاله الجوكي الذي من ... جلد الغزال وله لون الخردل. تعانقا كصديقيْن جيّدين. كان فيكتور ... مُلّا بالعرق ومبحوح الصوت من الصراخ، وفيليبه متأنّقًا لا تشوبه ... شائبة، تفوح منه رائحة الخزامى، وبلامبالاته المتألّقة التي رعاها بعناية ... طوال أكثر من أربعين عامًا. كانت ملابسه من لندن التي يذهب إليها ... مرّتيْن في السنة؛ فالبرودة البريطانيّة تمنحه إحساسًا بالمتعة. وكان ... يمضي برفقة خوانا نانكوتشيو التي تعرّف عليها آل دالماو فورًا، لأنّها كانت هي نفسها في الحال الذي كانت عليه منذ زمنٍ بعيد، عندما كانت ... تأتي بالترام لزيارة مارسيل.

- لا تقل لي إنّك قد صوّتّ لألليندي! هتفت روزر وهي تعانق فيليبه وخوانا.

t.me/qurssan

ـ كيف يخطر لك مثل هذا الأمر، يا امرأة؟ لقد صوّتُ للدّيمقراطية المسيحيّة، وإن كنتُ لا أؤمن بفضائل الدّيمقراطيّة ولا بفضائل المسيحيّة، ولكنْ لا يمكنني إرضاء ذوق أبي بالتّصويت لمرشّحه. إنّني ملكيّ.

ـ مَلَكيّ؟ باللّه عليك، يا رجل! أولم تكن التّقدّميّ الوحيد بين عصابة عائلتك من سكان الكهوف؟ صاح فيكتور مرحًا.

ـ خطيئة الشباب. فمَلِك أو مَلِكة هو ما نحتاج إليه في تشيلي، مثلما هي الحال في إنكلترا، حيث كلّ شيء أكثر تحضّرًا من هنا، قال فيليبه ساخرًا، وهو يمصّ أنفاسًا من غليون مطفأ يحمله معه دومًا كمسألة أسلوب وتمييز.

ـ ما الذي تفعله في الشارع إذًا؟

ـ نمضي في تشجيع العامّة. لقد صوّتتْ خوانا لأوّل مرّة. قبل عشرين سنة، كانت النساء يتمتّعن بحقّ التّصويت، وقد مارست هي حقّها الآن بالتّصويت لليمين. لم أستطع أن أُدخِل في رأسها أنّها تنتمي إلى الطبقة العاملة.

ـ أنا أصوّت مثل أبي، أيّها الصّغير فيليبه. أمّا حكاية الغوغاء المتمرّدين، مثلما يقول دون إيسيدرو، فقد رأيناها من قبل.

ـ متى؟ سألتها روزر.

فتدخّل فيليبه:

ـ إنّها تشير إلى حكومة بيدرو أغيرّي ثيردا.

ـ بفضل هذا الرئيس، نحن موجودون هنا، يا خوانا. هو من أحضر لاجئيّ السفينة وينيبيغ إلى تشيلي، هل تتذكّرين؟ سألها فيكتور.

t.me/qurssan

ـ لا بدَّ أنّني في الثمانين تقريبًا، ولكنَّ ذاكرتي لا تخونني، يا فتى.

روى لهما فيليبه أنَّ أُسرته كانت تقيم في شارع مار دل بلاتا، ، ظر انقضاض شراذم عصابات الماركسيَّة على الحيّ العالي. كانوا ، بولُوا إشاعة حَمْلة الرُّعب التي خلقوها هم أنفسهم. لقد كان إيسيدرو .ل سولار متأكّدًا تمامًا من انتصار المحافظين، وكان قد خطَّط لإقامة .ملة كبيرة للاحتفال مع أصدقائه وإخوته في الدِّين. وكان الطهاة ، الُدل لا يزالون في البيت، بانتظار تدخُّل إلهيّ يبدِّل وجهة الأحداث، ، بصير بإمكانهم تقديم الشمبانيا والأصداف البحريَّة. كانت خوانا هي ال حيدة التي رغبت في رؤية ما يحدث في الشارع، ليس بدافع التعاطف الشياسيّ، وإنَّما بدافع الفضول.

وقال فيليبه:

ـ أعلن أبي أنّه سينقل العائلة إلى بوينس آيرس إلى أن يعود الهدوء لبلاد البراز هذه. ثمَّ أضاف: ولكنَّ أمّي لا تريد التّحرُّك من هنا. لا تريد أن يبقى صغيرها البيبي وحيدًا في المقبرة.

ـ وما أخبار أوفيليا؟ سألته روزر مدركة أنَّ فيكتور لن يتجرّأ على ذكر اسمها.

ـ لقد نجتْ من هَذَيان الانتخابات. فقد عيَّنوا ماتياس قائمًا بالأعمال في الإكوادور، إنَّه موظَّف في السّلك الدِّبلوماسيّ، وهكذا لا يُمكن للحكومة الجديدة أن ترميه في الشارع. وقد استغلّت أوفيليا الفرصة لتدرس في ورشة الرسَّام غواياسامين. إنَّه انطباعيّ فظيع، يعمل بلطخات فرشاة كبيرة. العائلة تقول إنَّ لوحاتها مرعبة، ولكنَّني أملك عددًا منها.

t.me/qurssan

ـ وماذا عن الأبناء؟

ـ إنّهم يدرسون في الولايات المتّحدة. وسوف يجتازون هذه الكارثة أيضًا بعيدين عن تشيلي.

ـ وأنت، هل ستبقى؟

ـ حتّى الآن، أجل سأبقى. أريد أن أرى ما الذي ستؤول إليه هذه التجربة الاشتراكيّة.

ـ أتمنّى من أعماق قلبي نجاحها، قالت روزر.

فردّ عليها فيليبه:

ـ أتظنّين أنّ قوى اليمين والأميركيّين سيسمحون بنجاحها؟ تذكّري ما أقوله لك، هذه البلاد ذاهبة إلى الخراب.

جرت مظاهرات الابتهاج بلا تجاوزات أو أعمال عنف، وفي اليوم التالي، عندما هرع المرعوبون إلى المصارف لسحب أموالهم وشراء تذاكر سفر والهروب قبل أن يغزو السوفييت البلد، وجدوا عمّالًا ينظّفون الشوارع كما في كلّ يوم سبت عاديّ، وليس هنالك أيّ أهوج يحمل هراوة في يده ويهدّد الناس المحترمين. لم يكن هناك أيّ تعجّل في نهاية المطاف. وقدّروا أنّ كسب الأصوات هو شيء، والوصول إلى الرّئاسة شيء آخر مختلف تمامًا، فما زال هنالك شهران من أجل أن يتّخذ الكونغرس القرار الحاسم، ومن أجل ليّ الوضع لمصلحته. كان التوتّر يُلمس باليد في الهواء، وخطّة سدّ الطريق أمام ألليندي قد وُضِعت موضع التّنفيذ قبل أن يتولّى المنصب. ففي الأسابيع التالية، دُبّرت مؤامرة يدعمها الأميركيّون لاغتيال القائد الأعلى للجيش، وهو عسكريّ يحترم الدستور، ولا بدّ من إزاحته جانبًا. كان للجريمة مفعولٌ معاكسٌ لدى الأغلبية السّاحقة؛ وبدلًا

t.me/qurssan

... دفع العسكريّين إلى التّمرّد، أدّت إلى غضب عام، وعزّزت تقاليد الشرعيّة لدى معظم التشيليّين غير المعتادين على مثل هذه الأساليب الشرّيرة، والمعهودة في بعض جمهوريّات الموز، ولكنّ ليس بأيّ حال من تشيلي، حيث الخلافات لا تُحلّ بإطلاق الرصاص، مثلما قالت الصحف. صادق الكونغرس على تنصيب سلفادور ألليندي الذي تحوّل إلى أوّل رئيس ماركسيّ يُنتخب بصورة ديمقراطيّة. وهكذا، لم تعُد فكرة الثورة السّلميّة تبدو أمرًا غير معقول.

خلال أسابيع النزاع تلك التي مضت ما بين الانتخابات وانتقال القيادة، لم تتوافر لفيكتور فرصة للعب الشطرنج مع ألليندي، لأنّ تلك الفترة كانت بالنّسبة إلى الرّئيس المقبل مرحلة تسويات سياسيّة، واتّفاقيّات واختلافات خلف أبواب مغلقة، مرحلة شدّ ورخي من جانب أحزاب الحكومة من أجل الحصص في الحكم والإزعاجات المتواصلة من جانب المعارضة. وكان ألليندي يندّد عبر كلّ الوسائل بتدخّل حكومة الولايات المتّحدة. كان نيكسون وكيسنجر قد أقسما على منع انتصار التجربة التشيليّة، لأنّها قد تشتعل كالبارود في بقيّة أنحاء أميركا اللّاتينيّة وأوروبا. وعندما لم يتمكّنا من التّوصّل إلى ذلك عن طريق الرشى والتّهديد، بدأ بمغازلة العسكريّين. لم يكن ألليندي يستهين بأعدائه الخارجيّين والدّاخليّين، ولكنّ كان لديْه إيمان غير عقلانيّ بأنّ الشعب سيدافع عن حكومته. يُقال إنّه كانت لديْه «دمية» للتّصرّف حيال أيّ وضع وقلبه لمصلحته، ولكنّه خلال السنوات الدراماتيكيّة الثلاث التالية، سيحتاج إلى مزيد من السّحر وإلى حسن الحظ أكثر من حاجته إلى دمية. تجدّدت جولات الشطرنج في العام التالي، عندما تمكّن الرئيس من إقرار بعض الرّوتين في حياته المعقّدة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل العاشر
1970 ـ 1973

في منتصف الليل أتساءل:
ماذا سيحدث لتشيلي؟
ماذا سيحلّ بموطني المسكين القاتم؟

بابلو نيرودا
«أرق»، ذكريات إيسلا نيغرا

t.me/qurssan

t.me/qurssan

عادت حياة فيكتور و روزر إلى مسارها السّابق، وانهمك كلٌّ منهما في عمله، هو في المستشفى وهي في دروسها وحفلاتها الموسيقيّة وحلاتها، بينما كانت البلاد تهتزّ بعاصفة تغيُّرات. فقبل سنتيْن من الانتخابات، كان طبيبٌ جرّاح ذهبيّ اليديْن قد زرع قلبًا بشريًا لامرأة في الرّابعة والعشرين في أحد مستشفيات مدينة بالبارايسو. هذه المأثرة كانت قد تحقّقت مرّة واحدة من قبلُ في جنوب أفريقيا، ولكنّها كانت لا تزال تعتبر تحدّيًا لقوانين الطبيعة. تابع فيكتور دالماو كلّ تفاصيل الحالة، ووضع إشارات يوميّة على التقويم طوال المئة والثلاثة والثلاثين يومًا التي ظلّت المريضة خلالها على قيد الحياة. عاد إلى حلم بلاثارو، ذلك الجنديّ الذي أنقذه من الموت على رصيف محطّة الشمال، قبل قليل من انتهاء الحرب الأهليّة. تواتر رؤيته كابوس لاثارو حاملًا قلبه على طبق، تحوّل إلى حلم مضيء يظهر فيه الجنديّ الفتى ماشيًا بنافذة مفتوحة في صدره، حيث ينبض قلبه بكامل صحّته، وتخرج منه إشعاعات ذهبيّة، مثل رسم قلب يسوع المقدّس.

وذات يوم، ذهب فيليبه دل سولار ليجري له فيكتور فحصًا في المستشفى، لأنّه يشعر بوخزة في الصدر. لقد دفعته سمعة صديقه للمغامرة خارج الحيّ الرّاقي والذهاب إلى المنطقة الرّماديّة، حيث

t.me/qurssan

يسكن أناس من طبقة أخرى. «متى ستُقيم عيادتك في مكان مناسب؟ ولا تخرج لي بهراء أنَّ الرعاية الصحّيّة حقٌّ للجميع، وليست امتيازًا لأقليّة ضئيلة. فقد سمعت كثيرًا مثل هذا الكلام»، كان هذا ما قاله فيليبه على سبيل التَّحية. لم يكن معتادًا على الحصول على رقم، وانتظار دوره جالسًا على مقعد معدنيّ. بعد الانتهاء من فحصه، أخبره فيكتور مبتسمًا أنَّ قلبه سليم، وأنَّ وخزات صدره هي وخزات سوء النيّة أو الجشع وبينما هو يرتدي ثيابه، علّق فيليبه بأن نصف تشيلي يعاني من سوء النيّة والجشع بسبب الوضع السياسيّ، ولكنّه يتوقّع أنَّ الثورة الاشتراكيّة التي يتبجّحون بها سوف تبقى في المحبرة فقط، وأنَّ الشلل سيُصيب الحكومة بسبب ضغائن الأحزاب المؤيّدة لها، ومكائد أصحاب السطوة.

فردَّ عليه فيكتور:

ـ إذا فشلت الثورة، يا فيليبه، فلن يكون من ذكرتهم هم السَّبب، وإنّما سيكون السّبب هو تآمر الخصوم وتدخُّل واشنطن.

ـ أراهنك على أنّه لن تحدث أيُّ تغيُّرات جوهريّة!

ـ أنت مخطئ. فالتّغيُّرات بدأت تُلحظ. منذ أربعين عامًا وألليندي يتخيّل هذا المشروع السياسيّ، وقد أطلقه ليندفع بأقصى قوّة.

فقال فيليبه: ـ وضع الخطط شيء وممارسة الحكم شيء آخر. سوف ترى كيف ستحدث فوضى سياسيّة واجتماعيّة في البلاد، وكيف سيمضي الاقتصاد إلى الإفلاس. هؤلاء الناس يفتقرون إلى الخبرة والإعداد، يمضون وقتهم في مناقشات لا تنتهي، ولا يتوصّلون إلى التوافق على أيّ شيء.

فردَّ عليه فيكتور غاضبًا:

t.me/qurssan

ـ أمّا المعارضة بالمقابل، فلها هدف واحد فقط، أليس كذلك؟
، ماط الحكومة مهما كان الثمن. قد تتوصّل المعارضة إلى ذلك، فهي
.الك موارد هائلة، وقليل جدًّا من الحَرَج والشعور بالإثم؟

كان أللييندي قد أعلن في حملته الانتخابيّة عن الإجراءات
ال ي سيتّخذها: تأميم صناعة النحاس، وتحويل كثير من المؤسّسات
والمصارف إلى يد الدولة، وتأميم الأراضي. تأثير ذلك الإعلان هزّ
البلاد، فقد أدّت الإصلاحات إلى نتائج جيّدة خلال الشهور الأولى،
ولكنّ انفلات إصدار أوراق النقد بلا ضابط أدّى إلى انفلات التّضخّم
من عقاله، إلى حدّ لم يَعُدْ هنالك من يعرف كم سيكون الفارق في
سعر الخبز اليوم بالمقارنة مع ما كان عليه أمس. ومثلما كان فيليبه دل
سولار قد تنبّأ، بدأ الشجار بين أحزاب الحكومة نفسها، والمؤسّسات
التي استولى عليها العمّال كانت تدار بطريقة سيّئة، وكان الإنتاج يتردّى
بشدّة، والتّخريب الذكيّ الذي تقوم به المعارضة يؤدّي إلى عدم وصول
المؤن. وضمن أسرة آل دالماو، كانت كارمي هي أشدّ المتذمّرين.

ـ الخروج من أجل المشتريات صار نكبة، يا فيكتور، لا أعرف أبدًا
ماذا سأجد في السوق. أنا غير محبّة للمطبخ. فمن يطبخ هو جوردي،
ولكنّه كما تعرف قد تحوّل إلى عجوز رعديد وبكّاء، لا يخرج إلى الشارع.
أنا من أقف في الدور من أجل شراء فرّوج مصاب بسوء التغذية وبالسعر
الرّسميّ. إنّني مضطرّة إلى ترك جوردي وحيدًا في البيت لساعات
طويلة، فيصيبه الرّعب أثناء غيابي. تأتي إحدانا من أقصى العالم لتعود
مرّة أخرى إلى الوقوف في الرتل من أجل شراء السجائر!

ـ أنت تدخّنين كثيرًا، يا أمّاه. لا تضيّعي وقتك في هذا الأمر.

t.me/qurssan

ـ أنا لا أضيّع الوقت، إنّني أدفع للمحترفين.

ـ ومن هم المحترفون؟

ـ يبدو واضحًا أنّكَ تشتري من السّوق السّوداء، يا بنيّ. المحترفون هم شبّان عاطلون عن العمل أو مسنُّون متقاعدون، يحفظون لك مكانًا في الرتل مقابل مبلغ زهيد.

ـ لقد شرح ألليندي أسباب غياب السلع. وأفترض أنّك رأيته في التلفاز.

ـ وسمعته من المذياع مئة مرّة. إنّه يقول إنّ الشعب يملك وسائل الشراء لأوّل مرّة، ولكنّ رجال الأعمال يمنعون ذلك، لأنّهم يفضّلون الإفلاس لمجرّد زرع عدم الرضا والتذمّر. بلا، بلا، بلا، مجرّد كلام... هل تتذكّر إسبانيا؟

ـ أجل، يا أمّاه، أتذكّر جيّدًا. لديّ بعض العلاقات، وسوف أرى إن كان بإمكاني الحصول على بعض الأشياء.

ـ مثل ماذا؟

ـ لفّافات ورق صحّيّ مثلًا. هنالك مريض يأتي أحيانًا ببضع لفّافات كهديّة.

ـ جيّد! إنّها تساوي وزنها ذهبًا، يا فكتور.

ـ هذا ما قيل لي.

ـ اسمع، يا بنيّ، هل لديك اتّصالات للحصول على حليب مكثّف وزيت؟ يمكنني أن أمسح مؤخّرتي بورق جرائد. ولكنْ احصل لي على سجائر.

t.me/qurssan

لم تختفِ المواد الغذائيّة فقط، بل اختفت أيضًا: قطع غيار الآلات، ، اطارات السيّارات، وإسمنت البناء، وحفّاضات الأطفال، وحليب قناني الرضاعة، وموادّ أساسيّة أخرى؛ وبالمقابل، كان هناك فائض من صلصة الصويا، والكبّار وطلاء الأظافر. عندما بدأ تقنين البنزين، امتلأت البلاد براجين غير بارعين يمرُّون بين المشاة. ولكنَّ الشعب واصل الشعور بالنشوة. فهو يشعر أخيرًا بأنّه ممثّل في الحكومة، وأنَّ الجميع متساوون، رفيق هنا، ورفيق هناك، ورئيس رفيق. ندرة الموادّ والتقنين والإحساس الدائم بعدم الاستقرار لم يكن جديدًا على من اعتادوا العيش دومًا على احتياجاتهم الضروريّة أو على من كانوا فقراء. كانت تُسمع في كلّ مكان أغنيات فيكتور خارا الثوريّة، والتي كان يحفظها مارسيل عن ظهر قلب، على الرّغم من أنّه أقلّ أفراد أسرة دالماو اهتمامًا بالسياسة. امتلأت الجدران باللّوحات والجداريّات والأفيشات، وكانت تُقدَّم في الساحات عروض مسرحيّة، وتُنشر كتب تباع بسعر قطعة مثلّجات، كي يكون في كلّ بيت مكتبته الخاصّة.

احتفظ العسكريُّون بالصمت في ثكناتهم، وإذا كان هنالك بينهم من يتآمرون، لم يكن يخرج أيّ شيء إلى النور. وظلّت الكنيسة الكاثوليكيّة رسميًّا على هامش المواجهة السياسيّة؛ فقد كان هنالك كهنة جديرون بمحاكم التّفتيش، يحثُّون على السّخط والضغينة من فوق منابرهم، كما كان هناك كهنة وراهبات يتعاطفون مع الحكومة، ليس إيديولوجيًّا، وإنّما لأنّها تقدّم الخدمات لأشدّ المحتاجين للمساعدة. صحافة اليمين تدعو في عناوينها الرّئيسيّة: أيُّها التشيليُّون، راكموا الحقد! والبرجوازيّة المذعورة والحانقة ترشق العسكريّين بحبوب الذرة، وتدعوهم إلى التّمرُّد. «أيُّها الدجاج، أيُّها المخنّثون، امتشقوا السلاح!»

t.me/qurssan

ـ يمكن أن يحدث هنا ما حدث لنا في إسبانيا، كانت كارمن تقول هذه المعزوفة دومًا. فيحاول فيكتور طمأنتها:

ـ أللييندي يقول إنّه لن تقع هنا أيّ حرب بين الأخوة، لأنّ الحكومة والشعب سيمنعان حدوث ذلك.

ـ رفيقك هذا يخطئ التّقدير. تشيلي منقسمة إلى أفرقاء لا يمكن المصالحة بينهم، يا بنيّ. الأصدقاء يتشاجرون، هنالك عائلات انقسمت إلى نصفيْن، ما عاد بالإمكان التّحدُّث مع أحد إلّا إذا كان يحمل الرأي نفسه. أنا نفسي لم أعُد ألتقي ببعض صديقاتي القديمات، كيلا أتشاجر معهنّ.

ـ لا تبالغي، يا أمّاه.

ولكنّه هو أيضًا كان يشعر بالعنف يطفو في الهواء. ففي إحدى اللّيالي، كان مارسيل عائدًا على الدرّاجة من حفلة غنائيّة لفيكتور خارا، وتوقّف لرؤية جماعة من الشباب يرسمون جداريّة حمائم وبنادق وهم يتسلّقون سُلَّميْن. وفجأةً، ظهرت من العدم سيّارتان، ترجّل منهما عدة رجال مسلّحين بحدائد وعصيّ، وخلال دقيقتيْن تقريبًا خلّفوا الفنّانين مطروحين أرضًا. وقبل أن يتمكّن مارسيل من الإتيان بأيّ ردّ فعل، صعدوا إلى السيّارتيْن اللتيْن تنتظران من دون إطفاء محرّكيْهما، واختفوا بأقصى سرعة. وصلت دوريّة شرطة بعد دقائق قليلة، وكانت قد تلقّت إخبارًا من أحد الجيران، وحملت سيّارة إسعاف الجرحى الذين كانوا في أسوأ حال. اقتاد رجال الدرك مارسيل إلى مخفرهم، ليقدّم أقواله كشاهد على الواقعة. وإلى هناك، ذهب فيكتور لإخراجه في الساعة الثالثة فجرًا، لأنّه كان في حالة من الوهن الشديد، وغير قادر على العودة إلى البيت ممتطيًا الدرّاجة.

t.me/qurssan

ظهرت حركة يسارية تدعو إلى الكفاح المسلّح، بعد اليأس من
مار أن تنتصر الثورة بالحُسنى. وبصورة متزامنة، ظهرت حركة أخرى
.. ه لا تؤمن كذلك بالاتّفاقيّات المتحضّرة. «إذا كانت المسألة قتالًا،
« مائل إذًا»، هذا ما كان يقوله هؤلاء وأولئك. ومن أجل الهروب بضع
اعات من محبّة المملّ جوردي، كانت كارمي تحضر مظاهرات حاشدة
. لأ الشوارع بصرخات التأييد للحكومة، وتشارك كذلك في المظاهرات
الأ ـرى، الحاشدة أيضًا، التي تُسيّرها المعارضة. كانت تذهب بحذاء
ياضيّ، ومعها ليمونة ومنديل مضمّخ بالخلّ من أجل القنابل المُسيّلة
الدموع، وقد اعتادت أن ترجع إلى البيت مبلّلة جدًّا باندفاع ماء الضغط
الذي تحاول به الشرطة فرض النظام. فكانت تقول: «كلّ شيء مختلط
.. مضطرب. يمكن لأيّ شرارة هنا أن تكون كافية لتفجير هذا البلد كلّه».

لم يؤمّموا إقطاعيّة إيسيدرو دل سولار، ولكنّ الفلّاحين استولوا
عليها بمبادرة خاصّة منهم. فاعتبرها ضائعة مؤقّتًا، لأنّ اللّياقة والأخلاق
مُستعادان بأسرع ممّا يمكن تصوّره، مثلما كان يقول ساخطًا؛ وركّز
اهتمامه على إنقاذ تجارته في تصدير الصوف قبل أن تأكل الجموع
مواشيه. تعاقد مع بعض مصرفيّي الجنوب، ممّن يعرفون دروب سلسلة
الجبال وسُبلها، وأرسل أغنامه إلى بتاغونيا الأرجنتينيّة، مثلما أرسل
غيره أبقارهم. ونقل أسرته أيضًا إلى بوينس آيرس، مثلما كان قد أعلن.
ذهبوا في حشدٍ، بمن في ذلك ابنتاه المتزوّجتان وزوجاهما والأحفاد مع
مربّياتهم، وظلّت خوانا نانكوتشيو في شارع مار دي بلاتا للعناية بالبيت.
أمّا لورا، فحملوها بالقوّة، شبه غائبة عن الوعي بالمهدّئات والحلوى،
بعد أن وعدوها بأنّ فيليبه سيتولّى أثناء غيابها الحفاظ على وجود أزهار
يانعة على قبر ليوناردو. وكان فيليبه هو من بقي هناك، وواصل العمل

t.me/qurssan

في مكتبه للمحاماة؛ أما المحاميان الآخران، فذهبا لفتح فرع جديد في مونتيفيديو.

في تلك الأثناء، كان فيليبه يُكثر من زيارة آل دالماو في بيتهم بحيّ نونيوا القديم، حيث لا يسكن أحد من طبقته. يتهاوى جالسًا وهو يحمل زجاجتيْ نبيذ، وبه رغبة لتبادل الحديث. لم يَعُد يجد نفسه على ما يرام مع أصدقائه المعهودين، كما أنّه لم يكن يتوافق مع معارفه اليساريّين القليلين، لأنّهم يرتابون بأساليبه المتراخية المستنسخة عن الإنكليز، وبغموض موقفه السياسيّ. وكان نادي الغاضبين قد تشتّت منذ زمن طويل. وانكبّ فيليبه على اقتناء أعمال فنّيّة بأسعار زهيدة لا تُصدَّق من العائلات التي بدأت تغادر البلاد، وسرعان ما لم يَعُد هنالك في بيته متّسع للحركة. بدأ البحث عن بيت آخر أكبر، مستغلًا أنّ أسعار البيوت صارت شبه مجّانيّة. صار يسخر من نفسه، حين يرى كيف كان ينتقد في شبابه الاتّساع المفرط لبيت أبويْه. سألته روزر ما الذي سيفعله بكلّ تلك الأشياء والأمتعة إذا ما قرّر الرّحيل إلى الخارج، مثلما اعتاد القول، فردّ عليها أنّه سيحفظها في مستودع إلى أن يعود ثانية، لأنّ تشيلي ليست روسيا ولا كوبا، وأنّ الثورة الشهيرة على الطريقة التشيليّة لن تستمر إلّا لوقتٍ قصير جدًا. وكان يبدو واثقًا من كلامه إلى حدّ أنّ فيكتور صار يرتاب بأنّ صديقه مطّلع على أسرار مؤامرة تُدبَّر في الخفاء. لهذا، وعلى سبيل الاحتياط، لم يكن يُخبره شيئًا عن جولاته في لعب الشطرنج مع الرّئيس ألليندي. عندما كان فيليبه يشرب الويسكي إضافة إلى نبيذ العشاء، ينفلت لسانه، ويثرثر مطلقًا اللّعنات على الحياة والعالم. لم يبق لديْه إلّا القليل من مثاليّة شبابه وسخائه، لقد تحوّل إلى كلبيّ. يوافق على أنّ الاشتراكيّة هي النظام الأكثر عدالة، ولكنّها في الممارسة

t.me/qurssan

،. لبّه تقود إلى دولة بوليسيّة أو إلى دكتاتوريّة، مثلما يحدث في كوبا،
،. ،: من كان ضدّ النظام يهرب إلى ميامي، أو ينتهي سجينًا! وبسبب
ا ،منه الأرستقراطيّة، كان يشمئزّ من فوضى المساواة، والكليشيهات
الاورثة، والشعارات الدغمائيّة، وابتذال الأساليب، واللّحى الكثيفة،
وانعدام الأسلوب الحِرَفي - أثاث من أغصان محروقة وبُسُط من ألياف
الحوت، وكذلك صنادل وعباءات، وصنع عقود من بذور نباتيّة، وتنانير
،. الكروشيه.. وباختصار، كارثة معمّمة. وكان يتعلّل: «لست أفهم لماذا
يحب ارتداء ملابس متسوّل؟». ولماذا الحديث عن هذا الذي يسمّونه
ثقافة شعبيّة، مع أنّه يخلو من أيّ ثقافة؟ إنّه هوْل الواقعيّة السوفييتيّة على
الطريقة التشيليّة، جداريّات عمّال المناجم بقبضات مرفوعة وصور تشي
، مارا، وأصوات مغنّين واعظين بموسيقاهم الرّتيبة. «حتّى موسيقى
،ونروكا المابوتشيّين وموسيقى كيما الكيتشوا صارت موضة رائجة!»
ولكنّه بين صداقاته المعهودة اليمينيّة، كان يتبنّى خطابًا ساحقًا أيضًا
ضدّ السادة المتحجّرين والمتآمرين، العالقين في الماضي، من أصابهم
العمى ويصمُّون آذانهم حيال مطالب الشعب، ولا مانع لديْهم من الدّفاع
عن امتيازاتهم على حساب الدّيمقراطيّة والبلاد. إنّهم خونة. لم يكن
هناك من يتحمّله، وجرى عزله واستبعاده. كانت تثقل عليه وحدته
كعازب متقدّم في السنّ، وتتضاعف توعّكاته.

أمّا فيكتور الذي احتفى بالتّحسينات المستجدّة في الصّحّة
العامّة، ابتداء من كأس الحليب اليوميّ لكلّ طفل لتخفيف سوء التغذية،
وحتّى بناء المستشفيات، وجد نفسه أمام نقص في المضادات الحيويّة،
ووسائل التّخدير، والإبر والحقن الطبّيّة، والأدوية الأساسيّة، والأيدي
القادرة على رعاية المرضى، لأنّ عدّة أطبّاء غادروا تشيلي لمناهضة

t.me/qurssan

الطغيان السوفييتي المخيف الذي تتحدَّث عنه دعاية المعارضة، ولأنَّ نقابة الأطبّاء أعلنت الإضراب، وامتثل للقرار الجزء الأكبر من زملائه. واصل هو العمل بدوام مضاعف. كان ينام واقفًا ومتعبًا حتى الرُّوح، بإحساس أنّه عاش حالة مماثلة خلال الحرب الأهليّة الإسبانية. بعض النقابات المهنيّة وجمعيّات أرباب العمل وأصحاب المصانع والمؤسّسات شاركوا في التوقُّف عن العمل أيضًا. وعندما رفض سائقو الشاحنات العمل، صار البلد المتطاول بلا حركة نقل؛ فكانت الأسماك تتعفَّن في الشمال، والخضار والفاكهة في الجنوب، بينما يطفو في سنتياغو القليل ممّا هو أساسيّ. كان أللّيندي يندّد بأعلى صوت بالتدخُّل الأميركيّ الذي يموّل سائقي الشاحنات ومؤامرات اليمين. انضمَّ الطلّاب كذلك إلى الفوضى، متخندقين في قاعات الجامعة. وعندما سدّوا مدخل الكلّيّة بأكياس الرَّمل، صارت روزر تتواعد مع طلّابها للّقاء في الحديقة الغابيّة، وتملي عليهم الدروس النظريّة في الهواء الطلق، مع مظلّات إذا تطلّب الأمر؛ وكانت تُجري تفقُّدًا للحضور، وتعطي علامات وملاحظات كالعادة، معربة عن أسفها، لأنَّها لا تستطيع جرّ جهاز بيانو كبير إلى هناك. اعتاد الناس على تواجد رجال الدرك بملابس الميدان، وعلى لافتات وإعلانات الاحتجاج، وعلى الأفيشات المتأجّجة، وتهديدات الصحافة وتحذيراتها الكارثيّة، والصراخ المتبادل من جانب إلى جانب، الجميع ضدّ الجميع. ومع ذلك، من أجل التأميم الكامل للمناجم والتعدين، كان هنالك إجماع كامل.

ـ لقد حان الوقت، علّق على الأمر مارسيل مع جدُّته. النحاس هو دعامة تشيلي، وهو ما يدعم الاقتصاد.

ـ إذا كان النحاس تشيليًا، فلا أدري لماذا يجب تأميمه!

t.me/qurssan

ـ لأنّه كان على الدوام في أيدي شركات أميركيّة، يا جدّتي.

اما انتزعته الحكومة، واعتبرت أنَّ التعويض قد دُفع للشركات، وهي ..بنة للبلاد بآلاف ملايين الدولارات بسبب الأرباح الهائلة، والتّهرُّب الضريبيّ.

فعلّقت كارمي:

ـ لن يروق هذا للأميركيّين. تذكَّر ما أقوله، يا مارسيل، ستقع الواقعة.

ـ عندما يذهب الأميركيّون من المناجم سوف يحتاجون هنا إلى مزيد من المهندسين والجيولوجيّين التشيليّين. وسوف أصير مطلوبًا بإلحاح للعمل، يا جدّتي.

ـ يسعدني ذلك. هل سيدفعون لك أكثر؟

ـ لا أدري. لماذا تسألين؟

ـ كي تتزوّج، يا مارسيل. نحن في هذه الأسرة أربعة بائسين؛ وإذا أنت لم تتعجّل، فلن أتمكّن من رؤية أحفاد ابني. صار عمرك واحدًا وثلاثين عامًا، وقد حان الوقت ليستقرّ رأسك.

ـ إنّه مستقرّ.

ـ لا أرى وجود امرأة في حياتك، وهذا ليس طبيعيًا. ألم تجرّب الحبّ قطّ؟ أم أنّك ستكون واحدًا من هؤلاء...؟ حسن، أنت تعرف ما الذي أعنيه.

ـ ولماذا أنتِ غير متكتّمة أيّتها الجدّة؟

ـ هذا يحدث لك بسبب تعلُّقك بالدرّاجة. فهي تسحق الخصيتيْن، وتسبّب العجز والعقم.

t.me/qurssan

ـ أيْوه.

ـ لقد قرأت هذا في مجلّة في صالون قصّ الشعر. وأنت لســ
سيّئ المظهر، يا مارسيل. إذا ما حلقت هذه اللّحية، وقصصت شعرك
الطويل، فسوف تبدو مثل دومينغين.

ـ مثل من؟

ـ دومينغين، مصارع الثيران، أجل. كما أنّك لستَ أبله. عليك أن
تتشجّع. تبدو أشبه براهب.

لم تتوقّع كارمي أن تكون إحدى نتائج التأميم إرسال شركة النحاس لحفيدها في منحة إلى الولايات المتّحدة. فقد ترسّخ في رأسها أنّه إذا سافر، فلن تعود لرؤيته. سافر مارسيل إلى كولومبيا، إحدى المدن الرابضة عند سفح سلسلة جبال الروكي، وكانت المدينة قد تأسّست في أزمنة حمّى الذهب؛ ذهب إلى هناك ليدرس الجيولوجيا. حمل معه درّاجته مفكّكة، لأنّها كانت مصنوعة على مقاسه، وحمل كذلك أسطواناته لأغنيات فيكتور خارا. وسافر قبل أن تتحوّل الفوضى إلى أعمال عنف، ستؤدّي إلى تدمير البلاد. «سأكتب إليكَ»، كان هذا آخر ما قالته له جدّته في المطار.

كان مارسيل قد تعلّم الإنكليزيّة بالعناد الصامت نفسه الذي يرفض فيه التّكلّم بالكتلانيّة. وخلال أسابيع قليلة، استطاع التأقلم مع أجواء كولومبيا. وصل في بدايات خريف ذهبيّ؛ وبعد أسابيع قليلة، كان منهمكًا في إزاحة الثلج. وانضمّ إلى بعض الدرّاجين المتعصّبين الذي يتدرّبون من أجل اجتياز الولايات المتّحدة من شاطئ المحيط الهادئ حتّى شاطئ الأطلسيّ، كما انضمّ إلى جماعات أخرى من

t.me/qurssan

أعلى الجبال. لم يذهب فيكتور لزيارته أبدًا، لأنّه وسط الاضطرابات والمظاهرات والإضرابات والاستغراق المفرط في العمل، لم يجد الوقت للقيام بالرحلة، ولكنّ روزر ذهبت لزيارته مرّتين، واستطاعت أن تطمئن بقيّة الأسرة بأنّ ابنها ربّما يكون قد قال كلمات بالإنكليزيّة في كولومبيا أكثر ممّا قاله بالإسبانيّة طوال حياته. وقد حلق ذقنه، وصار يسرّح شعره مع جديلة قصيرة عند العنق. وقد كانت كارمي على حقّ، فهو يبدو شبيهًا بدومينغين. وبعيدًا عن تصويت العائلة، وبتحرّره من خلافات تشيلي وتعسّفاتها، انهمك في ملاذ الجامعة الثقافيّ في دراسة الطبيعة السريّة للأحجار واستكشافها، وأحسّ بالراحة في جسده لأوّل مرّة. فهو هناك ليس ابن المهاجرين، ولم يسمع أحد هناك أيّ شيء عن الحرب الأهليّة الإسبانيّة، وقلّة هم من يستطيعون تحديد موقع تشيلي على الخريطة، وأقلّ منهم من يعرفون أين تقع كتالونيا. في هذا الواقع الغريب، وبلغة أخرى، عقد صداقات. وبعد بضعة أشهر، كان يعيش في شقّة صغيرة مع حبّه الأوّل، وهي شابة من جاميْكا تدرس الأدب، وتكتب للصحف. في زيارتها الثانية، تعرّفت روزر عليها؛ وعند عودتها إلى تشيلي، علّقت بالقول: فضلًا عن أنّها جميلة، هي فتاة مرحة وثرثارة، بارعة في الحديث، على خلاف ما هو عليه مارسيل. «اطمئني، يا دونيا كارمي، لقد بدأ حفيدك بالتيقُّظ. الفتاة الجاميْكيّة تُعلّمه الرقص على إيقاعات بلادها الكاريبيّة. وإذا ما رأيته يتلوّى كأفريقيّ على إيقاعات الطبول والماراكانا، فلن تصدّقي أنّه هو نفسه».

ومثلما كانت تخشى، لم تَعُد كارمي لمعانقة حفيدها، ولم تتوصّل إلى التّعرّف على الفتاة الجاميْكيّة، ولا على أخريات صرن صديقات له، ولا على أبناء الأحفاد الذي وسّعوا سلالة آل دالماو، فقد طلع عليها

t.me/qurssan

الصباح ميِّتة في اليوم نفسه الذي أكملت السادسة والثمانين من عمرها، بعد أن كانوا قد نصبوا الخيمة، ووضعوا المناضد للاحتفاء في الفِناء. كانت قد نامت في اللّيلة السّابقة وهي تسعل وتدخّن، كعادتها دومًا، ولكنّها كانت بصحّة جيّدة، وتستبق الاحتفال بعيد ميلادها

استيقظ جوردي مولينيه مع بزوغ ضوء النهار المتسرِّب من بين ستائر النافذة، وظلّ يتقلّب في الفراش بانتظار أن تعلن رائحة الخبز المحمّص عن موعد النهوض لتناول الفطور. احتاج لعدّة دقائق كي ينتبه إلى أنّ كارمي كانت إلى جانبه، بلا حراك وباردة كالرخام. أمسك يدها وظلّ ساكنًا، يبكي من دون أن يتحرّك، ويفكّر في خيانتها الرهيبة بذهابها قبله وتركه وحيدًا!

اكتشفت روزر موت كارمي في قرابة الساعة الواحدة بعد الظهر، عندما جاءت حاملة قالب الحلوى، والسيّارة ممتلئة ببالونات من أجل ترتيب الموائد قبل مجيء الطاهي ومساعديْه. استغربت الصمت والعتمة، النوافذ المغلقة والهواء الراكد. نادت حماتها وجوردي من الصالة قبل البحث عنهما في المطبخ، والمغامرة بالدخول إلى حُجرة نومهما. فيما بعد، عندما تمكّنت من الخروج من المفاجأة، ومن الإتيان برد فعل، تناولت الهاتف واتّصلت برقم فيكتور في المستشفى، ثمّ اتّصلت بعد ذلك بمارسيل في الفندق ببوينس آيرس، حيث كان بالصدفة في رحلة مع فريق من الطلّاب، لتخبرهما بأنّ الجدّة قد ماتت، وأنّ جوردي قد اختفى.

كانت كارمي قد قالت في أكثر من مناسبة أنّها، إذا ماتت في تشيلي، تريد أن تُنقل وتُدفن في إسبانيا، حيث ترقد رُفات كلٍّ من زوجها وابنها وليام؛ وإذا ما ماتت في إسبانيا، فإنّها تريد أن تُدفن في تشيلي،

t.me/qurssan

،ي نكون قريبة من بقية أفراد أسرتها. لماذا؟ من أجل الإزعاج، تضيف ضاحكة. ولكنّه لم يكن مزاحًا وحسب، بل هو غمّ الحبّ الإلهيّ، حبّ الانفصال، العيش والموت بعيدًا عن ذويها. استطاع مارسيل الطيران في اليوم التالي إلى سنتياغو. سهروا على جثمان الجدّة في البيت، حيث عاشت تسعة عشر عامًا مع جوردي مولينيه. لم تكن هناك طقوس دينيّة، لأنّ آخر مرّة وطأت فيها قدما الميّتة كنيسةً كانت، وهي بنت صغيرة، قبل أن تقع في حبّ مارسيل لويس دالماو، ولكنّ كاهنيْن من جمعية ماريكنول التبشيريّة، يعيشان على مقربة من المكان، حضرا من دون أن يستدعيهما أحد. لقد كانا يقدّمان لكارمي سجائر تُرسل إليهما من نيويورك، مقابل جامبون جبليّ وجبن مانتشيغو يحصل عليه جوردي بأساليب غير شرعيّة. ارتجل الكاهنان قداسًا جنائزيًا، كان سيلقى إعجاب كارمي، مع عزف جيتار وغناء، حيث كان الشخص الوحيد الذي لم يجد عزاءً هو حفيدها مارسيل، لأنّ علاقة تواطؤ كانت تربطه بالجدّة. تناول كأسيْن من خمر البيسكو، وجلس يبكي على ما لم يستطع أن يقوله لها، وعلى الحنان الضائع الذي يشعر بالخجل من إظهاره، ولأنّه رفض التّكلُّم معها بالكتلانيّة، ولأنّه سخر من طبخها بالغ السّوء، ولأنّه لم يردّ على رسالة واحدة من رسائلها. لقد كان أقرب الجميع إلى قلب تلك الجدّة الوقحة وكثيرة الأوامر، والتي تكتب له رسالة يوميّة منذ ذهابه إلى جامعة كولومبيا، حتّى اليوم السابق لموتها. الشيء الوحيد الذي سيرافق مارسيل دومًا، وأينما كان عليه أن يعيش، هو علبة حذاء مربوطة بخيط تضمّ الثلاثمئة وتسع وخمسين رسالة من الجدّة. جلس فيكتور إلى جانب مارسيل، صامتًا وحزينًا، مفكّرًا في أنّ أسرته الصّغيرة قد فقدت العمود الذي كان يسندها. وفي ساعة متأخّرة

t.me/qurssan

من تلك اللّيلة، قالت له روزر في حميميّة حُجرتهما. «العمود الذي ظلّ يسندنا على الدوام هو أنت، يا فيكتور»، جعلَتْهُ يرى ذلك. حضر الجيران للسهر على الجثمان، وحضر كذلك رفاق قدماء، وبعض زملاء كارمي من المدرسة التي عملت فيها لسنوات، وأصدقاء لها من الأزمنة التي كانت ترافق فيها جوردي في حانة وينيبيغ، وعدد من أصدقاء فيكتور وروزر. وفي الساعة الثامنة ليلًا، جاء رجال الدرك، وحاصروا كتلة الأبنية كلّها بدرّاجات ناريّة ليفتحوا الطريق لثلاث سيّارات فيات زرقاء. في واحدة منها، كان الرّئيس آتيًا لتقديم العزاء لصديقه في لعب الشطرنج. اشترى فيكتور قطعة أرض في المقبرة لدفن أمّه، مع مساحة تتّسع لبقية أفراد الأسرة، ومن أجل جوردي، وربّما من أجل رفاة أبيه، إذا ما استطاع نقله في المستقبل من إسبانيا. عندئذٍ، عرف أنّه ابتداء من تلك اللّحظة صار ينتمي بصورة نهائيّة وحاسمة إلى تشيلي. «الوطن هو المكان الذي يوجد فيه موتانا»، هذا ما اعتادت كارمي على قوله.

في أثناء ذلك، كانت الشرطة تبحث عن جوردي مولينيه. إذ ليس للعجوز أسرة؛ وأصدقاؤه هم أصدقاء كارمي نفسهم. لم يره أحد. يعتقدون أنّه قد ضلّ الطريق، لأنّه يعاني بعض الشيء من عته الشيخوخة، ولا يُمكنه المشي بعيدًا. علّق آل دالماو إعلانًا مع صورته على واجهات متاجر الحيّ، وأبقوا باب البيت مغلقًا من دون إقفال، كي يتمكّن من الدخول في حال عودته. تعتقد روزر أنّه قد خرج بالبيجاما والخفّين، إذ بدا لها أنّ ملابسه كلّها وأحذيته موجودة في الخزانة، ولكنْ لا يمكنها أن تكون متأكّدة بالكامل. التأكيد جاءها في الصيف، عندما انخفض مستوى الماء في نهر مابوتشو، وعثروا أخيرًا على ما تبقّى من العجوز عالقًا بين بعض الأجام على حافّة النهر. ولم يجدوا عليه من

t.me/qurssan

..سه إلّا بعض مِزق من البيجاما. مضى شهر كامل قبل أن يتمّ التأكُد .. لتحديد شخصيّته من دون أيّ مجال للشكّ، وتمّ تسليمه إلى آل ..اماو كي يدفنوه إلى جانب كارمي.

على الرّغم من المشاكل على أكثر من صعيد، كان التّضخُم يزداد ,عة، والأخبار الكارثيّة تنتشر عبر الصحافة، الحكومة تتمتّع بدعم ..يّ، وهو ما تأكّد في الانتخابات البرلمانيّة، حيث ارتفعت الأصوات ..ؤيّدة بطريقة غير متوقّعة. عندئذٍ، تبيّن بجلاء أنّ الأزمة الاقتصاديّة ,اصاعد العداء لم يعودا كافييْن للقضاء على ألليندي.

ـ قوى اليمين تتسلّح، يا دكتور، قال المريض محذّرًا فيكتور وهو ..م إليه لفافة ورق تواليت. أنا أعرف ذلك، لأنّ هناك في المصنع ..ي أعمل فيه مستودعات أُغلقت بإحكام مع مغاليق حديديّة وأقفال. لا أحد يستطيع الدُّخول إليها.

ـ هذا لا يُثبِت أيّ شيء.

ـ بعض الرفاق يتناوبون على الحراسة في اللّيل والنهار، تحسُّبًا من أعمال التخريب، أتعرف؟ وهم من رأوا إنزال صناديق من بعض الشاحنات. ولأنّ الشحنة مختلفة عن البضاعة المعهودة، قرّروا التحرّي. إنّهم متأكّدون من أنّ الصناديق ممتلئة بالأسلحة! سيحدث هنا حمّام دم، يا دكتور، لأنّ شبّان الحركة الثوريّة مسلّحون أيضًا.

في تلك اللّيلة، علّق فيكتور حول الموضوع مع الرّئيس ألليندي. كانا ينهيان دور شطرنج، تركاه من دون استكماله قبل عدّة ليال سابقة. البيت الذي استأجرته الحكومة ليُقيم فيه الرّئيس مُشيَّد على الطراز الإسبانيّ، بنوافذ مقنطرة، وأجرّ، مع لوحة موزاييك تتضمّن الشعار

t.me/qurssan

الوطنيّ عند المدخل، وشجرتا نخيل طويلتان يمكن رؤيتهما م
الشارع. كان الحرّاس يعرفون فيكتور، ولم يكن هناك من يستغر
مجيئه في أوقات متقدّمة من اللّيل. لقد كانا يلعبان الشطرنج في الصالة
حيث توجد على الدّوام رقعة لعب جاهزة، بين كتب ولوحات فنّ.
استمع أللينديّ إلى فيكتور من دون إحساس بالمفاجأة، فقد كان على
علم بذلك، ولكنْ من غير الممكن قانونيًا تفتيش ذلك المصنع ولا
مؤسّسات أخرى، حيث يحدث الشيء نفسه بكلّ تأكيد. «لا تقلق
يا فيكتور، فما دام العسكريّون موالين للحكومة، لا يُمكن الخشية من
أيّ شيء. إنّني أثق بالقائد العامّ، فهو رجل نزيه وشريف». ثمّ أضاف
بأنّ أصحاب الصراخ المتطرّف اليساريّ ممّن يطالبون بثورة مثل الثورة
الكوبيّة، هؤلاء ذوو الرؤوس الحامية يلحقون الضرر بالحكومة مثل قوى
اليمين!

في نهاية ذلك العام، أقيم احتفال تكريم حاشد لپابلو نيرودا في الملعب الوطنيّ، وهو المكان نفسه الذي سيتحوّل بعد تسعة أشهر إلى مركز للاعتقال والتّعذيب. وكان ذلك التّكريم هو آخر احتفاء عامّ بالشاعر الذي تلقّى جائزة نوبل قبل أسابيع قليلة من يد العاهل السويديّ الهرم. تخلّى عن منصبه كسفير في فرنسا، واعتزل كلّ شيء، ليعتكف في منزله المُتَخفّي الذي يحبّه كثيرًا في إيسلا نيغرا. كان مريضًا، ولكنّه واصلَ الكتابة على منضدته الصّغيرة، بينما البحر الصاخب يتفجّر زبدًا قبالة نافذته. وهناك، زاره فيكتور عدّة مرّات في الأشهر التالية كصديق، ومرّتين كطبيب. وجده بعباءة السكّان الأصليّين وقبّعة البيريه، بشوشًا ونهمًا، مستعدًّا لأن يتشاطر مع ضيوفه سمكة غراب بحر مضمّخة بنبيذ تشيليّ، وتبادل الحديث عن الحياة. لم يَعُد ذلك الرجل اللّعوب

t.me/qurssan

..مازح الذي يتنكّر لتسلية الأصدقاء، ويكتب أشعارًا غنائيّة لليوم
' مبد. كانت الدّعوات تهطل عليه كالمطر، وكذلك الجوائز، ورسائل
'لا بر من العالم بأسره، ولكنّ قلبه كان يُثقل عليه. كان يخاف على
لمي. وكان يكتب مذكّراته، حيث تحتلّ الحرب الأهليّة الإسبانيّة
،اا 'مينة وينبيغ عدّة صفحات. كان يتأثّر وينفعل وهو يتذكّر الكثير
، الأصدقاء الإسبان الذي جرى اغتيالهم، أو اختفت آثارهم. فكان
،ول: «لا أريد أن أموت قبل فرانكو». أكّد له فيكتور أنّه سيعيش سنوات
'برة، لأنّ مرضه بطيء وهو تحت السيطرة، ولكنّه هو نفسه أيضًا كانت
، ،ه شكوك بأن الكوديّيو «فرانكو» خالد، فقد مضى عليه ثلاثة وثلاثون
،ا،ا وهو متشبّث بالسّلطة بقبضة حديديّة. بالنّسبة إلى فيكتور، كانت
،رباته عن إسبانيا تصبح غائمة أكثر فأكثر. وفي كلّ عام، في منتصف
، 31 كانون الأوّل /ديسمبر، يرفع نخب احتفال بالعام الجديد والعودة
'امريبة إلى بلاده، ولكنّه يفعل ذلك وحيدًا كتقليد، بلا توهُّم أو رغبة
ملبقيّة. كان يحدس أنّ إسبانيا التي وُلد فيها، إسبانيا التي عرفها وقاتل
في سبيلها، لم يَعُد لها وجود. ففي تلك السّنوات التي تحكّمت بها
الدلات العسكريّة والمسوح الكهنوتيّة، تحوّلت إسبانيا إلى مكان لا
يمكن له أن ينتمي إليه.

هو أيضًا، مثل نيرودا، كان خائفًا على تشيلي. الإشاعات عن انقلاب عسكريّ محتمل كانت متداولة منذ سنتيْن، وقد ارتفعت الوتيرة. الرّئيس ما زال واثقًا بالقوّات المسلّحة، مع أنّه يعرف أنّها منقسمة على نفسها. مع بدايات الربيع، ارتفعت وتيرة عنف المعارضة إلى مستويات لم تُعرف من قبل قطّ، وتحوّل الاستياء بين العسكريّين إلى تحدٍّ. فالقائد العام الذي هُزم بعدم انصياع ضبّاطه لأوامره، استقال

t.me/qurssan

متخلّيًا عن منصبه. وقد أوضح لرئيس الجمهوريّة أنّ واجبه كجندي هو الانسحاب لتجنّب كسر الانضباط العسكريّ. لكنّ مبادرته لم تكن مجدية. فبعد أيّام من ذلك، في الساعة الخامسة فجرًا، بدأ الانقلاب العسكريّ الذي كان يُخشى وقوعه، وتحوّل إلى واقع خلال ساعات قليلة، ولم يَعُد أحد إلى ما كان عليه قبل وقوعه!

خرج فيكتور باكرًا متوجّهًا إلى المستشفى، فوجد نفسه أمام شوارع تغلقها الدبّابات، وصفوف من الشاحنات الخضراء تنقل قوات عسكريّة، وطائرات هيلوكبتر تحوم وتزنّ على ارتفاع منخفض مثل طيور شؤم، وكانت هناك مجموعات جند، بمعدّات حربيّة ووجوه مطليّة مثل هنود الكومانتشي، يدفعون بأعقاب البنادق المدنيّين القليلين الذين يتجوّلون في تلك الساعة. أدرك على الفور ما الذي يحدث. رجع إلى بيته اتّصل بروزر في كاراكاس، وبمارسيل في كولومبيا. كلاهما قال له إنّه سيأخذ أوّل طائرة متوافرة ليرجع إلى تشيلي، فأقنعهما بأنّه عليهما الانتظار حتّى تمرّ العاصفة. حاول من دون جدوى أن يتّصل بالرّئيس وببعض القادة السياسيّين الذين يعرفهم. لم تكن هنالك أيّ أخبار القنوات التلفزيونيّة بين أيدي المتمرّدين، وكذلك المحطّات الإذاعيّة، باستثناء إذاعة واحدة، أكّدت ما كان هو نفسه قد توقّعه. عمليّة إسكات البلاد التي جرى تنظيمها وإدارتها من سفارة الولايات المتّحدة، نُفّذت بدقّة وفعاليّة. الرقابة بدأت على الفور. قرّر فيكتور أنّ مكانه هو في المستشفى؛ ألقى بعض الملابس الضروريّة وفرشاة أسنان في حقيبة يدويّة، وذهب في سيّارته الستيروين القديمة عبر شوارع جانبيّة، مع مذياع يعمل بالبطاريّة، ويبثّ وسط صرير وأزيز تشويش صوت رئيس الجمهوريّة يُندّد بخيانة العسكريّين، ويستنكر الانقلاب الفاشيّ، ويطلب

t.me/qurssan

الـاس الحفاظ على الهدوء في أمكنة عملهم، وألّا يتيحوا للمتمرّدين
مراكزهم وقتلهم، ويؤكّد أنّه سيبقى في موقعه يدافع عن الحكومة
مبّة. «إنّني في معبر تاريخيّ، سأدفع حياتي وفاء للشعب». حالت
... دون تمكّنه من مواصلة التّقدّم، فتوقّف في لحظةٍ كانت تمرّ
... طائرات المطاردة مزمجرة؛ وعلى الفور تقريبًا، سمع انفجار القنابل
الي. رأى في البعيد دخانًا أسود كثيفًا، وعرف، غير مصدّق، أنّهم
يهاجمون القصر الرّئاسيّ.

الجنرالات الأربعة الذين شكّلوا المجلس العسكريّ الذي
حكم بمصير الوطن، بملابس الميدان، ومتوشّحين بالعلم وبالشعار
الوطني، وسط عزف الأناشيد العسكريّة، كانوا يظهرون عدّة مرّات كلّ
يوم في التلفزيون مع بيانهم ومطالبهم. الوضع كلّه تحت السيطرة. قالوا
إنّ سلفادور ألليندي قد انتحر في القصر الرّئاسيّ المشتعل، فخامرت
... الشكوك في أنّهم قد قتلوه، مثلما قتلوا آخرين كثيرين. عندئذٍ
... أدرك الخطورة الحاسمة لما حدث. لا مجال للتراجع. جرى
... الوزراء، أُعلن الكونغرس في عطلة مفتوحة، وجرى حظر الأحزاب
السياسيّة، وحرّيّة الصحافة، وأُبطل العمل بحقوق المواطن حتّى صدور
قرار جديد. وفي الثكنات العسكريّة، جرى اعتقال الضبّاط الذين تردّدوا
في الانضمام إلى الانقلاب، وجرى إعدام الكثيرين رميًا بالرصاص،
ولكنْ هذا كلّه لم يُعرف إلّا فيما بعد، لأنّ على القوّات المسلّحة أن
تعطي الانطباع بأنّها متضامنة في كتلة واحدة، ولا يُمكن النّيْل منها.
القائد العامّ السّابق هرب إلى الأرجنتين كيلا يغتاله رفاقه في السلاح
أنفسهم، ولكنّهم بعد سنة من ذلك وضعوا له قنبلة في سيّارته، ومات
ممزّقًا مع زوجته. ترأس الجنرال أوغوسطو بينوشيه المجلس العسكريّ،

t.me/qurssan

وسرعان ما سينحوّل إلى تجسيد للدكتاتوريّة. كان القمع فوريًا وصا مه
وعميقًا. أعلنوا أنّه لن يبقى حجر من دون تحريكه، وأنّهم سيسحبو
الماركسيّين من جحورهم أينما اختبأوا، سينظّفون البلاد من سرطان
الشيوعيّة مهما كان الثمن. بينما كان البرجوازيّون في الحيّ العالي
يحتفلون أخيرًا بتناول الشمبانيا التي يختزنونها منذ ثلاث سنوات
تقريبًا. وفي المناطق العمّاليّة، كان الرُّعب يسيطر على الجميع. لم
يرجع فيكتور إلى بيته طوال تسعة أيّام. أوّلًا، لأنّ هنالك حظر تجوّل
متواصل لاثنتيْن وسبعين ساعة، ولم يستطع أحد الخروج إلى الشارع،
ولأنّ المستشفى لم يعرف الراحة، كان يصل جرحى بالرصاص، وامتلأ
مستودع الجثث بأجساد مجهولة الهويّة. كان يأكل ما يمكنه الحصول
عليه من كافيتريا المستشفى، وينام للحظات جالسًا على كرسي،
ويغتسل جزئيًّا باستخدام قطعة إسفنج، واستطاع استبدال ملابسه مرّة
واحدة. وقد احتاج لعدّة ساعات من أجل الحصول على مكالمة دوليّة
اتّصل بروزر من المستشفى، كي يأمرها بعدم الرجوع مهما كان السّبب،
قبل أن يطلب منها ذلك هو نفسه؛ وطلب منها أن تنقل هذه الرّسالة إلى
مارسيل. كانوا قد أغلقوا الجامعة، وأخمدوا بالرصاص أيّ محاولة مقاومة
يقوم بها الطلّاب. أخبروه أنّ الدّماء تسيل على جدران مدرسة الصحافة
وكلّيّات جامعيّة أخرى. لم يستطع تقديم أيّ أخبار لروزر عن كليّة
الموسيقى، ولا عن طلّابها. إضراب الأطبّاء توقّف فورًا، وعاد زملاؤه إلى
أعمالهم بحماسة سعيدة؛ كانت قد بدأت عمليّات التطهير بين العاملين
الطبّيّين، وحتّى بين المرضى الذين كان رجال الأمن ينتزعونهم من
أسِرّتهم. عيّنوا عقيدًا لقيادة المستشفى مع جنود مسلّحين بمسدّسات
رشّاشة لمراقبة الدخول والخروج، ورصد الممرّات والقاعات، وحتّى

t.me/qurssan

ر. ف العمليّات. اعتقلوا عددًا من الأطبّاء اليساريّين، بينما هرب آخرون ا، طلبوا اللّجوء، ولم يصلوا إلى مواقع عملهم، ولكنّ فيكتور واصل العمل بإحساس غير عقلانيّ بأنّه غير معرّض للعقاب.

عندما ذهب أخيرًا إلى بيته للاستحمام واستبدال ملابسه، وجد نفسه في مدينة مجهولة، نظيفة ومطليّة بالأبيض. فخلال تلك الأيّام القليلة، كانت قد اختفت الجداريّات الثوريّة، ولافتات الدّعوة إلى الكراهية، والقمامة، والملتحون والنساء اللواتي يلبسن البناطيل؛ أي في واجهات المتاجر البضائع التي لم يكن الحصول عليها ممكنًا إلّا من الشوق السّوداء، ولكنْ لم يكن هناك سوى قلّة من المشترين، لأنّ الأسعار قد ارتفعت. رأى جنودًا ورجال درك مسلّحين يقومون الحراسة. وكانت هناك دبّابات عند تقاطعات الشوارع، وتمرّ بأقصى سرعة سيّارات مغلقة تولول كبنات آوى. لقد خيّم على المدينة نظام الانضباط الذي يسود الثكنات، وسلام الخوف المصطنع. عند دخوله إلى بيته، حيّا فيكتور جارته لسنوات طويلة، وقد أطلّت في تلك اللّحظة من النافذة. فلم تردّ على تحيّته، وأغلقت نافذتها بضربة قويّة. كان لا بدّ لهذا الحدث من أن يفيده كتنبيه، ولكنّه اكتفى بهزّ كتفيْه مفكّرًا أنّ المرأة المسكينة مضطربة مثله بسبب الأحداث الأخيرة. وجد بيته مثلما تركه عند خروجه المتسرّع في يوم الانقلاب، السرير بلا ترتيب، ملابسه مُلقاة على الأرض، أطباق غير مغسولة، طعام يغطّيه طحلب أخضر في المطبخ. لم يجد الحماسة لترتيب البيت. هوى على ظهره فوق السرير، ونام أربع عشرة ساعة متواصلة.

في تلك الأيّام، مات پابلو نيرودا. لقد كان الانقلاب العسكريّ ذروة أسوأ مخاوفه؛ لم يتحمّله، وتفاقمت حالته الصحّيّة على الفور.

t.me/qurssan

وبينما هم ينقلونه في سيّارة إسعاف إلى عيادة طبّيّة في سـ ،ا،
اقتحمت قوّة عسكريّة بيته في إيسلا نيغرا، وبعثرت أوراقه وداسـ ،ا،
مجموعته من القناني والقواقع والحلزونات بحثًا عن أسلحة ورجال ،
عصابات. زاره فيكتور في العيادة الطبّيّة، حيث قام الحرّاس بته .
وأخذوا بصمات أصابعه، وصوّروه، وأخيرًا منعه الجندي الذي يحـ
باب الغرفة من الدخول. وقد استغرب موت نيرودا، بسبب ما يعر
عن مرضه، ولأنّه كان قد رآه في مظهر جيّد قبل شهر واحد. ولم يـ
الوحيد الذي خامرته شكوك تلك الظروف: سرعان ما بدأت ،ر،
إشاعات عن أنّهم قد سمّموه. قبل ثلاثة أيّام من إدخاله العيادة الط
كان الشاعر قد كتب الصفحات الأخيرة في مُذكّراته بخيبة أمل عط
لرؤيته بلاده منقسمة على نفسها ومُخضّعة، وصديقه سلفادور ألليـ
يدفن بطريقة سرّيّة في مكان غير معروف، وبلا أيّ مرافقة سوى أرمل
«... تلك الشّخصيّة المجيدة الميّتة كانت مخردقة برصاص رشاشا
جنود تشيلي الذين خانوا تشيلي مرّة أخرى»، هذا ما كتبه. وقد كان
محقًّا، فالعسكريّون كانوا قد تمرّدوا من قبلُ ضدّ حكومة شرعيّة، ولكن
سوء الذاكرة الجماعيّة نظّف التاريخ من الخيانات القديمة. لقد كان
جنازة الشاعر أوّل فعل ازدراء للانقلابيّين، ولم تُحظر الجنازة، لأنّ عيون
العالم بأسره كانت تنظر. كان فيكتور يُجري عمليّة جراحيّة لمريض في
حالة حرجة، فلم يستطع مغادرة المستشفى. لكنّه علم بالتفاصيل بعد
عدّة أيّام من خلال رجل لفّافات الورق الصحّيّ.

ـ لم يكن هناك أناس كثيرون، يا دكتور. هل تتذكّر الحشود في
الملعب الوطنيّ، عند الاحتفال بتكريم الشاعر؟ حسن، أستطيع القول
إنّنا في المقبرة كنّا نحو مئتيْ شخص على أبعد تقدير.

t.me/qurssan

- كان الخبر قد خرج في الصحافة للتوّ، بعد فوات الأوان؛ قلّة هم الذين علموا بموت الشاعر، أو بدفنه.

- الناس خائفون.

- لا بدَّ أنَّ كثيرين من أصدقاء نيرودا ومحبِّيه كانوا مختبئين أو ... ملين. أخبرْني كيف كانت الجنازة، طلب منه فيكتور.

- كنت في المقدِّمة، وكنت خائفًا جدًّا، فقد كان هناك جنود ...لون المسدَّسات الرشَّاشة على امتداد الطريق إلى المقبرة. كان ... مغطًّى بأزهار. وكنَّا نمضي صامتين، إلى أن صرخ أحدهم فجأة: «...بنى بابلو نيرودا!» فردَّ الحشد عليه: «حاضر، الآن وإلى الأبد!»

- وماذا فعل الجنود؟

- لا شيء. عندئذٍ، صرخ شخص شجاع: «الرَّفيق الرَّئيس!» فردَّ الجميع: «حاضر، الآن وإلى الأبد!» كان ذلك مؤثِّرًا، يا دكتور. وصرخ الحشد أيضًا: الشَّعب الموحَّد لن يُهزم أبدًا، ولم يفعل الجنود شيئًا، لكنْ كان هناك بعض الأشخاص يلتقطون صورًا لمن يسيرون في الموكب، ومن يدري.. لماذا يريدون تلك الصور!

كان فيكتور يرتاب بكلّ شيء؛ فالواقع صار متفلّتًا، والحياة تمضي ما بين سهو، وتفريط، وأكاذيب، وعبارات تلطيف، وبتمجيد فظّ للوطن المفضال، وللجنود الشجعان، والتقاليد الأخلاقيّة. مُحيت كلمة «رفيق»، لم يَعُدْ هناك من يتجرّأ على النّطق بها. وكان يجري همسًا تداول أخبار عن معسكرات اعتقال، وإعدامات سريعة، وعن آلاف آلاف المعتقلين، وعن مختفين وهاربين ومنفيِّين، وعن مراكز تعذيب حيث يستخدمون الكلاب لاغتصاب النساء. وكان التساؤل عن أين كان من قبل مَنْ

t.me/qurssan

يمارسون هذا التّعذيب، وأين كان أولئك الوشاة، الذين لا أراهم ا.، ظهروا بصورة تلقائيّة خلال ساعات قليلة، وكانوا جاهزين ومنظّمين، ١.١ لو أنّهم قد تدرّبوا طوال سنوات. لقد كانت تشيلي الفاشيّين الع.١٠ موجودة على الدوام، تحت السطح، وجاهزة للبروز والظهور. إنّه انتصا، اليمين المتغطرس، وهزيمة الشعب الذي آمن بهذه الثورة. عُلم أ، إيسيدرو دل سولار قد رجع مع أسرته قبل أيّام قليلة من الانقلاب، مثل كثيرين آخرين، مستعدًّا لاستعادة امتيازاته ومقاليد الاقتصاد، ولكن ليس السُلطة السياسيّة التي سيقرّرها ويتحكّم بها الجنرالات، ربّما يعيدوا فرض النظام على الفوضى التي أشاعتها الماركسيّة في الوطن، على حدّ قولهم. لم يتصوّر أحد كم ستستمرّ الدكتاتوريّة، باستثناء الجنرالات أنفسهم.

كانت الجارة هي من وشت بفيكتور دالماو، المرأة نفسها التي طلبت منه قبل سنتين أن يستغلّ صداقته مع الرّئيس لضمّ ابنها إلى قوّات الدرك، وهي نفسها من أجرى لها عمليّة تركيب صمّامين في قلبها، وهي نفسها من كانت تتبادل السّكر والرزّ مع روزر، وهي نفسها من حضرت حزينةً السهر على جثمان كارمي. اعتقلوه في المستشفى. كانوا ثلاثة رجال لا يرتدون الزيّ العسكريّ، لم يُعرّفوا بأنفسهم، ذهبوا بحثًا عنه وهو في غرفة العمليّات، ولكنّهم كانوا يتمتّعون بوقار انتظاره إلى أن ينهي العمليّة الجراحيّة. «عليك أن ترافقنا، يا دكتور، مجرّد إجراء روتيني»، أمروه بنبرة صارمة. وفي الشارع، دفعوه داخل سيّارة سوداء، ووضعوا القيود في معصميه، وعصبوا عينيه. اللّكمة الأولى وُجّهت إلى معدته.

لم يعرف فيكتور دالماو أين هو موجود إلّا بعد يومين، عندما شعروا بالرضى عن جلسات استجوابه، وأخرجوه جرجرة إلى أحشاء

t.me/qurssan

ملك المبنى، ونزعوا العصابة عن عينيْه، وفكّوا قيد معصميْه، وتمكّن من استنشاق هواء نظيف. احتاج عدّة دقائق لضبط نظره على ضوء الظهيرة المبهر، وليستعيد التوازن في وقوفه على قدميْه. إنّه في الملعب الوطنيّ. مجنّدٌ فتيّ جدًا قدّم إليه بطّانيّة، وأمسك به من ذراعه بلا عدوانيّة، واقتاده بخطوات بطيئة نحو الرُّواق الذي حدّدوه له. وجد صعوبة في المشي، كان جسده كلّه يؤلمه بسبب اللّكمات والشحنات الكهربائيّة، وكان يشعر بعطش غريق، ولا يتمكّن من تحديد الوقت ولا يتذكّر بالضبط ما الذي حدث له. يمكن أن يكون قد بقي بين أيدي جلّاديه أسبوعًا أو بضع ساعات قليلة. ماذا كانوا يسألونه؟ ألليندي، شطرنج، الخطة زد. ما الذي تعنيه هذه الخطة زد؟ ليس لديْه أيّة فكرة. كان هناك آخرون في تلك الزنازين، وضجيج مراوح هائلة، صرخات مرعبة، إطلاق رصاص. «البنادق، البنادق»، تلعثم فيكتور.

كانوا يجلسون على مدرّجات الملعب الوطنيّ، حيث كان قد جلس من قبل لمشاهدة مباريات كرة قدم، واحتفالات ثقافيّة مختلفة، مثل احتفال تكريم پابلو نيرودا؛ رأى آلاف السّجناء يحرسهم جنود. وعندما انسحب المجنّد الذي اقتاده إلى هناك، اقترب منه معتقل آخر، اقتاده إلى مقعد، وقدّم له ماء من ترمس. (اطمئن، يا رفيق، من المؤكّد أنّ الأسوأ قد انقضى.) تركه يشرب إلى أن أفرغ الترمس، ثمّ ساعده بعد ذلك كي يتمدّد، ووضع له البطّانيّة مطويّة تحت رأسه. وأضاف: «استرح، وانتبه إلى أنّ هذا سيستمرّ طويلًا». كان عامل تعدين اعتُقِل بعد يوميْن من الانقلاب، وقد مضت عليه عدّة أسابيع في الملعب. عند الغروب، عندما خفّت حدّة الحرّ، وتمكّن فيكتور من الجلوس، أطلعه الرجل على الرُّوتين.

t.me/qurssan

ـ يجب عدم لفت الانتباه. ابقَ هادئًا وصامتًا، فيمكن لهم أن يقتلوك ضربًا بأعقاب البنادق لأيِّ سبب. إنَّهم وحوش.

ـ كلّ هذا الحقد، كلّ هذه القسوة... لست أفهم...، تمتم فيكتور، كان فمه جافًّا، الكلمات تتعثّر في حلقه!

ـ يمكن لنا جميعنا أن نتحوّل إلى وحوش إذا ما أعطونا بنادق وأوامر، تدخّل معتقل كان قد اقترب منهما.

ـ أنا لا، يا رفيق، عارضه عامل التعدين. أنا رأيت كيف قام هؤلاء العسكريُّون بتكسير يديْ فيكتور خارا، وصرخوا به: «غنِّ الآن، أيُّها النذل».

ـ أهمّ شيء هو أن يعرف أحد ممّن في الخارج أين أنت، قال الآخر. فهكذا، يمكنهم تتبُّع آثارك، في حالة اختفائك. كثيرون يختفون، ثم لا يُعرف أيّ شيء عنهم. هل أنت متزوِّج؟

ـ أجل، أكّد فيكتور.

ـ أعطني هاتف أو عنوان زوجتك. يمكن لابنتي أن تزورها. إنَّها تقضي الوقت خارج الملعب مع آخرين من أقارب السُّجناء، بانتظار الحصول على أخبار.

ولكنَّ فيكتور لم يعطه أيّة معلومة، لأنّه خَشِي أن يكون واشيًا وُضع هناك للحصول على معلومات.

إحدى ممرِّضات مستشفى سان خوان دي ديوس، شهدت اعتقال فيكتور، تدبَّرت الأمر لتتَّصل هاتفيًا بروزر التي كانت في فنزويلا، وروت لها ما حدث. فور معرفتها ذلك، اتَّصلت روزر بمارسيل لتطلعه

t.me/qurssan

..، الخبر السّيّئ، وتأمره بأن يبقى حيث هو، لأنَّ وجوده في الخارج
.. ..ح له تقديم المساعدة أكثر من وجوده في تشيلي، أمَّا هي فسوف
. ..م فورًا. اشترت تذكرة سفر بالطائرة وقبل أن تسافر ذهبت لرؤية
.. ..ن سانتشيث. «فور معرفتك بما فعلوه بزوجك، سوف ننقذه»، وعدها
. . ..فها. أعطاها رسالة توصلها إلى سفير بلاده في تشيلي، وهو زميل له
..، الأزمنة التي كان لا يزال دبلوماسيًّا؛ وفي بيته بسنتياغو يوجد مئات
..الملتجئين الذين ينتظرون تصريح مرور للخروج إلى المنفى؛ وقد كانت
..هارة فنزويلا إحدى السّفارات القليلة التي تحمي الهاربين. وبدأ يصل
..، كاراكاس مئات التشيليّين، وسرعان ما صاروا آلافًا مؤلَّفة.

حطَّت روزر في تشيلي في أواخر شهر تشرين الأوَّل/أكتوبر،
..م ندرِ حتَّى تشرين الثاني/نوفمبر أنَّهم قد أخذوا زوجها إلى الملعب
..الوطنيّ. ولكنْ عندما ذهب سفير فنزويلا للسُّؤال عنه، أكَّدوا له أنَّه
..م يكن هناك قطّ. في أثناء ذلك، كانوا ينقلون السُّجناء ويوزّعونهم في
..معسكرات اعتقال على امتداد البلاد. أمضت روزر شهورًا في البحث،
..حول على أصدقاء، وتتَّصل بهيئات دوليَّة، وتطرق أبواب سلطات
مختلفة، وتتفحَّص في الكنائس قوائم من اختفت آثارهم. ولم يكن
اسمه يظهر في أيِّ مكان. لقد تبخَّر!

كانوا قد أخذوا فيكتور دالماو مع معتقلين سياسيِّين آخرين في قافلة
شاحنات، طوال يوم وليلة من السفر، إلى مخيَّم في مناجم ملح البارود
في الشمال، موقع مهجور منذ عقود، وقد تحوَّل مؤخَّرًا إلى مركز اعتقال.
كانوا أوَّل مئتي رجل يشغلون تلك المنشآت المرتجلة التي كانت تأوي
قديمًا عمَّال ملح البارود، وكانت محاطة بأسلاك شائكة مكهربة مع أبراج
مراقبة عالية، وعسكريِّين مسلَّحين ببنادق رشَّاشة، ودبَّابة تدور في محيط

t.me/qurssan

الموقع، وبين حين وآخر، تمرّ طائرات للقوّة الجوّيّة. قائد الموقع هو ضابط من الدرك، وأسقف، يتكلّم صارخًا، ويتعرّق في زيّه العسكريّ الضيّق جدًّا. لقد كان رجلًا كلّيّ القدرة وخسيس القلب، قرّر إبقاء السجناء على أحرّ من الجمر بسبب الجرائم المقترفة، والتي يفكّرون باقترافها، بحسب ما أعلنه عبر مكبّر الصوت. ما كادوا ينزلون من الشاحنات حتّى أُجبروا على التعرّي، وتركهم تحت شمس الصحراء عدّة ساعات بلا طعام وبلا ماء، بينما هو يمر عليهم واحدًا فواحدًا ليشتمهم ويركلهم لقد فرض منذ البدء العقوبة المتعسّفة لتحطيم معنويات ضحاياه، ولكي يقتدي به مرؤوسيه. ظنّ فيكتور دالماو أنّه أفضل استعدادًا من السُّجناء الآخرين على التحمُّل بسبب خبرته لشهور عديدة في مخيّم أرجيليه سور - مار، ولكنْ سنوات طويلة مضت على ذلك، وقد كان شابًا آنذاك إنّه الآن على وشك بلوغ الستّين، ولكنّه في اللّحظة التي جرى اعتقاله فيها، لم يكن يجد الوقت للتّفكير في عدد سنوات عمره. هناك في الشمال، في نهارات صحراء ملح البارود المتأجّجة ولياليها الجليديّة، أراد أن يموت من التعب. كان الهروب مستحيلًا، فهو محاط باتّساعات الصحراء اللّامتناهية، آلاف الكيلومترات من الأراضي الجافّة، والرمل، والحجارة والريح. أحسّ بأنّه عجوز هرم.

t.me/qurssan

الفصل الحادي عشر
1974 ـ 1982

الآن سأخبرك
إ سمي ستكون أرضك،
أنا سوف أغزوها،
لا لأعطيك إيّاها وحسب،
وإنّما لأعطيها للجميع،
لشعبي بأسره.

پابلو نيرودا
«الرسالة في الطريق»،
أشعار القبطان

t.me/qurssan

t.me/qurssan

خلال الأحد عشر شهرًا التي أمضاها فيكتور دالماو في مخيَّم الاعتقال، لم يمت من الإنهاك، مثلما كان يتوقَّع، بل تعزَّزت متانته جسديًّا وذهنيًّا. لقد كان نحيلًا على الدَّوام، ولكنَّه تقلَّص هناك، واختُزل إلى ألياف وعضلات، ببشرة أحرقتها شمس قاسية لا ترحم، والملح والرَّمل، وتقاطيع وجهه المجرَّحة كانت أشبه بمنحوتة لجياكوميتي، من مدبد خالص. لم تهزمه التمارين العسكريَّة العبثيَّة، تمارين اللياقة، الجري تحت شمس لا ترحم، ساعات الجمود وعدم الحركة في جليد الليل، الضرب وعقوبات التأديب وأعمال السخرة الشَّاقة في مهمَّات عبثيَّة غير مجدية، كان منكَّدًا، جائعًا. استسلم لدوره كأسير، تخلَّى عن وهم التَّحكُّم بشيء من وجوده؛ إنَّه في قبضة معتقليه، من يتمتَّعون بسلطة مُطلقة وبإفلات من العقاب، إنَّه سيِّد انفعالاته وحسب. كان يردِّد لنفسه حكمة جدِّه، بالانحناء أمام العاصفة ولكنْ بلا انكسار. لقد عاش ذلك من قبل، في ظروف أخرى. احتمى من ساديَّة معتقليه وغبائهم بالانغلاق على ذكرياته، مع اليقين بأنَّ روزر تمضي منهمكة في البحث عنه، وأنَّها ستجده ذات يوم، وبصمت. قلَّما كان يتكلَّم، حتَّى إنَّ المعتقلين الآخرين أطلقوا عليه لقب «الأبكم». كان يفكِّر بمارسيل الذي أمضى الثلاثين عامًا الأولى من حياته صامتًا، لأنَّه لا يجد رغبة

t.me/qurssan

في الكلام. ولم يكن هو نفسه أيضًا راغبًا في الكلام، لأنّه لم يـ
هنالك ما يُقال. كان رفاقه في النكبة يتحمّسون وهم يتهامسون بعـ
عن مسمع الحرّاس ومتناولهم، بينما هو يفكّر بحنين فسيح بروز
ما عاشاه معًا، وبحبّه لها. ولكي يُبقي ذهنه نشيطًا، كان يراجع بعـ
شبه مهووسة أشهر ألعاب الشطرنج في التاريخ، وهي ألعاب يعرفها
ظهر قلب ويحفظها في ذاكرته، وقد لعب بعضها مع الرئيس. في إحـ
اللّحظات، حلم بنحت قطع شطرنج من أحجار المنطقة المساميّة الهـ
وأن يشارك رجالًا آخرين اللّعب، ولكنْ لم يكن أيّ شيء من ذ
ممكنًا تحت حراسة السجّانين الصارمة. هؤلاء الذين يرتدون الـ
العسكريّ يتحدّرون من الطبقة العاملة، عائلاتهم فقيرة، وربّما تعا
معظمهم مع الثورة الاشتراكيّة، ولكنّهم يطيعون الأوامر بانصياع، ذ
أنّ أفعال المعتقلين السّابقة هي إساءات شخصيّة لهم.

في كلّ أسبوع، يأخذون رجالًا إلى معسكرات اعتقال أ
أو يعدمونهم، وينسفون أجسادهم بالديناميت في الصحراء، لكنّ
يأتون هم أكثر بكثير ممّن يغادرون. قدّر فيكتور أنّ هناك أكثر من ألـ
وخمسمئة شخص من مناطق مختلفة من البلاد، ومن أعمار و
مختلفة، لا يجمع بينهم سوى شرط أنّهم ملاحَقون. إنّهم أعداء الوطـ
بعضهم، مثله، لم ينتموا إلى أيّ حزب، ولم يتولّوا أيّة مسؤوليّات سياسـ
إنّهم هناك بسبب وشاية انتقاميّة، أو خطأ بيروقراطيّ.

كان الربيع قد بدأ، وكان المعتقلون يخشون مجيء الصيف، إ
يتحوّل معسكر الاعتقال إلى جحيم خلال ساعات الحرّ في النهار
عندما شهدت حالة فيكتور دالماو تحوّلًا مفاجئًا. أصيب قائد المعسـ
بنوبة قلبيّة في الوقت الذي كان يوجّه فيه خطبة الصباح الحماسيّة،

t.me/qurssan

اءام سجنائه المصطفّين في الفِناء، والذين يتحمَّلون ذلك العذاب وهم السراويل الداخليَّة وحُفاة الأقدام. هوى الضابط على ركبتيْه، تمكُن من إطلاق شهقة، وسقط ممدَّدًا على الأرض قبل أن يتمكُن أقرب الجنود إليه من إسناده. لم يتحرَّك أيّ من السجناء، ولم يصدر منهم أيّ صوت.
كان المشهد بالنِّسبة إلى فيكتور يحدث كما في كاميرا بطيئة، بصمت، وفي بُعد آخر، كما لو أنّه جزء من كابوس. رأى أنَّ جنديَّيْن يحاولان حمل الضابط ينهض، بينما هرع آخرون لاستدعاء الممرِّض، ومن دون أن يفكِّر بالنتائج، تقدَّم كمنوَّم بين صفوف الرجال الواقفين بانتظام. كان الاهتمام العام موجَّهًا نحو المطروح أرضًا. وعندما انتبهوا إليه، أمروه أن يتوقَّف وأن ينبطح أرضًا، كان قد وصل عندئذٍ إلى مقدِّمة الصفوف. «إنه طبيب!» صاح أحد السُّجناء. واصل فيكتور التَّقدُّم مسرعًا، وخلال ثوان قليلة وصل إلى حيث القائد المغمى عليه، وجَثا على ركبتيْه إلى جانبه من دون أن يمنعه أحد من ذلك. كان الجنود قد تراجعوا خطوة إلى الوراء، ليُفسحوا له المجال. تأكَّد من أنَّه لا يتنفَّس. أومأ مشيرًا إلى أحد أقرب الحرَّاس إليه، وطلب منه أن يحلّ أزرار الضابط وحزامه، بينما انهمك هو في إجراء تنفُّس فمويّ له، والضغط بقوَّة على صدره بكلتا يديْه. كان يعرف أنَّ هناك في عيادة السجن جهازًا يدويًّا لتنشيط نبضات القلب، لأنَّهم يستخدمونه أحيانًا لإعادة الحيويَّة إلى ضحايا التَّعذيب. بعد دقائق قليلة، جاء الممرِّض راكضًا، يتبعه مساعد مع عبوة أوكسجين وجهاز تنشيط القلب، وساعد فيكتور في عمليَّة تنشيط قلب القائد. «اطلب طائرة هيليكوبتر! يجب نقله فورًا إلى مستشفى!»، طلب فيكتور فور تأكُّده من أنَّ القلب ينبض. حملوا الرجل إلى العيادة، حيث أبقاه فيكتور حيًّا، إلى أن جاءت الهيليوكبتر، وهي جاهزة على الدوام

t.me/qurssan

في أقصى المعسكر. إنّهم على بُعد خمسة وثلاثين كيلومترًا من أقرب مستشفى. أمروا فيكتور بأن يرافق المريض، وقدّموا إليه قميصًا، وبنطالًا، وحذاء، جميعها من الملابس العسكريّة.

كان مستشفى صغيرًا من مشافي الأقاليم، لكنْ جيّد التجهيز، وكانت تتوافر له في الأزمنة العاديّة الوسائل اللّازمة لعلاج حالات طارئة كتلك، ولكنْ لم يكن هناك سوى طبيبيْن اثنيْن. كلاهما كان يعرف سمعة الدكتور فيكتور دالماو، وقد استقبلاه باحترام. وفي واحدة من سخريات تلك الأزمنة، كان رئيس قسم الجراحة وطبيب القلب المختصّ قد اعتُقلا، كما قيل له. لم يجد فيكتور وقتًا ليسألهما إلى أين أخذوهما، إذ لم يكن أيّ منهما كما يبدو بين معتقلي معسكره. لقد كانت غرفة العمليّات الجراحيّة مكان عمله طوال عدّة عقود. وعضلة القلب، مثلما كان يقول لطلّابه، لا تتضمّن أيّ سرّ غامض؛ والأسرار التي تُنسب إليها ذاتيّة وغير موضوعيّة. خلال وقت قصير جدًّا، أعطى التّعليمات الضروريّة. اغتسل، هيّأ القائد للعمليّة، وبادر بمساعدة أحد الأطبّاء إلى إجراء المداخلة الجراحيّة التي كان قد أجرى مثلها مئات المرّات. تأكّد أنّ ذاكرة يديْه لا تزال سليمة، وأنّهما تتحرّكان تلقائيًّا.

أمضى فيكتور اللّيل ساهرًا إلى جانب المريض، مغتبطًا أكثر ممّا هو متعب. لم يكن هناك في المستشفى من يحرسه حاملًا السّلاح، بل عاملوه بتميّز وتقدير، قدّموا إليه شريحة لحم مع بوريه بطاطا، وكأس نبيذ أحمر ومثلّجات للتحلية. وعاد لعدّة ساعات ليكون الدكتور دالماو بدل كونه رقمًا. كان قد نَسِي كيف كانت الحياة قبل اعتقاله. وعند الضحى، كانت حالة المريض لا تزال حَرِجة، ولكنّها مستقرّة، وصل طبيب قلب من الجيش، جاء في طائرة من سنتياغو. أصدروا الأمر بإعادة السجين

t.me/qurssan

إلى معسكر الاعتقال، ولكنَّ فيكتور استطاع أن يطلب من الطبيب الذي ساعده في العمليّة الجراحيّة بأن يتّصل بروزر. كانت مجازفة، لأنَّ ذلك الرجل كان من قوى اليمين من دون شكّ؛ ولكنْ خلال الساعات التي عملا فيها معًا، بدا واضحًا الاحترام الذي كان متبادلًا. كان فيكتور متأكّدا من أنَّ روزر ستكون قد عادت من تشيلي للبحث عنه، لأنَّ هذا ما كان سيفعله هو من أجلها لو كانت هي المعتقلة.

كان قائد معسكر الاعتقال الجديد شديد النزوع إلى القسوة مثل سابقه، ولكنْ لم يكن على فيكتور أن يتحمّله سوى خمسة أيّام فقط. ففي ذلك الصباح، عندما قاموا بالتفقُّد، وفصلوا جانبًا السجناء الذين سيأخذونهم، ذكروا اسمه. كان ذلك هو أسوأ ما في كلّ يوم بالنّسبة إلى المعتقلين، إنّها إمكانيّة نقلهم إلى مركز تعذيب، أو إلى معسكر اعتقال أسوأ، أو إلى الموت. بعد انتظار دام ثلاث ساعات من الوقوف، جرى اقتياد الجماعة إلى شاحنة. الحارس الذي يدقّق الأسماء في القائمة، توقّف عند اسم فيكتور قبل أن يصعد إلى الشاحنة مع الآخرين. «أنت تبقى هنا في الأسفل، أيُّها النذل». انتظر لساعات أخرى قبل أن يقتادوه إلى المكتب، حيث أخبره قائد المعسكر شخصيًّا أنّه محظوظ، وأعطاه ورقة. لقد مُنح وضع الحريّة المشروطة. وقال له: «لو كان الأمر بيدي، لفتحت لك الباب كي تذهب ماشيًا، أيُّها الشيوعيّ ابن العاهرة. ولكنْ عليَّ أن آخذك ثانية إلى المستشفى».

كانت روزر وموظّف من سفارة فنزويلا ينتظرانه في المستشفى. عانق امرأته بيأس تلك الشهور الطويلة من القلق، حيث كان يفكّر بها، وبالحبّ الذي لم يصرّح به قطّ بصورة واضحة. «آه يا روزر، كم أحبّكِ، وكم اشتقتُ إليك»، همس وأنفه في شعرها. وكلاهما كان يبكي.

t.me/qurssan

الحريّة المشروطة تتطلّب الحضور يوميًا إلى مركزٍ للدرك للتوقيع في سجلّ. ويمكن للإجراء أن يتأخّر كثيرًا، وهذا يعتمد على الحالة المعنوية للضابط المناوب. وقّع مرّتين قبل أن يتّخذ القرار باللّجوء إلى سفارة فنزويلا. لقد كان بحاجة لهذيْن اليوميْن كي يفهم أنّ كونه معتقلًا سابقًا يحكم عليه بالطّرْد؛ فلا يمكنه العودة إلى العمل في المستشفى، أصدقاؤه سيتجنّبونه، وسيكون عرضةً لأن يُعاد اعتقاله في أيّ لحظة. الحذر والخوف اللذان كان يعيشهما يتناقضان مع التفاؤل المتحذلق والعدوانيّ من جانب مُناصري الدكتاتوريّة. لم يكن يُذكر ما يحدث حقًّا في الظلال. ولم يكن هناك من يعترض؛ العمّال الذين سُحقوا وهُزِموا، فقدوا حقوقهم أيضًا، صار بالإمكان طردهم من العمل في أيّ لحظة، ويتقبّلون شاكرين أيَّ أجور تُقدَّم إليهم، ففي الشارع أرتال من العاطلين عن العمل الذين ينتظرون أن تُقدَّم لهم أيّة فرصة. إنّه فردوس رجال الأعمال. والنُسخة الرسميّة للبلد المنظَّم، النّظيف، الهادئ، الذي يمضي على طريق الازدهار. كان يفكّر بضحايا التّعذيب، بالموتى، بوجوه الرجال الذين عرفهم في السجن والذين اختفت آثارهم. لقد تبدَّل الناس، صار يجد صعوبة في التّعرُّف على البلاد التي احتضنته بين أذرعها المتعدّدة قبل خمسة وثلاثين عامًا، وأحبّها كما لو أنّها موطنه.

في اليوم التالي، اعترف لروزر أنّه لن يستطيع تحمُّل الدكتاتوريّة «لم أستطع ذلك في إسبانيا، ولن أستطيعه هنا أيضًا. لقد تقدَّم بي العمر على تحمُّل العيش في خوف، يا روزر؛ ولكن الخروج إلى منفى آخر أمر لا يُمكن تقبُّله، مثل بقائي في تشيلي ومواجهة النتائج». تذرّعتْ هي بأنّ الأمر سيكون مجرَّد إجراء مؤقت، وبأنّ النظام العسكريّ سينتهي سريعًا، لأنّ لدى تشيلي تقاليد ديمقراطيّة راسخة، كما يقول الجميع. وعندئذٍ،

t.me/qurssan

مهرجعان؛ لكنّ حجّتها كانت تنهار أمام الحقيقة الجليّة بأنّ فرانكو لا يزال في السُلطة بعد أكثر من ثلاثين عامًا، وأنّه يُمكن لبينوشيه أن يحذو حذوه. أمضى فيكتور تلك اللّيلة ساهرًا يقدّر فكرة المغادرة. استلقى في الظلمة على السرير، حيث كانت روزر تتكوّر على نفسها بجانبه، كان يسمع أصوات صخب الشارع. وفي الساعة الثالثة فجرًا، سمع صوت سيّارة تتوقّف قبالة بيته. هذا لا يعني سوى أنّهم قد رجعوا ليأخذوه؛ فخلال حظر التّجوّل، لا تتحرّك إلّا السيّارات العسكريّة وعملاء الأمن. لا يمكن التّفكير في الهروب أو الاختباء. بقي ثابتًا بلا حراك، مبلّلًا بعرق بارد، مع طبل جنونيّ يدوّي في صدره. أطلّت روزر من بين الستائر، ورأت سيّارة ثانية سوداء تتوقّف إلى جانب السيّارة الأولى. «البس ثيابك بسرعة، يا فيكتور» قالت له آمرة. ولكنّها رأت عندئذ عدّة رجال يترجّلون من السيّارتيْن بلا تسرُّع، وبلا تراكض أو صراخ أو أسلحة. ظلّوا يدخّنون للحظات، ويتبادلون الحديث باسترخاء، وأخيرًا غادروا. تعانق فيكتور وروزر مرتجفيْن ومنتظريْن إلى جانب النافذة إلى أن بدأت بوادر الضياء بالانتشار، وأعلنت الساعة الخامسة صباحًا عن انتهاء حظر التّجوّل.

تدبّرت روزر الأمر بأن يقوم سفير فنزويلا بأخذ فيكتور في سيّارته التي تحمل لوحة دبلوماسيّة. في تلك الأثناء، كان معظم الملتجئين إلى السفارات قد غادروا إلى بلدان قبلت لجوءهم، وكانت إجراءات الأمن أقلّ صرامة. دخل فيكتور إلى السفارة في صندوق السيّارة الخلفيّ. بعد شهر من ذلك، منحوه تصريح مرور، ورافقه موظّفان فنزويليّان حتّى باب الطائرة بالذات، حيث كانت تنتظره روزر. جاء نظيفًا، حليق الذقن وهادئًا. في الطائرة نفسها، كان يسافر منفيٌّ آخر فكّوا قيود معصميْه على المقعد في الطائرة. كان متّسخًا، مشعّث الشّعر ومرجفًا. بعد قليل من

t.me/qurssan

تحليق الطائرة، اتّجه نحوه فيكتور الذي كان قد تأمّله. وقد وجد صعو، في بدء حديث معه، وإقناعه بأنّه ليس عميلًا للأمن. انتبه إلى أنّ الرجل بلا أسنانه الأماميّة، وأنّ في يديْه عدّة أصابع مكسورة.

ـ كيف يمكنني مساعدتك، يا رفيق؟ أنا طبيب، قال له.

ـ سوف يعيدون الطائرة. سيأخذونني من جديد إلى...، وانفجر بالبكاء.

ـ اهدأ، لقد مضت علينا ساعة في الجوّ تقريبًا، لن نرجع إلى سنتياغو، أؤكّد لك. هذه رحلة بلا توقُّف حتّى كاراكاس، هناك ستكون في أمان، سوف يقدّمون لك العون. سأسعى للحصول لك على جرعة خمر، إنّك بحاجة إليها.

فقال الآخر متوسّلًا:

ـ أُفضّل شيئًا آكله.

كانت روزر قد أمضت فترات طويلة في فنزويلا مع فرقة الموسيقى القديمة، تقدّم حفلات كونشيرتو، وكان لها هناك أصدقاء. وصارت تتحرّك بسهولة في مجتمع تختلف أنظمة تعايشه عمّا هي عليه في تشيلي. كان فالنتين سانتشيث قد عرّفها على من يستحقّون عناء التّعرُّف عليهم، وفتح لها أبواب عالم الثقافة. وكانت غراميّاتها مع آيتور إيبارّا قد انتهت منذ عدّة سنوات، لكنّهما ظلّا صديقيْن، فكانت تزوره بين حين وآخر. لقد خلّفه المرض شبه مشلول مع شيء من الصعوبة في نطق الكلمات، ولكنّه لم يؤثّر على قدراته الذهنيّة، ولم يضعف من حاسة شمّه على تخيُّل صفقات جيّدة، يقوم ابنه الأكبر بالإشراف عليها. لديْه منزله في أعالي قمم جبل كورومو، مع إطلالة بانوراميّة على كاراكاس، حيث يزرع

t.me/qurssan

أزهار الأوركيد، ويجمع عصافير نادرة وسيّارات مصنوعة يدويًا. لقد كان للبيت فِناء فسيح مغلق، وحديقة وارفة فيها عدّة بيوت، محميّة بسور عالٍ وحارس مسلّح، حيث يعيش أيضًا اثنان من أبنائه المتزوّجين وعدّة أحفاد. وبحسب قول آيتور، لم يخامر الشكّ زوجته أبدًا بشأن العلاقة الطويلة التي أقامها مع روزر، مع أنّ هذه كانت تشكّ في أن يكون ذلك صحيحًا، لأنّهما لا بدّ أن يكونا قد خلّفا آثارًا وأدلّة كثيرة خلال تلك السنوات. وانتهى إلى أنّ ملكة الجمال قد تقبّلت بصورة ضمنيّة كون زوجها شخصًا نسونجيًا، مثل رجال كثيرين يرون في ذلك دليلًا على الرجولة، ولكنّها لم تولِ الأمر اهتمامًا؛ لأنّها هي الزوجة الشرعيّة، أم أبنائه، والوحيدة التي تؤخذ في الاعتبار. وبعد أن انهارت قواه بفعل الشلل، صار لها وحدها، وتوصّلت إلى أن تحبّه أكثر من السّابق، لأنّها اكتشفت فضائله الهائلة التي لم تستطع تقديرها من قبل، في خضمّ الأعمال التجاريّة وسرعة الحياة. وسيهرمان معًا بانسجام تامّ، تحيط بهما أسرتهما. «ها أنت ترين، يا روزر، أنّه لا وجود لشرّ إلّا وينتهي خيرًا، مثلما تقول الأمثال. فعلى هذا الكرسيّ ذي العجلات، صرتُ زوجًا وأبًا وجدًّا أفضل ممّا يمكن أن أكون عليه لو أنّني قادر على المشي. وأنا سعيد بهذا، حتّى لو لم تصدّقيني»، هذا ما قال لها آيتور في إحدى زياراتها. وكيْلا تعكّر سلام صديقها، لم تشأ أن تخبره كم كانت مهمّة بالنّسبة إليها ذكرى أمسيات القبلات والنبيذ الأبيض تلك.

لقد تعاهد كلاهما على عدم البوْح أبدًا لزوجيْهما بأيّ شيء عن ذلك الحبّ الماضي - لماذا جرحهما، ولكنْ روزر لم تلتزم بوعدها. فخلال اليوميْن ما بين تحرير فيكتور من معسكر الاعتقال ولجوئه إلى السفارة، تبادلا الحبّ كما لو أنّهما قد تعارفا للتوّ. كان كشفًا منيرًا.

t.me/qurssan

كلاهما كان في شوق شديد. وعندما التقيا، لم يرَ كلّ منهما الآخر مثلما هو، وإنّما مثلما كان، وهما يتصنّعان ممارسة الحبّ في زورق النجاة م. السّفينة وينيبيغ، شابان وكئيبان، يجدان المواساة في تبادل الهمسات والمداعبات العفيفة. أُغرمت هي بغريب طويل القامة وصلب البُنية، بتقاطيع منحوتة في خشب قاتم، وبعينيْن حانيتيْن، وبراحة ملابس مكوية للتوّ، قادر على مفاجأتها وإضحاكها بحماقات، ومنحها المتعة كما لو أنّه قد حفظ عن ظهر قلب خريطة جسدها، باحتضانها طوال اللّيل، بحيث تغفو وتستيقظ على كتفه، ويقول لها ما لم تكن تتوقّع سماعه أبدًا، كما لو أنّ المعاناة قد قوّضت دفاعاته وحوّلته إلى عاطفيّ. وأُغرم فيكتور بالمرأة التي أحبّها من قبل بحبّ أخ مشتهٍ. لقد كانت امرأته طوال خمسة وثلاثين عامًا، ولكنّه للتوّ، في أيّام العودة للقاء هذه، رآها مجرّدة من شحنة الماضي، من دورها كأرملة وليام وأم مارسيل، متحوّلة إلى رؤيا شابّة وطازجة. لقد تكشّفت له روزر، بعد سنوات من تجاوزها الخمسين، كامرأة حسّيّة، ممتلئة بالحماسة، وباحتياطيّ لا ينفد من الطاقة وبلا خوف. لقد كانت تمقت الدكتاتوريّة مثله، ولكنّها لا تخافها. أجرى فيكتور حساباتٍ بيّنت له أنّها لم تُبدِ يومًا ما يشير إلى خوفها من أيّ شيء، باستثناء الخوف من الطيران في طائرة، ولا حتّى في الأيّام الأخيرة من الحرب الأهليّة. وبالصلابة نفسها التي واجهت بها المنفى آنذاك، خاضت المواجهة الآن بلا تذمُّر، ومن دون النظر إلى الوراء، بعينيْن تنظران إلى المستقبل. من أيّة مادة غير قابلة للتدمير صُنعت روزر؟ كيف توافر له حسن الطالع الفسيح ذاك بامتلاكها لسنوات طويلة؟ وكيف أمكن له أن يكون فظًّا، ولم يحبُّها منذ البداية مثلما تستحقّ، مثلما يحبُّها الآن؟ لم يتخيّل قطّ أنّه يمكن له وهو في هذه السنّ أن يقع في

t.me/qurssan

.. ، كمراهق، ويشعر بالشهوة كنداء. ينظر إليها بانبهار، بحبّ. فتحت
ملهرها كامرأة ناضجة كانت لا تزال سليمة تلك الطفلة التي كانت
..ها روزر وهي ترعى المعز في أحد جبال كتالونيا، بريئة ومهيبة. يريد
.. يحميها ويُعنى بها، مع أنّه يعرف أنّها أكثر منه قوّة في ساعة النكبة.
.. ا كلّه وأكثر منه بكثير، قاله لها في تلك الأيّام القصيرة من اللّقاء،
. سيواصل ترديده في الأيام التالية حتّى موته. في سهرات الاعترافات
، الاستعادة تلك، التي تقاسما فيها العظمة والبؤس والأسرار، حدثته هي
عن أيتور إيبارّا الذي لم تكن قد ذكرت اسمه قطّ من قبل. حين سمع
.. كتور ذلك، أحسَّ برصاصة في قلبه قطعت أنفاسه. لكنْ واقع أنَّ تلك
المغامرة قد انتهت منذ زمن طويل، مثلما أكّدت له روزر، شكّل مواساة
.. معيّنة. لقد كان يرتاب دومًا بأنّها في رحلاتها تلك كانت تلتقي بعشيق،
و ربّما بأكثر من واحد، ولكنّ التأكيد على حبّ طويل الأمد وجدّيّ
أيقظ فيه شيئًا من الغيرة بأثر رجعيّ، وكان يمكن لها أن تقوّض سعادة
اللحظة لو أنّها سمحت بذلك. ولكنّ روزر، بحسّها العقلانيّ الذي لا
شكّ فيه، بيّنت له أنّها لم تنتزع منه أيّ شيء لتقدّمه إلى أيتور، وأنّ حبّها
له لم ينقص، لأنّ تلك العلاقة كانت على الدوام في حجيرة منفصلة من
قلبها، ولا علاقة لها ببقيّة حياتها. «في ذلك الزمن، كنّا أنا وأنت صديقيْن
مقرّبين، موثوقيْن، وزوجيْن متواطئيْن، ولكنّنا لم نكن عاشقيْن مثلما
نحن الآن. لو أنّني أخبرتك بالأمر آنذاك، لكنتُ تسبّبت لك بقدر أقلّ
بكثير من الازعاج، لأنّنا ما كنّا سنشعر بالأمر على أنّه خيانة. وفي نهاية
المطاف، أنت نفسك أيضًا كنت غير وفيّ لي». فوجئ فيكتور، لأنّ زلّاته
الخاصّة كانت بلا قيمة، يكاد لا يتذكّرها، ولم يكن يتخيّل أنّها تعرف
بأمرها. تقبّل حجّتها بقليل من القناعة، ولكنّه ظلّ يجترّ مشاعره لبعض

t.me/qurssan

الوقت، إلى أن انتهى إلى إدراك عدم جدوى التورُّط في الماضي «... عشناه، عشناه وانتهى»، مثلما اعتادت أمّه القول.

استقبلت فنزويلا فيكتور باللّامبالاة نفسها التي تحتضن بها آلاف المهاجرين من أمكنة مختلفة من العالم، وآخرهم هؤلاء اللّاجئين الهاربين من دكتاتوريّة تشيلي، ومن الحرب القذرة في الأرجنتين والأورغواي، إضافة إلى الكولومبيّين الذين يجتازون الحدود من دون تصريح هربًا من الفقر. كانت واحدة من آخر الدّيمقراطيّات المنبثقة في القارة المحكومة بأنظمة شرسة ومجالس عسكريّة قاسية، أحد أغنى بلاد العالم بفضل جريان لا ينتهي من البترول المتدفّق من أرضها، والمباركة كذلك بمعادن منجميّة أخرى، وطبيعة غنيّة ووفيرة، وموقع متميّز على الخريطة. كانت الموارد كثيرة، بحيث لم يكن هناك من هو مضطرّ إلى الموت وهو يعمل، فهناك متّسع وفرص لمن يريدون الإقامة والاستقرار. فالجميع يعيشون سعداء، متنقّلين من حفلة إلى حفلة، بحريّة كبيرة، وبحسّ عميق بالمساواة. وكان يمكن لأيّ مسوّغ أن يكون مناسبًا للاحتفال مع موسيقى ورقص وخمر، وتبدو النقود كما لو أنّها تتدفّق بغزارة، والفساد يكفي الجميع. «لا تنخدعي بالمظاهر، هنالك كثير من الفقر، لاسيّما في الأقاليم. جميع الحكومات تجاهلت الفقراء، وهذا يولّد العنف، وستدفع البلاد عاجلًا أو آجلًا ثمن هذا التهاون»، قال فالنتين سانتشيث مُنبّهًا روزر. أمّا فيكتور القادم من تشيلي المتحفّظة، الحذرة، المتكلّفة والمقموعة على يد الدكتاتوريّة، بدت له هذه السّعادة المنفلتة صادمة. ظنّ أنّ الناس سطحيُّون، لا يأخذون شيئًا على محمل الجدّ، وأنّ هناك الكثير من التبذير والتباهي، وأنّ ذلك كلّه آنيّ، مؤقّت وعابر. كان يشكو أنّه من المحال عليه أن يتأقلم وهو في هذه السنّ،

t.me/qurssan

وأنّ ما تبقى له في الحياة لن يسمح له بالاندماج في ذلك المجتمع! ولكنّ روزر كانت تفنّد كلامه بالقول إنّه قادر، أجل، وهو في الستّين على ممارسة الحبّ مثل شاب فتيّ، وأنّ التأقلم مع هذه البلاد الرائعة سيكون سهلًا. «استرخِ، يا فيكتور. فالمضيُّ متبرّمًا على هذا النحو لن يفيد شيئًا. الألم لا مفرّ منه، أمّا المعاناة فاختياريّة». كانت شهرته كطبيب معروفة، لأنّ جرّاحين عديدين ممّن درسوا في تشيلي كانوا من تلاميذه؛ لم يكن مضطرًا لأن يكسب لقمة عيشة بالعمل كسائق سيّارة أجرة أو بخدمة الطاولات في مطعم، مثلما هي حال الكثير من المهنيّين المنفيّين، ممّن فقدوا ماضيهم بجرّة قلم، وكان عليهم البدء من الصفر. استطاع أن يعادل شهادته، وسرعان ما صار يُجري العمليّات الجراحيّة في أقدم مستشفى بكاراكاس. لم يكن ينقصه أيّ شيء، لكنّه كان يشعر، لا مفرّ، بأنّه أجنبيّ وغريب، ويمضي متابعًا الأخبار ليرى متى سيتمكّن من العودة إلى تشيلي. أمّا روزر، فكانت أمورها تمضي على أحسن حال مع فرقتها الموسيقيّة وحفلاتها. ومارسيل الذي كان قد أنهى دراسة الدكتوراه في جامعة كولومبيا، وصار يعمل في شركة البترول الفنزويليّة. كانا سعيدين، ولكنّهما كانا يفكّران أيضًا بتشيلي والأمل بالعودة إليها.

بينما كان فيكتور يعدّ الأيام من أجل العودة إلى تشيلي، مات فرانكو في 2 نوفمبر 1975، بعد احتضار طويل. ولأوّل مرّة منذ سنوات طويلة، أحسّ فيكتور بغواية العودة إلى إسبانيا. «لقد كان الكوديّيو خالدًا في نهاية المطاف»، كان هذا هو التّعليق الوحيد لمارسيل الذي لا يشعر بأدنى فضول نحو بلاد أجداده؛ فهو تشيليّ الرّوح. لكنّ روزر أكّدت أنّها سترافق فيكتور، لأنّ أيّ انفصال بينهما، مهما كان قصيرًا، سيسبّب لهما الغمّ. بدا ذلك غواية للقدر، فقد يحدث ألّا يعودوا للاجتماع إلى الأبد.

t.me/qurssan

القانون العامّ للكون هو درجة التعادل الحراريّ، فكلُّ شيء يميل إلى الفوضى، إلى التَّحطُّم الذاتيّ، إلى التَّبدُّد. فالناس يضيعون. انظروا كم هم الذين ضاعوا في الانسحاب، المشاعر تخفت وتصبح باهتة، والنسيان ينسلُّ إلى الحيوات كغمامة. فالحفاظ على كلّ شيء في مكانه يتطلّب إرادة بطوليّة. «إنّها نبوءات لاجئين»، تقول روزر معربة عن رأيها؛ فيصحّح لها فيكتور: «إنّها نبوءات عاشقين». شاهدا جنازة فرانكو في التلفزيون، التابوت الذي تحرسه سريّة من حَمَلة الرّماح على الخيول من مدريد حتّى وادي الشهداء، جماهير الناس التي تُكرّم الكوديّيو، نساء جاثيات ينتحبن، الكنيسة بكلّ أبّهة أساقفتها وبذخهم في مقاييس القدّاس الأكبر، سياسيُّون وشخصيّات بارزة بملابس الحِداد الصارمة، باستثناء الدكتاتور التشيليّ الذي يضع عباءة أمبراطور، استعراض لانهائيّ للقوّات المسلَّحة. والسؤال المعلَّق في الهواء: ما الذي سيحدث الآن لإسبانيا ما بعد فرانكو. أقنعت روزر فيكتور أن ينتظر سنة أخرى قبل محاولة العودة إلى بلده. وخلال هذه الفترة، راقبا من بعيد التحوُّل إلى الحريّة مع ملك على رأس البلاد، تبيَّن أنّه ليس دمية الفرانكويّة المنتظرة، وإنّما قرّر أن يقود البلاد إلى الديمقراطيّة سلميًّا، متجاوزًا قوى يمينيّة متزمّتة، ترفض أيّ نوع من التغيير وخائفة من فقدان امتيازاتها بعد غياب الكوديّيو. بينما بقيّة الإسبان يدعون إلى الإسراع في الإصلاحات الحتميّة، ومنح إسبانيا مكانتها في أوروبا وفي القرن العشرين.

في شهر تشرين الثاني/نوفمبر من السنة التالية، وطأت أقدام فيكتور وروزر دالماو أرض بلادهم الأصليّة لأوّل مرّة، منذ أيّام ذلك الانسحاب القاسي. ظلّا لوقت قصير في مدريد التي ما زالت العاصمة الأمبراطوريّة الجميلة مثلما كانت على الدوام. أخذ فيكتور روزر لمشاهدة

t.me/qurssan

الأحياء والأبنية التي دمَّرتها القنابل، وقد أعيد إعمارها؛ وأخذها إلى المدينة الجامعيّة لرؤية آثار الرصاص التي ما زالت موجودة على بعض الأسوار. ذهبا إلى منطقة نهر الإيبرو حيث يُفترض أنَّ وليام قد استشهد، ولكنَّهما لم يجدا شيئًا يُذكَر بالمعركة الأكثر دمويَّة في الحرب، والتي خلَّفت الكثير من القتلى. بحثا في برشلونة عن البيت القديم الذي كان لآل دالماو في حي رابال. كانت أسماء الشوارع قد تغيَّرت، ووجدا بعض الصعوبة في تحديد مكان وجودهم. كان البيت لا يزال هناك، وقد تحوَّل إلى طَلَلٍ متهالك. بدا من الخارج مهجورًا، ولكنَّهم طرقوا الباب، وبعد برهة طويلة وقرع الجرس عدَّة مرَّات، فتحت لهم فتاة من الهند، عيناها مُسوَّدتان بالكحل، وترتدي تنُّورة قصيرة. وكانت تفوح منها رائحة الماريجوانا والباتشولي، وقد وجدت صعوبة في معرفة ما الذي يريده هذان الشخصان غير المعروفين، لأنَّها كانت تمضي محلِّقة في فضاء آخر، لكنَّها دعتهما أخيرًا إلى الدخول. كان البيت قد احتُلَّ منذ وقت قريب من قبل جماعة شباب تبنُّوا الثقافة الهيبِّية متأخِّرين بعض الشيء، لأنَّ هذه الثقافة لم تكن مسموحة في أزمنة فرانكو. جالا على الغرف بإحساس من الخواء في المعدة. كانت الجدران مقشَّرة ومشقَّقة، وكان هناك أشخاص يفترشون الأرض، يدخِّنون وينامون، وقمامة مرميّة، وكان الحمّام والمطبخ متعفِّنيْن، والأبواب والنوافذ معلَّقة بصورة مزعزعة بالمفصّلات، وتفوح في المكان رائحة نفَّاذة من القذارة وانحباس الهواء والماريغوانا. «ها أنت ترى، يا فيكتور، من غير الممكن استعادة الماضي»، أبدت روزر ملاحظتها عندما صارا خارجًا.

مثلما لم يتعرَّفا على بيت آل دالماو، لم يتعرَّفا كذلك على إسبانيا. فأربعون عامًا من الحكم الفرانكويّ خلَّفت أثرًا عميقًا، يُلحظ في التعامل

t.me/qurssan

مع الناس، وفي كلّ مظهر من مظاهر الثقافة. أمّا كتالونيا، الحصن الأخير لإسبانيا الجمهوريّة، فتعرّضت لانتقام أشدّ من المنتصرين، ولقمع أكثر قسوة. فوجئا بأنّ ظلّ فرانكو ما زال شديد الوطأة. كان هناك أسباب من البطالة والتضخّم، ومن الإصلاحات التي يجري تنفيذها، والتي لا يجري تنفيذها، ومن سلطة المحافظين ومن فوضى الاشتراكيّين؛ البعض يدافعون عن انفصال كتالونيا عن إسبانيا، وآخرون يطالبون بمزيد من الاندماج بإسبانيا. كثيرون ممّن خرجوا إلى المنافي بعد الحرب راحوا يرجعون، معظمهم من المسنّين وخائبي الرجاء، ولكنْ لم يَعُد لهم مكان هناك. لا أحد يتذكّرهم. ذهب فيكتور إلى حانة روسينانتي، وكانت لا تزال موجودة على الناصية نفسها وبالاسم نفسه، وتناول هناك كأس بيرة على شرف أبيه ورفاقه لاعبي الدومينو، المسنّين الذين غنّوا في جنازته. لقد جرى تحديث الروسينانتي في تلك السنوات، لم تعُد تُعلَّق فيها أيّ أفخاذ لحم خنزير مقدَّدة، ولم تَعُد هناك رائحة نبيذ زنخة، إنّها تضمّ مناضد أكريليك ومراوح كهربائيّة. العامل في الحانة قال لهما إنّ إسبانيا قد ذهبت إلى الشيطان بعد فرانكو، فوضى عارمة وفظاظة، إضرابات، احتجاجات، مظاهرات، عاهرات ومخنّثون، وشيوعيُّون، لا أحد يحترم قيم العائلة والوطن، ولا أحد يتذكّر الربّ، والملك ليس سوى أبله، يا للخطأ الذي ارتكبه الكوديّيو بتسميته خليفة له!

استأجرا شقّة صغيرة في شارع غراسيا، حيث عاشا ستّة أشهر كاملة. نهاية المنفى، هذه هي التسمية التي أُطلقت على العودة إلى الوطن الذي تركوه سنوات طويلة، بدت لهما شديدة القسوة مثل منفى في العام 1939، عندما اجتازا الحدود الفرنسيّة، لكنّ هذه الأشهر الستّة حملتهما على الإقرار بمدى الغربة التي يشعران بها: هو لأنّه

t.me/qurssan

معتزٌّ بنفسه، وهي لصلابتها ورباطة جأشها. لم يجد أيّ منهما عملًا، بسبب عدم وجود وظائف لمن هم في مثل سنّهما من جهة، ومن جهة أخرى لعدم توافر أيّ علاقات لهما هناك. فهما لا يعرفان أحدًا. لكنّ الحبّ أنقذهما من الاكتئاب، لأنّهما كانا يشعران بأنّهما متزوّجان حديثًا، وفي شهر العسل، بدل أن يكونا شخصيْن ناضجيْن، عاطليْن ومتوحّديْن، يقضيان الصباحات متجوّليْن في المدينة، والأمسيات في السينما يشاهدان أفلامًا مكرّرة. مطّا الوهم إلى أقصى حدّ ممكن، إلى أن حدث في يوم أحد مضجر، لا يختلف في شيء عن أيّام مضجرة أخرى، أنّهما لم يعودا قادريْن على تحمُّل المزيد. كانا يُدفّئان عظامهما بفنجان شوكولاتة كثيف وقِطَع بسكويت في محل بشارع بيتريتكسول، عندما قالت روزر باندفاع من يُطلق حُكْمًا سيحدّد خططهما في السنوات التالية. «لقد طفح بي الكيل ببقائنا على هذه الحال كغرباء. فلنرجع إلى تشيلي. إنّنا من هناك». أفلت فيكتور تنهيدة تنّين عالية الصوت، وانحنى ليقبّلها من فمها. «سنفعل ذلك فور تمكّننا من فعله، أعدك. ولكنْ علينا أن نعود الآن إلى فنزويلا».

مضت عدّة سنوات قبل أن يتمكّن من تنفيذ وعده، وكانا يقيمان في فنزويلا، حيث يعيش مارسيل، وحيث لديْه عمل وأصدقاء. كانت الجالية التشيليّة تتوسّع يومًا بعد يوم، ففضلًا عن المنفيّين السياسيّين، جاء آخرون بحثًا عن فرص اقتصاديّة. ففي حيّهم، حيّ لوس بالوس غراندِس، كانت تُسمع اللّهجة التشيليّة أكثر من الفنزويليّة. معظم من يأتون يظلُّون معزولين ضمن جالية بلدهم، يلعقون الجِراح ويتابعون الأوضاع في تشيلي، حيث لا شيء يشير إلى حدوث تغيير، على الرّغم من الأخبار المشجّعة التي يجري تداولها من فم لفم من دون أن تتأكّد

t.me/qurssan

قطّ. الحقيقة هي أنّ الدكتاتوريّة لا تزال راسخة بثبات. اقترحت روز على فيكتور أن يُسلِم نفسه باعتبارها الطريقة الوحيدة الصحّيّة لقضاء الشيخوخة. كان عليهما أن يعيشا كلّ يوم بيومه، مستفيدَيْن ممّا يقدّمه إليهما ذلك البلد اللّطيف، وشاكرَيْن أنّهما حصلا على احتضان جبّ وعلى عمل، دونما تلذّذ أو استمتاع بالماضي. العودة إلى تشيلي تظلّ معلّقة، من دون أن تُدمّر حاضرهما، لأنّه يمكن لهذا المستقبل أن يتأخّر كثيرًا. وقد حال ذلك دون تغذيتهما بالحنين والأمل، وأدخلهما في فنّ قضاء الوقت على أحسن حال من دون الشعور بالذنب، وقد كان هذا، إلى جانب السخاء، هو أفضل درس تلقّياه في فنزويلا. لقد تغيّر فيكتور في عقد الستينيّات أكثر ممّا تغيّر طوال حياته السّابقة كلّها. وعزا ذلك إلى العشق الرّاسخ، وإلى صراع روزر من أجل تشذيب نتوءات طبعه، ورفع معنويّاته، فضلًا عن التأثير الإيجابيّ للـ despelote الكاريبي، وهذه هي التسمية التي كانوا يطلقونها على التسيُّب المؤسّساتيّ الذي قوّض السِمة الجدّيّة، إن لم يكن إلى الأبد، فلعدّة سنوات على الأقلّ.

وكان أن عاد فيكتور، في هذه المرحلة، للّقاء بأوفيليا دل سولار. فعلى امتداد السنوات السّابقة، كان يعرف شيئًا من أخبارها بصورة متفرّقة، من دون أن يتوصل إلى رؤيتها، لأنّها تنتمي إلى أوساط مختلفة جدًّا، وكانت هي قد أمضت جزءًا كبيرًا من حياتها في بلدان أخرى بسبب مهنة زوجها. أضف إلى ذلك أنّه هو نفسه كان يتجنّبها، لخشيته من أن تكون هناك جمارٌ ساخنة بين رماد ذلك الحبّ المُحبَط في شبابه، وتؤثّر على نظام حياته أو على علاقته بروزر. لم يتوصّل قطّ إلى فهم مسوّغات أوفيليا لقطع علاقته بحياتها بضربة مقصّ، من دون أيّ تفسير آخر سوى رسالة مقتضبة مكتوبة بنبرة فتاة متكبّرة، لم يستطع

t.me/qurssan

المطابقة بينها وبين المرأة التي تهرب من دروسها لتمارس الحبّ معه في فندق رخيص. في البدء، بعد التحسّر وتوجيهه اللّعنات سرًّا، وصل به الأمر إلى أنّه صار يكرهها. نسب إليها أسوأ عيوب طبقتها الاجتماعيّة: عديمة الإحساس، أنانيّة، متكبّرة، متحذلقة. وبعد ذلك، راح الاستياء يغادره، ولم يبق لديْه سوى الذكرى الطيّبة للمرأة الأكثر جمالًا بين من عرفهنّ من النساء، لضحكتها المفاجئة، لتغنُّجها. نادرًا جدًّا ما كان يفكّر بأوفيليا، ولم يشعر قطّ بدافع يدفعه للتّحرّي عن أخبارها. ففي تشيلي، قبل الدكتاتوريّة، كان يعرف نتفًا من أخبارها وأحوالها، بصورة عامّة من خلال تعليق عابر يتفوّه به أخوها فيليبه دل سولار، وكان يلتقي به نحو مرّتيْن في السنة من أجل الحفاظ بصورة مصطنعة على صداقة تستند أساسًا إلى اعتراف فيكتور بالجميل. وكان قد رأى بعض صورها غير المشجّعة على صفحات المجتمع في الجريدة، ولكنْ ليس في القسم الخاصّ بالفنّ؛ فعملها الفنّيّ كان مجهولًا في تشيلي. «أجل، الشيء نفسه يحدث مع المواهب الوطنيّة، وتكون الحال أسوأ إذا كنّ نساء»، أبدت روزر ملاحظتها هذه في مناسبة أنّها أحضرت معها من إحدى رحلاتها مجلّةً تصدر في ميامي، وفيها تحتلّ رسوم أوفيليا الصفحات الأربع الوسطى وبالألوان. تفحّص فيكتور صورتَي الفنّانة المرافقتيْن للريبورتاج. كانت العينان عينيْ أوفيليا السّابقة، أمّا ما سوى ذلك فقد تغيّر؛ يمكن أن تكون الكاميرا قد خانتها.

جاءت روزر بخبر أنّ هنالك معرضًا لأحدث أعمال أوفيليا دل سولار في آتينيه كاركاس. «هل لاحظت أنّها تستخدم كنيتها وهي عزباء؟» علّقت روزر. فبيّن لها فيكتور أنّها كانت تفعل ذلك على الدوام، وهذا أمر عاديّ لدى النساء التشيليّات، كما أنّ ماتياس إيثاغيرّي قد

t.me/qurssan

مات منذ سنوات؛ وإذا كانت أوفيليا لم تستخدم كنية زوجها عندما كان حيًّا، فلماذا ستفعل ذلك وهي أرملة؟ فقالت روزر: «حسن، مهما يكن الأمر. فلنذهب إلى حفل افتتاح المعرض».

كان ردّ فعله الآليّ هو الرفض، لكنّ الفضول تغلّب عليه. كان المعرض مؤلَّفًا من لوحات قليلة، ولكنّه يشغل ثلاث قاعات، لأنّ كلّ لوحة كانت بحجم باب. لم تكن أوفيليا قد نأت عن التأثّر بأعمال غواياسامين، الرسام الإكوادوريّ العظيم الذي تتلمذتْ على يديْه، وكانت لوحاتها بأسلوب مشابه لأسلوبه، لطخات قويّة، خطوط قاتمة وأشكال تجريديّة، ولكنْ من دون أيّ أثر لرسالته الإنسانيّة، لا وجود لأيّ استنكار للقسوة أو لاستغلال الإنسان، ولا شيء من النزاعات التاريخيّة أو السياسيّة لزمانه. إنّها صور حسّيّة، بعضها معبّرة جدًّا، لعناق ثنائيات ملتوية أو عنيفة، نساء مستسلمات للذّة أو للمعاناة. تأمّل فيكتور اللّوحات مشوَّشًا، لأنّها بدت له غير متناسبة مع الفكرة التي لديْه عن الفنّانة.

إنّه يتذكّر أوفيليا في بداية شبابها، تلك الفتاة المدلّلة، الساذجة والمندفعة التي وقعت في حبّه ذات يوم، والتي كانت ترسم بألوان الأكواريل مناظر طبيعيّة وأغصان أزهار. ولم يكن يعرف عنها منذ ذلك الحين سوى أنّها في البداية زوجة دبلوماسيّ، ثمّ صارت أرملته بعد ذلك؛ كانت امرأة تقليديّة، متوافقة مع قدرها. لكنّ هذه اللّوحات تكشف عن مزاج متأجّج، وعن مخيّلة إيروتيكيّة مفاجئة، كما لو أنّ العاطفة التي توصّل إلى لمحها في الفندق البائس، حيث كانا يمارسان الحبّ، قد ظلّت مخنوقة في داخلها، وأنّ صمّام الأمان الوحيد لها هو الرياش والرّسم.

t.me/qurssan

اللّوحة الأخيرة، المعلّقة وحدها على جدار في الغاليري، سبّبت له صدمة عميقة. إنّها لرجل عار يحمل بندقيّة بين يديْه، بالأبيض والأسود والرّمادي. ظلّ فيكتور يدرس اللّوحة لعدّة دقائق، مضطربًا من دون أن يعرف السّبب. اقترب ليقرأ العنوان على الجدار، *رجل ميليشيا، 1971*. (ليست للبيع)، قالها صوت بجانبه. كانت أوفيليا، مختلفة عن أوفيليا ذكرياته، وعن التي في الصور القليلة التي رآها لها، فهي هرمة باهتة، بلا لون.

- هذه اللّوحة هي الأولى من هذه السلسلة، وتشير إلى نهاية مرحلة بالنّسبة إليّ، ولهذا لا أبيعها.

- السنة هي سنة الانقلاب العسكريّ في تشيلي، قال فيكتور.

- لا علاقة لها بتشيلي. في تلك السنة تحرّرتُ كفنّانة.

حتّى هذه اللّحظة، لم تكن قد نظرت إلى فيكتور، كانت تتكلّم ونظرها مصوّب إلى اللّوحة. وعندما التفتت لمواصلة الحديث، لم تتعرّف عليه. كانت قد انقضت أكثر من أربعين سنة مذ كانا معًا، وكانت في موقع أضعف، إذ لم تُتَحْ لها خلال ذلك الوقت فرصة رؤية صورة له. مدّ فيكتور يده نحوها، وعرّف بنفسه. احتاجت أوفيليا بضع ثوان كي تراجع الاسم في ذاكرتها؛ وعندما توصّلتْ إلى ذلك، أطلقتْ صرخة مفاجأة شديدة العفوية، أشعرت فيكتور قناعته بأنّها لم تعرف من يكون. ذلك الوضع الذي حمله هو في قلبه كنكبة، لم يترك لديْها أيّ تأثير. دعاها لتناول كأس في الكافتيريا، وذهب لإحضار روزر. وحين رآهما معًا، لفت انتباهه أنّ الزمن قد عاملهما بطريقتيْن مختلفتيْن جدًّا. يمكن افتراض أن أوفيليا الجميلة، المندفعة، الثريّة، والمثقّفة، قد قاومت مرور السنوات

t.me/qurssan

أكثر، ولكنّها تبدو أكبر من روزر. فشعرها الرّمادي يبدو محروقًا، والبا ا في حالة مزرية، والكتفان متهدّلان بتأثير متطلّبات مهنتها. كانت ترنا ، جلبابًا طويلًا ومفلتًا من كتّان بلون القرميد لموازاة كيلوغراماتها الزائ ، وتحمل حقيبة هائلة متعدّدة الألوان من غواتيمالا، وتنتعل صندل كه ، فرنسيسكان. وكانت لا تزال جميلة جدًّا. عيناها الزرقاوان تلمعان مثلما كانتا وهي في العشرين من عمرها في وجه برونزيّ لتعرُّضه المفرط للشمس، وتتقاطع فيه بعض التجاعيد. أمّا روزر التي لم تكن معنا ، بنفسها، ولم تلفت الأنظار باعتبارها جميلة قطّ، فكانت تصبغ شيْبها، وتطلي شفتيْها، وتعتني بيديْها كعازفة بيانو، كما تعتني بقامتها ووزنها، كانت ترتدي بنطالًا أسود وبلوزة بيضاء، بأناقتها البسيطة المعهودة، حيَّتْ أوفيليا بانفتاح مرحِّب، واعتذرت لأنّها لا تستطيع مرافقتهما، إ عليها أن تذهب طائرة إلى تدريبات في الأوركسترا. تبادل فيكتور معها نظرات متفحّصة، وأدرك أنّها ترمي إلى تركه وحيدًا مع أوفيليا، فداهمه لحظة هلع.

إلى منضدة في فناء الأتينيه، ما بين تماثيل حديثة ونباتات تروبيكاليّة، قامت أوفيليا ومعها فيكتور بمراجعة لأهمّ وقائع السنوات الأربعين الماضية، ومن دون الإشارة إلى العاطفة التي قلبت حياتيهما ذات يوم. لم يتجرّأ فيكتور على مقاربة هذا الموضوع، وأقلّ من ذلك أن يطلب منها تفسيرات متأخّرة، لأنّ ذلك بدا له مهينًا. ولم تقدّم هي من جهتها أيّ تفسيرات، لأنّ الرجل الوحيد الذي احتسبته في حياتها هو ماتياس إيثاغيرّي. وبالمقارنة مع الحبّ الاستثنائيّ الذي عاشته معه، فإنّ المغامرة المقتضبة مع فيكتور، لم تكن سوى تفاهة ضئيلة، وكان لا بأ لها من أن تكون منسيّة لولا ذلك القبر الصّغير في مقبرة ريفيّة بتشيلي.

t.me/qurssan

،مي لم تذكر ذلك أيضًا لفيكتور، لأنّها اكتفت بمشاركة زوجها فقط في ،الك السرّ. تحمّلت وزر زلّتها من دون إثارة أيّ فضائح، مثلما أمرها الأب ،بنني أوروبينا.

استطاعا أن يتبادلا الحديث مطوّلًا، كما لو أنّهما صديقان جيّدان. اخبرته أوفيليا أنّها أنجبت ابنيْن، وأنّها عاشت ثلاثة وثلاثين عامًا بسعادة ،م ماتياس إيثاغيرّي الذي أحبّها بالثبات نفسه الذي لاحقها به من امل الزواج منها. كان يحبّها كثيرًا وبصورة حصريّة جدًّا، جعلت ابنيْهما ،شعران بأنّهما فائضان عن الحاجة.

ـ لقد تغيّر قليلًا جدًّا، وكان على الدوام رجلًا هادئًا، كريمًا، ،،نعامل معي بوفاء غير مشروط؛ وكان مرور السنوات يعمّق فضائله. ،اعدتُه بأفضل ما أستطيع في مهنته. فالعمل الدبلوماسيّ صعب. كنّا ،ننقل من بلد إلى آخر كلّ سنتيْن أو ثلاث سنوات، وكان لا بدُّ من الانتقال، وترك أصدقاء، وإعادة البدء من جديد في مكانٍ آخر. ولم يكن الأمر سهلًا على الأبناء أيضًا. والأصعب هو الحياة الاجتماعيّة، فأنا لا أنفع في التفرّغ لحفلات الكوكتيل والولائم الممتدّة لوقت طويل.

ـ وهل كنت قادرة على الرّسم؟

ـ حاولت ذلك، ولكنّني تمكّنتُ بصورة وسطيّة فقط. فقد كان هناك على الدوام ما هو أكثر أهمّيّة أو إلحاحًا. عندما ذهب ابنانا إلى الجامعة، قلت لماتياس إنّني سأتقاعد من عملي كأمّ وزوجة، وسوف أتفرّغ للرّسم بصورة جدّيّة. بدا له ذلك عادلًا. تركني بحريّتي، لم يَعُد يطلب منّي أن أرافقه في اللّقاءات الاجتماعيّة؛ وكانت تلك اللّقاءات هي أكثر ما يزعجني.

ـ ياه، رجل وحيد.

t.me/qurssan

ـ مؤسف أنّك لا تعرفه.

ـ لقد رأيته مرّة واحدة. هو من ختم وثائقي الشخصيّة للد...
إلى تشيلي على متن السفينة وينيبيغ عام 1939. لم أنسه قطّ. ...
ماتياس كان رجلًا نزيهًا، يا أوفيليا.

ـ كان يحتفي بكلّ ما يخصُّني. يكفي أن أقول لك إنّه أخذ ...
خاصة من أجل التّمكُّن من تقدير لوحاتي، لأنّه لم يكن يفهم شيئًا ...
الفنّ، وقد موّل معرضي الأوّل. لقد قضت عليه نوبة قلبيّة لعينة منذ ...
سنوات، وما زلت أنام باكية كلّ ليلة، لأنّه ليس معي ـ اعترفت له أوفيلـ...
في نوبة عاطفيّة أشعرت فيكتور بالخجل.

ثمّ أضافت إنّها منذ ذلك الحين قد تحرّرت من الواجبات ال...
كانت تشغلها عن ميولها الفنّيّة؛ وقالت إنّها تعيش كفلّاحة في قطعة
أرض على بعد مئتي كيلومتر عن سنتياغو، حيث تزرع أشجارًا مثمرة
وتربي معز قزميّة طويلة الآذان لبيعها كحيوانات بيتيّة أليفة.. ترسم وترسم
فضلًا عن أنّها تسافر للقاء ابنيْها، في البرازيل والأرجنتين، أو من أجل
معرض لها، أو لزيارة أمّها مرّة كلّ شهر، وباستثناء ذلك لا تغادر مرسمها

ـ أنتَ عرفتَ أنّ أبي قد توفّي، أليس كذلك؟

ـ أجل، ظهر الخبر في الجريدة. تصلنا هنا الجرائد التشيليّة
متأخّرة، ولكنّها تصل. لقد بنى أوهامًا كثيرة على حكومة بينوشيه.

ـ كان ذلك في البدء. مات عام 1975. وقد تفتّحت أمّي بعد موته
لقد كان أبي مستبدًّا.

أخبرته أنّ أمّها دونيا لورا قد قلّصت اهتمامها بصلوات قهر نزوات
النفس، وبأعمال الإحسان. وصارت تهتمّ أكثر بلعب الورق وبالرّوحانيّات

t.me/qurssan

، ـماعة من العجائز الباطنيّات اللّواتي يتواصلن مع أرواح من العالم الآ ـر. وهكذا، تحافظ على تواصل مع ليوناردو، صغيرها البيبي المعبود. الـ ـاهن، بيثنتي أوربينا يجهل هذه الخطيئة الجديدة التي تلطّخ شرف الـ ـل سولار، لأنّ دونيا لورا تحاذر جيّدًا من الاعتراف بذلك للكاهن؛ ـها نعرف أنّ ذكر الموتى خطيئة شيطانيّة، ومُدانة بصورة حاسمة من الـ ـيسة.

كانت أوفيليا تشير إلى الأسقف بتهكّم. قالت إنّ أوربينا الذي ـاوز الثمانين ببضع سنوات هو كاهن ومدافع مفوّه عن الأساليب الـ ـكتاتوريّة، المسوّغة بالكامل لحماية الثقافة المسيحيّة الغربيّة ضدّ الـ ـاد الماركسيّة الأخلاقيّ. أمّا الكردينال الذي أنشأ مركز نيابة خاصّ ـ ـابة المطارَدين وإعداد قوائم بالمختفين، فقد اضطرّ إلى دعوة الأسقف إلى التزام النظام عندما راح يدافع بحماسة عن التّعذيب، وعن الإعدامات التّعسّفيّة. ولم يكن الأسقف يعرف الكلل في مهمّة إنقاذ الأرواح، وخاصّة أرواح مؤمنيه في الحيّ الراقي، وكان لا يزال المستشار الـ ـاصح لأل دل سولار، وهم أكثر سلطة ونفوذًا من البطريرك نفسه. ـ ـونيا لورا، وبناتها، وأصهارها، وأحفادها وأحفاد أحفادها يعتمدون على ـكمته في قراراتهم الكبيرة والصغيرة.

- أنا أفلتُ من تأثيره، لأنّني أضجر منه. إنّه رجل شؤم، ولأنّني ـست لأوقات طويلة خارج تشيلي. وفيليبه أفلت منه أيضًا، لأنّه الأشدّ ـ ـكاء في العائلة، ويقضي نصف حياته في لندن.

- ما أخباره؟

- دعم سنوات حكم ألليندي الثلاث، وكان واثقًا من أنّ فترة ـكمه ستكون قصيرة، ولم يخطئ في ذلك، لكنّه لم يستطع تحمّل

t.me/qurssan

ذهنيّة الثكنة لدى المجلس العسكريّ، لأنّه أدرك أنّه يُمكن لـ... العسكر أن يستمرّ لزمن أبديّ. وأنت تعرف كيف يروق له كلّ ما هو إنكليزيّ. يمقت أجواء النفاق والقداسة التشيليّة. يذهب في زيارا... أحيانًا لرؤية أمّي، ولتولي مسؤوليّة التمويل العائليّ، إذ كان عليه أن يحل... محلّ أبي.

ـ ألم يكن لك أخ آخر؟ ذاك الذي كان يقيس شدّة الأعاصير والعواصف؟

ـ لقد استقرّ في هاواي، ولم يرجع إلى تشيلي سوى مرّة واحدة للمطالبة بحصّته من الميراث بعد موت أبي. أتتذكّر تلك العاملة المنزليّة، المدعوّة خوانا، التي كانت متعلّقة بابنك مارسيل؟ إنّها ما زالت على حالها. لا أحد، بمن في ذلك هي نفسها، يعرف كم صار عمرها، ولكنّها ما زالت حاملة مفاتيح البيت، وتعتني بأمّي التي صار عمرها بضعة وتسعين عامًا، ومعتوهة إلى حدّ كبير. هنالك كثير من المصابين بالعته في عائلتي. حسن، لقد قدّمت لك آخر أخبارنا. حدّثني أنت الآن.

لخّص لها فيكتور حياته في خمس دقائق، وتحدّث باختصار شديد عن السنة التي أمضاها معتقلًا، من دون التوقّف عند أسوأ التقلّبات التي تعرّض لها، إذ رأى أنّه من غير اللّائق التّحدّث عنها، وافترض أنّ أوفيليا تفضّل تجاهل تلك الأمور. وإذا كانت هي قد انتبهت إلى شيء، فقد امتنعت عن توجيه أسئلة، واكتفت بالقول في هذا الشأن أنّ ماتياس كان محافظًا في أفكاره السياسيّة، ولكنّه خدم تشيلي كدبلوماسيّ خلال سنوات الحكم الاشتراكيّ الثلاث من دون أن يخالف واجبه؛ وفي المقابل، كان يشعر بالخجل وهو يمثّل الحكومة العسكريّة لسوء سمعتها

t.me/qurssan

.. العالم بأسره. وأضافت أنّها هي نفسها لم تكن تهتمّ أبدًا بالسياسة، ..ا يهمُّها هو الفنّ، وأن تعيش بسلام في تشيلي، بين أشجار وحيوانات، .. دون أن تقرأ الصحافة. وأن تظلّ حياتها هي نفسها، بدكتاتوريّة أو من ..ن دكتاتوريّة.

تبادلا الوداع مع الوعد بأن يظلّا على تواصل، مع أنّهما يعرفان أنّها ليست سوى عبارات شكليّة. شعر فيكتور بالراحة: إذا لم يعش .ا يكفي فإنَّ الدوائر آخذة بالانغلاق. دائرة أوفيليا دل سولار أُغلقت بصورة نظيفة في كافيتريا الأتينيه هذه، ومن دون أن تخلّف رمادًا. الجمار قد استُنفدت، وصارت رمادًا منذ زمن طويل. قرّر أنّه لم يُعجب لا بشخصيّتها ولا برسومها؛ الشيء الوحيد الذي يستحقّ الذكر هو ..اها بزرقتهما السماويّة الغريبة تلك. كانت روزر تنتظره في البيت ..يء من القلق، ولكن نظرة واحدة إليه جعلتها تنفجر ضاحكة. لقد ..ع زوجها عنه عدّة سنوات. نقل لها فيكتور أخبار عائلة دل سولار. وكمحصّلة لكلّ ذلك، علّق قائلًا إنّ لأوفيليا رائحة غاردينيا محتضرة. وظلّ يحتفظ بفكرة أنّ روزر قد دبّرت ذلك المقلب، وأنّها أخذته من أجل رؤية ذلك المعرض، وتركته على انفراد مع حبّه القديم. لقد بالغت امرأته في المجازفة؛ إذ كان يُمكن أن يحدث، بدل خيبة أمله بأوفيليا، أن يعود للوقوع في حبّها، ولكنْ من الواضح أنّ مثل هذا الاحتمال لم يكن يُقلق روزر أبدًا. وفكّر «المشكلة معها أنّها كانت تعتبرني ثابتًا، بينما كنت أعيش مفكّرًا بأنّه يمكن لها الذهاب مع آخر».

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الفصل الثاني عشر

1983 ـ 1991

أعيش الآن في بلدي بالغ العذوبة
ل جلود الطيور الخريفيّة...

بابلو نيرودا

بلاد»، جغرافية غير مجدية»

t.me/qurssan

t.me/qurssan

الخبر عن أنَّ هنالك في تشيلي قائمة حديثة تضمّ أسماء ألف وثمانمائة منفيّ يسمح لهم بالعودة إلى البلاد نُشر في جريدة ***الأونيفرسال*** ليوم الأحد، وهو اليوم الوحيد الذي يقرأ فيه آل دالماو الجريدة من بدايتها حتّى الصفحة الأخيرة. ذهبت روزر إلى قنصلية تشيلي لترى القائمة، وكانت ملصقة على النافذة، ووجدت فيها اسم فيكتور دالماو. فانفتح فراغ عند قدميْها. لقد انتظروا هذا طوال تسع سنوات، وعندما حدث لم تكن هنالك سعادة، لأنّه يعني هجر ما لديْهم والتّخلّي عنه، بمن في ذلك مارسيل، والعودة إلى البلاد التي غادروها عندما لم يستطيعوا تحمُّل القمع. تساءلت عن مغزى العودة طالما لم يتغيَّر هناك أيّ شيء، ولكنَّها في تلك الليلة، عندما تحدَّثت في الأمر مع فيكتور، قال لها إذا لم يرجعوا بسرعة، فلن يفعلوا ذلك أبدًا. «لقد بدأنا من الصفر عدَّة مرّات، يا روزر. ويمكننا عمل ذلك مرّة أخرى. أنا الآن في التاسعة والستّين، وأريد أن أموت في تشيلي». كانت تتردَّد في ذهنه أبيات شعر لنيرودا: «كيف يمكنني أن أعيش بعيدًا جدًا/عمَّا أحببت، عمَّا أحبّ؟». وقد وافقه مارسيل الرأي؛ وعرض عليهما أن يذهب ليستطلع الأمر على أرض الواقع، وخلال أقلّ من أسبوع كان في سنتياغو. اتَّصل بهما ليُخبرهما أنَّ البلاد تبدو حديثة ومزدهرة ظاهريًا، ولكنْ يكفي حكّ

t.me/qurssan

السّطح لتظهر العيوب والبؤس. هنالك تفاوت ساحق. ثلاثة أرباع الثرو، في أيدي عشرين أسرة. الطبقة الوسطى تعيش بصعوبة على القروض. هنالك فقر للكثيرين ورخاء لقلّة قليلة، أحياء بائسة في مواجهة ناطحات سحاب من البلّوْر ومنازل فخمة مسوَّرة، رفاهيَّة وأمان للبعض، وبطالا، وقمع لآخرين. المعجزة الاقتصاديَّة في السنوات السّابقة، والمستند، إلى حرّيَّة رأس المال المطلقة وغياب الحقوق الأساسيَّة للعمَّال، أدّى إلى تضخُّم أشبه بفقاعة. وقال لهما إنَّه يمكن الشعور في الأجواء بأنّ الوضع سيتغيَّر، فالناس صاروا أقلّ خوفًا، وهنالك احتجاجات جماهيريّة واسعة ضدّ الحكومة. ويعتقد أنّه يمكن للدكتاتوريَّة أن تسقط بفعل ثقلها بالذات؛ وأنَّ الوقت قد حان للعودة. وأضاف أنَّه ما كاد يصل حتَّى عرضوا عليه وظيفة في شركة النحاس نفسها التي بدأ العمل وهو حديث التَّخرُّج، ومن دون أن يسأله أحد عن أفكاره السياسيَّة؛ يعتمدون فقط على الدكتوراه التي حصل عليها في الولايات المتَّحدة وخبرته المهنيَّة. «سوف أبقى هنا، أيُّها العجوزان. إنَّني تشيليّ». كان هذا هو السّبب الحاسم، لأنَّهما هما أيضًا تشيليَّان، على الرَّغم من كلّ ما عاشاه، ولن ينفصلا بأيّ حال عن ابنهما. خلال أقلّ من ثلاثة شهور صفّى آل دالماو ممتلكاتهم في فنزويلا، وودَّعوا أصدقاءهم وزملاءهم. اقترح فالنتين سانتشث على روزر أن تعود منتصرة، برأس مرفوع، فهي لم تكن قطّ في القوائم السّوداء ولا تحت رقابة أجهزة الأمن، مثلما هو زوجها. سترجع وسترافقها أوركسترا الموسيقى القديمة بكاملها لإقامة سلسلة من الحفلات الموسيقيَّة المجّانيَّة في الحدائق العامَّة والكنائس والمدارس. أرادت أن تعرف كيف سيموّلون مثل تلك المشاريع، فردَّ عليها أنّها ستكون هديَّة من الشعب الفنزويليّ إلى شعب تشيليّ.

t.me/qurssan

.، رانبة الثقافة في فنزويلا تكفي لتغطية الكثير، ولن يتجرَّأوا في تشيلي الى منع هذه الحفلات؛ ستكون مواجهة ذات أبعاد دوليَّة. وهذا ما ..ث.

كانت عودة فيكتور أصعب بكثير من عودة روزر. ترك موقعه في المستشفى بكاراكاس وتأمينه الاقتصاديّ ليأتي إلى لايقينيَّة مكان :ظر فيه إلى العائدين من المنافي بارتياب. كثيرون من جماعات اليسار اعتُبروا مذنبين بذهابهم إلى الخارج، بدل أن يناضلوا ضدّ النظام من الداخل، بينما كان اليمين يتَّهمهم بأنَّهم ماركسيُّون وإرهابيُّون، ولسبب ما جرى طردهم.

عندما ذهب إلى مستشفى سان خوان دي ديوس، حيث كان قد عمل طوال ثلاثين عامًا تقريبًا، استُقبل بالأحضان وحتَّى بالدُّموع من جانب الممرِّضات وبعض أطبَّاء ذلك الزمان السَّابق، ممَّن يتذكَّرونه وهربوا من عمليَّات التَّطهير التي جرت في الأزمنة الأولى، عندما جرى استبدال مئات الأطبَّاء ذوي الأفكار التقدُّميَّة، واعتقالهم أو اغتيالهم. وكان مدير المستشفى عسكريًّا، وقد حيَّاه شخصيًّا، ودعاه إلى مكتبه، وقال له:

- أعرف أنَّ حضرتك قد أنقذت حياة القومندان أوسوريو. كان عملًا يستحقّ الثناء من شخص في مثل الوضع الذي كنت فيه.

- أتعني أنَّني كنتُ سجينًا في معسكر اعتقال؟ إنَّني طبيب، أخدم من هو بحاجة إليَّ، بلا اهتمام بالظروف. وكيف حال القومندان؟

- إنَّه متقاعد من زمن، ولكنَّه في حالة جيِّدة.

- لقد عملتُ لسنوات طويلة في هذا المستشفى، وأرغب في العودة إليه، قال فيكتور.

t.me/qurssan

ـ إنّني أفهمك، ولكن لا بدّ من أخذ عمرك في الاعتبار...

ـ لم أكمل السبعين بعد. منذ أسبوعيْن، كنتُ أترأس قسم الأمراض القلبيّة في مستشفى بارغاس بكاراكاس.

ـ للأسف الشديد، إنّه بسبب سيرتك كمعتقل ومنفيّ سياسيّ، من غير الممكن توظيفك في أيّ مستشفى عامّ؛ فأنت معفًى من وظائفك حتّى صدور أمر جديد.

ـ أيعني هذا أنّي لا أستطيع العمل في تشيلي؟

ـ صدّقني.. إنّني متأسّف. القرار غير مرتبط بي. أنصحك بأن تبحث في مستشفى خاصّ، قال المدير، وهو يودّعه بالضغط على يده.

الحكومة العسكريّة ترى أنّ الخدمات العامّة يجب أن تكون في أيادٍ خاصّة؛ الصّحة ليست حقًّا، وإنّما هي منفعة استهلاكيّة تُشترى وتُباع. في تلك السنوات، عندما جرت خصخصة كلّ ما يُمكن تخصيصه، ابتداء من الكهرباء حتّى الخطوط الجوّيّة، ازدهرت العيادات الخاصّة المزوّدة بأفخر المعدّات والوسائل لخدمة من هم قادرون على الدّفع. كانت سمعة فيكتور المهنيّة لا تزال سليمة بعد سنوات من الغياب، واستطاع الحصول فورًا على وظيفة في أشهر عيادة طبّيّة في سنتياغو براتب أعلى بكثير ممّا يُمكن له أن يكسبه في المستشفى العموميّ. وهناك، ذهب لزيارته فيليبه دل سولار في واحدة من رحلاته المتواترة إلى تشيلي. كان قد مضى وقت طويل منذ التقيا آخر مرّة، ولم يكونا صديقيْن حميميْن قطّ؛ ولم يكن هنالك أشياء كثيرة مشتركة تجمع بينهما، ولكنّهما تعانقا بمودّة حقيقيّة.

ـ عرفت أنّك قد رجعت، يا فيكتور. تسعدني عودتك كثيرًا. هذه البلاد بحاجة لأن يعود إليها الناس الثمينون.

t.me/qurssan

ـ أنت أيضًا عائد إلى تشيلي؟ سأله فيكتور.

ـ أنا لا يحتاج أحد إليّ هنا. إنّني أعيش في لندن. ألا يبدو عليّ ذلك؟

ـ أجل، يُلاحظ ذلك. تبدو لوردًا إنكليزيًا.

ـ يجب أن أتردّد إلى هنا بكثرة إلى حدٍّ ما من أجل أمورٍ عائليّة، ،م أنّني لا أطيق أحدًا من العائلة، باستثناء خوانا نانكوتشيو التي ربّتني، ،لكن أحدنا لا يستطيع اختيارأقربائه.

جلسا على مقعد في الحديقة، قبالة نافورة حديثة تنفث دفقات من الماء في زفرات كأنّها لهاث حوت، ليطّلعا على آخر أخبار عائلتيْهما. مرف فيكتور أنّ اللّوحات التي ترسمها أوفيليا، المعتكفة في الريف، لا ،شتريها أحد، وأنّ لورا دل سولار تعاني من خرف الشيخوخة في كرسيٍّ ،ن عجلات، وأنّ أخوات فيليبه قد تحوّلن إلى سيّدات لا يُطقن.

وأضاف فيليبه:

ـ لقد جمع أصهاري ثروات خلال هذه السنوات، يا فيكتور. كان أبي يزدريهم. واعتاد أن يقول إنّ أخواتي قد تزوّجن من حمقى بملابس جيّدة. لو كان بإمكانه أن يرى أصهاره الآن، فسيكون عليه أن يبتلع كلامه.

فقال فيكتور:

ـ هذا هو فردوس الصفقات ورجال الأعمال!

ـ لا وجود لما هو سيّئ في كسب المال إذا كان النظام والقانون يسمحان بذلك. وأنت، يا فيكتور، كيف حالك؟

ـ أحاول التأقلم وفهم ما الذي حدث هنا. صار من غير الممكن التّعرّف على تشيلي!

t.me/qurssan

ـ عليك أن تقرّ بأنّها صارت أفضل بكثير. فالانقلاب العسكري أنقذ البلاد من فوضى ألليندي ومن دكتاتوريّة ماركسيّة.

ـ للحيلولة دون قيام تلك الدكتاتوريّة اليساريّة المتخيّلة، فرضوا علينا دكتاتوريّة يمينيّة لا ترحم، يا فيليبه.

ـ انظر، يا فيكتور، احتفظ لنفسك بهذه الآراء. ليس لها أيّ وقع جيّد هنا. لا يمكنك أن تنكر أنّنا أفضل حالًا بكثير، لدينا بلاد مزدهرة

ـ بكلفة اجتماعيّة عالية جدًّا. أنت تعيش في الخارج، وتعرف الفظاعات التي لا ينشر عنها أيّ شيء هنا.

ـ لا تأتني الآن بمعزوفة حقوق الإنسان.. يا للكلام المملّ، يا رجل
ـ قاطعه فيليبه. إنّها تجاوزات بعض العسكريّين الأفظاظ. لا يمكن لأحد أن يتّهم مجلس الحكم، وأقلّ من ذلك بكثير اتّهام الرّئيس بينوشيه بهذه الحوادث الاستثنائيّة. الأمر المهمّ أنّ الهدوء مستتبّ، ولدينا اقتصاد لا تشوبه شائبة. لقد كنّا على الدوام بلد ضعفاء مسترخين، وعلى الناس أن يعملوا الآن وأن يبذلوا الجهد. نظام حريّة السوق يشجّع المنافسة، ويُنمّي الثروة.

ـ هذا الذي يجري ليس حريّة سوق، لأنّ القوّة العاملة خاضعة، وقد أُلغيت أدنى الحقوق الأساسيّة. أَوَتظنّ أنّه يُمكن فرض مثل هذا النظام في بلد ديمقراطيّ؟

ـ هذه التي هنا هي ديمقراطيّة سلطويّة ومحميّة.

ـ لقد تغيّرتَ كثيرًا، يا فيليبه.

ـ لماذا تقول هذا الكلام؟

t.me/qurssan

ـ إنّني أتذكّر أنّك كنت أكثر انفتاحًا، كنت محطّم أيقونات، ،،هكّميًا، مُخلًّا باللياقة بعض الشيء، كنتَ ناقدًا، معارضًا لكلّ شيء ،الحميع، متهكّمًا وساخرًا ومتألّقًا.

ـ وما زلتُ كذلك في بعض النواحي، يا فيكتور. ولكنْ مع التّقدُّم ،ي السنّ، لا بدّ لأحدنا من أن يحدّد موقفه. وأنا كنت مَلَكيًّا على الدّوام انسم فيليبه: على أيّ حال، يا صديقي، كن حذرًا بآرائك.

ـ إنّني حَذِر، يا فيليبه، ولكنّني لا أحتفظ بأيّ حذر مع الأصدقاء.

للتّخفيف من شدّة الحرج الذي يشعر به بسبب تحوُّل الطبّ إلى ىجارة، صار فيكتور يعمل كمتطوّع في عيادة أحد التّجمُّعات السكنيّة البائسة بسنتياغو، واحد من تلك الأحياء التي وُلدت وتكاثرت بالهجرة ،ن الرّيف، ومن مناجم ملح البارود، قبل نصف قرن. في الحيّ الذي يعمل فيه فيكتور، يعيش نحو ستّة آلاف شخص مكدَّسين. هناك، استطاع أن يقيس نبض القمع والاستياء، وجرأة أشدّ الناس تواضعًا وبؤسًا. مرضاه يعيشون في أكواخ من الكرتون وبعض ألواح الخشب، أرضيّتها من التراب الممهّد، بلا تمديدات ماء جار ولا كهرباء ولا مراحيض، ما بين غبار الصيف ووحول الشتاء، وما بين قمامة وكلاب وجرذان وذباب..الأغلبية بلا عمل، يكسبون أدنى أجر من أجل البقاء في أعمال يأس؛ يجمعون البلاستيك والزجاج والورق من القمامة لبيعه؛ يقومون بعمل شاقّ في النهار في أيّ ميدان ممكن؛ يمارسون التهريب والسرقة. كانت لدى الحكومة خطط من أجل استئصال المشكلة، ولكنّ الحلول تتأخّر؛ ويعمدون في الوقت الحاليّ إلى بناء جدران عالية لإخفاء هذا المشهد المؤسف الذي يُضفي القبح على المدينة.

t.me/qurssan

ـ الأكثر أهمّيّة هناك، هنّ النساء ـ يقول فيكتور لروزز. إنّهنّ عصيّات على الانكسار، مضحيّات، أكثر تحمُّلًا للمصاعب من الرجال، أمّهات أبنائهنّ ومن يحتضنُ تحت سقفهن. يتحمّلن إدمان الكحول، والعنف وهجران الرجل العابر في حياتهنّ، ولكنّهنّ لا ينحنين ولا يرضخن.

ـ هل يتلقَّين أيّ نوع من المساعدة على الأقلّ؟

ـ أجل، من الكنيسة، وبصورة خاصّة من الكنائس الإنجليكانية، ومن مؤسّسات الإحسان والمتطوّعين؛ ولكنّني أشعر بالقلق على الأطفال، يا روزر. إنّهم يكبرون بأيّ طريقة، وكثيرًا ما ينامون جائعين، يذهبون إلى المدرسة عندما يستطيعون، وليس دومًا، ويصلون إلى سن المراهقة من دون أن يكون لديهم أيّ أفق سوى العصابات أو المخدّرات أو الشارع!

ـ إنّني أعرفك، يا فيكتور. أعرف أنّك سعيد هناك أكثر ممّا في أي مكان آخر، قالت معلّقة.

وكان ما قالته صحيحًا. فبعد ثلاثة أيّام من الخدمة في تلك المؤسّسة، جنبًا إلى جنب مع ممرّضتين وأطبّاء آخرين مثاليّين يتناوبون الحضور، استعاد فيكتور حماسة اندفاع شبابه. كان يرجع إلى بيته بقلب مضغوط، وبسلسلة من القصص المأساويّة، متعبًا مثل كلب، ولكنّه متلهّف للعودة إلى العيادة. لقد كان لحياته هدف واضح جدًّا، مثلما في أزمنة الحرب الأهليّة، حين كان دوره في هذا العالم مُسلَّم به ولا جدال فيه.

ـ لو أنّك ترين كيف يتنظّم الناس، يا روزر. من هم قادرون يضيفون شيئًا إلى الوجبة المشتركة التي تُطهى في قدور كبيرة على مواقد في

t.me/qurssan

سواء انطلق. الفكرة تتمثَّل في تقديم طبق ساخن لكلّ شخص، وإن ... لا تكفي الجميع أحيانًا.

ـ الآن، صرتُ أعرف أين يذهب راتبك، يا فيكتور.

ـ ليست الحاجة ماسَّة إلى الطعام فقط، يا روزر. فهنالك نقص في ... هو أساسيّ في العيادة.

أوضح لها كيف أنَّ سكّان الحيّ يحافظون على النظام، ليتجنَّبوا ... خل الشرطة التي تقتحم المكان عادة بأسلحتها الحربيَّة. وأنَّ الحلم المستحيل يتمثَّل في امتلاك سقف خاصّ، وأرض يستقرُّون عليها. ... السابق، كانوا يحتلُّون قطعة أرض ويقاومون الإخلاء بعناد متشدِّد. ... «الاستيلاء» يبدأ ببضعة أشخاص يصلون خفيةً، ولا يلبث أن يظهر المزيد والمزيد، موكب متكتّم لا يُحصى يتقدَّم بممتلكاته الضئيلة على حامل وعربات يدويَّة، في أكياس على الكتف، يجرجرون موادَّ تافهة متوافرة لتكون سقفًا: قطع كرتون، بطَّانيَّات، ويحملون الأطفال على ظهورهم، بينما الكلاب تمضي وراءهم. وعندما تعلم السلطات بالأمر، تكون آلاف الأشخاص قد استقرُّوا، ويكونون مستعدِّين للدِّفاع عن أنفسهم. كان يمكن لهذا أن يبدو جرأة انتحاريَّة في هذه الأزمنة التي نعيشها، عندما يكون بإمكان قوّات فرض النظام أن تتدخَّل بالدبَّابات، وتستخدم البنادق الرشَّاشة من دون أدنى وازع.

ـ يكفي أن يخطر لبال قائد من الجيران أن يقترح احتجاجًا أو اعتصامًا كي تختفي آثاره؛ وإذا ما رؤي من جديد، فلن يكون سوى جثَّة تظهر عند مدخل المخيَّم كتحذير للآخرين. هناك ألقوا بجسد المغنّي فيكتور خارا ممزَّقًا بأكثر من أربعين رصاصة. هذا ما أخبروني به.

t.me/qurssan

كان يعالج في العيادة حالات مستعجلة؛ حروقًا، كسور عظام، جراح مشاجرات بالسكاكين أو القوارير الزجاجيّة، عنفًا منزليًا.. وباختصار، لا شيء يعني أيّ تحدٍّ كبير له، لكنْ مجرّد وجوده يمنح سكّان الحيّ نوعًا من الأمان. كان يرسل الحالات الحرجة إلى أقرب مستشفى، ولعدم وجود سيّارة إسعاف، كان في معظم الأحيان ينقلهم هو نفسه بسيّارته. لقد حذّروه من السرقات، فليس من المناسب أن يصل إلى هناك بسيّارته، إذ يمكن أن يجري تفكيكها لبيع قطعها في سوق المسروقات، ولكنّ إحدى القياديّات، وهي جدّة لكنّها لا تزال شابّة، لها طباع محاربة أمازونيّة، حذّرت السكّان، وخاصّة المراهقين المنحرفين، بأنّ أوّل من سيلمس سيّارة الدكتور سوف يوقع نفسه في مشكلة سيّئة جدًّا. وكان ذلك كافيًا. لم يتعرّض فيكتور لأيّة مشكلة أبدًا. انتهى الأمر بآل دالماو إلى العيش على مدخّراتهم، وعلى ما تكسبه روزر، لأنّ راتب فيكتور في العيادة كان يذهب بكامله لشراء ضروريّات العيادة التي لا بدّ منها. وجدته روزر راضيًا جدًّا، حتّى إنّها قرّرت المشاركة معه. حصلت على آلات موسيقيّة بتمويل من فالنتين سانتشيث الذي أرسل إليها شيكًا دسمًا، وشحنة آلات موسيقيّة من فنزويلا، وصارت تذهب إلى المخيّم لتعليم الموسيقى في الأيّام نفسها التي يذهب فيها زوجها إلى العيادة. اكتشفت أنّ ذلك يوحّد بينهما أكثر من ممارستهما الحبّ، لكنّها لم تقل له ذلك. كانت ترسل إلى فالنتين سانتشيث معلومات وصورًا. «خلال سنة سيكون لدينا كورال أطفال وفرقة أوركسترا شبابيّة. سيكون عليك أن تأتي لترى ذلك بعينيْك. ولكنّنا نحتاج حاليًا إلى أجهزة تسجيل ومكبّرات صوت جيّدة من أجل الحفلات الموسيقيّة في الهواء الطلق»، أوضحت له، وهي تعلم أنّ صديقها سيتدبّر الأمر للحصول على مزيد من الأرصدة.

t.me/qurssan

كان يفكّر بشيء من الحسد في الوصف الشاعريّ للحياة الريفيّة التي تعيشها أوفيليا دل سولار، فعمل فيكتور على إقناع روزز كي يستقرّا خارج المدينة، لأنَّ سنتياغو ليست سوى كابوس حركة مرور، وأناس متعجّلين وسيّئي المزاج. أضف إلى ذلك أنَّ الصباح يطلع عليها بسحابة ضباب خانق. توصّلا إلى ما يبحثان عنه: بيت ريفيّ، مشيَّد من الحجر والخشب، وسقفه مغطًى بالقشّ، وهذه نزوة من المهندس المتماهي مع المشهد الرّيفيّ. فعندما جرى بناؤه، قبل ثلاثة عقود، كان درب الوصول إليه أشبه بأفعوان متلوٍّ بين منحدرات تسلكها البغال، ولكنَّ العاصمة كانت تنمو وتتوسّع باتّجاه أطراف سلسلة الجبال. وعندما اشتريا البيت، كانت تلك المنطقة المقسّمة إلى قطع أرض وبساتين ضمن التوسّع. لم تكن وسائل النقل العامّ تصل إلى هناك بعد، ولا البريد كذلك! ولكنَّهما كانا ينامان في صمت الطبيعة العميق، ويستيقظان على كورال العصافير. خلال أيام الأسبوع، ينهضان في الساعة الخامسة فجرًا من أجل الذهاب إلى العمل، ويرجعان بعد حلول الظلام، ولكنَّ الوقت الذي كانا يقضيانه في هذا البيت يمنحهما الحماسة للصراع ضدّ أيّ نوع من عدم المواتاة. خلال النهار، يكون البيت خاويًا من ساكنيه، وكان في السنتيْن الأوليَيْن قد تعرَّض للسرقة إحدى عشرة مرّة. كان السُّرَّاق نشّالين بائسين، ولم يكن هنالك ما يدعو إلى الغضب أو استدعاء الشرطة. فقد سرقوا خرطوم ريّ الحديقة والدَّجاجات، وبعض أدوات المطبخ، ومذياع ببطاريّة، وساعة المنبّه.. وأشياء أخرى تافهة. وقد أخذوا كذلك أوّل تلفزيون، ثمّ أخذوا جهازيْن آخريْن حلًّا محلّ الأوّل؛ فقرَّرا الاستغناء عن استخدام جهاز التلفزيون. وعلى العموم، كان ما يمكن رؤيته على الشاشة ضئيل الأهمّيّة. وكانا يبحثان إمكانيّة ترك الباب

t.me/qurssan

مفتوحًا، ليتجنّبوا احتمال تكسير السارقين للزجاج كي يدخلوا! ع... جاءهم مارسيل بكلبيْن كبيريْن حصل عليهما من مأوى الكلاب الم... في البلديَّة؛ كانا ينبحان عاليًا، ولكنَّهما وديعان جدًّا؛ وكلب آخر ... يعضّ. فحلّ لهما بذلك مشكلة السرقات.

كان مارسيل يعيش ويعمل مع من يدعوهم فيكتور ... «المحظوظون ذوو الامتيازات»، لعدم وجود تصنيف آخر أكثر دقَّة، ... أنَّ مقارنتهم بمرضاه في المخيَّم، تؤكِّد أنَّهم متميِّزون. كان المصطلح يزعج مارسيل، لأنَّه لا يُمكن أن ينطبق تعميمًا على زملائه كلهم، ولكنَّه لا يرغب في خوض جدل بيزنطيّ مع أبويْه: «أنتما لقًى أثريّة من الماضي، يا عجوزيَّ. وما زلتما عالقيْن في سنوات السبعينيَّات... عليكما متابعة المستجدَّات». يتَّصل بهما هاتفيًّا كلَّ يوم، ويزورهما م... أيَّام الآحاد من أجل حفلة الشواء الإجباريَّة التي يفرضها فيكتور، بأنه... برفقة نساء مختلفات، ولكنْ من الطراز نفسه، نحيفات جدًّا، بشعور طويلة سبطة ومتهدِّلة، موهنات ونباتيَّات على الدوام تقريبًا، مختلفات تمام الاختلاف عن الجاميكيَّة ذات الدم الساخن التي أدخلته دنيا الحبّ. فلا يتوصَّل أبوه إلى تمييز زائرة يوم الأحد الحالي عن سابقاتها، ولا يتوصَّل إلى تذكُّر اسم إحداهنَّ قبل أن يكون الابن قد استبدلها بواحدة مماثلة لها تقريبًا. وعند وصول مارسيل، كان يبادر إلى الهمْس في أذن فيكتور بألّا يتكلَّم عن المنفى، ولا عن عيادته في القرية، لأنَّه تعرَّف على هذه الفتاة للتوّ، وهو غير متأكِّد من ميولها السياسيَّة، إذا كانت لها مثل هذه الميول. فيردّ عليه فيكتور: «تكفي مجرَّد رؤيتها، يا مارسيل. إنَّها تعيش في فقاعة، ليست لديها فكرة عن الماضي ولا عمَّا يحدث الآن. جيلك يفتقر إلى المثاليَّة». وينتهي بهما الأمر إلى الانزواء في

t.me/qurssan

حرة المؤونة يتناقشان همسًا، بينما تقوم روزز بإلهاء الزائرة. بعد ذلك، ـدما يكونان قد تصالحا، يتولّى مارسيل شواء شرائح لحم العجل الدامية، بينما ينهمك فيكتور في غلْي أوراق سبانخ للفتاة ذات الشعر السبط. وغالبًا ما ينضمُّ الجيران، ميتشه وزوجها راميرو، ومعهما سلّة خضار طازجة من بستانهما ومرطبانيْ مرملات مصنوعة بيتيًا. وبحسب رأي روزز، فإنَّ راميرو سوف يموت في أيِّ لحظة، على الرّغم من أنّه سليم صحيًا؛ والواقع أنَّ هذا ما جرى: صدمه سائق مخمور. فسأل فيكتور زوجته عن طريق أيِّ شياطين عرفت أنَّه سيموت؛ فقالت له إنَّها كانت ترى ذلك في عينيْه، لأنَّه كان موسومًا بالموت. «عندما تترمّل، تزوَّج من ميتشه، هل فهمتني؟» همست روزز في أذن فيكتور أثناء السهر على جثمان الرجل المسكين. هزَّ فيكتور رأسه موافقًا، لأنّه كان متأكّدًا من أنَّ روزز ستعيش سنوات عديدة أكثر منه.

عمل فيكتور وروزز ثلاث سنوات كمتطوِّعيْن في المخيَّم، وكسبا ثقة سكانه، قبل أن تأمر الحكومة بإجلاء العائلات إلى أمكنة أخرى في محيط العاصمة، بعيدًا عن الأحياء البرجوازيَّة. وفي سنتياغو، وهي إحدى أكثر مدن العالم تمييزًا وتفرقة، لا يعيش فقير واحد على مرأى الأحياء الراقية. وصل رجال الدرك يتبعهم الجنود، فصلوا بين الناس بسلطة السلاح، وحمّلوهم في شاحنات للجيش يحرسهم ذوو زيٍّ عسكريّ على درّاجات ناريَّة، من أجل توزيعهم على عدَّة بلدات أسقفيَّة، جميعها متشابهة، بشوارع غير مرصوفة، وصفوف مساكن أشبه بعلب موضوعة على التراب. لم يكن المخيَّم الوحيد الذي يُجتثّ. فخلال زمن قياسيّ، نقلوا أكثر من خمسة عشر ألف شخص من دون أن يعرف بقية المواطنين ذلك. لقد تحوَّل الفقراء إلى غير مرئيّين. خصّصوا لكلّ

t.me/qurssan

أسرة مسكنًا أوّليًا من ألواح خشبيّة، مؤلّفًا من غرفة متعدّدة الاستخدام، وحمّام ومطبخ، يبدو أكثر وقارًا من الأكواخ التي جاؤوا منها، ولكنّهم وضعوا حدًّا لذلك المجتمع. تشتّت شمل الناس، تفرّقوا، وأصبح بالإمكان النّيْل منهم، والتّحكّم بهم بسهولة، صار على كلّ واحد منهم أن يهتمّ بنفسه.

نُفّذت العمليّة بطريقة سريعة ودقيقة جدًّا، بحيث لم يعلم بها فيكتور وروزر إلّا في اليوم التالي، عندما ذهبا للعمل كالعادة، ووجدا المداخل الثقيلة تسوّي أرض المكان حيث كان المخيّم، من أجل بناء عمارات شقق سكنيّة. وقد احتاجا إلى أسبوع من البحث لتحديد مكان بعض الجماعات المجتثّة، ولكنْ في مساء ذلك اليوم بالذات جرى تحذيرهما من قبل عملاء الأمن بأنّهما تحت المراقبة؛ وأيّ تواصل مع السكّان المقيمين سيُعتبر عملًا تحريضيًّا. كان الأمر في نظر فيكتور عملًا خبيثًا وسيّئ النوايا. لم تكن لديه أيّ نيّة للتقاعد عن العمل. سيواصل تحمُّل مسؤوليّة أشدّ الحالات تعقيدًا في العيادة، ولكنْ لم يعد بإمكانه ممارسة عمله الجراحيّ الذي يحبّه، ولم تَعُد النقود التي يكسبها تعوّضه عن فقدانه مرضاه من سكان المخيّم.

في عام 1987، وبضغوط من الداخل بسبب التذمُّر الشعبيّ، ومن الخارج بسبب سوء السمعة التي تعاني منها الدكتاتوريّة، وُضع حدّ لحظر التجوُّل، وخُفّفت الرقابة على الصحافة قليلًا، وكان الأمران سائدَيْن منذ نحو أربعة عشر عامًا، وسُمح للأحزاب السياسيّة بالعمل وبعودة من تبقّى من المنفيّين. صارت المعارضة تطالب بانتخابات حرّة. وكردّ على هذه المطالبة، فرضت الحكومة استفتاء لتقرير بقاء بينوشيه في الحكم أو عدم بقائه لثمانية أعوام أخرى. وفيكتور الذي لم يشارك

t.me/qurssan

في السياسة من قبل، عانى من نتائجها كما لو أنّه قد شارك فيها، فقدّر الآن أنَّ الوقت قد حان كي يلعب بصورة سافرة، وعلى المكشوف. ترك العيادة، وانضمَّ إلى المعارضة التي يجب عليها القيام بالمهمَّة البطوليَّة في تعبئة البلاد لهزيمة الحكومة العسكريَّة في الاستفتاء. وعندما جاء إلى بيته عملاء الأمن أنفسهم الذين كانوا قد هدَّدوه من قبل، طردهم بطريقة مهينة. وبدلًا من أن يقتادوه بعد وضع الأصفاد في معصميْه، وتغطية رأسه بكيس، ردُّوا عليه بتهديدات غير مقنعة، وغادروا. «سوف يعودون»، قالت له روزر غاضبة، ولكنَّ الأيَّام مضت ثمَّ الأسابيع من دون أن تتحقَّق توقُّعاتها! فكان ذلك مؤشّرًا على أنَّ الأمور ذاهبة إلى التغيير في تشيلي، مثلما توقَّع مارسيل قبل أربع سنوات. لقد بدأ إفلات الدكتاتوريَّة من العقاب بالتحوُّل إلى هباء.

جرى الاستفتاء بهدوء مفاجئ، تحت أعين مراقبين دوليِّين وصحافة العالم بأسره. لم يبقَ أحد إلَّا وأدلى بصوته، بمن في ذلك كبار السنّ الذين على مقاعد ذات عجلات، ولم تتخلَّف حتَّى النساء اللاتي يشعرن بآلام المخاض، ولا المرضى الذين على أسرَّة نقالة. وفي نهاية النهار، وبعد تجاوز أشدّ مناورات رجال السلطة دهاء، هُزمت الدكتاتوريَّة في ميدانها الذي اختارته، وبقوانينها بالذات. في تلك اللَّيلة، وحيال النتائج التي لا يمكن إنكارها، اقترح بينوشيه، المتصلِّب باعتياده على السلطة المطلقة والمعزول عن الواقع بسنوات من الإفلات التامّ من العقاب، اقترح القيام بانقلاب عسكريّ آخر ليؤبِّد وجوده على كرسيّ الرئاسة، ولكنَّ عملاء المخابرات الأميركيَّة الذين دعموه في السابق، والجنرالات الذين اختارهم هو نفسه، لم يجاروه. وغير مصدّق لما جرى حتَّى اللَّحظة الأخيرة، انتهى به الأمر إلى الاعتراف بهزيمته. بعد شهور

t.me/qurssan

من ذلك، سلّم المنصب إلى شخص مدنيّ، لتبدأ مرحلة انتقاليّة إلى ديمقراطيّة مشروطة وحذرة، ولكنّه استبقى القوّات المسلّحة في قبضته، والبلاد في حالة غيبوبة. كان قد انقضى سبعة عشر عامًا على انقلابه العسكريّ.

مع عودة الديمقراطيّة، ترك فيكتور دالماو العيادة الخاصّة كي يتفرّغ حصريًّا لمستشفى سان خوان دي ديوس، حيث أعيد إلى الموقع الذي كان يشغله قبل اعتقاله. وكان المدير الجديد للمستشفى أحد تلاميذ فيكتور في الجامعة، وقد امتنع عن ذكر أنّ أستاذه قد صار في سنّ تكفي لأن يتقاعد، ويستمتع بشيخوخته. وصل فيكتور في يوم اثنين من شهر نيسان/أبريل برادائه الأبيض وحقيبته المستهلكة خلال أربعين سنة من الاستخدام. ووجد نفسه بين قرابة خمسين شخصًا في القاعة، ما بين أطبّاء وممرّضات وإداريّين. يحملون البالونات الملوّنة وقالب حلوى هائل تقطّر منه كريما المارينج، ليقيموا له حفل التّرحيب الذي لم يستطيعوا الاحتفاء به سابقًا. «ما هذا، يا للهول، إنّني أتحوّل عجوزًا!» فكّر، بينما الدّموع تضمّخ عينيْه. لم يبك خلال سنوات طويلة. المطرودون القليلون من العمل الذين رجعوا إلى المستشفى استُقبلوا بقدر أقلّ بكثير من التودُّد، لأنّ لفت الانتباه كان تهوُّرًا؛ والشعار المضمر على المستوى الوطنيّ، من أجل عدم استفزاز العسكريّين، كان التظاهر بأنّ الماضي القريب قد دُفن، وعلى وشك أن يلفّه النسيان، ولكنّ الدكتور دالماو كان قد ترك ذكرى دائمة لدى العشرات، وتقديرًا بين زملائه، ولطفًا بين مرؤوسيه الذين كان بمقدورهم اللّجوء إليه في أيّة لحظة مع اليقين بأنّهم سيُقابلون بالترحاب. حتّى خصومه الأيديولوجيّون يحترمونه، ولهذا لم يشِ به أحد منهم. لقد كان فيكتور مدينًا بسجنه ومنفاه لضحيّة حاقدة،

t.me/qurssan

نعرف صداقته لسلفادور ألليندي. وسرعان ما اتّصلوا به من كليّة الطبّ ليعطي دروسًا، ومن وزارة الصحّة ليتولّى منصب معاون أمين الصحّة. وافق على العرض الأوّل، ورفض الثاني، لأنّ الشرط كان الانضمام إلى أحد أحزاب الحكومة؛ لقد كان يعرف أنّه ليس حيوانًا سياسيًا، ولن يكون كذلك أبدًا.

صار يشعر أنّه أصغر عشرين عامًا، ويمشي بحيويّة مفرطة. فبعد أن مرّ بتنكيل ونفي في تشيلي، وبعد أن كان أجنبيًا خلال سنوات طويلة، فاجأه الحظّ بانقلابه بين ليلة وضحاها: صار البروفسور دالماو، مدير قسم الأمراض القلبيّة، والاختصاصي الأوسع تقديرًا في البلاد، القادر على تحقيق مآثر بمبضعه لا يخطر لآخرين مجرّد محاولتها، والمحاضر الذي لا يتورّع حتّى أعداؤه عن استشارته، مثلما تبيّن في أكثر من مناسبة، عندما كان عليه أن يُجري مداخلات جراحيّة لاثنين من العسكريّين ذوي الرتب العالية، وكانا لا يزالان في مواقع السّلطة، ومن أشدّ استراتيجيّي القمع المتحمّسين خلال مرحلة الدكتاتوريّة. وحيال ضرورة إنقاذ حياتهم، كان أولئك الرجال يأتون وذيلهم بين سيقانهم ليستشيروه؛ فالخوف من الموت لا يعرف الخجل، مثلما كانت تقول روزر. لقد كانت ساعته، وكان في ذروة مسيرته، ويشعر، بصورة غريبة غامضة، أنّه يجسّد تحوّل البلاد؛ فالظلال قد تراجعت، وأشرق فجر الحريّة، وبالتالي كان هو أيضًا يعيش فجرًا بديعًا. انكبّ على العمل؛ ولأوّل مرّة في مسيرته الإنطوائيّة، صار يبحث عن نيل الاهتمام، وينتهز الفرص للظهور أمام الناس. «حذارِ، يا فيكتور، إنّك تمضي منتشيًا بالنصر. تذكّر أنّ الحياة كثيرة التقلّب»، قالتها له روزر محذّرة. وقد قالت ذلك مفكّرة في أنّه قد تحوّل إلى شخص مغرور. فقد راقبته بقلق. ولاحظت نبرة صوته

t.me/qurssan

المتحذلقة، ومزاجه السّلطويّ، وميله إلى التّكلُّم عن نفسه، وهو ما لم يكن يفعله بأيّ حال من قبل، فضلًا عن آرائه الجازمة، ومزاجه المتسرّع وعديم الصبر، حتّى معها هي نفسها. لفتت نظره إلى ذلك، فردّ عليها أنّ لديْه الكثير من المسؤوليّات، ولا يُمكن له أن يمشي في بيته بالذات كمن يمشي على بَيْض! رأته روزر وهو يتناول الغداء في كافيتريا الكلّية، محاطًا بطلّاب شباب يستمعون إليه بتوقير تلاميذ، واستطاعت أن تقدّر كيف يستمتع فيكتور بذلك التوقير، وخاصّة من الفتيات اللاتي يحتفين حتّى بتعليقاته التافهة بتقدير غير مُسوَّغ. أمّا هي التي تعرفه قلبًا وقالبًا حتّى آخر ركن فيه، فقد فوجئت بهذا التباهي المتأخّر، ورثت لحال زوجها؛ فقد كانت تكتشف كم يكون العجوز المغرور سريع العطب عند الإطراء عليه. ولم تكن تتخيّل أنّها ستكون هي نفسها انقلاب الحياة الذي سيخفّف من غرور فيكتور.

بعد ثلاثة عشر شهرًا من ذلك، خامرت روزر الشكوك بأنّ داءً خفيًّا آخذ بنهشها ببطء، لكنّها أقنعت نفسها بأنّها لا بدّ أن تكون أعراض التّقدُّم في السنّ، أو مجرّد تهيُّؤات من مخيّلتها، لأنّ زوجها لم يلحظ شيئًا. كان فيكتور مشغولًا جدًّا بنجاحاته إلى حدّ أهمل معه العلاقة بها، على الرَّغم من أنّهما عندما يكونان معًا يظلّ أفضل أصدقائها، والعشيق الذي يجعلها تشعر بأنّها جميلة ومرغوبة وهي في الثالثة والستّين من العمر. وهو أيضًا كان يعرفها جيّدًا خارجًا وباطنًا. وإذا كانت خسارتها لوزنها، ولون بشرتها الضارب إلى الصفرة، ونوبات غثيانها لم تثر قلق فيكتور، فلا شكّ أنّ الأمر يقتصر على مرض ضئيل الأهمّيّة. وكان لا بدّ من مرور شهر آخر قبل أن تقرّر استشارة أحدٍ ما، لأنّها فضلًا عن الإزعاجات السّابقة، صارت تستيقظ وهي ترتعش محمومة. وبإحساس

t.me/qurssan

غامض بالحياء، وكيلا تبدو محبّة للشكوى أمام زوجها، ذهبت لرؤية أحد زملائه. وبعد بضعة أيّام، عندما أعطوها نتائج الفحص، وصلت إلى البيت بالخبر الخبيث بأنّ لديْها سرطانًا في المراحل النهائيّة. وكان عليها أن تكرّر ذلك مرّتيْن كي يخرج فيكتور من ذهوله، ويأتي بردّ فعل!

منذ ذلك التشخيص، تعرّضت حياة كليْهما إلى تبدُّلات كبيرة، لأنّ الشيء الوحيد الذي يرغبان فيه حقًّا هو أن يطيلا ويستغلّا معًا الوقت المتبقّي لها. لقد فُشَّ انتفاخ زهو فيكتور بوخزة واحدة، وهبط من الأولمب إلى جحيم الدّاء. طلب إذنًا مفتوحًا من المستشفى، وتخلّى عن دروسه ليكرّس نفسه بالكامل لروزر. «سنفعل كلّ ما نستطيعه لقضاء هذا الوقت على أحسن وجه، يا فيكتور. ربّما تكون الحرب ضدّ هذا السرطان خاسرة، ولكنّنا في أثناء ذلك سوف نكسب بعض المعارك». أخذها فيكتور في رحلة شهر عسل إلى بحيرة في الجنوب، إنّها مرآة بلون الزمرّد تعكس صورة غاباتٍ، وشلالات، وجبال وقمم ثلجيّة لثلاثة براكين. في ذلك المشهد الخياليّ، وفي صمت الطبيعة المطبق، وبينما هما مستقرّان في كوخ بدائيّ، بعيدًا عن كلّ شيء وعن الجميع، استطاعا أن يستذكرا كلّ مرحلة من ماضيهما، منذ الزمن الذي كانت هي فيه تلك الفتاة النحيلة المغرمة بوليام، حتّى الوقت الحالي الذي تحوّلت فيه إلى أجمل امرأة في العالم بعينيْ فيكتور. هي من أصرّت على السباحة في البحيرة، كما لو أنّ تلك المياه الجليديّة والنقيّة قادرة على غسلها من الداخل والخارج، وتطهيرها وشفائها. وأرادت القيام بجولات جبليّة كذلك، ولكنّ قواها لم تُتح لها أن تمشي مثلما تريد، وكان ينتهي بهما الأمر إلى السّير ببطء، وهي متعلّقة بذراع زوجها مع عكّاز في يدها الأخرى. لقد كانت تفقد وزنها بصورة ظاهرة للعيان.

t.me/qurssan

كان فيكتور قد أمضى حياته وهو يناضل ضدّ المرض وا‌ا‌..

وكان معتادًا على الانفعالات البركانيّة التي تهزّ المريض في ا‌...

الموت، لأنّه يُدرّسُ ذلك في الكليّة: إنكار حتميّة مصيرها، وال‌ـ...

غضبًا لمعاناتها، ومساومة القدر والألوهيّة لإطالة أمد وجودها، وا‌...

في اليأس أخيرًا، في أفضل الحالات، والاستسلام حيال ما لا ...

تجنُّبه. لقد تجاوزت روزر كلّ المراحل السّابقة، وتقبّلت منذ ا‌...

نهايتها بهدوء مذهل ومزاج طيّب. رفضت اللّجوء إلى أساليب ا‌...

البديلة التي اقترحتها عليها ميتشه وصديقات أخريات بطيب نيّة، لا

شيء من الطبّ التجانسيّ أو الأعشاب الأمازونيّة أو المعالجين أو

التعزيم! «سأموت، وماذا في ذلك؟ فالجميع يموتون». كانت تستغل

الساعات التي تشعر فيها بالتحسُّن كي تسمع موسيقى، وتعزف على

البيانو، وتقرأ الشعر بينما القطة في حضنها. هذا الحيوان الذي أهدتها

إيّاه ميتشه، له مظهر سنّوري إمبراطوريّ، ولكنّه كان على الدوام شرسًا،

نائيًا ومتوحّدًا، وكان يختفي عدّة أيّام أحيانًا، واعتاد أن يرجع حاملًا بقايا

دامية من أحد القوارض ليضعها كقربان فوق فراش صاحبي البيت. بدا

أنّ القطة تدرك أنّ شيئًا قد تبدّل، فتحوّلت بين ليلة وضحاها إلى قطّة

وديعة ومرهفة، ولم تعد تبتعد عن روزر.

في البدء، كان فيكتور مهووسًا بأساليب العلاج السّائدة وبأساليب تجريبيّة أخرى، يقرأ تقارير طبّيّة، يدرس كلّ عقار، ويحفظ ويستذكر إحصائيّات بطريقة انتقائيّة، مستبعدًا أشدّها تشاؤمًا، ويتمسّك بأيّ بارقة أمل. تذكّرَ لاثارو، ذلك الجنديّ الصّغير في محطّة الشمال ببرشلونة، والذي عاد من الموت، لأنّ لديْه رغبة كبيرة في الحياة. تخيّل أنّه إذا ما استطاع أن يحقن في نفس روزر وفي نظامها المناعيّ هذه الرّغبة نفسها

t.me/qurssan

الحياة، فسوف تتمكَّن من هزيمة السرطان. توجد حالات من هذا ،م توجد معجزات. «أنت قويَّة، يا روزر، لقد كنتِ قويَّة على الدوام. مرضي قطّ، أنتِ من حديد، وسوف تخرجين قُدمًا، فهذا الدّاء ليس ا على الدوام»، كان يردِّد هذا الكلام كما في تعويذة مانترا، من دون ..مكِّن من أن ينقل إليها عدوى التفاؤل الذي بلا أساس. وفقد كطبيب ا أمل بمرضاه. جارته روزر إلى حيث تستطيع. ومن أجل إرضائه فقط، ،صعت للعلاج الكيماويّ والإشعاعيّ، واثقة من أنَّ ذلك لا يعني سوى طالة عمليَّةٍ آخذة بالتَّحوُّل إلى مشقَّة أكبر فأكبر. تحمَّلت هول العقاقير بلا ،ن تذمُّر، وبصبرٍ تميَّزت به منذ ولادتها؛ تساقط شعرها كلّه حتَّى رموشها، ،سارت ضعيفة ونحيلة إلى حدّ أنَّ فيكتور كان يحملها بين ذراعيْه بلا ،هد. وبين ذراعيْه، كان ينقلها من السرير إلى الأريكة، وبين ذراعيْه يحملها إلى الحمَّام، وبين ذراعيْه يُخرجها إلى الحديقة كي ترى العصافير على شجيرة الفوشيه، والأرانب البريَّة التي تمر بقفز سريع مستهزئة بالكلبيْن؛ فقد هرم الكلبان كثيرًا، ولم يعودا إلى إزعاج نفسيهما بمطاردة الأرانب البريَّة. فقدت روزر الشَّهيَّة، ولكنَّها كانت تَبذل جهدًا لتبتلع لقمتيْن من الأطباق التي كان هو نفسه يطبخها لها مستفيدًا من كتب الطبخ. وفي النهاية، لم تَعُد تأكل سوى الكريما الكتلانيَّة، والحلوى التي كانت تُعدُّها الجدَّة كارمي لمارسيل في أيَّام الآحاد. وفي أحد الأيَّام، قالت له روزر: «عندما أغادر، أريدك أن تبكي عليّ يومًا أو يوميْن، على سبيل الاحترام، وأن تواسي المسكين مارسيل، وأن ترجع إلى مستشفاك وإلى دروسك، ولكنْ بمزيد من التواضع، يا فيكتور، لأنَّك كنت لا تُطاق».

كان بيت الحجر والقشّ ملاذهما حتَّى النهاية. عاشا فيه ستّ سنوات سعيدة، ولكن في ذلك الحين، عندما كانت كلّ دقيقة من

t.me/qurssan

النهار أو اللّيل رائعة، قدّرا البيت بكلّ رحابة. لقد اشترياه عندما ... في حالة متردّية، وراحا يؤجّلان، بلا نهاية، عمليّات التّصليح والتر... الضروريّة؛ كان لا بدّ من تغيير أباجورات النوافذ المخلّعة، وإعادة تأه... الحمّاميْن وخزفهما الورديّ الذي تتخلّله أحزمة معدنيّة صدئة، وإصلاح الأبواب التي لا تُغلق، وإذا أُغلقت لا يُمكن فتحها؛ وكان عليهما التخلّص من قشّ السقف شبه المتعفّن، حيث كانت تعشّش الجرذان، وتنظيف الأركان من شِباك العناكب، والطحالب، والعثّة، ونفض البُسُط المثقلة بالغبار. لم يكن أيّ منهما ينتبه إلى شيء من ذلك كلّه. كان البيت يحتضنهما كعناق، ويحميهما من الانشغالات غير المجدية ومن فضول وتأسف آخرين. الزائر الوحيد العنيد هو الابن. كان مارسيل يأتي في كلّ وقت محمّلًا بأكياس من السوق، مع طعام للكلاب، وللقطّة والببّغاء التي تحيّيه دومًا بعبارة «مرحبًا، يا جميل» تقولها بحماسة، ويأتي معه بتسجيلات موسيقى كلاسيكيّة لأمّه، وبأشرطة فيديو لتسليتهما، وبصحف ومجلّات لا يقرأها فيكتور، ولا روزر كذلك، لأنّ العالم الخارجيّ يثقل عليهما. كان مارسيل يسعى إلى أن يكون متكتّمًا، فهو يخلع نعليْه عند الباب كيلا يُحْدِث ضجّة، ولكنّه يملأ الجوّ بحضوره كرجل كبير، وبسعادته المصطنعة. أبواه يشتاقان إليه إذا ما مرّ يوم من دون أن يجيء لرؤيتهما؛ وعندما يكون معهما يسبّب لهما الدّوار. وكذلك الجارة ميتشه، تأتي صامتة لتترك طعامًا عند المدخل، وتسألهما إذا كانا بحاجة لأيّ شيء! لم تكن تبقى سوى لحظات قليلة، لأنّها تدرك أنّ أثمن ما يملكه آل دالماو هو الوقت الذي يقضيانه معًا، وقت الوداع.

وجاء اليوم الذي كانا فيه يجلسان جنبًا إلى جنب على الأريكة التي من الخيزران عند المدخل، بينما القطّة معهما، والكلبان عند

t.me/qurssan

أقدامهما، ومنظر الجبال الذهبيّة وسماء ما قبل الغروب الزرقاء، طلبت روزر من زوجها راجية أن يفلتها، أن يتركها تذهب، لأنّها متعبة جدًّا. «لا تأخذني إلى المستشفى مهما كانت الأسباب، أريد أن أموت في بيتنا، وأنا أمسك بيدك». فما كان من فيكتور، وقد هُزم أخيرًا، إلّا أن يتقبّل عجزه بالذات. لا يمكنه إنقاذها، ولا يمكنه تخيُّل الحياة من دونها. وأدرك مفزعًا أنّ نصف القرن الذي أمضياه معًا قد انقضى بعدْوٍ سريع. إلى أين ذهبت الأيام والسنون؟ المستقبل من دونها هو الحُجرة هائلة الاتّساع الخاوية، بلا أبواب ولا نوافذ، الحُجرة التي تظهر له في كوابيسه. كان يحلم بأنّه يهرب من الحرب، من الدم والأجساد الممزّقة، يركض ويركض في اللّيل؛ وفجأة، يجد نفسه في تلك الحُجرة مُحكمة الإغلاق حيث هو بمنجى من كلّ شيء إلّا من نفسه بالذات. لقد تسرّبت من عظامه حماسة الشهور السابقة ونشاطها، عندما كان يعتقد أنّه عصيّ على التأثُّر بتقدُّم السنّ. المرأة التي إلى جانبه هرمت أيضًا خلال دقائق قليلة. قبل لحظات، كانت مثلما اعتاد أن يراها دائمًا، ومثلما كان يتذكّرها في غيابها، الشابّة ذات الاثنيْن وعشرين عامًا وبين ذراعيْها طفل حديث الولادة، والتي تزوّجت منه بلا حبّ، وأحبّته أكثر من أيّ كائن في هذه الدُّنيا، الرَّفيقة. معها عاش كلّ ما يستحقّ أن يُعاش. وحيال اقتراب الموت، صار زخم حبّها لا يُطاق كأنّه حرق. أراد أن يهزّها، أن يصرخ بها ألّا تغادر، وأنّ سنوات ما زالت أمامهما ليحبّ كلّ منهما الآخر أكثر من أيّ وقت مضى، كي يبقيا معًا من دون فراق ولو ليوم واحد، و«أرجوكِ، أتوسّل إليكِ، يا روزر، ألّا تتركيني». لم يقل لها شيئًا من هذا كلّه، ومع ذلك، كان عليه أن يكون أعمى كيلا يرى الموت في الحديقة، ينتظر امرأته بصبره الشبحيّ.

t.me/qurssan

كانت تسري نسمة باردة، وكان فيكتور قد دثّر روزر ببطا.
غطّتاها حتّى أنفها. لم تكن تظهر من كتلتها سوى يد واحدة معط،
تتشبّث بيده بقوّة أكبر ممّا يبدو أنّها تقدر عليه: «الستُ خائفه
الموت، يا فيكتور. إنّني سعيدة، أريد أن أعرف ماذا هنالك فيما بعد،
وأنت أيضًا يجب ألّا تخاف، لأنّني سأظلّ دومًا معك في هذه الحياة و
الحيوات الأخرى. إنّها الكارما الخاصّة بنا». انخرط فيكتور في البكاء،
وبكى كطفل، مع نحيبٍ يائس. تركته روزر يبكي إلى أن جفّت دموعه
وراح يستسلم لما تقبّلته هي نفسها منذ عدّة شهور. «لن أسمح بأن نعاني
أكثر»، كان هذا هو الشيء الوحيد الذي استطاع فيكتور تقديمه إليها
تكوّرت هي في تجويف ما بين ذراعيْه، مثلما تفعل كلُّ ليلة، وأسلمت
نفسها للهزّ والتهديل إلى أن نامت. كان الظلام قد خيّم. أبعد فيكتور
القطّة، حمل روزر برفق كيلا يوقظها ووضعها في الفراش. لم يكن يحدث
أيّ شيء تقريبًا. تبعه الكلبان.

t.me/qurssan

الفصل الثالث عشر
هنا أنتهي من القص
1994

ومع ذلك،
ها هنا جذور حلمي،
هذا هو النور القاسي الذي نحبّ...

بابلو نيرودا
«عودة»، إبحارات وعودات

t.me/qurssan

t.me/qurssan

بعد ثلاث سنوات من موت روزر، أكمل فيكتور دالماو ثمانين عامًا من عمره في بيت الجبل، حيث عاش معها منذ عودتهما إلى تشيلي عام 1983. لقد كانت ملكة هرمة مرتجفة ورثّة الثياب، لكنّها لا تزال نبيلة. أمّا فيكتور المحبّ للتضامن منذ طفولته، فكانت وطأة الترمّل عليه أكبر ممّا يتخيّله. لقد حصل على أفضل زواج، وهذا ما يُمكن أن يقوله أيّ شخص عرفهما ولا يعرف تفاصيل الماضي البعيد الصغيرة، وعند الترمّل لم يستطع أن يعتاد على غياب امرأته بالسرعة التي كان يُمكن لها هي نفسها أن تتمنّاها له. «عندما أموت، عليك أن تتزوّج سريعًا، لأنّك ستحتاج لمن يعتني بك قبل أن تهرم كثيرًا وتصاب بالعَتَه. لن تكون ميتشه سيّئة»، أمرته هي نفسها في النهاية، وسط زفرات آلة الأوكسجين. وعلى الرّغم من وحدته، كان فيكتور يحبّ البيت الخاوي، إذ يبدو كما لو أنّه قد تمدّد في عدّة اتّجاهات، الصمت، فوضاه، رائحة الحجرات المغلقة، البرد وتيّارات الهواء التي قارعتها امرأته بضراوة أشدّ من ملاحقتها قوارض السقف. كانت الريح قد هبّت بغضب في اليوم السّابق، وكان زجاج النوافذ مطموسًا بطبقة الصقيع، وكانت النار في المدفأة محاولة مُضحكة لمقاومة هذا الشتاء كثير المطر والبَرَد. كان الترمّل يبدو له غريبًا، بعد أكثر من نصف قرن من التعايش الزوجيّ!

t.me/qurssan

إنّه يشعر بشوقٍ كبير إلى روزر، بل إنّه يشعر بغيابها أحيانًا كما لو أنّه ا.
بدنيّ. لا يريد أن يستسلم للشيخوخة. فما التّقدُّم في السنّ إلّا ..
وتعكير للواقع المعهود، يتبدَّل الجسد وتتبدَّل الظروف المحيطة، ا..
بفقدان التُحكُّم وينتهي إلى الاعتماد على طيبة آخرين وكرمهم. ا..
يفكّر في أن يموت قبل الوصول إلى ذلك الحدّ. المشكلة تكون أ..
في مدى صعوبة الموت بكرامة وسرعة. يبدو الاحتمال ضئيلًا في أن
تقضي عليه سكتة قلبيّة، لأنّ قلبه سليم. هذا ما يكرّره له طبيبه مرّة ..
عام، عندما يفحصه، فيستدعي هذا التّعليق دومًا ذكرى حيّة إلى ده..
فيكتور، إنّها ذكرى لاثارو، ذلك الجنديّ الذي أمسك قلبه بأصابعه ذا..
يوم. لم يكن يتقاسم مع ابنه الخوف من المستقبل المباشر والقريب
دومًا. أمّا المستقبل البعيد، فسوف يهتمّ به فيما بعد.

ـ يمكن أن يحدث لك أيّ شيء، يا أبتاه. إذا ما وقعْتَ أو أصابتك صدمة أو نوبة عندما أكون مسافرًا، يمكن أن تظلّ مرميًا بلا مساعدة لأيّام. ماذا ستفعل في هذه الحالة؟

ـ أموت وحسب، يا مارسيل، وأتوسّل ألّا يظهر أحد ليعكّر عليّ احتضاري. لا تقلق على حيواناتي. فهي لديْها على الدوام طعام وماء لعدّة أيّام.

ـ وماذا لو مرضتَ؟ من سيعتني بك؟

ـ هذا ما كان يُقلق أمّك. سوف نرى. إنّني عجوز، ولكنّني لست هرمًا. أنت لديك أوجاع أكثر منّي.

وكان محقًّا. فابنه الذي في الخامسة والخمسين، استبدلوا إحدى ركبتيْه، وتكسّرت عدّة أضلاع في صدره، وانكسر عظم الترقوة

t.me/qurssan

، ، مرّتين. «هذا يحدث لك بسبب الإفراط في التمارين ـ كان يعبّر
، «كتور عن رأيه؛ من الجيّد أن يحافظ المرء على لياقة بدنيّة، ولكن
، دا الذي يخطر له أن يركض من دون أن يكون هناك من يطارده، وأن
«طع قارّات على درّاجة هوائيّة. عليك أن تتزوّج؛ وهكذا يصبح لديك
،، أقلّ للدرّاجة وتوعكّات أقلّ، الزواج مناسب جدًّا للرجال، حتّى
، لم يكن مناسبًا للنساء». ومع ذلك، لم يكن هو نفسه مستعدًّا لاتّباع
صحته نفسها حول الزواج. كان مطمئنًّا بصحبته. وقد طوّر نظريّة أنّ
أفضل ما يُمكن فعله من أجل الحفاظ على الصحّة هو تجاهل إشارات
الإنذار التي يُرسلها الجسد والذهن، وأن تُبقي نفسك مشغولًا على
الدوام. وكان يقول: «لا بدّ أن يكون لك هدف». لقد كان يضعف مع
مرور السنوات، وهو ما لا يُمكن تجنُّبه؛ لا بدّ أنّ عظامه كانت شديدة
الصفرة مثلما هي أسنانه، وأجهزته قد استُنفدت، وعقده العصبيّة تموت
شيئًا فشيئًا في دماغه، لكنّ هذه الدراما تتطوّر بعيدًا عن نظره. فهو يبدو
بمظهر من لا يزال مقبولًا من الخارج، ومن ذا الذي يهمّه حال الكبد
ما دامت أسنانه كلُّها موجودة. إنّه يحاول أن يتجاهل الرضوض التلقائيّة
في الجلد، والواقع غير القابل للدُّحض بأنّه يجد مشقّة أكبر كلّ مرّة
في صعوده الجبل مع الكلاب، أو ضبط أزرار القميص، والتعب في
العينيْن، والصمم ورجفة اليديْن التي أجبرته على التقاعد من العمل في
غرفة العمليّات، لأنّه لم يَعُد قادرًا على إجراء عمليّات جراحيّة. لم يكن
في حالة بطالة. فهو يواصل متابعة أحوال المرضى في مستشفى سان
خوان دي ديوس، وإعطاء دورس في الجامعة، وهي دروس لم يَعُد بحاجة
إلى تحضيرها؛ إذ تكفيه ستّون سنة من الخبرة، مع حساب سنوات
الحرب، وهي أشدّ السنوات قسوة. كانت كتفاه راسختيْن في مكانهما،

t.me/qurssan

وجسده متينًا؛ وما زال في رأسه شعر، وهو يقف منتصبًا كرمح ليعوِّض عن عَرَجِه الخفيف، ولأنّه يجد في كلّ يوم صعوبة أكبر في ثني ركبتيْه وخصره.

وكان يحاذر من الإعلان بصوت عالٍ عن أنَّ الترمُّل يُثقل عليه، كيلا يسبّب إزعاجًا لابنه. لأنَّ مارسيل كثير القلق، ولديْه من هذه الناحية طبع أمّ. أمّا بالنّسبة إلى فيكتور، فالموت ليس فراقًا لا لقاء بعده. كان يتخيَّل زوجته ترحل متقدِّمة في الفضاء الفلكيّ، ربّما إلى حيث تذهب لتستقرّ أرواح الموتى، بينما هو ينتظر دوره ليلحق بها بإحساس أقرب إلى الفضول منه إلى الخوف والتوجُّس. هناك سيكون مع أخيه وليام، ومع أبويْه، ومع جوردي مولينيه، وأصدقاء كثيرين ماتوا في جبهة الحرب. بالنّسبة إلى شخص لاأدريّ، عقلانيّ وذي تكوين علميّ مثله، تعاني هذه النظريّة من أخطاء أساسيّة، ولكنّها تنفعه كعزاء. لقد حذّرته روزر أكثر من مرّة، ما بين جدّيّة ومتوعّدة، أنّه لن يتحرّر منها أبدًا، لأنّهما مكرّسان لأن يكونا معًا في هذه الحياة وفي أيّ حيوات أخرى. كانت تقول له إنّهما لم يكونا في الماضي زوجيْن على الدوام، ومن المحتمل جدًّا، في حيوات أخرى، أن يكونا أمّا وابنها أو أخويْن، وهذا يفسّر علاقة المحبّة غير المشروطة التي تجمع بينهما. فكرة التكرار اللّامتناهي مع الشّخص نفسه تجعله عصبيًّا؛ وحتّى لو كان التكرار أمرًا لا مفرّ منه، فمن الأفضل أن يكون مع روزر وليس مع شخص آخر. وعلى أيّ حال، لم يكن هذا الاحتمال سوى نوع من التأمّل الشاعريّ، لأنّه لا يؤمن بالقدر ولا بالتناسخ وبالتجسُّد ثانيةً، الحالة الأولى لأنّه يعتبرها خدعة من خدع الرّوايات التلفزيونيّة، وفي الثانية لكونها مستحيلة التّحقُّق رياضيًّا. وبحسب امرأته التي تتقبّل الافتتان بممارسات روحانيّة من أمكنة نائية،

t.me/qurssan

مثل النبت، لا يُمكن للرياضيّات تفسير أبعاد الواقع المتعدّدة، ولكنّ فيكتور كان يرى في هذا الكلام مجرّد ذرائع متحذلقة.

إمكانيّة العودة للزواج من جديد كانت تبعث فيه قشعريرة؛ تكفيه مرافقة حيواناته. ليس صحيحًا أنّه كان يكلّم نفسه، فقد كان يتحاور مع الكلاب والببّغاء والقطّة. أمّا الدجاجات فلا تُحتسب، لأنّها تفتقر إلى أسماء شخصيّة خاصّة، وهي تذهب وتجيء على هواها، وتخبّئ البيض كيلا يعثر عليه. كان يصل إلى بيته ليلًا ليروي لحيواناته تفاصيل يومه، لقد كانوا محاوريه في المناسبات النادرة التي يصير فيها عاطفيًا، ويستمعون إليه عندما يخطر له أن يسمّي، بعينيْن مغمضتيْن، أشياء الحديقة وأزهارها وحيواناتها. كانت تلك هي طريقته في تمرين الذاكرة وتدريب الانتباه، مثلما يقوم مسنّون آخرون بتركيب قطع ألعاب البازل. في الأمسيات الطويلة، عندما يتوافر وقت للتذكُّر، يراجع قائمة غراميّاته الضئيلة. كانت إليزابيث إيدنبنز هي حبّه الأوّل، وقد تعرّف عليها بعيدًا جدًّا في الزمن، عام 1936. عند التّفكير بها، يراها بيضاء وعذبة، كحلوى اللوز. في ذلك الوقت، عاهد نفسه بأنّه سوف يبحث عنها بعد انتهاء جميع المعارك. عندما تستقرّ الأنقاض ويهدأ البارود على الأرض، سوف يبحث عنها. ولكنّ الأمور لم تجرِ على هذا النّحو. فعندما انتهت الحروب، كان قد صار بعيدًا جدًّا، متزوّجًا ولديْه ابن. بحث عنها بعد زمن طويل من ذلك، بدافع الفضول وحسب، وعرف أنّ إليزابيث كانت تعيش في قرية بسويسرا، تسقي نباتات، غير مهتمّة بما يُشاع عن بطولتها. وعندما عرف أين تقيم، أرسل إليها رسالة، لكنّها لم تُجِبْ عليها قطّ. ربّما يكون قد حان وقت الكتابة إليها من جديد، بعد أن صار وحيدًا الآن. ستكون مبادَرة لا تنطوي على أيّة مجازفة، إذ لم

t.me/qurssan

تَعُد هنالك أيَّة إمكانيَّة في أن يلتقيا مجدَّدًا. فما بين سويسرا وتشيلي مسافة ألف سنة ضوئيَّة! تذكَّر أوفيليا دل سولار، حبّه الثاني، حبًّا قصيرًا ومشبوبًا، يُفضِّلُ عدم تذكُّره. الغراميّات الأخرى قليلة. فهي لم تكن غراميّات بكلّ معنى الكلمة، بل ومضات متفرّقة، ولكنَّه اعتاد التَّفكير بها، تجميلها، كي يكبح ذكريات لا يمكن التسامح معها. الوحيدة التي يعتدُّ بها هي روزر.

في أحد الأيّام، استعدَّ للاحتفال بعيد ميلاده ومشاركة الحيوانات وجبة الطعام المتنوّعة التي يُعدُّها دومًا في هذه المناسبة، كتكريم لأفضل لحظات طفولته وشبابه. أمّه كارمي كانت خرقاء في شؤون المطبخ، فما يهمُّها هو التَّعليم الذي تمارسه طوال الأسبوع. وفي أيّام الآحاد والأعياد، لم تكن تدخل المطبخ أيضًا، لأنّها اعتادت الذهاب لرقص السردانا قبالة كاتدرائيَّة الحيّ القوطيّ، ومن هناك تذهب إلى الحانة لتستمتع بشرب كأس نبيذ أحمر مع صديقاتها. فكان فيكتور وأخوه وليام وأبوهما يتناولون على العشاء يوميًّا الخبز المطليّ بمهروس الطماطم مع السردين، وقهوة بالحليب، ولكنْ بين حين وآخر يطلع الصباح على الأمّ ملهمة، فتفاجئ الأسرة بطبق تقليديّ وحيد تُحسن طهوه، *طبق الرزّ الأسود* الكتلانيّ التَّقليديّ، والذي سيبقى شذاه إلى الأبد مرتبطًا باحتفال في ذهن فيكتور.

واحتفاءً بهذه الذكرى العاطفيَّة، سيذهب فيكتور إلى السوق المركزيّ في اليوم السّابق لعيد ميلاده، للبحث عن مكوّنات الحساء التَّحضيريّ، والحبّار الطازج من أجل الرزّ. «كتلانيّ حتّى الممات»، هذا ما كانت تقوله روزر التي لم تشارك قطّ في عمليَّة التحضير التقليديَّة لهذا العشاء الاحتفاليّ، ولكنَّها كانت تشارك بمعزوفة كونشيرتو على البيانو

t.me/qurssan

من الصالة، أو تجلس على كرسيّ بلا مسند في المطبخ لتقرأ أشعارًا لنيرودا، ربَّما قصيدة غنائيَّة ذات مذاق بحريّ، شيء من قبيل «*في بحر تشيلي العاصف/ يعيش الحنكليس الورديّ، ثعبان بحر عملاق ثلجيّ اللّحم..*».، ولم تكن ثمَّة فائدة تُرتجى من محاولة فيكتور التَّوضيح لها مرَّة بعد أخرى أنَّ الطبق المعنيّ لا يتضمَّن لحم حنكليس بحريّ، ملك المائدة الأرستقراطيَّة، وإنَّما رؤوس وأذيال أسماك بائسة من أجل حساء البروليتاريِّين. أو ربَّما، بينما يقوم فيكتور بقلْي البصل في زيت الزيتون مع الفلفل، يضيف الكلامار المقشَّر والمقطَّع في دوائر، مع الثوم، وقليل من الطماطم المفروم والرزّ، وأخيرًا يضاف الحساء السَّاخن، الأسود بحبر الكلامار، وأوراق الغار النظاميَّة الطازجة، وكانت هي تروي له طرائف ونكاتًا بالكتلانيَّة من أجل تلميع لغتها الأمّ الآخذة بالصدأ في أثناء تنقُّلها من مكانٍ إلى آخر.

يبدأ طهو الرزّ على نار هادئة في صينيَّة طهو البائيَّا؛ تُحضَّر الوصفة بالمكوّنات مضاعفة، حتَّى لو اضطرَّ إلى تناول العشاء طوال بقية الأسبوع من البقايا نفسها. يأخذ الشذى الأسطوريّ بالتغلغل في البيت وفي روحها، بينما فيكتور ينتظر بطبق فيه شرائح سمك الأنشوا وزيتون مستورد من إسبانيا، يمكنهم الحصول عليه من أيّ متجر. وهذه إحدى فضائل الرأسماليَّة، يقولها ابنه لاستفزازه. كان فيكتور يُعطي الأفضليَّة للمنتجات الوطنيَّة، فلا بدَّ من ترسيخ الحسّ الوطنيّ بدعم الصناعة المحلّيَّة، ولكنَّ هذه المثاليَّة تتراخى في موضوع بالغ القداسة مثل الزيتون والأنشوا. وفي الثلّاجة، يجري تبريد زجاجة نبيذ ورديّ لتبادل الأنخاب مع روزر عندما يصبح العشاء جاهزًا. كان قد وضع على المنضدة شرشفًا، وكان قد حصل على ستّ وردات من مشتل، وعلى

t.me/qurssan

شموع من أجل تزيين المائدة. وكانت هي، المتسرّعة دومًا، قد فتح زجاجة النبيذ قبل وقت لا بأس به، ولكنْ عليها الاكتفاء في وضعها الحالي بالانتظار. وكان هنالك في الثلّاجة كريما كتلانيّة أيضًا. لم يكن هو مغرمًا بالحلويّات، ولسوف ينتهي الأمر بالكريما الكتلانيّة بين أشداق الكلاب. فاجأه الهاتف.

ـ عيد ميلاد سعيد، يا أبي، ماذا تفعل؟

ـ أتذكّر وأتحسّر.

ـ ماذا تتذكّر؟

ـ الخطايا التي اقترفتها.

ـ وماذا تفعل غير هذا؟

ـ أطبخ، يا بنيّ. أين أنت الآن؟

ـ في البيرو. في مؤتمر.

ـ مؤتمر آخر؟ إنّك تمضي الوقت في هذه المؤتمرات.

ـ هل تُعدّ الطبق المعهود؟

ـ أجل. البيت يعبق برائحة برشلونة.

ـ أتوقع أن تكون قد دعوت ميتشه.

ـ همممم.

ميتشه... ميتشه، الجارة الفاتنة، والتي يفرضها الابن عليه، في سعْيٍ منه لحلّ مسألة ترمُّله بإجراءات قصوى. يوافق فيكتور على أنّ هذه المرأة جذّابة بحيويّتها ورشاقتها؛ بينما يبدو هو بتثاقله أشبه بفرس نهر. فميتشه بسلوكها المنفتح والإيجابيّ، وبتكوُّراتها الممتلئة كامرأة عريضة الردفيْن، وببستان خضرواتها، ستظلّ شابّة على الدوام. أمّا هو

t.me/qurssan

بالمقابل، مع نزوعه إلى الاعتكاف، فكان يهرم بسرعة. لقد كان مارسيل يعبد أمّه وفيكتور، وتخامره الشكوك بأنَّ هذا الأخير ما زال يبكيها خفية، ولكنّه كان مقتنعًا بأنَّ أباه من دون زوجة سوف ينتهي متحوّلًا إلى منسوّل. ولكي يُلهيه فيكتور عن أفكاره تلك، تحدَّث إليه عن نيّته في التواصل مع ممرّضة عرفها في شبابه؛ ولكنَّ مارسيل، بعد أن تمسَّك بفكرة، لم يعد قادرًا على إفلاتها. فميتشه تعيش على بُعد ثلاثمئة متر عنه، وتوجد بينهما قطعتا أرض لجارَيْن تفصل بينهما صفوف من أشجار الحور، لكنَّ فيكتور يعتبرها جارته الوحيدة، لأنَّه يكاد لا يتبادل التحيَّة مع الجارَيْن الآخرين، لأنَّهما يتَّهمانه بأنَّه شيوعيّ، كان منفيًّا ويعمل في مستشفى للفقراء. وكقاعدة، كان يتجنَّب مرافقة غرباء، فلديْه ما يكفي من زملائه ومرضاه، ولكنُّه لم يتوصَّل إلى ذلك مع ميتشه. إنَّها العروس المثاليَّة في نظر مارسيل: ناضجة، أرملة، لها أبناء وأحفاد بلا رذائل أو عيوب مؤكَّدة، وهي أصغر منه بثمانية أعوام، مرحة ومبدعة، إضافة إلى أنَّها تحبّ الحيوانات.

ـ لقد وَعَدْتني، يا أبتاه. وأنت مدينٌ بأشياء كثيرة لهذه السيِّدة.

ـ هي من أعطتني القطَّة، لأنَّها تعبت من المجيء للبحث عنها في بيتي. ولست أدري لماذا تفترض أنت أنَّه يمكن لامرأة طبيعيَّة وعاديَّة أن تلتفت إلى عجوز أعرج وصعب المعشر وسيِّئ الملبس مثلي، اللَّهم إلَّا إذا كانت يائسة، وفي مثل هذه الحالة، ما حاجتي إليها؟

ـ لا تتظاهر بالبلاهة.

تلك المرأة المناسبة تمامًا، تخبز البسكويت أيضًا وتزرع طماطم، وتأتي بها خِفية لتتركها في سلَّة معلَّقة بخطَّاف عند المدخل. ولا تزعل

t.me/qurssan

عندما ينسى تقديم الشكر لها. حماسة هذه السيِّدة التي لا يُعرَف كبحها بدت مثيرة للريبة. كانت تحضر بنوع من الانتظام حاملة مأكولات غريبة، مثل حساء قرع بارد أو لحم فروج بالقرفة والدرَّاق، وهي تقدمات كان فيكتور دالماو يفسِّرها على أنَّها رشوة. فأدنى حدود الحذر تنصح بالحفاظ على مسافة نأْيٍ حذرة؛ لأنَّ فيكتور يفكِّر في قضاء سنوات شيخوخته بطمأنينة وصمت.

ـ يحزنني أن تكون وحيدًا في يوم عيد ميلادك، يا أبتاه.

ـ لديَّ من يرافقني. إنَّها أمُّك.

صمتٌ طويل يسود الخط الهاتفيّ ممَّا يجبر فيكتور على توضيح أنَّه لا يزال يحتفظ بوعيه، فحديثه عن تناول العشاء مع المتوفاة هو شيء أشبه بالحديث عن الذهاب إلى قدَّاس الفجر في ليلة عيد الميلاد، مجرَّد طقس تورية سنويّ. ليس له أيّ علاقة بالأشباح، مجرَّد لحظة تذكُّر ممتعة وحسب. شرب نخب على شرف تلك الزوجة الطيِّبة، على الرَّغم من بعض المفاجآت، وهذا صحيح، إلَّا أنَّها تحمَّلته طوال عدة عقود.

ـ ليلة سعيدة، يا عجوزي. نم باكرًا، لا بدَّ أنَّ البرد صار شديدًا عندكم.

ـ اقض اللَّيلة في العربدة، ولا تنم حتَّى الفجر، يا بنيّ. إنَّك بحاجة إلى ذلك.

كانت الساعة قد تجاوزت السَّابعة مساء، والظلام قد خيَّم، وحرارة الأجواء الشتائيَّة قد انخفضت عدَّة درجات. في برشلونة، لا يُمكن لأحد أن يتعشَّى رزًّا أسود قبل الساعة التاسعة، وفي تشيلي كانت تسود العادة نفسها إلى هذا الحدّ أو ذاك. فتناول العشاء في الساعة السابعة

t.me/qurssan

هو من أمور المسنّين. استعدَّ فيكتور للانتظار جالسًا على كرسيّه المفضَّل، الذي يحتفظ بشكل جسده في هيكله المتزعزع، ويستنشق شذى الجذوع الشوكيَّة التي تلتهمها النار في المدفأة ويستبقي متعة وجبة الطعام، ممسكًا بالكتاب الذي يقرأ فيه وكأس صغيرة من خمرة البيسكو بلا ثلج وبلا أيِّ مخفِّف، مثلما يروق له، وهو الشراب القويّ الوحيد الذي يسمح لنفسه به عند انتهاء النهار، لأنّه يؤمن بأنَّ الوحدة تؤدّي إلى إدمان الكحول. لقد كانت مكوّنات طبق البائيَّة مغرية، ولكنّه قرّر وقاوم الغواية حتّى اللّحظة المناسبة.

عندئذٍ، قاطعته الكلاب التي كانت قد خرجت لتقوم بجولتها الضروريَّة حول المكان قبل أن تأوي مع حلول اللّيل، لقد قاطعته بكورال نباح متوعِّد. «ربّما هنالك ثعلب صغير»، هكذا فكَّر فيكتور، ولكنّه سمع على الفور صوت سيّارة في الحديقة، وهزّته قشعريرة: يا للعنة، إنّها ميتشه. لم يستطع إطفاء الأنوار والتظاهر بأنّه نائم. الكلاب تهرع عادة لاستقبالها في حالة هياج عظيمة، ولكنّها واصلت النباح في هذه المرَّة. استغرب سماع صوت نفير السيّارة، لأنَّ جارته لا تضغط على زر النفير أبدًا، اللّهم إلّا إذا كانت بحاجة لمساعدة لإنزال هديَّة رهيبة ما، مثل خنّوص مشويّ أو عمل آخر من أعمالها الفنيَّة. كانت ميتشه قد كرَّست لنفسها اسمًا في نحت تماثيل نساء بدينات عاريات، بعضها كبير جدًّا، وثقيل كثقل خنّوص جيّد. وكان لدى فيكتور عدد من تلك التّماثيل الموزَّعة في أركان بيته، وتمثال آخر منها في العيادة، يستخدمه في مفاجأة المرضى وتهدئة توتُّر موعدهم الأوّل.

نهض واقفًا بشيء من الجهد، وكان يدمدم متأفِّفًا؛ اقترب من النافذة وهو يضع يديْه عند مستوى كِليتيْه، أحد أكثر نقاط جسده

t.me/qurssan

هشاشة. كان ظهره ضعيفًا بتأثير عَرَجه، ممَّا يضطرُّه إلى وضع ثقلٍ أكبر على ساقه اليمنى. ولكنَّ القضيب الحديديَّ الذي ثبَّتوه له بأربعة براغٍ مع العمود الفقريّ، وقراره المتصلِّب بأن يظلَّ بمظهر جيِّد قد خفَّفا بعض الشيء من المشكلة، ولكنَّها لم تحلَّها. وكان هذا سبب جيِّد آخر للدِّفاع عن ترمُّله: حريَّة أن يتكلَّم وحيدًا، وأن يلعن ويشكو ويتذمَّر بلا شهود على الاستياءات الخاصَّة التي لا يُمكن أن يسمح بها لنفسه أمام الملأ. إنَّها الكبرياء. هذا ما كانت تتَّهمه به زوجته، وكذلك ابنه في أحيان كثيرة، لكنَّ التَّصميم على الظهور كاملًا أمام الآخرين لم يكن كبرياء، وإنَّما غرورًا، أو خدعةً سحريَّة لحماية نفسه من الشيخوخة. لا يكفي أن يمشي منتصب القامة ويداري تعبه، بل كان يتوخَّى الحذر كذلك من الكثير من الأعراض الأخرى للتَّقدُّم في السنّ: البخل، عدم الثقة، سوء المزاج، الضغينة والعادات السيِّئة، كالتَّخلِّي عن حلاقة ذقنه يوميًّا، وتكرار النوادر نفسها، والتَّحدُّث عن نفسه، عن أمراضه أو عن أمواله.

على الضوء الأصفر لمصباحَي المدخل، رأى سيَّارة متوقِّفة أمام بابه. ولدى سماعه صوت نفير السيَّارة ثانية، افترض أنَّ السَّائق يخاف الكلاب، فاستدعاها بصفير من أمام الباب. انصاعت له الكلاب باستياء، وهي تزمجر من بين أسنانها.

ـ من أنت؟ صاح فيكتور.

ـ أنا ابنتك. أرجوك أن تكبح الكلاب، يا دكتور دالماو.

لم تنتظر المرأة أن يدعوها فيكتور للدخول. مرَّت أمامه مسرعة وخائفة، مشيرة إليه باستبعاد الكلاب. وكان أضخم اثنيْن بين الكلاب يتشمَّمانها عن قرب شديد؛ أمَّا الكلب الصغير، والذي يبدو غاضبًا على

t.me/qurssan

الدوام، فكان يواصل الزمجرة وأنيابه ظاهرة للعيان. لحق بها فيكتور متفاجئًا، ومن دون أن يفكّر بذلك، ساعدها على خلع سترتها، ووضعها فوق مقعد الممرّ. أمّا هي، فكانت تنفض نفسها كحيوان طاله بلل، وتعلّق بكلام عن الفيضان، ثمّ مدّت يدها إليه للمصافحة بخجل.

ـ مساء الخير، يا دكتور، أنا إنغريد شناكي. أيمكنني الدخول؟

ـ لقد دخلتِ، كما يبدو لي.

على ضوء مصباح الصالة السيّئ ونار مدفأة الحطب، تفحّص فيكتور الدخيلة. كانت ترتدي بنطال كاوبوي حائل اللّون، وجزمة رجاليّة وكنزة صوفيّة بيضاء بياقة عالية. بلا مجوهرات ولا مكياج ظاهر. لم تكن فتاة شابّة مثلما افترض في البدء، بل هي امرأة لها تجاعيد حول العينيْن، لكنّها تخدع لأنّها نحيلة، طويلة الشعر وسريعة الحركات. إنّها تُذكّره بأحدٍ ما.

ـ اعذرني لمجيئي على هذا النحو، بصورة مفاجئة ومن دون إشعار مسبق. إنّني أسكن بعيدًا، في الجنوب، وقد ضللت الطريق، لا أعرف الشوارع جيّدًا في سنتياغو. لم أكن أظنّ أنّني سأصل إلى هنا في مثل هذا الوقت المتأخّر!

ـ لا بأس. بماذا يمكنني مساعدتك؟

ـ هممم، ما هذه الرائحة الشهيّة؟

تأهّب فيكتور دالماو ليطرد إلى الشارع هذه الغريبة التي تتجرّأ على المجيء ليلًا والدخول إلى بيته بلا دعوة، ولكنّ الفضول كان أقوى من نَزَقِه.

t.me/qurssan

ـ إنّها رائحة الرزّ مع الحبّار.

ـ أرى أنّكَ قد أعددت المائدة. يبدو أنّني قد وصلت في وقت م
مناسب، يمكنني أن أعود غدًا في وقت مناسب أكثر. أنت تنتظر ضيوفًا
أليس كذلك؟

ـ حضرتك، كما أتوقّع. ما هو اسمك الذي قلته؟

ـ إنغريد شناكي. أنت لا تعرفني، ولكنّني أعرف الكثير عن
حضرتك. وأنا أبحث عنك منذ بعض الوقت.

ـ أيُعجبك النبيذ الورديّ؟

ـ يعجبني النبيذ بأيّ لون. وأخشى أنّك سوف تدعوني على قليل
من هذا الرز؛ لم آكل شيئًا منذ الفطور. هل لديْك ما يكفي؟

ـ ما يكفي للجيران جميعهم ويزيد! إنّه جاهز. هيّا إلى المائدة،
ولتُخبريني أيّ شياطين تجعل فتاة جميلة تمضي باحثة عنّي.

ـ لقد أخبرتك بذلك، أنا ابنتك. ولست أيّ فتاة، إنّني في الثانية
والخمسين، وقد استفدت من سنوات حياتي على أفضل وجه و...

ـ ابني الوحيد يدعى مارسيل، قاطعها فيكتور.

ـ صدّقني، يا دكتور، أنّني لم آتِ لإزعاجك، ما أريده هو التّعرّف
عليك وحسب.

ـ فلنأخذ راحتنا، يا إنغريد. فما أراه هو أنّ هذا الحديث سيطول
كثيرًا.

ـ لديَّ الكثير من الأسئلة. ألا يضايقك أن تبدأ بحياتك؟ بعد
ذلك، سأروي لك قصّة حياتي، أيناسبك...

t.me/qurssan

في اليوم التالي، أيقظ فيكتور مارسيل باتّصال هاتفيّ بعد قليل من بزوغ الفجر: «تبيُّن لي فجأة أنَّ الأسرة قد تكاثرت، يا بنيّ. لديك أخت، وزوج أخت، وثلاثة أبناء أخت. أختك، مع أنَّها، من أجل شرف الحقيقة، ليست أختك بالضبط، تُدعى إنغريد. وسوف تبقى معي يومَيْن، لأنَّ لدينا كلام كثير نقوله». وبينما هو يتحدَّث مع مارسيل، كانت المرأة التي اندسَّت في بيته في اليوم السَّابق تنام بملابسها، ومغطَّاة ببطَّانيَّة على الصوفا المخلَّعة في الصالة. أمَّا هو، الميَّال دومًا إلى الأرق، فلا تسبَّب له ليلة من السهر سوى القليل من الضرر، وهو يشعر في فجر هذا اليوم بأنَّه أكثر يقظة ممَّا كان عليه في أيِّ وقت آخر، منذ موت روزر. أمَّا الزائرة، بالمقابل، فكانت منهكة بعد أن أمضت عشر ساعات وهي تسمع قصَّة فيكتور وتروي له قصَّتها. قالت له إنَّ أمَّها كانت تدعى أوفيليا دل سولار، وأنَّه هو أبوها بحسب ما فهمته من أمِّها. وقد أمضت شهورًا من التَّحرِّي، ولولا خبث ضمير امرأة عجوز، لأمضت حياتها من دون أن تعرف شيئًا عن الأمر.

وهكذا، عرف فيكتور، بعد مرور نصف قرن على الأحداث، أنَّ أوفيليا قد حبلت في الفترة التي مارسا فيها الحبّ. ولهذا السَّبب، اختفت من حياته، وتحوَّلت عاطفتها إلى ضغينة، وقطعت العلاقة معه من دون أيِّ تفسير عقلانيّ. «أظنّ أنَّها قد شعرتْ بوقوعها في ورطة، وصارت بلا مستقبل، لأنَّها أقدمت على خطورة متهوِّرة. أو هذا هو التَّفسير الذي قدَّمته لي هي نفسها»، قالت له إنغريد، وبادرت إلى تقديم تفاصيل ولادتها.

وحيال انعدام التعاون من جانب أوفيليا، تولَّى الأب بيثنتي أوربينا بنفسه مسألة التبنِّي. وكانت لورا دل سولار هي الوحيدة التي

t.me/qurssan

شاركت في تنفيذ الخطة، بعد التعهُّد بأنّها لن تكشف السرّ مطلقًا، وإلى الأبد؛ إنّها كذبة رحيمة وضروريّة، تتلقّى المغفرة عليها عند الاعتراف، وتلقى تأييد السماء ورضاها. تولّت الداية المدعوّة أوريندا نارانخو تنفيذ تعليمات الكاهن أوربينو، وإبقاء أوفيليا في شبه غيبوبة خلال فترة قبل الولادة، ومخدَّرة تمامًا أثناء الولادة وبعدها، وسرقة الوليد بالتواطؤ مع الجدَّة، قبل أن يتمكَّن أحد ممَّن في الدير من توجيه أسئلة. وعندما خرجت أوفيليا من غيبوبتها، بعد عدَّة أيّام، أخبروها بأنّها قد وضعت مولودًا ذكرًا، وأنّه مات بعد لحظات من ولادته. «ولكنَّ الوليد كان طفلة وتلك الطفلة هي أنا»، قالت إنغريد لفيكتور. لقد قالوا للأمّ إنَّ المولود كان طفلًا كإجراء احتياطيّ، من أجل تضليلها، والحيلولة دون عثورها على ابنها إذا ما توصّلت في مستقبل افتراضيّ إلى الارتياب بما جرى ودونيا لورا التي شاركت في خديعة ابنتها، تقبّلت بقيّة مراحل المؤامرة بإذعان، بما في ذلك مسخرة المقبرة، حيث وضعوا صليبًا على قبر فيه تابوت فارغ. ليست هي المسؤولة، فقد كانت المكيدة محكمة أكثر بكثير من إمكانيّتها، لأنَّ من دبَّرها رجل حكيم، أحد رجال الربّ، الأب أوربينا.

خلال السنوات التالية، عند رؤيته أن أوفيليا قد تزوَّجت، وأنجبت ابنيْن معافييْن، وأنّها حسنة السلوك وتعيش حياة هادئة، دفنت دونيا لورا شكوكها في أعمق نسيان الذاكرة. لقد أخبرها الأب أوربينا في البداية أنَّ زوجيْن كاثوليكيّيْن من الجنوب قد تبنّيا الطفلة، وأنّهما من معارفه.. وكان هذا هو كلّ ما يمكنه قوله لها. وفيما بعد، عندما صارت تتجرّأ على سؤاله أكثر، كان يُذكِّرها بجفاء بأنّه عليها أن تعتبر تلك الحفيدة ميّتة؛ وأنّها لن تنتمي إلى أسرتهم أبدًا، حتّى لو كانت تحمل الدماء نفسها.

t.me/qurssan

لقد شاء الربّ تسليمها إلى أبويْن آخريْن. كان الزوجان اللذان تبنّيا الطفلة يتحدّران من ألمان من جانب وجانب: كلاهما طويل القامة، متين البُنية، وكلاهما أشقر، ولعيونهما زرقة سماويّة، ويعيشان في مدينة نهريّة كثيفة الأشجار وكثيرة الأمطار، على بعد أكثر من ثمانمئة كيلومتر عن العاصمة سنتياغو، ولكنّ هذه التّفاصيل لم تعلم بها الجدّة لورا. فعندما فقد الزوجان شناكي الأمل بإنجاب أبناء، تلقّيا الطفلة حديثة الولادة التي قدّمها إليهما الكاهن. بعد سنة من ذلك، حبلت تلك المرأة. وهكذا، كان لديْهما خلال السنوات التالية ابنان ألمانيّان في المظهر مثلهما، وقد كانت إنغريد أقصر قامة، لها شعر قاتم وعينان سوداوان، تبدو وكأنّها حصيلة خطأ جينيّ. «منذ الصّغر، أحسستُ أنّني مختلفة، ولكنّ أبواي كانا يعاملانني بكثير من الدلال، ولم يقولا لي قطّ أنّني متبنّاة. وحتى الآن، إذا ما ورد ذكر مسألة التبنّي، وصارت الأسرة كلّها على علم بها، تبدأ أمّي بالبكاء»، أوضحت إنغريد لفيكتور.

عند رؤيته لها نائمة على الصوفا، استطاع أن يتفحّصها على هواه. لم تكن المرأة نفسها التي تبادل الحديث معها قبل ساعات؛ إنّها تشبه أوفيليا في شبابها وهي نائمة، التقاطيع الدّقيقة نفسها، غمّازتا الخدّيْن نفسيْهما، قوس الحاجبيْن، خطّ الشعر نفسه مثل - عند منتصف الجبين، البشرة الفاتحة مع شيء من اللّون الذهبيّ، ولا بدّ أنّها تكون برونزيّة في الصيف. لا ينقصها سوى زُرقة العينيْن لتكون مثل أمّها تقريبًا. عندما وصلت إلى بيته، ظنّ فيكتور أنّه يعرفها، ولكنّه لم ينتبه إلى التشابه مع أوفيليا. في هذه اللّحظة وهي مسترخية، استطاع رؤية التشابه البدنيّ، وأن يقدّر كذلك اختلافات الطّباع. لا شيء في إنغريد من تفاهة تغنُّج أوفيليا الشابّة التي كان قد أحبّها؛ إنّها جدّيّة، رسميّة، امرأة أقاليم بعيدة

t.me/qurssan

عن العاصمة، وأجواء محافظة ومتديّنة، ذات حياة لم تعرف الصعو، والهبوط حتّى اللّحظة التي عرفت فيها أصولها، وخرجت تبحث عن أبيها. فكّر في أنّه ليس هنالك الكثير منه أيضًا في إنغريد، لا في طول قامته، ولا في أنفه الصقريّ، أو شعره الخشن، وملامحه القاسية أو طبعه الانطوائيّ. إنّها امرأة رقيقة؛ وفكّر في أنّها لا بدّ أن تكون أموميّة وسخيّة حاول أن يتخيّل كيف كان يُمكن لها أن تكون لو أنّها ابنة له من رورر، وتحسّر لأنّها ليست كذلك. في الأزمنة الأولى، ما كانا يعتبران نفسيْهما متزوّجيْن حقًّا، كانا معًا بصورة مؤقّتة بحسب اتّفاق مناسب لهما، وعندما أدركا أنّهما متزوّجان أكثر من أيّ زوجيْن آخريْن على الإطلاق، كانت قد مضت عشرون سنة، وكان الوقت قد صار متأخّرًا جدًّا للتّفكير بإنجاب أبناء. سيجد مشقّة في الاعتياد على إنغريد، لأنّ أسرته الوحيدة حتّى اللّيلة الماضية كانت تقتصر على مارسيل. افترض أنّ أوفيليا دل سولار ستُفاجأ جدًّا مثلما تفاجَأ هو نفسه؛ فقد نزلت عليها هي أيضًا، في شيخوختها، ابنة غير متوقّعة. فضلًا عن أنّ إنغريد قد أضافت لهم ثلاثة أحفاد. فزوجها أيضًا من أصل ألمانيّ، مثل أبويْها بالتبنّي، ومثل أناس كثيرين في بعض مقاطعات الجنوب التي استوطن فيها ألمان منذ القرن التاسع عشر بفضل قانون هجرة انتقائيّة. كانت الفكرة أن يحتلّ الأرض أناس بيض من سلالة نقيّة، ليساهموا بإشاعة الانضباط وروح العمل بين التشيليّين الذين اشتهروا بسمعة سيّئة ككُسالى ومهمِلين. في صور أبنائها التي أرته إيّاها إنغريد، يظهر رجل شاب وفتاتان لهما مظهر فالكيرات، عجز فيكتور عن الاعتراف بأنّهم من نسله.

ـ ابن إنغريد متزوّج وزوجته حُبلى. عمّا قريب سأصير أبًا لجدّة، قال لمارسيل بالهاتف.

t.me/qurssan

ـ وأنا خال أبناء إنغريد. وماذا سأكون بالنسبة إلى هذا الطفل الذي سيولد؟

ـ أظنّ أنّك ستكون شيئًا مثل خال وجدّ.

ـ يا للفظاعة! بدأت أشعر بأنّني عجوز. لا يمكنني التوقّف عن التّفكير بالجدّة. أتتذكّر كيف كانت تريد منّي أن أنجب لها حفيدًا؟ يا للعجوز المسكينة، لقد ماتت من دون أن تعرف أنّه صار لديْها أحفاد كثر. حفيدة وثلاثة أبناء حفيدة!

ـ علينا أن نذهب لرؤية هؤلاء الأشخاص الذين من سلالة بشريّة مختلفة، يا مارسيل. جميعهم ألمان. كما أنّهم يمينيّون، وكانوا من أنصار بينوشيه، ولهذا سيكون علينا أن نبتلع ألسنتا أمامهم.

ـ المهمّ أنّنا أسرة واحدة، يا أبي. لن نتشاجر من أجل السياسة.

ـ ولا بدّ لي من إقرار طريقةٍ ما للتواصل المنتظم مع إنغريد والأحفاد. لِمَ سقطوا عليّ فجأة كالتفّاح. يا للتعقيدات! ربّما كنتُ أفضل حالًا من قبل، وحيدًا ومطمئنًا.

ـ لا تتفوّه ببلاهات، يا أبي. إنّني أموت فضولًا للتّعرُّف على أختي، حتّى لو كانت منتحلة.

قدّر فيكتور أنّه لن يكون ثمّة مفرّ من اللّقاء مع أوفيليا. لم تبدُ له الفكرة سيّئة: لقد شُفي منذ زمن طويل من الحنين إليها، ولكنّه يشعر بفضول العودة إلى رؤيتها، وتصحيح الانطباع الخاطئ الذي توصّل إليه عنها في الأتينيه بكاراكاس، قبل أحد عشر عامًا. ربّما ستُتاح له الفرصة ليقول لها إنّه بفضلها صارت له جذور راسخة في تشيلي، جذور أكثر قوّة

t.me/qurssan

من تلك التي لم يمتلكها في إسبانيا. بدا له مضحكًا أن يكون، بها ، الحالة، على صلة قرابة بآل دل سولار، الأسرة نفسها التي عارضت بها، هجرة إسبان السفينة وينيبيغ. لقد منحته أوفيليا هديَّة هائلة، فقد فتح له أفق المستقبل، وحوَّلته من عجوز بلا أيّ رفيق سوى حيواناته، ليصبح لديْه عدَّة أحفاد تشيليِّين متحدِّرين منه، إضافة إلى مارسيل الذي ا. يعتبر نفسه قطّ من أيّ مكان آخر. لقد كانت تلك المرأة أكثر أهمّيّة في حياته ممَّا تخيَّله. لم يفهمها قطّ بصورة حقيقيَّة، لقد كانت أكثر تعقيدًا، وأكثر قلقًا ممَّا كان يظنُّه. فكَّر بلوحاتها شديدة الغرابة، وافترض أنَّها بعد زواجها واختيارها أن تعيش حياة عاديَّة، في أمان حياتها الزوجيَّة ومكانتها في المجتمع. عزلت أوفيليا نفسها، تخلَّت عن مظهر جوهريّ من روحها، وربَّما تكون في نضوجها ووحدتها قد استعادته جزئيًّا. ولكنَّه تذكَّر عندئذ ما أخبرته به عن زوجها، ماتياس إيثاغيرّي، وتبيَّن له أنَّ ذلك التَّخلّي لم يكن تكاسلًا ولا تفاهة، وإنَّما بسبب حبّ خاصّ جدًّا.

قبل سنة من ذلك، تلقَّت إنغريد شناكي رسالة من امرأة مجهولة تؤكّد لها فيها أنَّها أمّها. لم تفاجئها الرّسالة كثيرًا، فقد كانت تشعر على الدوام بأنَّها مختلفة عن بقية أفراد الأسرة. فلاحقت في البدء أبويْها بالتبنّي، فأقرَّا في نهاية الأمر بالحقيقة. وبعد ذلك، أخذت تستعدّ لتلقّي زيارة أوفيليا وفيليبه دل سولار اللذيْن جاءا، وبرفقتهما عجوز ترتدي ثياب حِداد صارمة، إنَّها خوانا نانكوتشيو. لم يخامر الشكّ أيًّا من الثلاثة بأنَّ إنغريد هي ابنة أوفيليا الضائعة؛ فقد كان التشابه جليًّا جدًّا. منذ ذلك الحين، التقت أوفيليا ثلاث مرَّات مع ابنتها التي كانت تعاملها بتهذيب وتأدُّب التعامل مع قريب بعيد، لأنَّ أمَّها الوحيدة التي تعرفها هي هيلغا شناكي؛ أمَّا هذه الزائرة ذات الأصابع الملطَّخة بألوان موادّ الرّسم ورذيلة

t.me/qurssan

التذمُّر، فكانت تبدو غريبة. كانت إنغريد واعية للتشابه الجسديّ بينهما، وكانت تخشى أن ترث عنها كذلك عيوبها، وأن تتحوَّل في شيخوختها إلى نرجسيَّة مثل أوفيليا. وعرفت، بطريقة مجزَّأة، قصَّة ولادتها. وفي اللِّقاء الثالث فقط، تمكَّنت من التَّحرّي عن اسم أبيها. كانت أوفيليا قد دفنت ماضيها، وصارت تتجنَّب الحديث عن تلك الحقبة. فقد انصاعت لأمر الأب أوربينا بالتزام الصمت والتشدُّد في الامتناع عن ذكر الطفل الميّت الذي يرقد في مقبرة المخيَّم، إلى أن ضاع حدث شبابها ذاك في غياهب النسيان المتراجع. تذكَّرته باقتضاب عندما كان عليها أن تدفن زوجها، وأرادت أن تنجز الهدف الذي اتَّفقا عليه معًا عند زواجهما بأن يرقد هذا الطفل معهما في مقبرة سنتياغو الكاثوليكيَّة. وقد كانت تلك هي الفرصة المناسبة لنقل رفاته، ولكنَّ أخاها فيليبه أقنعها بعكس ذلك، لأنَّه سيكون عليها، عندئذٍ تقديم تفسيرات لأبنائه، ولبقيَّة أفراد الأسرة.

عندما تردَّت حالة لورا دل سولار الصحّيَّة، كانت قد مضت سنوات عديدة على عيش أوفيليا وحدها وانهماكها في الرَّسم في بيتها الرّيفيّ. بينما كان ابنها الأكبر يبني سدًّا في البرازيل، وابنتها تعمل في متحف ببوينس آيرس. وكانت أمّها دونيا لورا تقترب من بلوغ عمرها قرنًا كاملًا، وهي تهذي من زمن. وكانت موظَّفتان متفانيتان تتناوبان على خدمتها ليلًا ونهارًا تحت إشراف مباشر من خوانا مانكوتشيو، والتي كانت هرمة مثلها تقريبًا، ولكنَّها أصغر منها بخمسة عشر عامًا. لقد خدمت المرأة هذه الأسرة منذ الأزل، ولديْها النيَّة بمواصلة ذلك ما دامت دونيا لورا بحاجة إليها؛ فواجبها أن تُعنى بها حتَّى النَّفَس الأخير. كانت سيِّدتها تظلّ مستلقية في الفراش، بين وسائد ريش وملاءات كتَّان مطرَّزة، وبقمصان نومها الحريريَّة المستوردة من فرنسا، محاطة بالأشياء

t.me/qurssan

الفاخرة التي كان زوجها يشتريها من دون أن يلتفت إلى النفقات. بعد موت إيسيدور دل سولار، تخلّصت دونيا لورا من الدرع الحديديّ الذي كان يعني بالنّسبة إليها الزواج من رجل مسيطر مستبدّ، وتمكّنت من التّفرّغ لما كانت ترغب فيه لبعض الوقت، إلى أن أودت بها الشيخوخة إلى الشلل، وحال تقدُّمها في السنّ دون تواصلها مع ليوناردو، صغيرها بيبي، في الجلسات الرُّوحانيّة. كانت تفقد عقلها، تضيع داخل بيتها، وحين تنظر إلى المرآة تتساءل بذعر عمَّن تكون هذه العجوز القبيحة التي كانت في حمّامها، ولماذا تأتي كل يوم لإزعاجها. لم تعُد قادرة بعد ذلك على النهوض، لأنَّ ساقيْها وقدميْها قد تشوَّهت بفعل التهاب المفاصل، ولم تَعُد قادرة على حملها. وباحتجازها في حُجرتها، صارت تنتقل من البكاء إلى الغيبوبات الطويلة، تستدعي صغيرها البيبي بغمٍّ ورعب لا يمكن تفسيرهما، فكان الطبيب يحاول من دون جدوى استخدام المهدّئات والأدوية المضادةُ للاكتئاب. كانت الأسرة كلّها التي ترافقها في أيّام احتضارها تعتقد أنّها تتألّم لفقدان ليوناردو، ابنها الأصغر، الذي مات منذ زمن طويل، وتعاني كما لو أنّه قد مات للتوّ.

تحوّل فيليبه دل سولار إلى زعيم العائلة منذ موت أبيه، كان قد جاء من لندن ليتولّى مسؤوليّة الوضع، دفع الحسابات وتوزيع الثروات. يُقال إنّه كان متحالفًا مع الشيطان، لأنَّ الهرم لم يكن باديًا عليه بوضوح، متحدّيًا بذلك تنبُّؤاته كمصاب بوسواس المرض. فلديْه مئة علّة قديمة، وفي كلّ أسبوع يكتشف علّة أخرى؛ يؤلمه حتّى شَعره، ولكن بسبب واحدة من مظالم الحياة، لم يكن أيّ من تلك الأمراض يظهر عليه. كان يبدو سيّدًا متميّزًا مُنتزعًا من مأدبة غداء إنكليزيّة، بالسترة، وربطة العنق على شكل فراشة، وملامح ضيق وانزعاج. كان يعزو حُسْن مظهره

t.me/qurssan

إلى ضباب لندن، والويسكي الأسكتلنديّ وتبغ غليونه الهولنديّ. جاء يحمل في حقيبته الصغيرة الوثائق اللّازمة لبيع البيت في شارع مار دل بلاتا - موقعه في وسط العاصمة يساوي ثروة كبيرة. كان عليه أن ينتظر إلى أن تموت أمّه كي يُنهي المعاملات. أمّا دونيا لورا التي اختُزلت إلى بعض الجلد الضئيل، فواصلت مناداة صغيرها البيبي إلى أن نفد منها الهواء، من دون أن تجد السلام في الأدوية أو في الأدعية والصلوات! أطبقت لها خوانا نانكوتشيو فمها وعينيْها، وصلّت لها صلاة «يا قدّيسة مريم»، وانسحبت مجرجرة قدميْها، ومتعبة جدًّا. وفي الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي، بينما كانت مؤسّسة إجراءات المأتم تُعدّ البيت من أجل السهر على المتوفاة، وكان التابوت قد وضع في الصالون مع إكليل من الزهور، والشموع، وخِرق وشرائط سوداء، جمع فيليبه إخوته كي يُخبرهم ببيع البيت والأملاك. ثمّ استدعى بعد ذلك خوانا إلى المكتبة ليخبرها بالشيء نفسه.

- سوف يهدمون هذا البيت، ليبنوا مكانه عمارة شقق، ولكنّك لن ينقصك أيّ شيء، يا خوانا. أخبريني فقط كيف وأين تفضّلين أن تعيشي.

- ماذا تريدني أن أقول لك، أيُّها الطفل فيليبه؟ ليس لديَّ أسرة ولا أصدقاء ولا معارف. بدأت أرى أنّني عقبة. أنت ستضعني في ملجأ للمسنّين، أليس كذلك؟

- هنالك دور إقامة للمسنّين جديدة جدًّا، يا خوانا، ولكنّني لن أفعل شيئًا لا تريدينه. أتحبّين أن تعيشي مع أوفيليا، أو مع واحدة أخرى من أخواتي؟

t.me/qurssan

ـ أنا سأموت خلال سنة، ولا فرق لديَّ أين سأكون. فالموت هو الموت، وانتهى. ويستريح أحدنا أخيرًا.

ـ أمّي المسكينة لم تكن تفكّر بهذه الطريقة...

ـ دونيا لورا كانت تعاني من ذنوب كثيرة، ولهذا السّبب كانت تخاف الموت.

ـ أيّ ذنوب كان يُمكن لأمّي أن تقترفها، بالله عليك!

ـ لهذا السّبب كانت تبكي.

ـ لقد أصيبت بَعَتَه الشيخوخة، وكانت مهووسة بليوناردو، قال فيليبه.

ـ ليوناردو؟

ـ أجل، البيبي.

ـ لا، يا صغيري فيليبه، هي لم تكن قادرة على تذكُّر البيبي. لقد كانت تبكي طفل أوفيليا.

ـ لا أفهمك، يا خوانا.

ـ ألا تتذكُر أنّها قد حبلت وهي عازبة؟ لقد تبيَّن أنَّ ذلك الطفل لم يمُت مثلما قالوا آنذاك.

ـ ولكنّني رأيت القبر!

ـ إنّه فارغ. لقد كانت طفلة. وقد أخذتها تلك المرأة، لم أعُد أتذكُر اسمها ـ القابلة. هذا ما أخبرتني به دونيا لورا، ولهذا السّبب كانت تبكي؛ لأنّها انصاعت للكاهن أوربينا، وسرقت له ابنة أوفيليا. أمضت حياتها كلّها وهي تحمل في داخلها هذه الخدعة، مثل عفونة.

t.me/qurssan

كان فيليبه يحاول نسبة تلك القصّة إلى هذيانات أمّه، أو إلى شيخوخة خوانا نفسها، وأن يستبعدها على أنّها قصّة سخيفة؛ وخطر له كذلك أنّه إذا ما كانت صحيحة، فمن الأفضل تجاهلها، لأنّ إخبار أوفيليا بذلك سيكون قسوة لا فائدة منها، ولكنّ خوانا نبّهته إلى أنّها قد وعدت دونيا لورا بالعثور على الطفلة كي تتمكّن هي من الذهاب إلى السماء، وإلّا فإنّها ستظلّ عالقة في المطهر، والوعود المقدّمة للمحتضَرين مقدّسة. عندئذٍ، أدرك أنّه ما من طريقة لإسكات خوانا، وأنّه عليه أن يتولّى مسؤوليّة الأمر بنفسه قبل أن تعلم به أوفيليا وبقيّة الأسرة. وعد خوانا بأنّه سيحقّق في الأمر وسيُبقيها على اطّلاع. «سنبدأ بالكاهن، أيّها الطفل فيليبه. وسوف أذهب إليه معك». لم يستطع استبعادها. فالتواطؤ الذي اعتادا عليه طوال ثمانين عامًا، ويقينه بأنّها قادرة على قراءة نواياه، أجبره على التّصرّف.

في تلك الأثناء، كان الكاهن بيئنتي أوربينا قد تقاعد عن مهمّاته، وكان يعيش في دار إقامة للكهنة المسنّين، ترعاه وتهتمّ به راهبات. فكان من السّهل العثور عليه، والحصول على موعد لمقابلته؛ لقد كان بكامل قواه العقليّة، ويتذكّر بصورة جيّدة جدًّا أفراد رعيته القدماء، ولاسيّما آل دل سولار. استقبل فيليبه وخوانا مُبديًا أسفه واعتذاره، لأنّه لم يستطع أن يكون هو شخصيًّا من يقدّم المسحة الأخيرة لدونيا لورا، إذ كانت قد أُجريت له جراحة في الأمعاء، واحتاج النقاهة إلى وقت طويل. ومن دون كثير من اللّف والدوران، كرّر له فيليبه ما كانت قد روته له خوانا. وبخبرته كمحام، كان مستعدًّا لاستجواب شاقّ، من أجل وضع رئيس الدّير السّابق ما بين السيف والجدار، وإجباره على الاعتراف، ولكنّه لم يكن بحاجة لأيّ شيء من ذلك.

t.me/qurssan

ـ لقد تصرَّفت وفق ما هو أفضل للعائلة. وقد كنت حريصًا على الدوام في اختيار الآباء المتبنِّين. جميعهم كانوا كاثوليكيِّين ملتزمين قال أوربينا.

ـ أتعني أنَّ أوفيليا لم تكن الحالة الوحيدة؟

ـ هنالك فتيات كثيرات مثل أوفيليا، ولكنْ أيًّا منهنَّ لم تكن بمثل عنادها. وكنَّ موافقات عمومًا على التَّخلُّص من الوليد. وما الذي يمكن لهنَّ عمله غير ذلك؟

ـ هذا يعني أنَّك لم تضطرّ إلى خداعهنَّ كي تسرق منهنَّ وليدهنَّ

ـ لا أسمح لك بإهانتي، يا فيليبه! لقد كنَّ بنات عائلات فاضلة وكان واجبي أن أحميهنَّ وتجنيبهنَّ الفضيحة.

ـ الفضيحة هي أنَّ حضرتك، وبحماية الكنيسة، قد اقترفت جريمة، أو بكلمة أدقّ، جرائم كثيرة. هذه جرائم يُعاقب عليها بالسجن. حضرتك لم تعُد في سنّ مناسبة لتدفع أثمان ما فعلته، ولكنَّني أطالبك بأن تُخبرني لمن أعطيت ابنة أوفيليا. سوف أصل إلى عمق هذه المسألة.

لم يكن بيثنتي أوربينا يحتفظ بسجل بأسماء كلّ أبويْن متبنيَّيْن ولا بأسماء الأطفال. بل كان يتولَّى إنجاز الصفقة بنفسه؛ وكانت القابلة أوريندا نارانخو تتولَّى فقط عمليَّات التوليد، أضف إلى ذلك أنَّها قد ماتت منذ زمن بعيد. عندئذٍ، تدخَّلت خوانا نانكوتشيو لتقول، إنَّها سمعت ذات يوم دونيا لورا تقول إنَّ الطفلة عند أُسرة ألمانيَّة في الجنوب. وكان هذا الكلام قد أفلت في أحد الأيَّام من لسان الأب أوربينا، ولم تنسه الجدَّة لورا.

t.me/qurssan

ـ أتقولين ألمانًا؟ لا بدَّ أنَّهم عائلة تعيش في مدينة بالديبيا الجنوبيَّة، دمدم الأسقف.

ـ إنَّه لا يتذكَّر الاسم، ولكنَّه متأكِّد من أنَّ الطفلة وصلت إلى بيت محترم، ولا ينقصها هناك أيّ شيء؛ إنَّهم أناس في وضع مترف. ومن خلال هذا التَّعليق، استنتج فيليبه أنَّ هنالك في تلك المبادلات نقودًا تنتقل من يد إلى يد؛ وأنَّ الكاهن، بكلّ اختصار، كان يبيع أطفالًا. فتخلَّى عندئذٍ عن محاولة الحصول منه على المزيد من أجل التَّركيز على تتبُّع أثر التبرُّعات التي تلقَّتها الكنيسة من خلال بيثنتي أوربينا في ذلك الحين. سيكون من الصَّعب الدُّخول إلى سجلَّات تلك الحسابات، ولكنَّه ليس مستحيلًا؛ لا بدَّ من استخدام الشخص المناسب. كان يفترض أنَّ الأموال تترك أثرًا على الدوام في طريقها عبر العالم، ولم يخطئ في تبنِّي تلك الفرضيَّة. كان عليه أن ينتظر ثمانية أشهر كي يحصل أخيرًا على المعلومات التي يبحث عنها. أمضى تلك الأشهر في لندن، منكِّدًا عن بُعد برسائل قصيرة من سطريْن، ترسلها إليه خوانا نانكوتشيو كي تذكِّره بمسؤوليَّته. كانت المرأة العجوز تكتب تلك السطور بمشقَّة، وترسلها خِفية، لأنَّها تعهَّدت بحفظ السرّ إلى أن يتمكَّن فيليبه من حلّ القضية. وكان يكرِّر لها في كلّ مرَّة القول بأنَّه عليها أن تعتصم بالصبر، بينما لم تكن هي قادرة على منح نفسها ذلك الترف بالانتظار، لأنَّها تحسب عدد الأيَّام المتبقِّية لها في هذا العالم، ويجب عليها، قبل أن تغادر، أن تجد الطفلة الضائعة وتُخرج بذلك دونيا لورا من المطهر. سألها فيكتور كيف لها أن تعرف الموعد الدَّقيق لموتها، فردَّت عليه بكلّ بساطة إنَّه يوم مؤشَّر عليه بدائرة حمراء في التقويم المعلَّق في المطبخ. كانت مستقرَّة في بيت أوفيليا، في حالة بطالة لأوَّل مرَّة في حياتها، تعد العدَّة لجنازتها.

t.me/qurssan

بريد يوم جمعة من شهر ديسمبر/كانون الأوّل حمل إلى هنا معلومات عن تبرُّعاتٍ تلقَّاها الأب بيثنتي أوربينا عام 1942. الاسم الوحيد الذي استرعى اهتمامه آتٍ من المدعوَّيْن والتر وهيلغا شنايدر، مالكا مصنع أثاث، وهو مصنع، بحسب تحريَّاته، ازدهر كثيرًا وصار له فروع في عدد من مدن الجنوب، يديرها أبناء الزوجيْن وأزواج بناتهما وكانت العائلة، مثلما قال أوربينا، ثريَّة جدًّا. لقد حان الوقت للسفر مجدَّدًا إلى تشيلي، ومواجهة أوفيليا.

وجد فيليبه أخته تمزج ألوانًا في مرسمها، وهو عنبر فسيح وبارد جدًّا، يعبق برائحة التربنتين وموشًى بشِباك العناكب، وكانت أكثر بدانة ومهلهة الملابس، مع شعر أبيض ووسخ وحزام لتقويم العظام بسبب آلام الظهر. كانت خوانا تجلس في الرُّكن مرتدية معطفًا وقفازيْن وطاقيَّة صوفيَّة، تبدو مثلما هي على الدوام. فقال لها فيليبه على سبيل التحية وهو يقبِّل جبينها: «لا يبدو عليكِ أنَّك ستموتين، يا خوانا». كان قد هيَّأ أشدّ الكلمات رحمة كي يخبر أخته بأنَّ لها ابنة، إلَّا أنَّه لم يكن ثمَّة مبرِّر للفّ الدّوران، لأنَّها تصرَّفت بردّ فعل ليس فيه سوى قليل من الفضول الغامض، كما لو أنَّ الأمر يتعلَّق بنمائم لا علاقة لها بها. «أظنّ أنَّكِ ترغبين في التَّعرُّف عليها»، قال فيليبه. فأوضحت له أنَّ عليه أن ينتظر قليلًا، لأنَّها متورِّطة في مشروع لوحة جداريَّة. فتدخَّلت خوانا قائلة إنَّها هي أيضًا سوف تذهب في هذه الحالة، لأنَّه لا بدَّ لها من أن تراها بعينيْها كي تتمكَّن من الموت بسلام. وهكذا، ذهب الثلاثة معًا.

رأت خوانا نانكوتشيو إنغريد مرَّة واحدة فقط. ومطمئنة لهذه الزيارة الوحيدة، تواصلت مع دونيا لورا، مثلما تفعل كلّ ليلة ما بين صلاتيْن، كي توضّح لها أنَّه قد تمَّ العثور على حفيدتها، وأنَّ التَّكفير عن خطيئتها

t.me/qurssan

قد تمّ، وصار بإمكانها البدء بإجراءات انتقالها إلى الفردوس. أمّا هي، فقد بقي لها أربعة وعشرون يومًا في الرزنامة. استلقت في فراشها، محاطة بتماثيل قدّيسيها وصور أحبائها، جميعهم من أسرة دل سولار، وتهيّأت للموت جوعًا. لم تَعُد لتناول أيّ طعام أو شراب، كانت تتقبّل فقط قليلًا من الثلج من أجل ترطيب فمها الناشف. وقد مضت بلا قلق ولا ألم بعد بضعة أيّام أكثر ممّا كانت تتوقّعه. «كانت مستعجلة»، قال فيليبه المغموم والميتَّم. أزاح جانبًا التابوت الذي من خشب صنوبر عاديّ، كانت خوانا قد اشترته وتحتفظ به منتصبًا في أحد أركان الحُجرة، وأقام لها جنازة مع قدّاس مُغنّى، وتابوت من خشب الجوز مع مسامير تبشيم برونزيّة، ودفنها في مدفن آل دل سولار، إلى جانب أبويْه.

في اليوم الثالث، هدأت العاصفة، وطلعت الشمس متحدّيَة الشتاء، وأشجار الحور التي تنتصب كحرّاس يحمون عقار فيكتور دالماو، طلع عليها الصباح وقد غُسلتْ لتوّها. كان الثلج يغطّي سلسلة الجبال، ويعكس اللّون البنفسجيّ للسّماء الصافية. وتمكّن الكلبان الكبيران من إزاحة خدر الحبس عنهما، والتشمُّم في الحديقة المبلّلة والتمرُّغ على هواهما في الوحل، ولكنّ الصغير منهما، وهو في عدد السنوات الكلبيّة عجوز مثل سيّده، ظلّ مستلقيًا إلى جانب مدفأة الحطب. كانت إنغريد شناكي قد أمضت تلك الأيّام مع فيكتور، ليس بسبب العاصفة، فهي معتادة على غزارة أمطار في مقاطعتها الجنوبيّة، وإنّما لتضيف وقتًا إلى هذا اللّقاء الأوّل الذي كانا يتعارفان فيه. لقد خطّطتْ للقاء بدقّة طوال شهور، وواجهت زوجها وأبناءها بحزم كيلا يرافقوها. «هذا أمر يجب أن أقوم به وحدي، أنت تتفهّم، أليس كذلك؟ لقد تكلّفت ما يكفي من المشقّة، لأنّها المرّة الأولى التي أسافر فيها وحدي، ولم أكن أعرف

t.me/qurssan

كيف ستستقبلني حضرتك»، قالت لفيكتور. وخلافًا لما حدث لها مع أمّها، حيث لم تستطع أن تتجاوز معها مسافة تزيد على خمسين عامًا من الغياب، تحوّلت هي وفيكتور بكلّ سهولة إلى صديقيْن، مع إدراك أنه لن يستطيع بأيّ حال أن يتنافس في حبّه لها مع والتر شناكي، أبيها المعبود بالتبنّي، والأب الوحيد الذي تعترف به. «إنّه عجوز جدًّا، يا فيكتور، ولسوف يموت وأخسره في أيّ لحظة».

إنغريد وفيكتور اكتشفا أنَّ كليْهما يعزف الجيتار بدافع الحاجة إلى مواساة، وأنّهما يشجّعان فريق كرة القدم نفسه، ويقرآن روايات الجاسوسيّة، وأنّهما قادران على أن يلقيا من الذاكرة عدّة أبيات من أشعار نيرودا، هي من أشعار الحبّ وهو من أشعار الدم. ولم تكن هذه هي الأشياء الوحيدة المشتركة بينهما: كانا يشتركان كذلك في الميل إلى الكآبة التي يوقفها هو عند حدّها بانغماسه في العمل، بينما توقفها هي بمضادّات الاكتئاب وباللّجوء إلى أمان الأسرة غير القابل للتبدُّل. تأسّف فيكتور لكون هذا الملمح وراثيًا، بينما لم ترث ابنته بالمقابل روح الفنانة ولون العينيْن الأزرق السماويّ عن أوفيليا. «عندما أكتئب، تكون المحبّة هي ما يساعدني»، قالت له إنغريد، ثمّ أضافت أنّها لم تفتقد المحبّة أبدًا، فهي المفضّلة لدى أبويْها، والمحبوبة من إخوتها الأصغر سنًّا، كما أنّها متزوّجة من مارد بلون العسل قادر على حملها بذراع واحدة، ومنحها الحبّ الهادئ كحبّ كلب ضخم. وأخبرها فيكتور بدوره أنّ حبّ روزر أيضًا قد ساعده على حماية نفسه من ذلك الحزن الخفيّ الذي كان يطارده مثل عدو، وينقضّ عليه أحيانًا بهجمة ذكريات سيّئة. لولا وجود روزر لكان قد ضاع، ولكانت قد انطفأت ناره الداخليّة، ولم يبق مكانها سوى رماد حزن يجرجره منذ نحو ثلاث سنوات. فوجئ

t.me/qurssan

باعترافه الذاتيّ، وتقديمه بصوت كسير، لأنّه لم يتطرّق قطّ إلى تلك الثغرة الباردة في صدره، ولا حتّى أمام مارسيل. أحسّ كما لو أنّ الرّوح نفسها آخذة بالتقلّص، وأنّه يستقرّ في نزوات عجوز، في صمت منجميّ، في وحدته كأرمل. كان قد بدأ التّخلّي عن أصدقائه القليلين، ولم يَعُد يبحث عن رفاق من أجل لعب الشطرنج، أو من أجل عزف الجيتار؛ وكان قد وضع حدًّا كذلك لحفلات الشّواء القديمة في أيّام الآحاد. ولكنّه ما زال يواصل العمل، وهو ما يجبره على التواصل مع مرضاه ومع تلاميذه، لكنّه يفعل ذلك عن بُعد لا يُمكن تجاوزه، كما لو أنّه يراه على شاشة. خلال السنوات التي أمضاها في فنزويلا كان يظنّ أنّه قد تجاوز نهائيًّا الجدّيّة الصارمة التي كانت جزءًا جوهريًّا من طبعه منذ الشباب، كما لو أنّه في حالة حِداد على معاناة العالم وعنفه وخبثه. كانت السّعادة تبدو له بذاءة وقحة حيال كلّ تلك النكبات. ففي فنزويلا، تلك البلاد الخضراء والدافئة، وبينما كان مغرمًا بروزر، تغلّب على غواية الالتحاف بالحزن، لأنّه لم يكن دثار وقار بل ازدراءً للحياة، مثلما كانت هي تكرّر القول له. ولكنّ الجدّيّة عادت إليه بحَنَق: إنّه يجفّ في غياب روزر. لم يَعُد هنالك ما يهزّ مشاعره سوى مارسيل وحيواناته الأليفة.

ـ الحزن... عدوّي، إنّه آخذ بكسب المواقع، يا إنغريد. وعلى هذا الإيقاع، خلال ما تبقى لي من سنوات سينتهي بي الأمر بالتّحوّل إلى ناسك.

ـ سيكون هذا أشبه بالموت في الحياة، يا فيكتور. تصرّف مثلي. لا تنتظر مجيء هذا العدوّ كي تدافع عن نفسك، بل اخرج لملاقاته. لقد احتجتُ لسنوات كي أتعلّم هذا النوع من العلاج.

t.me/qurssan

ـ وأيّ أسباب للتعاسة لديْك أنتِ، يا صغيرتي؟

ـ إنّه السؤال نفسه الذي يسألني إيّاه زوجي. لست أدري، يا فيكتور، أتوقّع أنّه لا توجد أسباب، إنّها مسألة طباع.

فردَّ عليها:

ـ من الصُعب جدًّا تبديل الطباع. أمّا أنا، فقد صار الوقت متأخّرًا، لم يبقَ لي من مخرج سوى تقبُّل ما أنا عليه. لقد بلغتُ الثمانين، أكملتها يوم وصولكِ. هذه هي سنُّ الذاكرة، يا إنغريد. إنّها السنّ التي يقوم أحدنا فيها بإجراء مراجعة لحياته.

ـ اعذُرني إذا ما بدوت لك دخيلة وحشريّة، ولكنْ أيمكنك أن تُخبرني بما وجدته في مراجعتك لحياتك؟

ـ لقد كانت حياتي مجموعة من الإبحارات، تنقّلتُ من مكان إلى آخر في هذه الأرض. كنتُ أجنبيًّا من دون أن أدري أنَّ لي جذورًا عميقة... وكذلك أبحرتْ روحي. ولكنْ يبدو لي غير مجدٍ القيام بمثل هذه التأمُّلات الآن: كان عليَّ القيام بها قبل وقتٍ طويل.

ـ لا أظنّ أنَّ أحدًا يُجري تأمُّلات حول حياته في شبابه، يا فيكتور، ومعظم الناس لا يفعلون ذلك في أيّ وقت. فأبواي، وقد تجاوزا التسعين عامًا، لا يخطر لهما إجراء هكذا تأمُّلات. إنّهما يعيشان وحسب، يومًا فيومًا.. وبسعادة.

ـ من المؤسف أنَّ هذا النوع من المراجعات يجري في الشيخوخة، يا إنغريد، عندما لا يكون هنالك وقت لتقويم الأمور وتصويبها.

ـ من غير الممكن تغيير الماضي، ولكنْ ربّما يكون بالإمكان المضيّ في استبعاد أسوأ الذكريات...

t.me/qurssan

ـ انظري، يا إنغريد، أهمّ الأحداث، تلك التي تحدّد المصير، تتفلّت تمامًا من تحكّمنا بها في معظم الأحيان. وفي حالتي، عندما أُجري حساباتي، أرى أنّ حياتي موسومة بالحرب الأهليّة في شبابي، وبعد ذلك بالانقلاب العسكريّ، وبمعسكرات الاعتقال والمنفى. لم أختر شيئًا من هذا كلّه، لقد أصابني وحلّ بي بكلّ بساطة.

ـ ولكنْ، لا بدّ أنّ هناك أشياء أخرى اخترتها أنت. كالطبّ مثلًا.

ـ صحيح، وهذا ما منحني الكثير من الرضا والسّعادة. أوَ تدرين ما الذي أشعر نحوه بالامتنان؟ إنّه الحبّ. لقد أثّر بي أكثر من أيّ شيء آخر. فقد حالفني حظّ جنونيّ مع روزر. ستظلّ هي حبّ حياتي إلى الأبد. منها صار لديّ مارسيل. لقد كانت الأبوّة جوهريّة أيضًا بالنّسبة إليّ، سمحتْ لي بالحفاظ على الإيمان بأفضل ما في الشرط البشريّ، فمن دون مارسيل كنت سأتحوّل هباءً. لقد رأيت الكثير من القسوة، يا إنغريد، أعرف ما الذي نستطيع الإقدام على اقترافه نحن معشر البشر. لقد أحببتُ أمّك كثيرًا أيضًا، على الرّغم من أنّ ذلك الحبّ لم يدم طويلًا.

ـ لماذا؟ ما الذي حدث بالضبط؟

ـ كانت أزمنة أخرى. لقد تغيّرت تشيلي، وتغيّر العالم كثيرًا خلال نصف القرن هذا. كانت تفصل بين أوفيليا وبيني هوّة اجتماعيّة واقتصاديّة كبيرة!

ـ إذا كنتما متحابّيْن جدًّا، فالواجب يفرض عليكما أن تجازفا...

ـ لقد اقترحتْ عليّ في إحدى اللّحظات أن نهرب إلى أحد البلدان الدّافئة، وأن نعيش حبّنا تحت أشجار نخيل. تصوّري! كانت أوفيليا آنذاك عاطفيّة وذات روح مغامرة، ولكنني كنت متزوجًا من روزر، لم يكن

t.me/qurssan

بإمكاني أن أقدِّم لها أيّ شيء، وكنت أعرف أنها إذا ما هربت معي فسوف تندم بعد أقلّ من أسبوع. أكان جُبنًا مني؟ لقد سألتُ نفسي هذا السؤال مرّات كثيرة. أظنّ أنّه كان نقصًا في الحساسيّة: لم أقدِّر عواقب العلاقة مع أوفيليا، لقد سبّبتُ لها الكثير من الضرر من دون أن أنوي ذلك. لم أعرف قطّ أنّها كانت حبلى، وهي نفسها لم تعلم قطّ أنّها قد أنجبت ابنة، وأنّ ابنتها حيّة. لو أنّنا عرفنا ذلك كلّه، لكانت القصّة قد اختلفت تمامًا. ولكنّنا لن نحصل على شيء من تقليب الماضي، يا إنغريد. وعلى كلّ حال، أنت ابنة الحبّ، ولا يخامرنّك الشكّ أبدًا في هذا.

- ثمانون عامًا هي سنّ مُحكَمَةٌ بدقّة، يا فيكتور. لقد أدّيت واجبك على أكمل وجه، ويمكنك الآن أن تفعل ما تشاء.

- مثل ماذا، يا صغيرتي؟ ابتسم فيكتور.

- الخروج في مغامرة مثلًا. أنا أرغب في القيام برحلة سفاري في أفريقيا. منذ سنوات وأنا أحلم بذلك. وفي أحد الأيّام، عندما أتمكّن من إقناع زوجي، سوف نذهب. ويمكن لك أنت أن تحبّ من جديد. لن تخسر شيئًا، وسيكون الأمر مسلّيًا، أليس كذلك؟

بدا لفيكتور كما لو أنّه يسمع روزر في لحظاتهما الأخيرة، عندما كانت تُذكّره بأنّنا نحن البشر مخلوقات اجتماعيّة، لسنا مبرمجين للوحدة، وإنّما لنعطي ونأخذ. ولهذا، كانت تلحّ عليه ألا يقنع بالترمُّل، بل إنّها اختارت له عروسًا. وفكّر بعذوبة مفاجئة بميتشه، الجارة ذات القلب المنفتح التي أهدته القطّة، والتي تأتيه بالطماطم وبالأعشاب من حقلها الصغير، المرأة الضئيلة التي تنحت حوريّات بدينات. فقرّر أنّه فور مغادرة ابنته، سوف يحمل إلى ميتشه ما تبقّى من الرزّ الأسود مع الحبّار والكريما الكتلانيّة. وفكّر: إبحارات جديدة. وهكذا حتّى النهاية.

t.me/qurssan

شكر

أوّل مرّة سمعتُ فيها حديثًا عن وينيبيغ، سفينة الأمل، كانت في طفولتي، في بيت جدّي. وبعد وقت طويل من ذلك، عدت لسماع هذا الاسم يُذكر في محادثة مع فيكتور بيي في فنزويلا، حيث كنّا كلانا منفيّين. في ذلك الحين، لم أكن كاتبة ولم أكن أتخيّل أنّني قد أكون كاتبة كذلك، لكنّ قصّة هذه السّفينة وحمولتها من اللّاجئين ظلّت ثابتة في ذاكرتي. والآن للتوّ، بعد مرور أربعين عامًا، تمكّنت من روايتها.

هذه رواية، لكنّ الأحداث والشّخصيّات التاريخيّة حقيقيّة. شخوص الرواية متخيّلون، وقد استوحيتهم من أناس عرفتهم. كان عليّ أن أتخيّل قليلًا جدًّا، لأنّني عندما قمت بالبحث المستفيض، وهو ما أفعله دومًا في كلّ كتاب، وجدت نفسي أمام فائض من المعلومات. هذا الكتاب كتب نفسه بنفسه، كما لو أنّه قد أُملي عليّ. ولهذا أقدّم الشّكر من أعماق قلبي إلى:

فيكتور بيي، الذي مات عن 103 سنوات، وقد حافظت معه على مراسلات مكثّفة من أجل تدقيق التفاصيل، وإلى أرتورو خيرون، صديقي في المنفى.

t.me/qurssan

بابلو نيرودا الذي حمل اللّاجئين الإسبان إلى تشيلي، ولأشعاره التي رافقتني على الدوام.

ابني نيكولاس فرياس الذي قام بأوّل قراءة متشوّقة للكتاب، وإلى أخي خوان أُلليندي الذي صحّح المخطوط صفحة صفحة، عدّة مرّات، وساعدني في البحث حول المرحلة التاريخيّة التي تناولتها هذه القصّة، منذ العام 1936 حتّى 1994.

ناشريَّ: جوهان كاستيللو ونوري اتيي.

مُدقّقتي الوفيّة، سارا هيليشيين.

وكلائي، لويس مايكل بالوماريس، غلوريا غوتيريث وماريبيل لوكي.

ألفونسو بولادو، الذي يراجع باهتمام شديد مخطوطاتي بدافع المحبّة المحضة، لأنّه متقاعد، وهو يجبرني على بذل المزيد من الجهد.

خورخي مانثانيّا، القارئ المتصلّب (وبحسب تعبيره: المتأنّق) الذي لا يصحّح الأخطاء المطبعيّة، إذ بعد أربعين عامًا من الحياة بالإنكليزيّة، صرتُ أرتكب أخطاء نحويّة، ومن أنواع أخرى.

آدم هوتشسيلد، لكتابه الاستثنائيّ «إسبانيا في قلبنا»، وخمسين مؤلّفًا آخرين أفادتني كتبهم في عمليّة البحث التاريخيّة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

في سنة 1939, جهز بابلو نيرودا لرحلة السفينة وينيبيغ , وهي السفينة الأسطورية التي أبحرت من فرنسا إلى تشيلي حاملة على متنها ألفي لاجئ إسباني كانو قد فروا من نظام فرانكو القمعي.

واستنادا إلى هذا الحدث التاريخي الذي سيتذكره نيرودا باعتباره "أجمل قصائده" , تروي إيزابيل الليندي الحكاية الأخاذة لعازفة بيانو حبلي وطبيب أجبرا على مغادرة برشلونة المحاصرة آنذاك, ويحملان في الحصول على فرصة ثانية في المنفي

«إيزابيل ألليندي في ذروة قوّتها الروائيَة، تكلّمنا عن الأمل والانتماء والحبّ في المنافي الطويلة الأمد»...

The Independent

«لديها هنا كلّ ما يلزم: الأذن، والعين، والعقل، والقلب، وإنسانيّةٌ شاملةٌ لا تستثني أحدًا».

The New York Times

دار الآداب
بيروت - لبنان
هاتف:795135 -9611861633+

t.me/qurssan